رحلات داوتي

في الجزيرة العربية

ترجمة: عدنان حسن

رحلات تشارلز داوتي
في
الجزيرة العربية

لا يجوز نشر اي جزء من هذا الكتاب او اختزان مادّته بطريقة الاسترجاع او نقله على اي نحو أو بأي طريقة سواء كانت «الكترونية» أو «ميكانيكية» أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك. إلاّ بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً.

All rights reserved. Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writting of the publisher.

* الكتاب: رحلات تشارلز داوتي في الجزيرة العربية
* تأليف: تشارلز داوتي
* ترجمة: عدنان حسن
* مراجعة وتعليق: الشيخ ناصر عليوي
* الطبعة الاولى لشركة دار الورّاق للنشر المحدودة: 2009
* جميع الحقوق محفوظة لشركة دار الورّاق للنشر المحدودة
* تصميم الغلاف: جبران مصطفى
* صورة الغلاف: تشارلز داوتي
* الناشر: شركة دار الورّاق للنشر المحدودة.

First edition by Alwarrak Publishing Ltd. 2009
www.alwarrakbooks.com

كتابخانه
تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی
ثبت: ۳۳۰۴۳
خ ثبت:

التوزيع

الفرات للنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق سفلي أول
ص.ب 113-6435 بيروت ـ لبنان
هاتف: 00961-1-750054
فاكس: 00961-1-750053
e-mail: info@alfurat.com

Alwarrak Publishing Ltd.
26 Eastfields Road
London W3 0AD-UK
Tel: 00442087232775
Fax: 00442087232775
warraklondon@hotmail.com

العراق ـ بغداد ـ شارع المتنبي
تلفون: 009647702749792
009647801347076

رحلات تشارلز داوتي في الجزيرة العربية

تشارلز.م. داوتي

من كتاب «العربية الصحراوية»

اختارها: إدوارد غارنت

ترجمة: عدنان حسن

جمعدار
ركز تحقيقات كامپ
ش-اموال:

شبكة كتب الشيعة

العنوان الأصلي للكتاب:

CHARLES M.DOUGHTY

PASSAGES FROM ARABIA DESERTA

Selected by:

Edward Garnett

shiabooks.net
mktba.net < رابط بديل

الفهرس

تصدير الطبعة العربية 7
مقدمة الطبعة الإنجليزية 9
انطلاق قافلة الحجاج 13
معاقبة لص القوافل 23
جبل سعير : الخيالة البدو 25
العقبة: الدرويش المحتضر 30
المخاطر العربية : الساميون 34
حكايات سنوات الكوليرا 36
مدائن صالح: حامية القلعة 38
الدرويش الفقير 49
الموت عطشاً. هذا الإسماعيلي القاتل 51
الشيخ زيد: النُّصُب 53
عودة الحاج 63
الباشا. الرحيل مع زيد 66
الحياة البدوية 69
مرعى الربيع. المخيم. الخيام 74
أسرة زيد: هرفة 85
نصيب المرأة. الأبناء في مقابل البنات 89
القرية الجوالة. اجتماع القهوة. مطلق 97
عشاء الحليب البدوي. المهرات البدوية 106
(الصلبية) الجوالون 112
زيارة إلى تيماء 116

مسيرة إجبارية. صورة أبي زيد. الفَرَس الشاردة 120
أيام الصيف في القفر. المخلوقات البرية 130
أولاد الأعراب في اللعب. حفلات الختان 139
غارة الجمال 144
تل البركان. الحرة 148
العويري. ثوران فيزوفيوس في عام 1872 153
الفقير في تيماء. عيسى وزيد 158
الترحال مع بِشْر 161
الوصول إلى حائل: مقابلة الأمير 184
حمود ومحمد. اليوم العمومي. تراب الصحراء 196
المقابلة الثالثة. بيت ابن رشيد. سطوته 221
عنف مقدم القهوة 235
الرحيل عن حائل. رحلة خيبر 237
خيبر، عبد الله والنجومي 269
آبار خيبر. الانعتاق من خيبر. الرفاق 283
الرفاق الخائنون 294
الرحيل إلى بُريدة. الوصول. النصراني يُسلب. الأمير الأعرج يبدأ رحلة إلى عنيزة 301
النصراني، مهجوراً يجد صديق خبز وملحويدخل عنيزة 317
بعد لقاء زامل الأمير، النصراني يكسب صديقاً في عبد الله النخنيني 325
النصراني يُطرد من عنيزة 329
النصراني بعد نقله إلى الخَبْرا يستدعيه زامل إلى عنيزة ويقيم في مزرعة 336
حروب قحطان 337
قافلة إلى مكة 344
انطلاق قافلة السمن إلى مكة. الرحلةإلى عين الزيمة. الشريف البدوي، سالم . 347
الرحلة إلى الطائف. النصراني يُهاجم بعنف. الوصول إلى الطائف. حاشية
الشريف، أمير مكة. 371
فهرس الأعلام 397
فهرس الأماكن 403
فهرس القبائل 411

تشارلز داوتي

رحالة إنجليزي من صنف الرحالة العلماء، ولد عام 1843 ومات عام 1926 ودرس الجيولوجيا في جامعة كمبردج، وقام برحلة استكشافية إلى المناطق المتجمدة وهو في العشرين من عمره، ثم قرر الانصراف لخدمة لغته الانكليزية، ودرس اللغتين الدنمركية والهولندية. بدأ داوتي رحلاته بإسبانيا وإيطاليا ثم ذهب إلى اليونان فمصر حيث وصل القاهرة عام 1875م، ثم عبر صحراء سيناء حتى وصل مدينة البتراء حيث سمع عن مدائن صالح المدينة الأثرية في شمالي الحجاز التي لم ينجح كل من بوركهارت وبيرتون في الوصول إليها. وعزم داوتي على مشاهدتها وانضم إلى قافلة للحج تحت اسم مستعار (خليل). وصل إلى مدائن صالح في نوفمبر/تشرين الثاني 1876م، واستطاع أن يتجول في المنطقة مستنسخاً الكتابات والرسوم المنقوشة في واجهات المقابر. وبدلاً من العودة مع الحجاج إلى دمشق آثر داوتي حياة البداوة وعاش مع جماعة بدوية وتجول معهم، وخلالها مر بمدينة تيماء. ومع اشتداد الحر قرر داوتي العودة إلى مدائن صالح ومن هناك اتجه إلى الساحل ليركب البحر إلى مصر.

قام داوتي بجولة في منطقة الحرة لمدة أربعة أشهر ثم دخل مدينة حائل مارًا بجبل شمر، توجه بعدها إلى واحة خيبر التي كانت حينذاك تحت سيطرة الأتراك. وقد أمر حاكمها داوتي بالرجوع إلى حائل التي وصلها في أبريل 1878م. وكان تعصبه للنصرانية يوقعه في مشاكل كثيرة مع المسؤولين وعامة الناس، ولذلك أمر بالرحيل من حائل وتوجه إلى بريدة ثم عنيزة، حيث بقي

فيها ستة أسابيع. وفي الخامس من يوليو/تموز 1878م توجه مع قافلة للحجاج إلى الحجاز، ووصل الطائف ثم توجه إلى جدة في أغسطس/آب 1878م. وكتب كتابه الجزيرة العربية الصحراوية، رسم فيه صورة فريدة من نوعها عن الجزيرة كما كتب عن حياة البدو وما يقاسونه من معاناة وشدة، وعن كرمهم وعاداتهم، وأبرز كثيراً من المفارقات في حياتهم الاجتماعية. وكجيولوجي أدرك الرتابة الفائقة لصحراء التيه القاحلة، كما أنه يعد من أكثر الرحالة الذين عانوا من الذل والهوان ومشاق الحياة.

المعروف عن داوتي بأنه مسيحي متعصب لدينه وعنيد وقد انعكس ذلك التعصب على وصف المسلمين بشكل عام والبدو بشكل خاص بصفات وكلمات نابية .

لقد حرصت الدار على ترجمة هذا الكتاب نظراً لأهميته .

قد يجد قسمٌ من المسلمين أن لغة الكتاب قوية بدرجة تمس شعوره، لذا نكرر القول نحن غير مسؤولين عما ورد في النص من أسلوب ولغة غير مهذبة، بالرغم من ذلك أصررنا أن نحافظ على لغة المؤلف.

تشكر دار الوراق الأستاذ الشيخ ناصر عليوي على مراجعة النص العربي وكتابة بعض الهوامش والتعليقات .

الناشر

مقدمة الطبعة الإنجليزية

إن العوامل الثلاثة التي أبقت كتاب / **الصحراء العربية** على مدى جيل، كتاباً محجوباً عن عامة الإنكليز هي: طوله الكبير، وكلفته العالية، وأسلوبه الغريب، الذي كما يقول مؤلف سيرة داوتي، استغرق عملاً من (600000) ستة مائة ألف كلمة، وهو ما ثبط همّة حتى النخبة ذاتها. تغيّر الوضع في عام 1908 عندما جلب الاختصار الذي قام به المحرر الحالي للكتاب تحت عنوان **(تجوالات في الجزيرة العربية)** لداوتي، عاصفة من المديح الحماسي من المراجعين والنقّاد والقرّاء الذين لم يكونوا حتى ذاك الوقت قد سمعوا برائعته. لكن على مدى ثلاثة عشر عاماً كان العمل الكامل من المتعذر الحصول عليه، إلى أن قام السيد (كيب) بإلهام من الكولونيل لورنس، بإعادة طباعته كاملاً. فكتاب (**الصحراء العربية**) تعترف به «النخبة» الآن بوصفه أعظم كتب الرحلات الإنكليزية.

ولقد تطلّب الأمر إنجاز تسع طبعات معادة منذ 1921، وتمّ تخفيض السعر من تسعة جنيهات إلى ثلاثين شلناً. لكن بما أن كتاباً من أكثر من 1150 صفحة مكثّفة (الحرف صغير والأسطر متقاربة) من الطبيعي أن يخيف ويقهر جَلَد الإنسان العادي، فقد طلب مني الناشر أن أعدّ اختصاراً ثانياً أقصر، وحدّد لهذه المهمة 130000 كلمة. فقط ربع المجموع! من المستحيل الإحاطة بمثل هذه الحدود الضئيلة باختصار وافٍ لتجوالات داوتي المغامرة على مدى عشرين شهراً في طول الجزيرة العربية الشمالية وعرضها، أو تضمين حتى عُشر مخزونه الشامل من الملاحظات على أرض الجزيرة العربية وحياتها

وخصيصتها. لذلك فقد كنت مجبراً على التحول إلى مشروعي الأصلي، الذي أهملته في عام 1906، المكوّن من مجلد من مقاطع مختارة. لكن لجعل هذه المقاطع مفهومة، من الضروري إيجاد خيط رابط للسردية، نظراً لأن كلاً من المشهد المتغير والأحداث والأشخاص الذين صادفهم داوتي يربكنا إذا لم يكن يوجد شيء يوضّح مكانتهم في القصة. إن بعض التسلسل لحلقات الربط لا غنى عنه. فاختيار مقاطع وربطها ببعضها، مع ذلك، يعني أن الفصول والأحداث الأقل إثارة للاهتمام يجب حذفها من القصة؛ هكذا لما كان ربع الكتاب الكامل يمكن تقديمه هنا، فإن السردية غالباً ما تقفز فوق أسابيع كاملة أو فصول كاملة في تجوالات داوتي، ومن ثم تتصل بمرحلة أخرى من سرديته. فالضرورات تبيح المحظورات. إن حجتي في اختيار هذه المقاطع هو أنه مقابل كل قارئ قديم يعرف كتاب (الصحراء العربية) سيكون هناك خمسة قراء جدد، بعد وقت قصير، ستكون «المقاطع» بالنسبة لهم تجربة عظيمة تثير ليس فقط الدهشة والإعجاب، بل تقدم لهم أسلوباً مكتملاً بغناه الإبداعي.

لأن الأسلوب هو الكتاب، قد يبدو نفور داوتي من الإنكليزية الحديثة غريباً، فقد كان مشروعه الثابت المبكر لكتابة ملحمة وطنية حول «بدايات الأمة، لمواصلة التراث الأقدم لتشوسر وسبنسر، مقاوماً انحطاط اللغة الإنكليزية بما أوتيت من قوة»، هو ما قاده إلى خارج البلاد، أولاً ليدرس فقه اللغة في هولندا ثم يسافر عبر أوروبا وسوريا وفلسطين وأخيراً ليدخل الجزيرة العربية. إن فن الشعر Ars Poetica هو الذي انشددت إليه كاملاً، وكرّست حياتي له منذ تركت كامبردج. إن أسفاري وتجوالاتي وإقاماتي في بلدان أخرى لم تكن سوى أحداث في تلك الأمكنة[1]. ولقد كان الأسلوب الإبداعي الرائع لكتاب (الصحراء العربية) هو الذي جلب عليه كل هزات الرؤوس، ورموش العيون المرفوعة، والاحتجاجات وشفقة عمداء كليات كامبردج، وعدد كبير من المراجعين ومختلف الأضواء الأدبية، إن لم نذكر دور النشر البارزة التي

(1) رسالة إلى إ. غارنت، الخامس عشر من شباط (فبراير) 1922.

رفضت حتى أن تفكر بنشر الكتاب ما لم تُعاد كتابته كاملاً بالأسلوب الحديث من قبل رجل أدب ما!!

قال له هؤلاء الأساتذة البارزون، وهؤلاء الكتاب والمرشدون الأدبيون للعامة: «ما أعذب مادة عملك، وكم هو مستحيل الأسلوب!». لكن الأسلوب هو العمل. هذا هو التحذير الموجّه إلى ذوي التفكير الأسقفي، إلى أولئك الذين يخطئون الاملاءات العابرة للموضة في الأدب والفن فيحسبونها وصايا مفروضة من فوق، ويلعنون ويعترضون العبقري الأصلي عندما يخترق السياج الأكاديمي. وما لم يهتف الجيل الأصغر سناً اليوم «تباً لأولئك الفكتوريين كم نحن متفوقون عليهم في التبصّر»، دعوني أذكرهم أنه فيما يتعلق بالفخامة لا توجد قصيدة باللغة الإنكليزية تعادل قصيدة Adam Cast Forth (1905) لداوتي وأن ملحمته الكبيرة «الفجر في بريطانيا» تشبه سلسلة جبلية هائلة في قوتها الجامحة الصارمة، وتحتوي على فصول وأوصاف كثيرة للجمال الأكثر رقة، قد تجاهلها كلياً «مثقفونا» الشباب مثلما تجاهل أهل جيله كتاب (العربية الصحراوية).

إدوارد غارنت
آذار (مارس) 1931

انطلاق قافلة الحجاج

ناداني صوت جديد لصديق قديم عندما خطوت مرة أخرى، وقد عُدت لأول مرة من شبه الجزيرة العربية، في ذاك الشارع الطويل من دمشق الذي يطلق عليه اسم «الصالحية»، وفجأة أخذني وأنا متعجب من يدي، قال لي: «أخبرني، بما أنك هنا مرة أخرى بسلام وأمان الله، وبينما نحن نمشي كما في السنوات الخوالي، نحو البساتين المزهرة، المملوءة بربيع حلو كجنة الله، ما الذي دفعك، أو كيف استطعت أن تقوم بمثل تلك الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المتعصبة»؟

كان ذلك في الساعة الأخيرة، في اليوم نفسه، وبعد أيام مقلقة من المساعي عندما كنتُ قد اعتقدت بأن ذلك مستحيل. في البداية طلبت من الوالي، حاكم سوريا، إذنه بمرافقة قافلة الحجاج إلى منطقة (مدائن صالح) البعيدة. عندئذٍ سأل الوالي بشكل سري القنصلية البريطانية، وهي مكتب ذو احترام كبير في هذه البلدان، فأجاب القنصل، إن هذا الأمر ليس من مسؤوليته. كان يكُن لي تقديراً، لو اتخذت مثل هذه الطرق الخطيرة، بقدر ما يكن لقبعته العتيقة. كان هذا الرجل قد عرض علي، في الماضي، أن يسدي إليَّ معروفاً في أسفاري، وهو الذي أخبرني أن ليس من واجبه أن يأخذ علماً برحلتي العربية، ما لم يسمع أيّة كلمة لوم، إذا أخفقتُ. هكذا فُهم من قبل الضباط الأتراك، أن حياتي، وقد تخلّت عني قنصلياتهم لن يكونوا مسؤولين عنها في هذه المغامرة. ثمة قول طريف للسير هنري ووتن كاد من أجله أن يفقد السمعة لدى سيده: «السفيرُ رجلٌ يُرسَل ليكذب في الخارج من أجل بلده»

وإلى هذا القول يمكن أن نضيف: «القنصل رجل يُرسل ليمثل دور التركي في الخارج على أبناء بلده».

كانت صفة التركية غير الملائمة هذه بالنسبة لي، المصدر لكلِّ أذيّات هذه الرحلات تقريباً في شبه الجزيرة العربية. ويا للعجب، لا أحد يخشى حساباً، فقد كنتُ في مرات كثيرة على وشك أن أُقتل على نحو شنيع! في حين أن الكلمة المحسنة غير الرسمية في البداية، من القنصلية الفرنكية ربما أمّنتُ احترام موظفي الحج الكبار وحصلت على رسائل توصية منهم إلى أمراء الجزيرة العربية. وبسبب رفض القنصلية البريطانية، كنتُ خائفاً أن أُعادَ من حيث أتيت. لو أنني زرت آنذاك بعض شخصيات دمشق الكبيرة، مثل الأمير عبد القادر الجزائري؛ فإكراماً لكلمته فقط، وأنا واثق جيداً من أنه سيعطيها، للقيتُ ترحيباً في كل أبراج طرق الحج التي تحتلها الحاميات المغربية. وعندما كنت على وشك أن أفقد حياتي بينهم فيما بعد في (مدائن صالح)، ذهبت فقط إلى الباشا الكردي مسؤول الحج محمد سعيد، الذي كان قد عرفني قبل سنتين رحالةً في بلدان وراء نهر الأردن، وحسبني رجلاً مغروراً جداً لا يفعل شيئاً خفية. كان زمن كوليرا وكان المسيحيون قد فروا من المدينة. عندما زرتهم سابقاً في دمشق لأرفع الطلب نفسه كي أتمكن من النزول مع الحجاج إلى مدائن صالح. كان قد نصحني آنذاك بأن أجلب فرماناً من السلطان، وهو يقول: «الحجاج حشد مختلط»، ولو أن الأذى لا يصيبني البتة، ولكن بوسعي أن أنزل عنده، نظراً لأنني من رعايا حكومة أجنبية: أما الآن، قال: «حسناً! هل أنت بحاجة للذهاب إلى هناك؟» يمكن أن يكون ذلك مع (الجردي) ذاك هو قطار التموين الطائر الذي يُرسل منذ الأزمنة القديمة من سوريا لنجدة الحجاج العائدين في مدائن صالح، لكنه يقبع هناك عادة لمدة ثلاثة أيام فقط، وهو وقت لا يكفيني.

ظننت النجوم مرتبة هكذا بحيث إنني لن أذهب إلى الجزيرة العربية؛ لكنَّ أصدقائيَ المسلمين قالوا: «إن الباشا نفسه لا يستطيع منعك من القيام

بهذه الرحلة مع القافلة؛ فرغم أنك نصراني لكن هذا لا يمنع طالما أنك لن تنزل إلى الحرمين (المدينتين المقدستين) بل إلى (مدائن صالح) كيف! أنا شخص شريف ولا يجوز لي أن أذهب فيما ينزل كل عام مع الحجيج قاطعو الطرق اليائسين!! بل إن أخطر سفهاء دمشق كانوا قبلئذٍ في (مزيريب) يقتلون ويسلبون على أطراف القافلة المسافرة في القفار! كذلك قالوا: «لم تمض سوى سنوات على إرسال البنائين المسيحيين (لا يوجد مسلمون من هذه الحرفة بدمشق) مع الحجيج لترميم برج الماء أو الخزان في مدائن صالح نفسها».

في كل عام يحدث تحريك (تنشيط جديد لحركة هذه المدينة) جديد لهذه المدينة الشرقية الكبيرة في الأيام السابقة للحج؛ لذلك يمرّ غرباء كثيرون في البازارات، ذوو كلام وملبس غريبين من الأصقاع البعيدة. القسم الأكبر يأتي من آسيا الصغرى، الكثيرون منهم يعتمرون عمامات بيضاء كبيرة قد تزن أكثر من رؤوسهم، معظمهم أناس فقراء ذوو ملامح وقورة، يتجولون في الشوارع بحثاً عن أكشاك الخبازين. وقد رأيت كثيراً من الدمشقيين يردون عليهم بلغتهم الخاصة. تنشط المدينة مع انطلاق الحج العظيم، وتنشط مرة أخرى عند العودة إلى الوطن التي تُشكّل مشهداً عاماً، حيث ثمة حاج في القافلة من كل عائلة مسلمة تقريباً. في الأسواق يتم شراء الكثير من السلع على عجل من أجل الطريق. فصناع الخيام هم الأكثر انشغالاً في شارعهم، يعاينون ويجددون القماش القديم لمئات الخيام، والأغطية والستائر لأجل المحفات؛ ودباغو الجلود في البازار يبيعون بسرعة قُرب الماء والدلاء الجلدية وقوارير السرج، المطارة أو الزمزمية، جماعة النجارين يشتغلون بأقصى سرعة من أجل الحجيج، معظمهم يُصلحون هياكل المحفات. في حي الميدان البعيد عن المركز، ترخص الأسعار ويتم تسليم القمح، مؤنة الدواب خلال رحلة العودة، فإلى هناك يأتي المقومون يومياً عبر الشوارع، مع المحفات المتأرجحة المركبة على ظهور جِمال الحُجاج. إنهم سائقو قافلة الحج حيث البهائم تجرجر أقدامها الكبيرة صامتة. يواصلون بغطرسة طريقهم عبر البازارات الضيقة؛ إنهم على العموم شبان شرسون أفواههم مليئة بالشتائم الرهيبة: ومن يكون بغير هذا

المزاج، يظنونه غير ملائم لأجل الطريق. إن المقومين أو رؤساء قوافل الحج قد استدعوا دوابهم (كلها ذكور قوية) من البرية إلى ساحات الجِمال في دمشق، حيث يكون خدمهم مشغولين بحشو الوسائد تحت هياكل سروج الرزم، ويلفون أولاً فوق سنامات الجِمال، لباد البطانيات السميك من حلب، لكي لا تتقرح السنامات. ولا تُرفع العُدة حتى عودتهم بعد أربعة شهور، إذا تمكنت من العودة حية، من رحلة كبيرة كهذه. إن المقومين هم رجال الطريق القساة الأقوياء، الذين يُمكنهم امتلاك السيطرة على أفراد طواقمهم المتمردين غالباً؛ فقد كتب على وجوههم القاسية أنهم قاهرو الشر بالشر، وقادرون على التعامل في الطريق الصحراوي الطويل مع غدر البدو المؤذين. يقضي العرف في بلدان القوافل هذه أن كل الذين ينطلقون في رحلة يلتقون معاً في مكان مشترك خارج المدينة. إن مكان تجمع حشود الحجاج هو دائماً قرب بحيرة مزيريب في البوادي العالية وراء نهر الأردن، على مسافة يومين من دمشق. هناك حيث يخيم الحجيج الذين استولوا على الحقل مؤقتاً، إذ يمكثون أسبوعاً أو عشرة أيام في الصحراء قبل رحلتهم الطويلة. إن باشا الحج الذي تنجز معاملاته بسرعة مع الحكومة في دمشق، يصل في اليوم الثالث قبل انطلاقهم لتسديد كل الدفعات الأولى إلى البدو والاتفاق مع حاملي الماء (الذين هم بدو) من أجل الخدمة العسكرية. كانت طرق دمشق المفتوحة على تلك الجهة، المثقلة حديثاً بالمرور اليومي لمئات المحفات، وهي خاوية صامتة، أمام أعيننا، وكل ذلك الرتل الغريب والمتنافر/ من الحجيج الشرقي / مرة أخرى؛ فالحج قد انطلق من بيننا. إن قطعة نقد صغيرة تُعدّ مكسباً كبيراً في هذه البلدان التي نكلت بها طويلاً حكومة إجرامية: أمل الحصول على الفضة وفر لي على الفور خمسة أو ستة أشخاص أكثر فقراً، يقسمون جميعاً بالله أيماناً غلاظاً بأنهم سوف يضعون أختامهم على ورقة لنقلي بأمان إلى مدائن صالح، سواء كنت سأركب على أحصنة الحمل أو على البغال والحمير، والجمال العربية [وحيدة السنام]، على ظهر الجمل العاري أو في محفة، اتفقت مع فارسي وهو مقوم لأبناء قومه الذين يأتون كل عام من الشرق عن طريق بغداد وحلب

ودمشق «ليشاهدوا المدن»؛ وهناك يختلطون مع قافلة الحج العثمانية. هذا الرجل الغني البائس اقتنع جداً، مقابل ليرات قليلة في يده تساعده في تصفية حسابه مع السمان، بنقلي إلى مدائن صالح. كانت آخر لحظة، فقد رحل الباشا منذ يومين، وهذا الرجل يجب أن يلحق برحلات كبيرة. في الحال تمّ إلباسي ثياب سوري ذي ثروة بسيطة، ومُونت بمخزون من بسكوت القوافل لأركب معه؛ أما وقد اختلطتُ مع الفرس في رحلة الحج فينبغي ألا يلحظني الفرس أو العرب. كان خدم وطاقم هذا المقوم قبلئذٍ بثمانية أيام في مخيم مزيريب.

كان الوقت عصراً حين استعجلت عدداً قليلاً من الأصدقاء العرب بعون الله، اعتليت مع حقائبي الإبلية بغلاً جئت ممتطياً إياه عبر دمشق مع الفارسي محمد آغا ورفقة صغيرة. عندما انعطفنا من شارع المدينة الطويل، الذي كان يدعى أيام بولس باسم الصالحية لنصعد عبر الميدان إلى بوابة الله، كان بعض المتفرجين عند الزاوية، يثبتون أنظارهم عليّ، وكل واحد منهم يقول للآخر: «من هذا ؟» ايه! أجابه آخر نصف مازح، «إنه ينتمي إلى العجمي» «إنه مع العجمي» (الفارسي). من بوابة الله، هكذا يسميها الذاهبون إلى الحج المقدس في ذاك الزمان، كانت الصحراء النائية تمتد أمامنا تلك المئات من الفراسخ إلى الحرمين؛ في البداية هناك سهل مترامي الأطراف من الحصباء والطفال الرملي على الحجر الكلسي، لمدة عشرة أو اثني عشر يوماً، ودائم النهوض، إلى معان في «جبل آدوم» قرب البتراء. بعد مسير ستة وعشرين يوماً من مزيريب تقع المدينة، (المدينة المنورة، التي كانت تسمى يثرب)؛ على بعد أربعين يوماً تقع مكة، لا أحد كان في ذاك الوقت في كل الطريق، الذي سلكه آخر الحجاج قبلنا بخمسة أيام. عندما كانت الشمس تغرب، وصلنا إلى قرية قصمية الصغيرة النائية: إلى جانب الطريق رأيت قبة بيضاء، منامة أمير الحج في مساء القدوم المهيب من دمشق. سلكنا درباً مطروقاً عبر القفار، مُمهداً منذ القِدم عند تقاطع أسِرة غدران الشتاء من أجل العبور الآمن لجمال الحج التي ليس لها موطئ قدم في الأرض الزلقة. في مكان آخر تشاهد جسوراً متهدمة

نظراً إلى أن كل شيء متهدم الآن في الأمبرطورية العثمانية. ثمة كتلة منجرفة منثورة فوق هذه القفار؛ لا يوجد ما يشبهها ـ ما أثار الكثير من دهشتنا ـ في كل مناخات العالم (!!).

حصلنا على مأوى ليلي يرثى له في (قصمية) فاضطررنا للنوم خارجه، مع طقس ماطر، في حقل قذر، (غير صالح للاضطجاع طويلاً). هناك جاء معنا بعض الجوالين الفقراء الآخرين، المتأخرين والأخيرين، من معارف المقوم الفارسي؛ كرسوا أنفسهم بسعادة لهذه الرحلة المقدسة، وعندما بدأت الشمس تقفز وتبتسم بالدفء فوق الأرض، بدأوا مثل عصافير مستيقظة، يصدحون بالألحان الفارسية العصفورية الحلوة. كان ثمة درويش فتي أصفر الشعر يسير بمنتهى الرشاقة وهو أفضل مغنٍ بينهم جميعاً؛ كان يضحك بما تبقى من أنفاسه ويثرثر، حيّاني مبتهجاً بأفضل ما يقدر على التكلم بالعربية. كانوا يواسون أنفسهم عن طريق التبغ، ولا يوجد شيء في العالم بأسره، كما قالوا، أفضل من هذه الورقة (النبتة) الحلوة من بلادهم. هناك ظهرت سلسلة جبال حرمون العالية شاهقة أمامنا، تكسو قممها الثلوج الأولى وكما لو كانت سحابة بيضاء معلقة في السماء، لكن الخريف في السهل كان مع ذلك مشرقاً ودافئاً. على بعد عشرين ميلاً مررنا أمام سلمين، وهي مكان خرب قديم ذو أبراج وخرائب مسكونة كتلك التي تشاهد في حوران؛ موقع خرب آخر على بعد خمسة أميال، كان بعض رفاقي واسعي الخيال الغريب لأنني استفسرت عن الأسماء. ترجّلنا أولاً عند العصر قرب حوض من الماء العفن، حيث كان الحرس مؤلفاً من جنديين وحشيين، وعندما وصلنا إلى هناك عطشين جداً رفضت أن أشرب، فصاح أحدهما: «اوهو مين اللي هناك؟» بمحيا شرير «أظنه نصرانياً؛ هل ينبغي على هذا، أقول، أن يذهب مع الحجاج؟» على بعد تسعة أميال من هناك مررنا أمام قرية، مسكين: ونحن نمضي في طريقنا، تجاوزنا بائعاً جوالاً يسوق حماره المحمل بصناديق متأرجحة من عنب الخريف نصف العفن، ليبيع أوانيه الرخيصة للحجاج الفقراء بثمن غالٍ. في مزيريب: بينما كنت أشتري من عناقيده الباردة، كان هذا الشخص، المليء بتعابير

الطريق، قد لمحني فصاح: «هل أنت ذاهب إلى مكة؟ «ها! إنه ليس بالشخص الذي تذهب معه إلى الحج! وأنت الذي تأتي معه، ما هذا الحجي؟» جئنا سيراً على الأقدام إلى المخيم في مزيريب بعد الساعة الثامنة، في الليل المظلم؛ كانت المسيرة الاضطرارية ستَّ عشرة ساعة، مع ذلك كان علينا أن نسير، ونحن نصيح لأهل الآغا بأسمائهم لنجد خيامنا، لكن ليس كثيراً، لأنه بعد مئات السنوات من الحج كانت كل خدمات الحج منظمة جيداً. يعرف المقومون أماكنهم الخاصة، وهذه الأصوات رد عليها في الحال بعض الخدم الذين قادونا إلى مكان إقامتهم. كان الغد هو يوم الاستعداد، ففي اليوم التالي ينبغي أن نرحل. أشار علي الآغا ألا أذهب خارج مكان إقامتنا. سيطلق المدفع أبكر بيومين هذا العام من أجل انطلاق الحجاج، لأن الموسم متأخر. كان أمامنا عشر مسيرات عبر المرتفعات الشمالية، والأمطار الأولى قد تهطل علينا قبل أن نهبط إلى الجزيرة العربية: في هذه التربة المختلطة مع الطفال الرملي تنزلق الجمال المحملة، في الطقس الماطر، ولا يمكن أن تعبر بأمان. كان ثمة سكون عظيم في كل مخيمهم؛ كانت هذه هي الساعات الأخيرة من الاستراحة. وعندما هبط الليل جاء الخدم، من أتباع مخيم الشباب حملة المشاعل، الذين يحيون كل سرادق. وأخيراً كانوا في أماكن إقامة الفارسيين، نظراً لكونهم غرباء ويثيرون الشقاق بلا شك من أجل تفادي النزاعات. يُحدَّد مكانهم في مؤخرة كل القافلة الكبيرة وهم يرددون اللازمة المتكررة: «**بالسلامة، بالسلامة، الله يطول عمره، حي الهادي حي الهادي محمد آغا!**» اذهبوا بسلام، بخطا موفقة إننا نحفظ هذا التقليد، الله يعطيه العمر الطويل؛ والفارسي، الذي لا يجرؤ على خرق التقليد، «وجد بنسه بوجه حزين».

مع بزوغ الفجر الجديد لم نكن قد تحركنا بعد. في النهار تمّ تفكيك الخيام المنصوبة، سيقت الجمال جاهزة إلى مرافقيها، وتوقفت إلى جانب أحمالها، انتظرنا لنسمع طلقة المدفع التي ستفتتح حج هذا العام. كانت الساعة حوالي العاشرة عندما سمعنا طلقة الإشارة، ومن ثم بدون أي اضطراب رُفعت المحفات فجأة وشُدّت على الدواب الحاملة، وُضعت الأحمال على

الجمال الراكعة وامتطى آلاف الراكبين، المولودين كلهم في بلدان القوافل، بصمت. عندما كان كل شيء محمّلاً تُرك السائقون واقفين على أقدامهم، أو جالسين ليرتاحوا اللحظات الأخيرة على أعقابهم: إذ يتوجب عليهم مع الخدم الآخرين للمخيم أن يسافروا تلك الفراسخ الثلاثمئة على بواطن أقدامهم العارية، رغم أنهم ضعفاء؛ وعليهم أن يقيسوا الأرض مرة أخرى صعوداً بأقدامهم المرهقة من الأماكن المقدسة. عند المدفع الثاني، الذي يطلق بعد لحظات قليلة، تتقدم محفة الباشا وبعده يذهب رئيس طابور القافلة: على مدى خمس عشرة أو عشرين دقيقة، يجب علينا أن نتوقف، نحن الذين تكون أماكننا في المؤخرة، أي حتى ينفض الموكب الطويل من أمامنا؛ عندئذٍ نضرب جمالنا ويتحرك الحجيج العظيم. هناك تسير عادة ثلاثة أو أربعة جمال جنباً إلى جنب ونادراً ما تكون خمسة؛ يبلغ طول الحشد الكبير البطيء الخطا من الرجال والدواب حوالي ميلين، وعرضه حوالي مئة ياردة في السهول المفتوحة: كان عدد الحجاج هذا العام حسب تقديراتهم (التي قد تفوق الحقيقة) 6000 شخص، أكثر من نصف هؤلاء رجال خدمة مشاة؛ و10000 من كافة أنواع الماشية، معظمها من الجمال،ثم البغال، والأحصنة والحمير وعدداً قليلاً من الجمال العربية لعرب الجزيرة العربية العائدين بأمان المواكبة الكبيرة إلى ديارهم. نسير في برية خاوية، سهل من الحصباء، حيث لا شيء يلوح ولا درب أمامنا أبداً. إن حرمون، الذي صار الآن إلى الوراء، بأكتافه الجبارة من الثلوج يقترب من الأفق الشمالي: بالنسبة لبدو الشرق هو نقطة علّام نبيلة من سوريا، يسمونه **طويل الثلج** (الذي لهم به خبرة ضئيلة في أرض الجزيرة العربية التي لفحتها الشمس والعديمة الأمطار). كان يوم أحد، عندما بدأ هذا الحج، وطقس يوم عطلة، لم يكن النور اللازوردي الصيفي قد خبا كله من السماء السوريا، إنه الثالث عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1876؛ وبعد مسير اثني عشر ميلاً (وهي مسافة صغيرة تبدو طويلة في البداية) وصلنا إلى محطة الصحراء الثانية، حيث الخيام التي خلفناها وراءنا في مزيريب، تنتصب موزعة في صفوف بيضاء أمامنا في البرية المفتوحة. هكذا في كل يوم كان موكب

خدم الخيام الخفيفة يسبق مسيرنا الثقيل، نظراً لأن كل جماعة تكون قد نالت مكانها منذ الانتقال الأول، فكانوا يراعون ذلك بشكل مستمر إلى نهاية رحلتهم. عند الوصول نفترق راكبين. كل جماعة إلى أماكن إقامتها المناسبة هذا التخييم يسمى رمثة.

تقضي حكمة قافلتهم، أي في بداية طريق طويل، أن تكون الرحلة الأولى قصيرة، فالدواب تنوء بأحمالها والركاب قد شرعوا في ذلك بركوبهم في الميدان. من عدد قليل من العيدان (التي تجمع على عجل في الطريق) من شجيرات الصحراء، سرعان ما توقد نيران الطهي أمام كل الخيام؛ وبما أنه لا توجد هنا حجارة في المتناول لوضعها تحت القدور كما يفعل البدو، فإن موقد الحجاج يكون حفرة مجوفة بحيث يمكن لأوانيهم أن تقف، مع وضع المياسم تحتها، على حافتين وبقليل من الوقود يجهزون وجباتهم الجماعية البائسة. إن الخيام العسكرية الصغيرة لمواكبة الحجاج من الجنود والخيالة المسلحين، العجيل (معظمهم من رجال نجد)، تكون منصوبة وموّزعة حول مضرب القافلة الكبير، بمسافة ستين في ستين خطوة: في كل جماعة تسكن خيمة تبقى الحراسات حتى بزوغ الفجر. يعلق قنديل من الورق بعد غروب الشمس أمام كل واحدة ليشتعل طوال الليل، حيث يقف خفير يحمل مسكيتاً[1] وهم لا يدعون أحداً يعبر صفوفهم دون أن يوقفوه للتأكد من هويته. عظيم هو فزع البدو من كل أهل المدن كما لو أنهم عفاريت هذه الأرض اليباب الموحشة، فهم دائمو الاستعداد لمهاجمة مسافري الحج، ولا يوجد بدوي يجرؤ على مخالفة الأصول في الظلام مع هؤلاء الرماة الشرسين غالباً، الذين قد يردون عليه بالرصاص والذين يُسمعون في كل لحظة وهم يصرخون بالدور كراكون كراكون، خفير! وعليه يجيب الرجال التاليون فالتاليون بكلمة حاضرون. لم أر كل ضابط يقوم بالجولات. تكون النوبة الأولى مزدحمة للغاية، حين يكون المخيم مستيقظاً. فهذه الجداجد تبدأ بفقد أصواتها في حوالي منتصف الليل،

(1) المسكيت: بندقية قديمة الطراز خاصة بجند المشاة ويظهر أنّها «المسقوف». (المترجم).

عندما لا أدري إن استطعت أن أرى معظم أضوائهم مطفأة، ومن المرجح أن الرجال غير المأجورين يوفرون مخصصاتهم؛ فأولئك الجنود الفقراء يبيعون شموعهم سراً في سوق الحج.

في ساعة المساء الأولى يشيعُ بعض المرح من قرع الطبول وعزف الناي الرخيم والعذوبة الرعوية للفرس الذين يغنون في الخيام من حولنا؛ في خيام أخرى ينشدون معاً أغنية ما من عندهم. في كل أماكن إقامة الحجاج توجد قناديل ورقية ذات شموع مشتعلة؛ لكن المخيم يكون مضجراً وسرعان ما يدخل كله في حالة سكون. يستلقي الحجاج بثيابهم ساعات الليلة القليلة حتى إطلاق مدفع الغد، ثم ينهضون فجأة من أجل المسير، وهم غير عارفين متى يمكن أن يسمعوه باكراً لكن هذه بمثابة الاستراحة، بعد المشيئة الطيبة للباشا والطقس.

في الساعة الخامسة والنصف أُطلقت طلقة الإنذار من أجل الرحلة الثانية. كانت سماء الليل مظلمة وماطرة عندما تحركنا، وحملت نبراسات بأقفاص الحديد المنصوبة على الساريات لإنارة الطريق، على أكتاف رجال الخدمة، لدى كل الجماعات. كشف الفجر عن نفس المرتفع القاحل أمامنا، ذات الأرض الحصبائية والغضارية الضحلة فوق الحجر الكلسي.

معاقبة لص القوافل

حين كنتُ مضطجعاً في خيمة السفر الصغيرة، جفلتُ من صرخات وعويل آتٍ من سرادق الفرس في مخيم الإقامة الكبير للمقوم، الذي يمكن أن يتسع لمئة شخص، ففي الوسط يوجد مقعد خشبي مربع، يُحمل مفككاً إلى قطع، يمكن أن يجلس عليه ثلاثة أشخاص متربعين، ويضم بداخله كلَّ عدته ومحفتي جملين. بينما كنت داخلاً إلى هناك، كنت شاهداً على إعدام مؤسف. فقد أخذت بمرفق واحد من هذا الحشد من الوجوه الوقورة، لأعرف ماذا كان يحصل. همس قائلاً: «حرامي». أُخضع المتهم للتعذيب ـ لكن لو كان هذا التعيس بريئاً، بسبب صحته المحطمة، فما الذي يمكن للتأسف الإلهي أو البشري أن يقدم له تعويضاً!

رهيبة في هذا الصمت كانت أصوات لكمات الأيادي وأناته الاحتضارية. سألت مرة أخرى: «لماذا يُضرب هكذا؟» الجواب: «حتى يعترف أين خبأها، الملعون!» وإذا استمر في ضربه على هذا النحو فإنه سيموت! الجواب: «ما لم يعترف، لن يتركوا فيه روحاً». عندما مررت بينهم، سمعت أن أربعة رجال أقوياء كلت أذرعهم فوقه وكان الخامس في بداية عنفوانه. بنظرة جدية، كان يرفع في يديه عصا غليظة متينة ويهوي بها مع كل ضربة عليه بكل ما أوتي من قوة. هذا المجرم بُطح أرضاً، أوثقَ الرجال ساقيه، والبعض منهم جثا على كتفيه وصاروا يدعكونه بلا شفقة، إنه دودة تتلوى وليس إنساناً. بعد الصرخات الأولى التي صدرت عنه، . أصبح الآن يئنُّ على نحو مكتوم من شدة الألم. ظننت لوهلة لا بد أنه كان يُقطّع إرباً وهو

سيبقى إنساناً مكسّراً طوال حياته اللاحقة. لقد كان خطيراً بالنسبة لي أن استفز عيون هؤلاء الغرباء الكثيرين للغاية، لكن كما تستدعي الإنسانية، هتفت بهم، «أيها السادة، أنا حكيم، طبيب؛ هذا الرجل لا يمكن أن يتحمل أكثر من ذلك، كفوا عن ذلك أو أنه سيموت تحت معاملتكم» وهي كلمات، بالإضافة إلى نظراتهم المزدرية إلى المتكلم، لم تلق اعتباراً. بعد ذلك مباشرة رأيت البائس المنبطح يُرفع عن الأرض، فقد اعترف بغلطته؛ بعدئذٍ قام البعض منهم بحمله من تحت ذراعيه وكان كل الرجال يشتمونه، فمشى قدر استطاعته واقتادوه عن هذا الانبطاح لكي يضرب أمام وجه القاضي «نقرأ لدى موسى»..

كان هذا خادم قافلة عربية من بغداد، أشيب الشعر، خلع قفلاً وسرق المحفظة مع 40 جنيهاً من سيده الفارسي، إنه رجل أحمق، وأخفاه قرب خيمتهم في التراب.

إن سلطة الإعدام هذه هي بيد رؤساء أفواج الحجاج، وهم يقمعون أخطر الأشخاص في القافلة: الكثيرون من خدم الحجيج فارون من وجه العدالة ومن التجنيد العسكري الإلزامي. «خالي أفندي» (قال الفارسي عندما وجدني لوحدي) ما هذا التوسط في عقوبة الرجل؟ هل كنت ذاهباً إلى مدائن صالح أم لا ؟ إن هذا يمكن أن يُروى غداً في أذني الباشا؛ عندئذٍ سيعرفونك وسوف تُعاد. لا تظهر أكثر من ذلك على الملأ. لكنني كأوروبي، أدوس كل يوم على الحكمة الشرقية المسكينة، في المخيم سوف يبقيني في خيمتي الصغيرة منعزلاً. من الخطر في الحج أن تقيم لوحدك في الليل، فاستأجرت أحد السائقين، لكي يطهو عشائي وينصب خيمتي عندما نترجل ولينام بقربي في الليل.

جبل سعير: الخيالة البدو

هنا في 19 ـ 20 تشرين الثاني كانت خيامنا متيبسة بفعل صقيع الليل، فجبل سعير أو جبل الشراة أمامنا مرتفع وبارد لدرجة يعتبر معها لباس العرب الصيفي كالعري في فصل الشتاء. الأرض منبسطة للغاية، لا توجد صخرة أو شجرة أو شجيرة صالحة لصدّ الريح الثلجية، إذ يُحكى كشيء من ذاكرة متأخرة، أن جماعات من المسافرين سيراً على الأقدام مع ماشيتهم قد ماتوا جوعاً، وهم يَعبرون في هذا الاتجاه في أشهر الشتاء، لقد هلكوا جميعاً في ليلة باردة حيث وُجدَ الرجال مستلقين قرب حفر الرماد البارد، رماد مواقدهم المنطفئة. غير بعيد عن هذا الوادي، إلى الأمام، يبدأ ذاك الشاطىء الصواني، الذي يمتد منشوراً فوق جزء كبير من جبل عيسو؛ إنه جُرد حجري أسود بفعل عوامل الطقس؛ رأس من الحصباء، ذهبت الرياح والأمطار بتربته. هذه الواجهة الأرضية من الحصى تشع متبخرة في الشمس الصافية، فتصبح لامعةً مثل الحجارة، وحتى الجبال في سيناء بفعل العجاج أو الهبات الحاملة للغبار. إن سرير الحصباء الممتد والذي يبلغ عمقه ثلاث قامات غالباً، هو أعلى مرتفع من الأرض في كل ذاك الإقليم؛ فالحجارة الصوانية المنحوتة هي من الصخر الطباشيري المغسول الذي يقبع في الأسفل، الذي يكوّن عروقاً سيليكونية ضخمة على هيئة ألواح : نرى مثل هذه الحصباء منتشرة في المياه الضحلة، لكن بما أن هذه هي أعلى أرض، فمن أين ذاك الغسل من الماء؟ يبلغ ارتفاع اليابسة 4000 قدم فوق سطح البحر! العرب يسمون كل هذه المنطقة **الصوان**؛ ونفس الشيء الذي يسميه الجغرافيون القدماء باسم العربية الصخرية Arabia

Petraea. لكن، يا لها من أعجوبة، هذه الحصباء ليست قديمة قدم الإنسان؛ فقد وجدت فيها بعض الأدوات الصوانية المشغولة مثل التي وجدناها من بعض حصى الأنهار والبحيرات في الأرض الطفالية لأوروبا. بالانتقال من هذا الوادي مررنا بستّة إلى سبعة معالم قديمة على جانبي الطريق، بدون نقش. في نهاية الأميال الاثني عشر اجتزنا رأس مجرى عميق وجاف (أو سيل) يسميه الحجاج ضرف الدراويش، الذي يتجه مجراه ليس غرباً باتجاه البحر الميت، بل شرقاً في الصحراء ـ هكذا يقولون ـ كل هذه السيول الأرضية (أو الرفوف)، حيث تجري مياه (وابلات المطر) باتجاه الجول (براري) بغداد. في الضفاف الجوفاء، عندما مررت بها آخر مرة، كنت قد وجدت منزلاً ليلياً. مع التقدم في مسيرتنا نرى التراب تحت أقدامنا مكسواً بشكل غريب باللاقا المنثورة التي تكون حافتها معلّمة على الأرض الحصبائية كما لو كانت رواسب آتية من اتجاه الغرب، حيث نرى بعض الجبال البركانية السوداء. هنا، وحيث كان لا يزال أمامنا مزيداً من الأميال لنقطع الخمسين ميلاً فإن أرض عيسو هي أرض جرداء كبيرة من الحجارة الحصبائية. إننا في تخوم قبيلة الحويطات، الكبيرة، حدودها البحران، إنهم أشبه بالفلاحين الرحّل منهم بالبدو؛ كثيرون منهم يقتنون الحيوانات الداجنة، وكلُّهم ساكنو خيام ـ ما كنت لأتعجب إذا تبيّن أنهم نبطيون. ابن جازي هو شيخ دراوشة الحويطات، من جبل ادوم؛ ضمن دائرته تقع البتراء. في وقت باكر بعد الظهر مررنا ببرج حراسة مهدم، إن وجود علامة (وشم) صغيرة جداً على الأيدي البشرية مريح للعينين في هذه البلاد المقفرة. من هناك ولمسيرة ثلاث ساعات باتجاه الشرق على جهة الصحراء، توجد آثار مكان هام، هو برما أو بورما.

قبل غروب الشمس جئنا لنخيم على مسافة قصيرة من قلعات العنزي حيث لا يوجد سوى خزان لأجل مياه الأمطار، يحرسه شخصان ضخمان، ابنا حارسي البرج الدمشقيين، ومن والدتين شوبكتيين؛ لكنهم عموماً يسكنون في البيت في قريتهم. إن رفاقي الحجاج كان من الصعب عليهم أن يصدقوا أنني شربت بعد المطر في العام السابق من هذه البركة، فهم لم يجدوا ماءً أبداً

هناك. على بعد أميال من هناك، باتجاه الغرب، توجد آثار لمكان يسميه العرب جردانية، انزويت لأراه في سفرتي السابقة[1]. ونظراً لوجود ظل وملجأ، فهو غالباً ما يكون مكمناً للبدو المتبخترين في البرية. لذلك من بين الرجال المسلحين الذين ركبت معهم، لم يكن ثمة سوى واحد تبعني من أجل مكافأة. وجدت سور بلدة مربع الأضلاع يبلغ ارتفاعه حوالي ثلاثين قدماً وبناءً بسيطاً بدون زخرفة بمداميك من كتل الحمم البركانية المتجمدة غير المشذبة وقنطرة مدورة في الوسط وبركة صغيرة. توجد أبراج زوايا وأنصاف حاميات على جانب؛ حيث المساحة الكاملة ليست كبيرة: لم أر في الداخل سوى أكوام عالية من بناء البيت الحممي (الحجري) المتهدم، وقنطرة مدورة في المنتصف وبركة صغيرة. ماذا تعني هذه الأسوار الشامخة! أليس الموقع صغيراً جداً أكثر مما ينبغي من أجل مدينة؟ فلا التربة ملائمة جداً في الجوار من أجل الزراعة، فهي حصن أكثر من كونها بلدة، قد تكون في هذه الأصقاع، على طريق تجارية. هناك ينتصب جبل بركاني أسود يشكل نقطة علام تُرى من معان. لدى مرورنا من هنا، في رحلتي السابقة، شاهدنا فرساناً عرباً يقتربون منا، ولما كنا كثيري العدد بالنسبة لهم، فقد جاؤوا ليستجدوا بوقاحة حفنة من التبغ. هؤلاء الفرسان في مخيماتهم يكونون مضيفين لطيفين، أما لو وقعنا في أيديهم في الصحراء لوجدناهم شياطين ولجردونا من ثيابنا، وربما قطعوا رقاب بعضنا باستهتار وحشي. كانوا ثلاثة من البدو الطويلي الشعر رموا علينا السلام، ورابع عملاق ضخم أشعث الشعر من الصحراء سبقته خفة أفراسهم فكان يخبّ وراءها وقد جلس بشكل أخرق على الحارك الضيق النحيل لجمله العربي وحيد السنام، بدون سرج، بدون لجام، ويسوقها فقط مثلما يسوقها راعٍ بصوته وعصا الإبل. كان رفاقه حفاة الأقدام يعتلون خيولهم الجميلة بسيقان عارية حيث الرسن بيد والرمح الطويل المتوازن يتمايل على الكتف باليد الأخرى. وكنا سنظنهم راكبين باسطين أذرعهم من أجل التباهي أو أنهم يقومون بتمرين

---

(1) في صيف 1875 سافر داوتي عبر أدوم (إيدوم) إلى البتراء (المحرر).

حربي في حضور جماعتنا المسلحة، فكانوا يستعرضون أمامنا كيف يمكنهم على نحو جميل أن يركبوا بسرعة والتفاف: وهم يضربون أعقاب خيولهم ويجلسون منخفضين بأفخاذ مضغوطة. انصرفوا وهم يقومون بدورة أو اثنتين بسهولة فوق السهل؛ وعندئذٍ داروا دورة واسعة، ثم ذهبوا في الصحراء، كل رجل يحمل ويقبض على رمحه بحيث يتمكن عند نقطة ما من أن يطعن عدوه؛ هكذا وبينما كنا نحضّر بوصلة ونحن نسير، عاودوا المجيء بأناقة وهم يلهثون قليلاً. تحت أكثر هؤلاء الراكبين رثاثة كانت فرس كستنائية اللون صغيرة مثالية جداً وجميلة للغاية، لا يوجد سوى القليل منها. لم يمشطها صاحبها الفظ أبداً، لكنها كانت تشع جمالاً ولطفاً بحد ذاتها. (كانت تبدو روحاً عزيزة في تلك الأرض القاسية التي لا تستحق رسغيها الفاتنين، ظفيرة ذيلها تنساب نازلةً حتى الأرض وذلك العرف الذي رعته التنشئة الحنون لأمها).

[إن الناس القاطنين أرياف الجزيرة العربية هم دائماً كارهون للبدو الذين يحيطون بجزرهم الواحية، متوجسون من خطر الصحراء. أولئك الذين سافرتُ معهم هم قائد طريق الحج في معان وعشرون من جنوده. فلاحو المنطقة الأكثر تسلحاً جاؤوا بقطيع من الماعز لبيعها في نابلس (سيحم) ودفع ثمنها كضريبة للحكومة من تلك القرى غير الخاضعة لها (يمثل القطيع المساهمة العشرية التي جاءت من بعض القرى) غيدوم غير الموالية او الخاضعة للحكومة].

أطلق بعضهم طلقات في المؤخرة ازدراءً للبدو، الذين كانت أفراسهم، مع كل طلقة نار تنكمش وتثب تحتهم، بحيث كان الرجال بمقاعدهم المتخلخلة على وشك السقوط فوق رؤوس الخيل. «لا يا سادة» ردّوا «لا يا سادة! لماذا تجفلون أفراسنا ؟» كان البدو يطلّون هكذا من فوق أكتافهم، فكان الفلاحون يطلقون المزيد من الطلقات، آملين أن يروها توقعهم. جلس صاحب المهرة الجميلة قبلئذٍ على عنق مهرته، فيما الآخرون كانوا شبه منزاحين عن أماكنهم. لذلك فقد صاح الضابط بهم قائلاً: «كفوا يا شباب»! «انتهى الأمر يا

شباب» فصاحوا: «بنادقنا انفجرت، والله، كما لو أنها أطلقت من تلقاء ذاتها» ولم يكترثوا إلا قليلاً، كرجال نصف قانطين، فهم لم يروا فلساً من راتبهم منذ ستة عشر شهراً ليمتثلوا لكلمات آمرهم الوضيع. ساروا برقص محموم وهم يقرعون الدف: نقرة مضادة قافزة ثم قفزة راقصة إلى الأعلى قليلاً. فيما هم ينشدون بطريقة جامحة مع تموجات الجسد وهم يتبارون في الهواء بالسيف المسلول.

أولئك البدو سألوا عني بفظاظة: «ومن هذا؟» فجاء الرد: «نصراني» ـ عن هذا الاسم، الذي ينذر بفأل سيىء، لم يكن بوسع البدو أن يعرفوا سوى أشياء غامضة في بلادهم ـ ومرة أخرى بغطرسة في حناجرهم، «مثل هذا لا أراكم تجلبون بعد الآن إلى هنا!» عندما سمعت كلامهم هتفتُ «اقبضوا عليهم!» أدركوا أنه حان الوقت لأن يذهبوا، وبدون استئذان انصرفوا عنا وغابوا راكبين بسرعة تحت الأفق.

العقبة: الدرويش المحتضر

اقتربنا عند الظهر من طرف الهضبة الكلسية المرتفعة لجبل الشراة، أو مشارف الشام بحسب المؤلفين المحمديين (المسلمين) القدماء، «حافة سوريا أو الشمال». وفي الأسفل تبدأ الجزيرة العربية مباشرة، بلاد العرب ـ لكن هذه التمييزات غير معروفة للسكان البدو ـ.

كان طريق الحج المنحدر يقع في أرض جوفاء، كما لو كان رأساً من الرفوف الحادة من الصوان الصفيحي والحجر الكلسي. إننا على وشك أن ندخل في الحجارة الرملية التي يأتي منها معظم رمال الجزيرة العربية. هنا توجد قلعة مدمرة وخزان على يسارنا. نظراً لكون رتل القافلة وصل إلى رأس الممر الضيق فقد تخلفنا في المؤخرة ثلاثين دقيقة. يطلق رجال القوافل على مثل هذا المكان اسم عقبة، «طلعة»؛ وتسمى هذه العقبة السوريا أو الشمالية، الشامية. وجدتُ هنا أن الارتفاع يبلغ 4135 قدماً. على صخرة تضيّق لأول مرة طريقنا الهابط، وتحت مظلة بيضاء كان يجلس الباشا نفسه وكان كبار ضباطه معه: هنا في 24 تشرين الثاني واجهتنا أشعة الشمس المباركة مرة أخرى فالصيف لم ينته بعد في الجزيرة العربية. خطوط القوافل متغيرة جداً، وتمتد طويلاً في المنحدر، الذي يكون مثقلاً نوعاً ما بالصخور. ولما كان من الصعب على الجمال أن تمر مثنى مثنى معاً، فإن الباشا رأى هنا في وقت الفراغ حشد الحجاج يمر ببطء؛ إذ ترجل الحجاج عن المحفات المهدية وعن ظهور دوابهم وساروا كلهم مشياً على الأقدام. كانت ناقتي الجديدة المشؤومة التي اشتريناها من البدو في معان ولم تروَّض على هذا المسير، مربوطة،

فقطعتْ مقودها عند قدمي الباشا، وهو ما سبب ارتباكاً قليلاً فتوجب علي أن أركض لكي أضع كل شيء بالترتيب مرة أخرى. لكنني كنت واثقاً، رغم أنه لم يرني باللباس العربي في دمشق، أنه لن يعرفني الآن. إن العقبة طويلة، وهي بعد مجلس الباشا عسيرة قليلاً. يسمي البدو هذا المنخفض **بطن الغول** أو «مكان الخنق»، **«فين يغولون الزلمي»**، غور من القفار بين هذه الخرائب الصدئة من الجبال القاحلة الحجرية الرملية، مليء بالصمت الأبدي وحيث لا نجد شيئاً يحمل أثراً للحياة. العقبة ليست عميقة جداً، كما وجدت في النهاية، حيث عاود الحجاج الركوب، فقد هبطنا بالكاد 250 قدماً. كان طول القافلة هنا تقريباً مسير ساعة ولم يكن يقع أي حادث مؤسف. إن الجمال عند المنحدر، ذات الأطراف الأمامية غير المطواعة للغاية، هي مراكب خشبية؛ فالبهائم البليدة ما لم تكن أكثر طراوة واستعداداً، تدع نفسها تغور بمفاصل متيبسة مع كل خطوة أدنى. هذه الحجارة الرملية الكريهة الماحلة تشبه الجبال الحجرية الرملية المضنية حول شرم الشيخ في سيناء.

في الأسفل نطلّ على قاع رملي، على كل جانب يوجد جدار من الصخر الرملي، الممر المفتوح الطويل بينهما ينحدر مثل الوادي أمامنا. على الجهة اليسرى، الجروف الصخرية فوقنا مكسوة بحجر صلصالي مائل إلى السواد، الذي يسقط أيضاً إلى السفح، حيث تقع الحصى السوداء، في أكوام تشع تحت الشمس وقد صقلها رمل الصحراء الجارف. هذه هي حافة حقل حمم بركانية (لافا) صغيرة أو حراء. شاهدتُ أيضاً صخراً بازلتياً مندفعاً في غور العقبة. بعد ثلاثة أميال ينطلق الطريق من الجبال المضيقية ونحن نسير على السهل الكبير دبيبات الشام، **أرض الجدار من الرمل**؛ إنه ثقيل الوزن عند حمله ويتسرب من خلال الأصابع، على بعد أميال قليلة من الطريق على الجهة اليمنى توجد السلاسل المتهدمة الشبيهة بالغيوم لجبال حسما المقفرة.

رأيت شخصاً واقعاً في الرمل، نصف جالس ونصف مستلقٍ على يديه. كان الرجل متسولاً ريفياً، درويشاً بائساً بعباءة الشحاذين المرقعة، كان

يئنّ بشدة ماداً يديه مثل برئني نسر طلباً لشفقة إنسان. وأخيراً ونحن نسير في الرتل الطويل مررنا به أيضاً. إن حقيبة الشحاذ، المليئة بلقمات من كسر الخبز سقطت من عنقه، واندلقت أمامه. كان البائس ينوح للأرتال المتحركة البطيئة للحج المتجه إلى مكة : فلقد مرّ عليه الكثيرون، ومما لا شك فيه أنهم شاهدوا احتضاره، وهم يأملون في سرهم ألا تكون نهايتهم مثل هذه النهاية السيئة. انزوى بعض الخدم المحسنين، الدمشقيين، في مجموعتنا جانباً إليه؛ «أنا ميت» نشج الدرويش، «أنا إنسان أحتضر». ثم قام واحد من طاقمنا، وكان خادمي أيضاً، وهو خارج على القانون وغد، لم يكن رجلاً طهرانياً مقدساً بل رجل عادي، ذو كلمة مشجعة رجولية، فجثا قرب جمل فارغ من الحمولة، وبنترة من ذراعيه القويتين، رفعه وأجلسه برفق على سرج الحمولة. أطلق الدرويش المحتضر صرخة ضعيفة تشبه كثيراً صرخة الطفل، وبسرعة أنهضوا الجمل تحته وجمعوا حقيبة أطعمته المبعثرة وأوصلوها إليه، فجلس بكل امتنان متمتماً واهناً، وهو يرتجف، مع ذلك، خوفاً. لا توجد خدمة إسعاف مع جيش الحج غير المتحضر؛ وكل الإحسان بارد، في البرية الكبيرة والرهيبة، إلى ذاك الحشد المكابد الذي أنهكه السفر.

بعد أن يتوفى هذا الرجل ذات يوم في القافلة: تُحزم أمتعته، يقوم رفاقه في المحطة الليلية بغسل وتكفين الجثمان ويسجّونه في قبر قليل العمق حفروه بأيديهم، وينصبون له شاهد قبر بري على جانب الطريق الصحراوي. يطلقون على أي حجيج يموتون هكذا في سبيل دينهم، شهداء. لكن الرجل الفقير الوحيد وبلا إسعاف، الذي يسقط في البرية الخالية، يكون مهجوراً بالفعل، عندما تتجاوزه المواكبة الكبيرة ويكون منبوذاً من الجميع، فإذا وجده أي بدوي مغمى عليه، من المرجح أنهم سيجردونه من ثيابه، وينظرون إن كان لم يمت بعد. إن جثث الموتى غير المدفونة تلتهمها الضباع التي تتبع الرائحة الكريهة للقافلة. لا يوجد سوى قليل من الرحمة لدى أولئك العقيليين الذين يسعون وراء القافلة؛ إذ لا أحد على الطريق يقوم بعمل طيب «إلا مقابل الفضة».

إذا عشنا جيداً سنموت بسلام؛ نطلب من الله أن تكونوا معنا في الآخرة جزاءً لنا. ثمة مغمى عليهم يُتركون في حجيج كل سنة؛ رجال ذوو طبيعة قاسية وطبع سيىء، أملهم هو في الله لكونهم يعيشون بالطريق الطويل فقط على صدقات الرجال المكرهين، لا يمكنهم أن يقوموا بهذه الرحلة الطويلة إلى مكة. إن الرجل الساقط، المتقدم في السن، ربما لم يأكل كفايته أبداً، في الحج، وقطع أكثر من مئتي ميل من الطريق مشياً على الأقدام منذ مزيريب. ما أعظم تلك المعاناة السنوية والتضحية باللحم البشري وكل الجهد الضائع، من أجل فكرة عبثية، إن ذرة صغيرة من ملح العلم من شأنها أن تذيب كل دينهم!.

المخاطر العربية: الساميون

والآن نهبط إلى الجزيرة العربية، فقد مررنا بنقاط علام (علامات) معروفة. ثمة خطران رئيسيان في شبه الجزيرة العربية هما المجاعة والسلابون البغيضون لدينهم وثمة خطر ثالث هو السلاح الطائش لكل لص إسماعيلي[1]. يجب على الرحّالة أن يكون معتداً بذاته في عيون الرجال، رجلاً يستحق أن يعيش تحت قبة سماء الله، حتى لو كان بلا دين: يكفي أن يمتلك قلباً إنسانياً نظيفاً ومعاناة طويلة تحت قميصه العاري، ورغم أن الطريق مليء بالأذى، فقد يسافر إلى أطراف العالم. هذه بلاد قاحلة، لذلك إن لم يجهد نفسه فلن يجلب لبيته شيئاً سوى الإرهاق الأبدي في عظامه. الساميون يشبهون رجلاً جالساً في بالوعة حتى العينين، وحاجباه تلامسان السماء. من الإنسانية القديمة العظيمة للصحراء السامية، ثمة لحظة في كل مغامرة قد يخوضها الإنسان لإقامة سلامه معهم، هكذا يعرف العرب. إن التعصب الوهابي قد قسّى في هذه الأيام قلوب البدو الرحّل، لكنَّ كل خيمة بدوية هي مزار ديني في أرض إسماعيل (لذا لا يوجد فيها يائيل ملعون[2]. إذا جاء شخص غريب لوحده إلى خيام البدو الغريبة فإنهم يدعونه يقترب بجرأة، ويستقبلونه ويكون الاستقبال كبيراً إذا سمعوا منك أي خبر جيد؛

(1) نلفت انتباه القارئ إلى أن كلمة اسماعيلي أو اسماعيلية لا علاقة لها بالطائفة الاسماعيلية الكريمة بل هي تسمية مرادفة للعرب الساميين في إشارة إلى القصة التوراتية عن التواليد التي تنسب العرب إلى اسماعيل بن هاجر (المترجم).

(2) غير مستغرب من رجل مسيحي أن يبدي سخطه من المسلمين الموحدين.

وكل العرب في البداية يمكن استمالتهم بالكلمات المعسولة». إن قرى الواحات هي أكثر خطراً؛ فالمستوطنات البدوية وجدت أولاً، لقد أفسدت التراث القديم للصحراء؛ نفوسهم [البدو] هي المستنبت الخصب لآفات التعصب.

فيما يتعلق بي، أنا الذي أكتب، أدعو ألا يُبحث عن شيء في هذا الكتاب سوى رؤية رجل جائع وحكاية رجل هو الأكثر إرهاقاً بالنسبة للبقية فالشمس جعلتني عربياً، لكنها لم تجرفني أبداً إلى الاستشراق. الجزيرة العربية المرتفعة ليست كلها رملية. إنها أرض جافة، تقريباً بدون زخّة من المطر، كل السهول رملية؛ بالإضافة إلى أنه توجد أرض مستنقعية صخرية والكثير من الحصباء الخشنة الملمس، حيث التراب الذي لا حياة فيه يعريه هبوب الرياح القرنية. إن أحزمة الريف والتخوم الرملية العميقة حول الحجارة الرملية الجبلية، التي تدعى النفود، ربما تكون قريبة الشبه بتلك التي تسمى في انكلترا «الرمال الخضراء» green sands. على العموم إن الصحراء العربية هي مكان مقفر إلى أقصى درجة حيث لا يكون العشب ظاهراً لأجل كفاية أي مخلوق. في قطعة من أرض الصحراء تعادل مساحتها مساحة شقة سكنية، ستجد أوراق عشب غير كثيرة وبالكاد نرى شجيرة من شجيرات الصحراء، ومن أجزاء الثلثين لا يوجد أي أثر لماشية بل أرض يباب ولا شيء تماماً.

حكايات سنوات الكوليرا

قبل غروب الشمس جئنا إلى الخيام البيضاء المنصوبة بجانب القلعة الخربة، التي بلا باب والمهجورة عموماً، دار الحمراء. هذه الأرض مائلة إلى الحمرة والصخور التي بُنيت منها هذه القلعة المائية تبدو عالية ورهيبة في الشفق في هذا المكان المقفر من العالم. نحن هنا على ارتفاع حوالي 4200 قدم. بعد المسير لأكثر من مئة ميل في ثلاث وأربعين ساعة وصلنا إلى الماء، إنها حثالة ماء تعجّ بالديدان. ليالي الصيف الحار هنا تكون طرية بعد الغروب،باردة في الربيع والخريف، وخطرة على صحة الحجيج المسافرين، خصوصاً لدى عودتهم منهوكي القوى من مكة المدارية. قص رجل أسود عليّ حكاية محزنة عن عام الكوليرا، مضى عليه الآن ثلاث أو أربع سنوات، في الحج الصاعد: لقد خمن أنه كان يموت هناك في المسيرات وفي المحطات الليلية، مئة شخص (وهو عدد كبير جداً) كل يوم. حُزم الموتى والمحتضرون بالحبال على ظهور الجمال المترنحة إلى أن وصلنا، كما قال، إلى هذا المكان؛ وكان الكلُّ خائفاً، إذ لا أحد لا يفكر في أنه يمكن أن يكون من الذين سيموتون بعدهم، ولن يعود إلى بيته أبداً. هذا اليوم كان الجو وابلياً، فقد هطل المطر طوال تلك الليلة بلا توقف. أطلق مدفع الإشارة في وقت مبكر جداً قبل الفجر وتحرك موكب الحجيج بسرعة، تاركاً على الأرض المبتلّة للصحراء الداكنة، كما أظن، مئة وخمسين جثة من الموتى والمحتضرين. أخيراً فإن أولئك الذين نجوا من الحجيج لكونهم يطلون على المرتفعات الصحية، Peraean تمّ احتجازهم لتطهير محجرهم الصحي في الزرقاء لمدة

ثمانية أيام. أظن أن نصفهم بالكاد قد عاش ليدخل مرة أخرى، عن طريق بوابة الله، إلى الشوارع البهيجة لدمشق. كثيرة هي حكايات الحج الغريبة عن أعوام الكوليرا، وهذه واحدة منها. «كان ثمة رجل فقير يحتضر بجانب الطريق، وكان أصدقاؤه يحفرون بأيديهم بورع ثم وضعوه في قبر قليل العمق؛ وعلى عجل أهالوا الرمل فوق ميتهم وانطلقوا مع القافلة السائرة. شيئاً فشيئاً في هذا الدفء الجاف، عاد الميت إلى الحياة؛ نهض من مدفنه الضحل وعاد إلى وعيه فرأى عالماً خاوياً وموكب الحجيج قد ذهب عنه. فصار المريض يسير مترنحاً على آثار أقدامهم في البرية، ويرتاح من قلعة إلى قلعة، ومن بدو رحل إلى بدو رحل، فقطع سيراً على الأقدام تلك المئات من الأميال المقفرة إلى دمشق حيث وصل إلى بيته؛ وهناك لم يُستقبل إلا استقبالاً وضيعاً من قبل أقرب أقربائه الذين اضطربوا جميعاً، دون أن يحسنوا به الظن على أنه هو نفسه، نظراً لأن البعض منهم هم الذين وضعوه في القبر، ميتاً متخشباً في الجزيرة العربية. لقد حزنوا عليه باعتباره ميتاً، والآن يعود في غير أوانه وقد تقاسموا تركته!!».

مدائن صالح: حامية القلعة

في جو دافىء وضبابي، أقبلنا نسير فوق سهل الرمل الطفالي، مدة ساعتين، إلى مدائن صالح، ثاني مركز [للحجيج] على الطريق، وفي منتصف رحلتهم الطويلة؛ هناك تمت تحية القافلة الواصلة بإطلاقات كثيرة من مدافع الميدان وترجلنا نازلين في مخيمنا المكون من خيام بيضاء منصوبة على مسافة قليلة أمام القلعة.

كان العجمي قد جعلني أكتب له على الفور تنازلاً كاملاً وصك براءة ذمة. فكّرتُ أن من الأفضل الإقامة، إذا أمكنني ذلك، في القلعة؛ **فالقلعجي** ناظر هذا البرج والأبراج التالية، كان قد وعدني ذات مرة في دمشق، بأنني إذا وصلت إلى هنا فإنه سوف يستقبلني. سمعت أن البدو سيأتون من مسافة ثلاثة أيام وأنهم في الغد سيعودون إلى منازلهم الجوالة. طلبت من الفارسي أن ينقل أمتعتي، لكن لأن خادمه كان خارجاً فقد رفض طلبي، رغم أنه مدين لي بالأدوية التي تناولها على الطريق مجاناً، كما التي سيتناولها. هؤلاء الشرقيون اللبقون هم دائماً يعانون من عيب وهو أنهم يصبحون عديمي اللباقة في النهاية، ولذلك فقد لا يصلون أبداً! في أثناء ذلك كان الناس الذين أعياهم السفر قد اشتروا بنفسهم اللحم في سوق المخيم من اللحامين البدو، وسرعان ما كانت المفاصل الطازجة من لحم الغنم معلقة أمام كل خيام الحج، نزل الدمشقيون المرهقون، وهم سكان مدينة نهرية، ليغسلوا ملابسهم الملطخة. أولئك الذين يقومون بدور الطباخين في الرفقات [السيرانات] جمعوا عيدان الحطب وصنعوا مواقدهم الصغيرة، وكان الكل مشغولاً بالكامل.

هنا يأخذ الحجاج حذرهم كثيراً، لأن هذه، كما يظنون، هي المحطة الأكثر تعرضاً للصوصية [التشليح] على الطريق إلى المدينة المنورة، «واللصوص» هم من البدو الفقراء، تروى حكاية كل سنة عن فطنة الطباخين، كيف أنه في إحدى المرّات أخذ أحدهم يبحث حواليه ليأخذ مزيداً من العيدان وعندما عاد مرة أخرى كان القدر قد فُقد. هذا الطباخ وقف على قدميه وركض عبر الحشد وقبض على أول بدوي حافي القدمين صادفه؛ وكان هو، الملعون، الذي أعاد سرقة القدر الغالي مغطى تحت عباءته الشحاذية (المهترئة). طلب الأشخاص الودودون مني أيضاً أن اتخذ الحيطة لأنني قد أفقد شيئاً في لحظة وأن ذلك لن يكون له علاج. هناك دخل بعض البدو الفقراء بيننا؛ فصاح بهم الحجاج المدنيون «اغربوا!» والبعض رماهم بالهراوات وقام البعض الآخر بدفعهم بقوة على نحو متهور بالكتفين مثل المخلوقات البرية؛ كان بعض الفرس، خوفاً من السرقة، قد سلحوا أنفسهم بالحجارة. مع ذلك فيما بعد عرفت أن كل هؤلاء الفقراء هم جيران ودودون ولا يصدر عنهم إزعاج. دخلتْ بعض نسائهم يعرضن بيعنا باقات من ريش النعام المأسور، الذي كنَّ قد أمسكنه في الصحراء. فقدم العكامون السفهاء لهن في المقابل أنصاف حفنات من البسكويت المكسر؛ مع أن هذه الأرياش القصيرة المبرية تساوي أكثر من وزنها فضة في دمشق. اغتاظ أسود، الذي كان شخصاً مرحاً، من هذه الصفقة بإيماءة مهينة، «إخس عليك، اخجل أيها الغلام!» صاحت المرأة الشابة الفقيرة : البدو يحتقرون كثيراً السلوك الفظ لأهل المدن. مررت عبر المخيم وجئت تحت القلعة، حيث كان باعة الحلويات مع الأوزان الحجرية، يبيعون مقادير صغيرة من التمر على عباءاتهم المفروشة؛ الأواني تُحمل بشكل شائع في رحلات الصحراء على الحمير. تكلمت إلى واحد منهم أن يعيرني دابة مقابل النقود التي أحملها في أمتعتي فأجاب العجوز، (الذي ظنني واحداً من الحامية المغربية) ليقوم بذلك، «الحيوان لدى ابني لا يمكنني أن أعيره» عدت إلى العجمي؛ سيعيرني بغلاً، وعندما كتبت له سند براءة ذمة تحول مزاج الشرير العكر إلى مزاج رائق؛ تحول الآن ينبوعَ ابتسامات وكلمات مُبهجة،

كما لو أنه تغذى تواً مع النحل بين أزهار العسل، فكان يأمر الأسود أن يدفع الحمولة التي جلبها إلى الأمام باللباقة الشرقية المبتذلة والمجاملة الزائفة. وفيما كنت ذاهباً، (قال أفضل العكامين): «خليل آغا سامحنا!» فهم لم يكونوا يريدونني أن أتذكر سلوكهم الفظ والطائش أحياناً خلال الطريق. وجدنا أن القلعجي يقف أمام بوابة قلعته (رأيت فوقها نقشاً عربياً محفوراً بشكل متقن)؛ كان مشغولاً باستلام مؤن الحامية ومخزونات القافلة. رحّب بي باقتضاب وطلب مني أن أدخل، ريثما يفرغ من عمله. تركني حراس الحامية أمرّ بصعوبة، قائلين إنه ممنوع دخول الغرباء إلى هناك.

لكن ما هذه اللامبالاة العجيبة للحجاج المتعبين! لم أر أحداً منهم يتقدم لمشاهدة النُصب المعمارية، مع أنها مشهورة في ديانتهم كمثل شهرة سدوم وعمورة، وتروى عنها قصص في القرآن. . . إذ محمد (ص) لم ير البتراء! ولو رآها لكان قد روى قصصاً أخرى في وادي موسى : مع أن عجائب الإيمان هذه تكاد تكون مرئية بوضوح من مخيمهم. إن الحجاج المسعَّفين[1] الذين هم بالإضافة إلى ذلك يخافون كثيراً من العرب، إذ لا يجرؤون على المغامرة بالتقدم، ما لم يكن عشرون واحداً منهم معاً. والحجاج، الذين ينطلقون دائماً في الليل، لا يرون مدائن صالح، لكن الحاج الراجع يراها. جاء الأسود إلى القلعة عند هبوط الليل، وطلب مني بعون الله أن أكون حذراً جداً؛ لأن رجال حاميات الأبراج مشهورون بالعنف، مثل بقية رجال خدمة الحجيج. هكذا جاء القلعجي، الذي فوجىء بوجودي جالساً على نحو غامض في الداخل، مع أمتعتي، وقد خُصّصتْ لي حجيرة. بعدئذٍ جاء شخص وناداني للذهاب إلى الباشا؛ عرفت بعدئذٍ أنه قد استدعي من أجلي. في حوالي منتصف الليل سُمعت طلقة الإنذار في المخيم، وأطلقت طلقة ثانية إشارة إلى التحرك؛ سَمعتُ الهرج والمرج الأخير لاستيقاظ الحجاج، وفي خلال لحظات قليلة كانت الخشخشات الرزينة لتخوت الروم تنطلق مرة أخرى في الظلام، مع

(1) الحاج المسعَّف: حاج عائد من الديار المقدسة وعلى صدره سعفتان متصالبتان (المترجم).

القافلة المنطلقة. مع نزولهم أميالاً قليلة مروا ببوغاز، أو مضيق في الجبال. محطتهم الأولى هي زمرد، وهي قلعة مهجورة؛ في نقلة واحدة فوصلوا إلى قلعة ساورا (سورا) sowra ثم حيدية (هديه) Hedieh، وقلعة سوجوا (سُجُوه Sujwa، برانمة (براجة) Barraga، عوينات البدن Oweynut elbeden؛ هناك يُنصب مخيم الحجيج على مسافة قليلة قبل المدينة [المنورة]، في كل خطوة من خطوات الحجاج المتجهين إلى مكة توجد الآن سكينة القلب والإيمان الديني لكونهم سيرون الأماكن المقدسة؛ لقد مرّوا من هنا في منتصف الطريق الطويل. في غسق الصباح سمعت همهمة جديدة في الخارج، من بعض البدو البائسين، الذين كانوا ينبشون، بنهم الطيور القذرة في الأرض المهجورة للمخيم.

عند طلوع الفجر جاء البدو مندفعين أفواجاً بشكل صاخب إلى داخل البرج وبقينا لمدة يوم عرضة لاجتياحهم. قال محمد علي القلعجي: «والله، لا يمكن أن تكونوا مطمئنين من ساعة إلى ساعة؛ لأن مزاجهم قد يتغير، إذ يمكن أن يحاولوا الاعتداء على القلعة!» هكذا كان أن استولى بدو فجير (الفقير)(*) أنفسهم على هذه القلعة قبل طريق الحج، وخُفضت ضريبة المرور السابقة للبدو. مضت القافلة، فما كان من العرب الذين كانوا في القلعة، مع شيخهم مطلق، إلا أن انقضوا فجأة على الحراس الضعيفين الذين لم يؤذهم بل أرسلوهم بسلام إلى العلا ثم اقتحموا الحجرات المقفلة ونهبوا كل ما يمكن أن يقع تحت أيديهم من مخزونات الحج وجنود الجردة[1] مع كل ما ورد مؤخراً من أجل تموين هذه القلعة والقلاع الأخرى التي تنتصب تحت مدائن صالح. إن القبائل في تلك السنة سمحت بصعوبة للقافلة أن تمر بسلام، وكانت القلاع الأخرى قد بوغتت بطريقة مشابهة وتمت السيطرة عليها من قبلهم، أما القلعة التالية الواقعة تحت مدائن، وقلعة سوجوا فقد نهبت بالطريقة

(*) الفقير : فرع من قبيلة المساعيد والتي تعود باصولها الى بني عقبة (ماجد شبر).

(1) الجردة: القوة العسكرية المرافقة لحملة حج الشام لحماية الحجاج.

نفسها من قبل ولاد (ولد) علي. قال البدو، إنهم كانوا يبحثون عن رزقهم فحسب؛ إن قانون الصرة، أو الدفع مقابل حق المرور، لا يمكن خرقه الآن، كان ثمة سرية من الفرسان السوريين مع حجيج العام التالي، لحماية تلك الأبراج، اتخذت مكانها في العلا، لكن عندما مضت القافلة، ذهب البدو (معظمهم من ولاد (ولد) علي) لتطويق الواحة، وأبقوهم محاصرين حتى العام التالي. قلت للبدو: «إذا أغلق حراس البرج بابهم المصفّح فما قيمة كل تهديداتكم ضدهم؟» لم يفطن أهل الجزيرة العربية إلى فكرة فتح الأبواب المعدنية عن طريق استعمال شعاع من اللهب، أو بتكديس الحطب لحرق الخشب الخلفي للباب، ولا كانوا يمتلكون أية شجاعة علنية للمغامرة بأرواحهم البائسة تحت الجدران المحصنة. فأجابوني بقولهم «القلعة لا يمكن إغلاقها بشكل مستمر في وجهنا، فالبدو يمتلكون كثيراً من الحيل الماكرة؛ فإن لم يكن بوسائل أخرى حتى الآن فعن طريق الذبيحة (أعطية من الغنم أو دابة أخرى من أجل الذبح)، سننجح ذات مرة في الزحف إلى الداخل».

في هذه القلعة كان مغربي عجوز من فاس، الحاج نجم، آمراً (محافظاً)؛ أما أصحاب الأبراج الآخرين فكانوا الحاج حسن، مغربي من مراكش، الذي كان قبل ذلك من عناصر خدمة هذا البرج، ويأتي ضمن حجيجنا من دمشق، كان قد أُنزل هنا مرة أخرى، باستعطاف من ابن بلده نجم. ثم عبد القادر وهو شاب سمّي تيمناً بالأمير الجزائري النبيل، وابن وكيله الميت: إنه يكبر برفقة الموترين في دمشق، وإن عمه (الذي له سلطة مطلقة على كل الهجرة المغربية) كان قد نفى الشخص الأخرق إلى الصحراء الكبرى لمدة عام، في عهدة محمد علي. الرابع كان محمد، غلام نصف بدوي، ابن صاحب قلعة دمشقي سابق، من أم خادمة بدوية؛ وبالإضافة إلى ذلك، لم يكن ثمة سوى عبد ورجل فقير آخر أُرسلا لحفظ الماء معاً في بيت المؤدم.

كان مغاربتنا القلائل مسلحين في البرج وسط البدو الغدّارين. جلس

الحاج نجم، مع بندقيته الصغيرة متصالبة على ركبتيه، بين ضيوفه البدو في حجرة القهوة. كان واهناً وعجوزاً، وحسن هو اليد الكفؤة الرجولية الوحيدة بينهم. هذا الرجل القوي البنية كان يغني طوال اليوم في مهمته ويبتسم لنفسه في مزاج جيد وبكامل قوته. كان معتداً بنفسه وسريع البديهة يجد وسيلة بأي خدعة تجعل كل شيء سهلاً عليه، مع أنه كان بأنفه الصغير ذا فهم بربري؛ لذلك كان محمد علي يستهجن عناده، «والله أنت بربري، يا حسن!. (البربر، غالباً ذوو عيون زرقاء وشعر أصفر، هم بقية باقية للشعوب السابقة للمغرب). أمضى اثني عشر عاماً في الشرق، وقد يبدو رجلاً في منتصف العمر، لكن عمره كان أكثر من خمسين، «وأنت تريد أن تعرف لماذا (يقول ويضحك مرة أخرى)، «قلبي أخضر دائماً». المغاربة يولدون تحت النجوم الجوالة، الكثيرون يرتدون البرنس الأبيض، يأتون في كل حج إلى مكة؛ من هناك يتفرقون إلى سوريا، إلى بلاد ما بين النهرين، وإلى كل العالم العربي الشرقي بحثاً عن الثروة والعمل. يشتغلون في مهنتهم القديمة في بلاد جديدة، والذين لا مهنة لهم، (كلهم لديهم الميل إلى الأسلحة)، يؤجرون أنفسهم عموماً كجنود. إنهم يُستأجرون قبل الرجال الآخرين بسبب طبيعتهم الحادة الحذرة، ليكونوا ناظرين للبساتين في دمشق، وَتُعهد مناصب ذات مسؤوليات خاصة كثيرة إلى المغاربة الشجعان. يتميز هؤلاء الرجال الغريبون بكلامهم الأجش الذي يصدر من بطونهم، وبأصواتهم الأجنبية.

إن نجم، وقد أمضى الآن زمناً طويلاً على هذا الجانب من البحر، قد ازداد عجزاً أكثر مما ازداد عمراً؛ لم يكن بوسعه أن يأمل في أن يرى مدينته فاس مرة أخرى، تلك الأرض الأكثر سعادة التي كان يتحدث عنها باستمرار بنوع من البساطة. فقد تجول عبر دول المغرب، وكان يعرف حتى الصحراء الجزائرية؛ في تونس أدى الخدمة، ثم عمل لبعض الوقت في مصر بعيداً على النيل؛ بعد ذلك كان جندياً في سوريا، وفي وقت لاحق في خدمة طريق الحج، في مخيم بمعان: مسلم متحمس، مع أنه سبق أن شاهد وقاسى في العالم، كان بمقدوره أن يكون متسامحاً، واستقبلني بلطف. قال: «في جبل

طارق كان الإنكليز جيران أهله فوق المضيق»، كان أكثر سروراً بالإنكليز من الاسطنبوليين، الأتراك الذين كانوا فاسدين وليسوا مسلمين صالحين. ففي العام الماضي فقط ترك السير أمين برميلاً من النبيذ معهم في القلعة، إلى حين عودتهم مرة أخرى قال: «رجل ملعون، من يشرب مما هو محرم على المسلمين!» كان أباً لطفلتين، لكن يبدو أنه لا يعتبرهما؛ فالبنات هن عبء ومصدر فرح ضئيل، في أسرة مسلمة فقيرة؛ فمن أجلهن لن يتلقى على الأقل سوى مهر هزيل، عندما يفترقن عن بيته.

أعدَّت الطبيعة للغلام محمد عمراً تعيساً؛ فلكونه تافهاً وجباناً، كان الغلام المراهق طموحاً ليكون شيئاً ما، بدون أي جهد أخلاقي. فهو متسكع في شغله وكسلان في الصباح، إذ سَمعتُ عندما وبخه محمد علي بهذه الطريقة: «إنه لأمر جيد أن تنهض يا بني (عند طلوع الفجر)، في ساعة صلاة الصبح. عندئذٍ تذهب ملائكة الليل، وتصل ملائكة النهار، لكن أولئك الذين يتخلفون ويظلون نائمين، يدخل فيهم الشيطان. هل تعرف أنني كان لديَّ ذات مرة في بيتي غلام خادم، نصراني، ورغم أنه كان يغسل رأسه بالصابون ويمشط شعره، مع ذلك فإن وجهه كان على الدوام يبدو متورماً وممتقع اللون، والله مثل الخنزير».

كان الشاب عبد القادر «جاهلاً» أكثر من كونه منحوساً وكان مفرط النمو بشكل هائل، إذ قال حسن ذات يوم، وهو يراقبه، رأس عبد القادر كبير مثل رأس بغلنا الأبيض لكن لا شيء فيه. هكذا انتزعوا حماقته وغروره في القلعة، إلى أن جُعل قلب الغلام الفقير صالحاً، وبعد ذلك بوقت قصير طُردَ لكي يحرس الماء مع آخر في بيت مؤذم.

كان محمد علي، (بلقبه) **المحجوب** ناظر القلاع بين تبوك والمدينة، شخصاً وحشياً دموياً ودوداً، فطبيعته العنيفة الطيبة جزئياً قد أفسدت (مثل الكثير من النفوس المتسلقة المضطربة) في مدرسة الحكيم التركية؛ كان بدون ثقافة. كانت أسرته قد سكنت بلداً جبلياً في الجزائر: في أيام الاحتلال، بدلاً

من أن يصبحوا رعايا من النصارى، صعدوا، بناءً على اختيارهم، في سفن الحكم الفرنسي لكي يُنزلوا في سوريا. كان ثمة حكاية مُتناقَلة بين أسلافهم تقول بأنهم «في قديم الزمان كانوا يحتلون كل ذاك الريف حول معان، حيث كان موسى أيضاً يطعم قطعان يثرو النبي(*)؛ لكن بني إسرائيل طردوهم». دخل الخدمة العسكرية، حارب وعاش مع الجنود السوريين، في جهاد رهيب ضد المسكوفيين (الروس)، في القوقاز، حيث أصيب مرتين. فقد دخلت الطلقة، كما بدا لي، وكما كشف لي، من جهة الظهر. وبقيت الجروح القديمة تؤلمه في الطقس السيئ. بعد ذلك، خدم «على رأس فرقة خيالة صغيرة، في فلسطين والأراضي الواقعة وراء نهر الأردن، رابطاً نفسه بمصير محمد سعيد، الذي حصل منه على منصبه الحالي». إن الرجل، الفارس شبه الشرس، كان بمقدوره أن يتكلم بكياسة وبشكل معقول حين يكون في مزاجه الأفضل؛ ومثلما أن هناك مياه راجعة في كل مدّ، كان يبدو إنسانياً أن أفضل وأسوأ المسلمين يمكن أن يتحدثا بشكل متدين جداً. فقد كان يعتقد أن بسالة المغاربة لا نظير لها، لذلك كانت معارضته محفوفة بالمخاطر؛ فقد كان نمراً في مزاجه السيئ الروثي، واشتهر سابقاً على هذا الطريق بفظاظاته. ذات مرة عندما كان ملازماً في معان، شنق ثلاثة رجال (كما يتبجح). ثم، عندما عُهد عليه بأن يبني قنطرة فوق رأس النبع في قلعة المدورة، وجعل ذاك الماء مأموناً من كل عدوانية العرب، أسِرَ بعض الشيوخ المتهمين بسلب الحجيج، فكان يقيدهم ويطعمهم كل يوم في البرج قطعتين من البسكويت، وفي كل يوم يطلب جرش مقدار من الجريش بطاحونة يدوية [رحى] (ذات وزن لا يحتمل) على صدورهم؛ وعندما خضعوا لهذه الإجراءات القاسية، التي تحملوها لبعض الوقت بجلد رجولي، أرسلوا في طلب تلك الفدية التي سوف يقتنصها منهم. كان يمتلك جسداً هَرِماً مريضاً، مليئاً بالقروح، وتجاوز منتصف العمر، بحيث

(*) يثرو: عُرف في التوراة باسم رعوئي وأطلق عليه لقب يثرون بمعنى الكاهن. وعرف لدى المسلمين بشعيب.

يبدو أنه لن يعيش طويلاً، فإنَّ مظهره يشبه كثيراً عفريتاً مشوباً ببرص الروح ونصف أحمق؛ كان يصيح عندما يتكلم بصوت مجفل، كما لو كان صوت الغول. من قلبه المظلم الذي يحكمه عقل ضعيف للغاية، كنا نتلقى إنذارات كل ساعة في القلعة الموحشة. كان بمقدوره أن يتكلم جيداً (بتعبير محدود واسع المعرفة) [خدمة] لغرضه، بكلمات كثيرة أو قليلة. هؤلاء الشرقيون يعرفون قليلاً غير ذلك، نظراً لأنهم يجلسون طوال النهار عاطلين عن العمل إلى شرب القهوة في مجتمعاتهم الذكورية ؛ يتعلمون في هذه المدرسة من الملاحظة البشرية اللامحدودة، أن يتكلموا من القلب إلى القلب. كانت حكاياته موشحة بأقوال مأثورة وهي حكمة غير المتعلمين، سمعناها لأكثر من شهرين، فقد كانت لا تنتهي أبداً. كان يحكيها بشكل حي للغاية بطريقة لا يمكن التفوق عليها، وكانت جزءاً من تجربته المتعددة الألوان. تارة بلغة عسكرية فاسقة وتارة بلغة تنمّ عن بقايا فهم جيد، مع الغرائز المجنونة البهيمية، ووخزات الضمير المشابهة لإنسانية مستهلكة، كان يبدو أن الحصان المنهوك من الممكن أن يكون (لو كان حظه كبيراً) تيبيريوس آخر، مع كل هذا فقد كان تقياً جداً كما يمكنهم أن يكونوا فقط، وكان بحكم تدينه متشككاً؛ كان عبئاً كبيراً عليه أن يسمي النصراني **خليلاً**، فانتقل إلى مناداتي مقابل كل مرة باسم خليل، خمس مرات باسم إبراهيم. كان يعود دائماً بوقار عجيب إلى صلواته، التي يجد فيها تذوقاً حلواً للجنة؛ كان هذا هو كل السلوان هنا في صحارى عقله الفاسد. إنه يسوع بذاته فقد كان ينتقد الإدارة العثمانية الإجرامية، وهاجم كل أعمالها الشريرة. في دمشق، دوّن اسمه في سجل الرعايا الجزائريين الفرنسيين؛ لقد ترك هذا كمَهربٍ يلجأ إليه إذا تعرض لأذى من أحد من طرف الدولة أو عندما يقع في ورطة. أي واحد يمكنه أن يدعي حمايتهم في البلدان التركية فهم أذكياء جداً يهرعون إلى القناصل الأجانب.

لدى البدو موقف سيىء من حكومة الحج التركية، إذ يرون السلوك الاستبدادي والوحشي لهؤلاء الحكام المزعومين، أسياد نعمتهم. كل أهل المدن يدينونهم مرة أخرى بوصفهم أكثر دناءة من اللصوص المرتبطين

بعصابة. . إذا ضبط أي بدوي يرتكب مخالفة يهتف الآمر العسكري «خذوا هذا البدوي» بصوت الملاك المدمر «وقيدوه إلى دولاب المدفع». كان محمد علي مجنوناً، بغروره المغربي، وذا استياء يائس؛ في العام الماضي فقط تجرأ على المجادلة هنا في الصحارى، مع باشا الحج الذي يتبع له. في حجرة أرضية من القلعة توجد مخازن الحكومة المحكمة الإغلاق وودائع أثاث المقومين: مع البقية أدخل الباشا صراف الرواتب حقيبة من الريالات، من المال العام. عندما جاؤوا مرة أخرى، أرسل الباشا خادمه لاستلام الفضة. عندما أمسكها الرجل في يده تخيَّل أن هذه المحفظة قد تسربت، ولأن العرب مفعمون دوماً بهذه الشكوك، بدأ يتهم محمد علي. لكن المغربي، وهو يسحب سيفه الأحدب، صرع العبد الأعزل المنهور وزجّه عن طريق الكاحلين، ومع الشتائم المسعورة أقفل الباب الحديدي وراءه. أرسل الباشا مرة أخرى آمراً محمد علي بأن يأتي إليه وأن يرد على هذا الاعتداء؛ لكن المغربي السوري، أقسم مستميتاً، وقلبه لا يزال يغلي بأنه لن يذهب حتى يُشبع نزوته. «امضِ وقل هذه الكلمات للباشا من محمد علي، إذا كان محمد سعيد يملك مدفعاً، فأنا أملك مدفعية على مصطبة هذه القلعة ـ بالله القدير سوف يصمد إلى الآخر؛ ودعه يتذكر أننا مغاربة!» كان هذا إنهاءً ضارياً للأصدقاء وإيذاءً، لكنه وثق أن خدمته القديمة سوف تضمنه مع الباشا الغليظ؛ في أسوأ الحالات سوف يغفر له، متشفعاً بجروحه التي عاناها في القضية المقدسة لدينهم؛ ورغم كل شيء فقد كان بمقدوره أن يشكو «والله، إن رأسه لم يعمل كل الأوقات بشكل جيد، وإنه مغربي، فهذا واحد ذو طبيعة سريعة الغضب ومتهور». في أسوا الحالات كان بإمكانه أن يتحداهم، مبرهناً أنه مولود غريب ورعية فرنسي. إن مدفعيته (وهذه لن تكون ذات قيمة للتفاخر العربي) كانت قطعتين صغيرتين جداً تأكلهما الصدأ، بسبب بدائيتهما، كان بمقدور حداد بدوي أن يقوم بتطريقهما: منذ سنوات جلبتا من البُرج القديم الذي يبعد نصف ميل باتجاه النُّصُب وقيل إنهما استُخدما في الحرب البدوية القديمة بين قبيلتي عنزة وحرب.

قبل رحيل العربي، جاء شيخهم مطلق يستفسر عني؛ «وينهو، وينهو،

هذا الدولاني، أو رجل الحكومة؟» دفع بابي، فرأيت بدوياً داكن البشرة وقف يحملق عابساً وعلى نحو غريب في شخص ظنه عدواً. كان محمد علي قد قال لهم إنني السير أمين، سكرتير مرسل في مهمة حكومية. كان هذا وهماً عابراً، لأنه لما كان المسلمون يصلون علناً وخليل لم يُشاهد وهو يصلي فقد قيل فوراً إنني لا يمكن أن أكون من هذه الديانة. كان محمد علي يكره كل شخص آخر من غير عقيدته وغيوراً جداً من الطغيان المتزايد في العالم للنصارى الخطيرين.

هكذا يستغرقون في التفكير بكآبة شديدة بانحلال الإسلام المجاهد. مع ذلك كان بمقدوره أن ينظر إليَّ بشكل مبهج، كفيلسوف له رأي طبيعي متساهل في كل مسائل الدين.

هؤلاء كانوا ساكني القلعة، برج يرتفع سبعين قدماً على بناء جانبي مربع. المثير في الداخل هي محطات الماء هذه، وكل ما دخلته كان من طراز بناء واحد. ففي المنتصف يوجد فناء البئر وحوله الإسطبل، والعلف وحجرات التخزين. يؤدي الدرج إلى القاعة التي تلتف بشكل دائري إلى فوق، حيث يوجد في الجهتين الشمالية والجنوبية صفان من حجرات السكن الحجرية الصغيرة. الدرج يؤدي من هذه الصالة إلى سطح المصطبة حيث يمكن لأفراد الحامية أن يصعدوا فجأة عند الحاجة للدفاع عن القلعة.

الدرويش الفقير

انطلق البدو. جلسنا في إحدى هذه الأمسيات متجمعين في حجرة قهوة صغيرة (تقع في الصالة العليا) حول النار الشتوية لخشب الأقاقيا (السنط) الجاف، عندما ظننا وسط طقطقة مدقة القهوة (المهبج) أننا سمعنا شخصاً ينادي تحت كوة الرمي، أنصت الجميع؛ صوت أجوف كان ينادينا بضجر فصاح به محمد علي بالتركية التي تعلمها في حياة الجندية: رُدَّ عليه باللغة نفسها. «آه» قال الآغا وهو يسحب رأسه، «إنه حجي فقير، اطلع يا حسن، وانزل أنت يا محمد، افتح الباب: «واستعجلوا بدافع دينيّ لإدخال الحاج السيئ الطالع». فصعد إلينا برجل فقير ذي حضور جيد، متقدم قليلاً في السنّ؛ كان شبه عارٍ ويرتجف في برد الليل. كان درويشاً تركياً سار إلى هناك على قدميه من بلدته في آسيا الصغرى، يمكن أن يبعد ستمئة ميل؛ لكن احتماله البشري، رغم كونه قوياً، كان أقل مما ينبغي لأجل الطريق الطويل. كان قد مرض قليلاً بعد معان، والحج يتفرق من مدورة، تُرك هذا المخلوق المنهك وهو ما يزال هاجعاً في البرية؛ منذ ذلك الحين وهو يمشي مجهداً عبر الصحارى تلك الأميال المئتين، على خُطا القافلة، يستريح فقط في القلاع! هذا الرحالة المتوحد والمنسحق لم يكن بمقدوره أن يُدرك الحجاج، الذين كانوا ينتقلون أمامه باستمرار بمسيرات اضطرارية. جلب له محمد علي قماشاً لبادياً حلبياً لكي يتلفع به الدرويش الفقير، الذي جرده العرب من كل ما معه قبل ثلاث ساعات من وصوله إلى مدائن، اتقاءً للبرد.

استقبلوه جميعاً بلطف، وفي حين كان عشاؤه يُحضّر، أمروه بأن يرتاح،

قائلين إنه في العام القادم، إن شاء الله، يمكنه أن يؤدي الحج المقدس؛ أما الآن فيمكنه البقاء معهم، وسوف يجدونه، في هذين الشهرين والنصف، حتى قدوم الحج مرة أخرى. لكنه لم يشأ ذلك! فقد ترك بيته ليصبح بائساً جداً في بلدان غريبة؛ لن يرى المدينتين المباركتين [مكة والمدينة المنورة]، لن يعود أبداً. جلس الحاج المسعف عند موقد القهوة بامتنان وتواضع وشرف. أما وقد استعيد إلى أخوة الجنس البشري، فقد أظهر نفسه رجلاً فقيراً ذا أخلاق بريئة ونبيلة. عندما كنا مبتهجين مرة أخرى، فإن أحد بدو البوابة، الذي يفهم موسيقى الصحراء، فتح شفتيه ليطربنا وهو ينهق بشكل متجهم بأغنيته البدوية على الوتر البطيء للربابة. كان هذا من بدو الفقير، شخصاً وسيماً في الجماعة المتحلقة حول الموقد، ذا بشرة سوداء. كان قد عاش عاماً في دمشق مؤخراً وأصبح، بفعل حياة المدينة، شريراً محتالاً تحت المظهر الخارجي الطبيعي للشرف. بسبب محياه النبيل وكونه من أبناء الشيوخ، فقد بدا وكأنه ابن نعمة، لكن المسكين لم يكن يملك إبلاً؛ لذلك فقد كانت خيمته تقف منصوبة باستمرار أمام القلعة: أكثر من الذباب، كان يلازم حجرة قهوة البرج، حيث كان وهو يدوّر بؤبؤيه الأبيضين الكبيرين، يتودد ساعة تلو ساعة بكل أسنانه البيضاء إلى محمد علي، مصادقاً بعبارة «الله أخبر»، على كل الأقوال المأثورة لكبير القلعة هذا.

كان الدرويش الفقير يجلس طوال النهار، ملفوفاً بأسماله، مستمتعاً بحلاوة الاستراحة من متاعبه الماضية. جاء اليوم الثالث، اليوم الأخير من الضيافة التقليدية، فكانوا قد ملوا منه؛ ساقه محمد علي، وهو يضع قربة ماء صغيرة على كتفيه، ويدله على الاتجاه فأمره بأن يتبع قدر المستطاع آثار أقدام القافلة، وودعه بعون الله. لا حدود لمتاعب الحج؛ إن الدين هو وعد بقدوم الأشياء الجيدة، بالنسبة للفقراء، والكثيرون منهم هم أشخاص نصف معوزين. هذا الأسى ـ كلمات ذاك النبي العربي (الذي) يقول بأنه رسول الله ـ كان يصيب كل عام عشرة آلاف من الجنس البشري المبتلى.

الموت عطشاً. هذا الإسماعيلي القاتل

سرعان ما دخل البدوي الذي رأى الدرويش يسير ببطء على طريق الحج الأسفل: كان الطقس صافياً، فشمس النهار تجعل الظهيرات حارة، لكن الفصل كان أبرد من أن يستطيع مثل هذا الرجل المنهك أن يرقد في العراء ليلاً. بعد أسابيع وصل بدو آخرون من المدينة [المنورة]. واستفسرنا إن كانوا قد شاهدوا درويشنا؟ فأجابوا بعدما عرفوا ما كان يلبس الرجل «أي بالله رأيناه يرقد ميتاً واللباد تحته» بجانب الطريق عند سورة (غير بعيد من هنا) تقريباً في مدى النظر من القلعة. أسف المحسنون عليه، أنهم طردوه حياً في وقت متأخر، وهو يقبع الآن جثة ميتة في البرية؛ هم أنفسهم قد يصيبهم حادث مؤسف كهذا في يوم آخر في الصحارى الكبيرة. كل الأصوات صاحت فوراً، «لقد مات بسبب العطش!» فقد افترضوا أنه قد أراق قربة الماء، التي عُلِّقت على ظهره الضعيف المتعب في الظهيرات الحارة. لم يكن المشهد جديداً على البدو، مشهد المسافرين البائسين الذين يسقطون ميتين على طريق الحج ويتم التخلي عنهم؛ في غالب الأحيان (وهذا ما رواه البدو على مسمعي) يرون الضباع تقف بقربهم تحملق فاغرة أفواهها لتفترسهم حالما يلفظون آخر نفس من الجسد الدافئ. يمرون به: فلدى البدو لا يوجد أي تفكير تقي بالإحسان إلا من يتقاضى أجراً لدفن الغرباء ـ أخبرني محمد علي أنه لا يمرّ موسم حج إلا ويقصّر فيه البعض ويُترك ليموت. إنهم يعانون أشد المعاناة بين الحرمين، «حيث، يا خليل! تنتصب الجبال مسورة إلى السماء على الجانبين!» في الجو الراكد لا يوجد ملجأ من لسعات الشمس الساطعة: عندما تهب عليهم رياح

السموم الحابسة للأنفاس يسقطون منبطحين على الأرض ويختنقون. ثمة ماء قرب الطريق، حتى حيث يكون الحر على أشده، لكن البدو الملاعين لا يسمحون للرجل المسافر بالشرب، إلا إذا تمكنوا من الحصول على هبات كبيرة وجديدة من الباشاوات الأتراك؛ لا يوجد علاج ولا مفرّ من وادي الموت هذا فهو مع ذلك نهاية للشرور القاتلة.

تقع أرض التخييم في مكة بعيداً جداً عن المكان، حيث يتوجب على حشد الغرباء الفقراء أن يجدوا لأنفسهم حجرات إقامة مستأجرة في المدينة المقدسة: هكذا يُحشر الكثيرون معاً بشكل مشترك في غرفة ضيقة جداً. يكون معظم الواصلين واهنين من الرحلات الكبيرة، ومع ازدياد الأخلاط الفاسدة في أجسامهم، تحتاج حالات من الاضطرابات الجديدة والرهيبة بينهم إلى رعاية: فمن حجيج مكة انتشر الكثير من الأوبئة العامة، ووصل إلى أقصى الجنس البشري.

لقد كان هائلاً بالفعل حدث الشقاق الديني لمحمد. فقد تمّ تجديد العادات السامية القديمة الرائجة في الدين. في ظل ذاك الطابع الهجين من الروح العربية الانفصالية المشاغبة، والتحررية، متحولة إلى قاعدة رزينة سلسة للحياة الإنسانية (نقطة اتفاق دنيوية مبهجة لا تتطلع إلى ما فوق إمكانية البشر). أليست أقوال محمد المأثورة [الأحاديث] اليوم هي العقيدة الأم لعشر الجنس البشري؟ ما الذي كانه العالم؟ لو أن اللسان الذرب، لسان هذا الإسماعيلي النبوئي! حتى الدين البسيط الفهم الذي يمكنه أن ينظم حشداً بشرياً، هو قوة رئيسية في تاريخ العالم الظالم. ومحفوفة بالخطر، كل رابطة يمكنها أن توحّد كثيراً من الملايين البشرية، في سبيل الحياة والموت!.

لكن الدين الوثني ما قبل الإسلامي [الجاهلي] للكعبة كان السبب في أن المحمدية (الإسلام) الناضجة سريعاً لم تتهاو سريعاً مرة أخرى.

الشيخ زيد: النُّصُب

مرت أيام أخرى، ومحمد علي يقول كل مساء «في الغد سيرافقني إلى النُّصب». كانت هذه وعوداً تركية، كان عليَّ أن أتعامل مع من كان في قلبه قد افترس النصراني: في سوريا كان قد أعجب بذلك الطمع المثير للفضول لبعض المسافرين الفرنكيين [الفرنجة] في شراء «الآثار القديمة» [الأنتيكات]. ماذا ستعطيني، قال، لترى النصب [التماثيل]؟ وتذكر أنني حمايتك الوحيدة في هذه البراري. هناك كان البعض في القلعة سيقتلونك إلا أنني منعتهم: «أقسم بالله العلي القدير إنني أخبرك الحقيقة». فقلت له: «أن يحدد السعر لخدماته وأنا سوف أعطيه ما يطلب في دمشق»: لكن الوعود البعيدة من الصعب أن يقبلها أي عربي، فعالمهم هو عديم الثقة للغاية وهم أنفسهم يقيمون حساباً قليلاً للعهود الأكثر قدسية.

والآن جاء زيد شيخ بدو الفقير، يركب على جمل عربي وحيد السنام من الصحراء، مع حامل بندقيته الذي يجلس خلفه والابن الصغير للشيخ يركب على مهرته المقادة. كان زيد قد ذهب إلى المدينة في دمشق وتعلم كل حرفة بالأساليب العثمانية، ليتسلق عن طريق الرشاوى إلى حظوة الرجال المسؤولين. قبل سنتين عندما ولدت فرسه فلواً، وليس مهرة (إنهم بالكاد يقدرون أن الذكر يساوي حليب النوق) فإن هذا الثعلب البدوي وهب مهره العقيم إلى الذئب المغربي محمد علي؛ كان القلعجي قد امتطى هذا الفحل الصغير القوي آنذاك من سوريا. لم يشاهد زيد أي شيء مرة أخرى سوى العروض الخادعة: الآن كانت هذه فرصة للنصراني، ورأى الاثنان أن عليَّ أن

أدفع المبلغ المتفق عليه بينهما. «أعط زيداً عشر ليرات، وزيد سوف يركبك، يا خليل، على مهرته وسينقلك في جولة على كل النصب». كان أبعدها لا يبعد ميلين عن البرج ومعظمها كان ضمن مسافة ميل. ادعى زيد أنه لا يوجد ما أعرفه لأراه بالإضافة إلى ما يوجد «في بير الغانم، حيث يجب علينا أن نكون قد اتخذنا رفيقاً من عرب البلي[1]». من المؤكد فقط أنهم يحسبون كل ذلك على الريف المخرب من الحِجْر[2] الذي يقع بين مُبرك الناقة وبير الغانم، الذي يبعد حوالي ثلاثين ميلاً؛ ومن طريق التجارة القديم على طول، توجد آثار قرى نزولاً حتى المدينة. لكن البدو يقولون بصوت واحد، لا يوجد في أي مكان في هذه الأجزاء بيوت أو أبواب، أي حجرات في الصخر مثل تلك الموجودة في الحِجْر أو مدائن صالح.

كان زيد مشغولاً بجولة ركوب إلى خيام رجال قبيلته وقد قيّدهم جميعاً بعبارة «جارك» أنا جارك. رفضت زيداً، فلن أستأجر واحداً منهم. وقعت القرعة أننا سنكون رفيقين لوقت طويل آتٍ. كان زيد شيخاً داكن البشرة شبه أسود من الصحراء، متوسط القامة ومتوسط العمر، سيماه صارمة أضناها الجوع. اللون القاتم جداً لا ينظر إليه نظرة جيدة من قبل العرب، فالذين يسكنون في هذه المرتفعات هم ذوو لون بني داكن ضارب إلى السواد أقل مما هو ضارب إلى الحمرة. يعتقدون أنه يشبه الدم الوضيع للأعراق المستُعبدة، ولذلك حتى الشعر المجعد الملتف هو عيب في نظرهم. قد نتذكر في نشيد الإنشاد،أن الخليلة تبرِّر دكنة طلعتها الجميلة «أنا سوداء لكنني وسيمة أما أنتن بنات أورشليم، فمثل زرائب البدو، مثل أقمشة خيام سليمان»؛ إنها تمجد البياض الضارب إلى الحمرة لحبيبها. إن الظلام، الحرمان من النور، هو لون الموت، (الموت الأسود) وبالتشبيه، هو لون الغموض والشر. فقلب الرجل الشرير يوصف بأنه أسود (القلب الأسود). وفقاً لاستيهامهم هذا، فإن قاضي

---

(1) بلي: وهي قبيلة معروفة مشهورة في شمال غرب الجزيرة.

(2) الحِجْر: بلاد مدين.

كل الأرض في ساعة المحكمة الأخيرة سوف يطبق أسلوباً عربياً سهلاً في المحاسبة، فلا يتريث ليتفاوض مع كل نفس في بحر الأجيال، لأن جذام الصحراء الشرير الذي يطفح على وجوههم سوف يظهر بجلاء في الأشخاص الشريرين مثل سواد رهيب. في الكلام الإنجيلي، فإن النعجات سوف تفصل عن العنزات في ذلك مقارنة للون ـ والعادل سوف يشع مثل نور الشمس. يقول العرب عن الإنسان غير المفسَد: **قلبه أبيض**: ونحن [الإنكليز] نقول عنه بشكل مماثل: Candid. أطلق صوت زيد أعمق الأنغام التي سمعتها من حنجرة بشرية. فمثل هذا الشكل البدوي الذكر والخفيف كان بمقدور أستاذ في الرسم أن يرسمه بدلاً من **إسماعيلي الصحراء**. وجنتاه مجوفتان، عيناه تنظران بشكل صارم، من أرض المجاعة التي لا قانون لها، حيث كان أفضل غذاء له هو شرب القهوة في الصباح والتبغ؛ وحيث أعظم فضيلة بدوية هي **الصبر**، والقدرة على المواجهة الشجاعة وتحمّل الجوع. «آها والله (قال زيد) الأعراب **فاسدون** وكذلك الدولة» كان الأسى في قلبه؛ هذا الفيلسوف البدوي كان يتطلع بعيداً إلى الخارج إلى كل الكائنات البشرية بشك متسامح. كونه شيخاً بين رجال قبيلته ذا مولد وضيع لم يكن مع ذلك يحظى بتقدير مشرّف؛ فقد كانت مضافته هزيلة وهذا عار بالنسبة إلى القاطنين والبدو في الصحراء الخاوية. كان فهمه راقياً وتحررياً يليق برجل **مجلس** سبق له أن جلس في تلك المدرسة المثالية لبرلمان القبيلة، منذ شبابه، فلا شيء في زيد كان بربرياً وغير متمدن؛ فقد كان لمشيته تلك الرشاقة المتغطرسة للمخلوقات البرية. لم أرَ فيه أي أثر للمزاج العكر المتعصب. فقد كان يتكلم إليَّ باسماً عن أهل بلده المتعصبين؛ لأنه هو نفسه كان بإمكانه أن يتخيل جيداً أنه يكفي الله لحكم العالم، بدون تطفل الإنسان الأحمق. هذا الرجل المتمتع بصفات الرجال لم يكن بالشجاع المغامر، أو بالأحرى ما كان ليخاطر بأي شيء بتهور. كانت سياسته هي سياسة التقتير في البيت، التي تشبه البخل الخسيس؛ كان حذراً كبدوي أكثر مما كان بعيد النظر جداً. كانت صداقة زيد صادقة في الأغلب، ولم يكن

يُخشى كعدو. كان بإمكان زيد أن يكون كريماً حيث لا يكلفه ذلك شيئاً، ومن حكمته، أنه لم يكن يسارع إلى التدخل في أية مسألة غير مجدية.

جلب زيد (كان هذا من مكره الصحراوي) خمسة أفواه إلى القلعة: هذه الضيافة كانت مرهقة لمضيفيه، ومحمد علي، الذي ظن أن الدعابة انقلبت ضده، جاء في الغد إلى حجرتي بوجه مكفهر. سألني «هل كنت تعرف أن كل هذه الذرة يجب أن تُحَمل على ظهور الجمال من دمشق؟» فقلت، ـ دون أن أستدرك ما يعني ـ، إنني لم أطلبها؛ فقال بصوت عالٍ: «اتفقا معاً أو لا تستبقيه، يا خليل؛ هذا شيخ عرب، ألا تعرف أن قلب كل بدوي هو مع أهله، ولا يعرف الراحة في الغياب. بسبب الماشية التي تركها في البرية المفتوحة؟» سألتُ، ما إذا لم يكن من الأفضل، قبل كلمات أخرى، أن أرى النصب التذكارية؟ «معقول» قال هو، «وزيد سوف يأخذني إلى الباب الثاني» وخليل! «إنه شيء لم يُسمع به، لم يُشاهد أي مسيحي في هذه البلدان». (تقريباً عند باب الأماكن المقدسة). أجبت، وأنا أضع يدي على الحجارة غير المشذبة لبناء القلعة، «لكن هذه المداميك تشهد لصالحي فقد شيّدتها أيدي رجال مسيحيين».

«هذا كلام جيد، ونحن جميعاً هنا أصبحنا أصدقاءك: مسلماً كان أم نصرانياً، خليل الآن واحد منا؛ والله ما كنا نسمح لأحد غيرك لكن اذهب الآن مع زيد، وبعد ذلك سوف نتفق معه. وإذا لم يحصل ذلك قد أرسلك بنفسي لرؤية النصب مع بعض القلاع».

اجتزنا مسافة نصف ميل في اتجاه تلك الآبار القديمة، التي هي الآن مكان سقاية لبدو الريف، إنها عميقة عمق البئر في القلعة، باتساع عشرة أو اثنتي عشرة قدماً عند الفتحة؛ الحواف جُعلتْ مربعة على الجوانب، كما لو كانت منصات لنواعير الري القديمة. بطانة البئر من مداميك الحجر غير المشذب، بدون ملاط، (من يمكنه أن ينظر إلى شيء كهذا دون أن يتأثر؟) وقد حزّزتها بعمق الحبال الملساء لأجيال عديدة من البدو. والآن ألقيت نظرة، من

مسافة قصيرة، على أول نصب، وآخر منحوت فوقه، مثل رأس واجهة مبنى هائل، حيث لا يوجد مع ذلك سوى باب مسدود، يدخل قليلاً في الصخر، بدون حجرة. هذا النحت الذي هو بعرض سبعين قدماً، يدعى **قصر البنت**. إنه ليس، كما يدّعون، من غير الممكن بلوغه؛ بسبب صعود بعض الدرجات القديمة، الملحقة في الطرف الأبعد من الجرف، فإن رفاقي الحفاة قد تسلّقوا كل القصر الصخري. رأيت أن تلك الواجهة الشاهقة في الأسفل، ذات تناظر بلوري وجلال يتعارضان مع أنصاف القبب الغريبة لنُصُب البتراء؛ كذلك فإن هذه الصخرة هي من نفس الحجر الرملي المصقول الأصفر الرمادي ذي العروق الرملية وحصى الكوارتز الصغيرة. **القصر**، وصيغة الجمع **قصور** كان له بشكل عام في الجزيرة العربية معنى «المسكن الثابت»، سواء كان طينياً أم حجرياً، على العكس من **بيت الشعر**، أو البيت النقال، للبدو. هكذا، حتى أكواخ الطين، التي تُشاهد حول الأراضي الزراعية المترامية في البراري، وغير المسكونة بشكل دائم، تسمى قصوراً. **في حائل والرياض يطلق على مقر إقامة** الأمير اسم القصر كما لو كان «القلعة». القصر أيضاً في بعض قرى الصحراء، مجموعة متصلة من البيوت، محاطة بسور فناء واحد؛ لذلك يقولون عن قرية سميرا «إنها ثلاثة قصور». أي بناء قوي من أجل الدفاع والأمن، (مثل هذه المعاقل شائعة جداً في الجزيرة العربية) يدعى جلعة، بدلاً من قلعة. أما البرج، برج الدفاع، فهي كما يبدو كلمة أجنبية، لم أسمعها في نجد.

إلى الوراء من صخرة البرج، وصلنا تحت صرح رئيسي؛ في الواجهة رأيت لوحاً ونقشاً، والتي هي ملائمة لواجهة الحِجْر؛ يبلغ عرض العمارة المنحوته مع الأفاريز والأعمدة اثنتين وعشرين قدماً. تأملت فيما يمكن أن تكون الأحجية النائمة لتلك الحروف الزاحفة الغريبة التي قطعتُ كل هذه المسافات للبحث عنها! فالعمارة كلها مشغولة في الصخر؛ وقد تمّ اقتطاع مشربية في الجرف الصخري الأملس، وفي الوسط يوجد الصرح المنحوت الشبيه بالمعبد. المظهر كورنثي، الأبراج المستدقة ذات الدرج هي زخرفة آسيوية، لكنها هنا غريبة جداً على العين الأوروبية، رأيت أنها تُستعمل في بناء

بيوتهم الطينية في حائل. الأعمدة الجانبية المسطحة هي بمثابة الأوصال لجسم هذه العمارة؛ فتيجان الأعمدة ذات تصميم بسيط واحد، مجوّفة ومربعة في آنٍ واحد. وهي كلها كتلك التي شوهدت من قبل في البتراء. في وسط هذه الواجهة المعبدية المزيفة، نُحت رواق فخم، مع زخرفات العمارة. وعندما دخلت، لم أجد سوى حجرة كهفية منحوتة بخشونة، غير مرتفعة، ولا تتناسب مع أبهة الواجهة: (فنحن في موقع آثار مقدسة). رأيت في هذه الغرفة المظلمة بعض الكوى الجدارية الطويلة أو الغريفات؛ كل الأرضية مفروشة بالرمل المجروف بفعل الرياح. فكرت عندئذٍ أنني بالاستعانة بتلسكوب يمكن أن أنقل كتابة النقش الذي يظهر بشكل باهت في ضوء الشمس؛ لكن بلاء الذباب في كل لحظة كان يملأ عيني. هذه السحب من الذباب ـ يقول العرب ـ، هي بسبب عدم هطول المطر هنا في السنوات الأخيرة.

كانت شمس منتصف النهار الشتوية متقدة، تومض عن الرمل، وكان الهواء ساكناً تحت النُّصُب التي تضربها الشمس بشكل متكرر؛ كانت الحشرات المقرفة تعجّ برائحة المدافن القديمة. لم يتابع زيد إذ قال إن الشمس حامية أكثر مما ينبغي، فقد كان مرهقاً تماماً، فعدنا من معبر صخور البرج؛ وفي ذلك الممر رأيت نُصباً أخرى، وهي أيضاً ملفتة للنظر بين الواجهات في الحِجْر el-Hejer: على مقربة يقع مخيم القافلة والقلعة، وهما أول ما يزورهما الحجاج الفضوليون. تحت رواق أحدهما وفوق المدخل يوجد، كدعامات منحوتة، وحش بأربع أقدام؛ لا يُرى مثيل له في أي مكان آخر. إن الزخارف القاعدية الجانبية على رواق آخر هي مثل الغرفينات[1]؛ وهذه أيضاً منفردة. اللوح موجود هنا، وفي مكان آخر، مزيناً بزهرة مزخرفة بمنشار (ربما تكون زهرة رمان) من ست بتلات. فوق مدخل ثالث يوجد تمثال لطير منحوت بشكل رفيع على اللوح، بنقش نافر، والرأس لا يزال باقياً. كل طير منحوت آخر من هذه النُّصُب تراه مشغولاً بنقش نافر طبيعي مرتفع، يقف على قاعدة

(1) الغرفين: حيوان خرافي نصفه نسر ونصفه أسد (المترجم).

تمثال، منحوتاً على جدار الواجهة، الذي ينبثق من حافة القوصرة: لكن من بينها جميعاً، لم يتبق رأس؛ فهي أما أُتلفت عن طريق رميات الحجارة العابثة من أجيال الرعاة، أو بفعلِ عوامل الطقس، أما وقد دخلتُ الآن كثيراً منها، أدركت أن كل الحجرات النصبية هي حجرات مدفنية. . . فالغريفات الجدارية في الجدران المحفورة الواطئة لهذه الغرف الرباعية البدائية مصنوعة كرفوف قليلة العمق؛ من حيث الطول، عندما تُقاس إلى الجسم البشري، من الولد إلى الشخص البالغ؛ مع أن ضحالتها هي هكذا، بحيث لا يمكن أن تخدم كما أعتقد، لاستقبال الموتى. في الأرضيات الصخرية نشاهد حفراً قبرية، غائرة جنباً إلى جنب،مليئة بعظام البشر، والعظام منثورة على الأرضيات المفروشة بالرمل. رائحة المومياء الكريهة في بعض النُّصب، تكون ثقيلة في الأنف؛ فظننا أن عباءاتنا تصدر رائحة بغيضة عندما لم نكن قد بقينا في الداخل سوى دقائق قليلة. في نصب آخر من هذه النصب، بيت الشيخ، رأيت الأرضية الرملية مليئة بالخرق العفنة، ترتعش مع كل هبة ريح، ولدى التقاطها، وجدت أنها أكفان لتلك العظام اليابسة!

«خليل»، قال محمد علي: «أنصحك بأن تعطي زيداً ثلاثمائة قرشاً». وافقت، لكن الشيخ لم يكن يفكر بأن يكتفي بأقل من ألف. لو أنني كنت قد خضعت آنذاك لجشعهم الخيالي، لكانت الشائعة قد عمّت البلاد وجعلت أسفاري المستقبلية أشد خطورة. لكن عند رحيل زيد، وضعت قطعة ذهب كعربون صغير في يده، كي لا يعود إلى الوطن محتقراً؛ ووعدَ بأن يأتي من أجلي في وقت عودة الحجيج، لحملي على الإقامة معه بين البدو. كان زيد يأمل في أن يكون تلقيح مهارتي مفيداً له. كان للآغا تفكير آخر، فقد كان يشتهي بندقيتي، التي كانت قريبة خيالة إنكليزية تضفي قيمة عالية في هذه البلدان غير المستقرة على كل الأسلحة الجيدة. «لذا قال لي: أعطني هذه يا خليل، سأرسل إليك كل يوم مع بعض رجال القلعة إلى أن تكون قد رأيت كل ما تود رؤيته من النُّصب؛ وسأرسلك لترى مزيداً من هذه الأشياء، إلى العلا: وبعد ذلك، حتى لو كنت تودّ الذهاب إلى ابن رشيد، سأتدبر حتى إرسالك

إلى هناك». . . زرنا بعدئذٍ الصخور الغربية هذا اسم أيضاً لكل نُصُب من حجر «عدا بيت الساني». توجد واجهات أخرى كثيرة في واجهة الجرف الصخري غير المنتظم ومشربيات من هذا الجرف، ذي العمارة المحفورة الصنعية نفسها، عدد قليل غير منهار مع ذات النسور، البعض بدون نقوش أخرى. في بعض منها توجد ألواح نقش لا تزال غير مكتوبة. بعض الواجهات تُشاهد هنا شبه تالفة ومطموسة بفعل الطقس، الجروف المليئة بهذه النصب هي «مدائن صالح». كنا الآن على بعد خمس ساعات في الخارج؛ فرفاقي المسلحون بالبواريد الفتيلية الطويلة، سمحوا لي بصعوبة بأن أتريّث في مكاني لحظة لالتقاط الأنفاس وهم يقولون: «إنه جوار خطر أكثر مما يخطر في بالك؛ فقد يباغتنا البدو المعادون من أي مكان من هذه الصخور والحجرات، إن حياة العرب مليئة بالريبة؛ كانوا يفتلون رؤوسهم بخشية دائمة؛ محدقين في كل مكان من حولهم» كذلك فإن الحاج نجم لكونه قد سفك دم (وُلْد علي)، كان دوماً في خوف من أن يُباغت خارج قلعته. في قعر السهل هذا حيث مررنا، بين الجروف الصخرية والنصب، تشاهد مجموعات من الكسر الفخارية المنثورة والزجاج المكسر. والتقطنا أيضاً بعض قطع النحاس الصغيرة التي يسميها البدو حماريات (ربما حِمّيريات[1]) من عملة قديمة صدئة. أما قطع الفضة والذهب فلا يصادفها العرب إلا نادراً في الأرض حيث تكون الجمال قد تمرغت. فقد وجد قروي من العلا قبل ثلاثين سنة في قدر حجري، حوالي (بوشل)[2] من النقود الفضية القديمة. كذلك فإن اثنين من رجال قبيلة وُلْد علي، أعرف أحدهما، كان قد وجد كنزاً كهذا في الأعوام الأخيرة. على بعض النقود الحميرية التي لم تكن متآكلة بالكامل تظهر بومة أثينية مختومة، مقلّدة بشكل ظاهر للعيان عن النقود اليونانية؛ إنها [نقود] حميرية. إن كسر الفخار والزجاج المكسور، مادة غير قابلة للتلف تقريباً، توجد في كل المواقع

(1) حميريات: نسبة إلى قبيلة حِمْيَر القديمة.

(2) البوشل: مكيال يعادل 8 غالونات أو حوالي 32 لتراً.. (المترجم).

القديمة في الجزيرة العربية: لا أحد هنا في هذه الأيام يستعمل هذه الآنية القصيفة، بل الأواني الخشبية والنحاسية المطلية[1] بالقصدير فقط. فالجزيرة العربية آنذاك كانت أكثر مدنية مع وجود طرق التجارة الكبيرة للعالم القديم! إن الجزيرة العربية في أيامنا تمتلك مظهر بلد مهدّم. كل الأمم تاجرت بالذهب والبخور المقدس، إلى العربية السعيدة ؛ أما اليوم فإن العالم المعروف لا حاجة به لأبنية الجزيرة العربية؛ إنها مهجورة ومقفرة.

لقد بقي القليل من الأجيال المدنية القديمة للحِجْر، مدينة القوافل؛ شوارعها المبنية من الطين صارت مرة أخرى غباراً مذروراً في البراري. قصتها مكتوبة من أجلنا فقط في الخربشات التالفة على كثير من الجروف الصخرية البرية لهذا الجوار المشؤوم، وفي العناوين المنقوشة لنصبها الدفينة التي هي الآن صخور منفردة، تثير إعجاب المسافر الخائف في هذه الجبال المهجورة. إن بقع الكسر الفخارية يمكن أن تدل على المواقع القديمة المأهولة، التي ربما كانت سلسلة من القرى: إنه الأسلوب المعتاد للمستوطنات السامية في بلدان الواحات التي أقاموها على عروق الماء الجوفي. ربما كانت السوق وهذه الضواحي، هي المركز التجاري لحِجْر مع بساتين النخيل التي تسوّرها.

وصلنا أخيراً إلى محل المجلس أو مجلس الشيوخ، هنا واجهة جرف منفرد محفور وقد تحوّل إلى صرح هائل عرضه أكثر من أربعين قدماً، ببساطة مقبولة ومهيبة، فالعمادات الجانبية الكبيرة على شكل أزواج، وهو الأمر الذي لا يُشاهد في أي مكان آخر؛ بغض النظر عن هذه الفخامة، فإن الواجهة الضخمة بقيت غير مكتملة. من كان مؤلف هذه البداية الذي ظل لوحده تقريباً في خيلائه القبري الرهيب؟ لأن كل الحجرة في الداخل ليست سوى زنزانة بدائية ذات قبر أو قبرين. ومما لا شك فيه أن اسمه هو الذي كان محفوراً في لوحة العنوان الضخمة، وهو عبارة عن سطر واحد هو من الكبر بحيث لا يوجد أي سطر آخر، بحروف جارية محفورة عميقاً، يقرؤها

(1) الطلي بالقصدير خاص بالنحاس فقط.

الآن المفسرون المتعلمون، من أجل حائل بن دونا (و) ذريته: العناوين لم يكن من الممكن أن تُقرأ في زمن محمد. إن المدخل غير المكتمل مع النسر والزخارف الجانبية، متروك كما تمّ تشكيله في القلعة. العمادات الكبيرة ليست منحوتة بالكامل نزولاً إلى الأرض، فالكتل الصخرية الناتئة وغير المشذبة مع ذلك لا تزال أمام النُّصب، مقطعة إلى كتل شبه جاهزة لكي تُزال، يُشاهد فيها أسلوب الاقتلاع لدى الحجارين القدماء. قال رفاقي الأجلاف وهم يرونني الكتل «هذه كانت المقاعد الحجرية لأعضاء مجلس المدينة».

كانت واجهات المدافن وأبواب «القصور المهجورة» خشبية بالتأكيد في هذه البلاد، (حيث أيضاً لا يوجد حجر من أجل الأرصفة)، من المحتمل أنها كانت من خشب السنط (الأكاسيا) والطرفاء؛ التي مما لا شك فيه أنها قد استهلكت منذ زمن طويل في مواقد الحراسة البهيجة للبدو، علاوة على ذلك أنه لم يردعهم أي دين عن الإيمان بالأموات في الوثنية. بغض النظر عن محاكاة الفخامة (الرومانية) لهؤلاء التجار بالنسبة إلى السبئيين، لا يُشاهد أي لوح رخامي في جميع نُصبهم، ولا أية قطعة رخامية منحوتة على سهل حِجْر. كان يكفيهم أن «يكتبوا بقلم حديدي إلى الأبد» على الصخر الرملي الناعم لهذه الجبال العربية. يشاهد نقر في عضادات كل الأبواب، كما هو مفترض لتلقي رتاج قفل خشبي. تكون الواجهات غالباً مخدوشة بالخربشات البليدة لرجال القبائل القدماء. تأملت في روية كيف أنها في الغالب تشبه الحروف الحميرية الطفولية.

عودة الحاج

تأكد لي الآن أن الجدري قد انتشر بين الحجيج. هذا المرض المرعب وحمى الكوليرا هما سبب فناء الجزيرة العربية البدوية. في أجسامهم السيئة التغذية لا توجد سوى مقاومة ضئيلة لأي داء خبيث. إن قوافل الحج (الكثير منها من إمارات الجزيرة العربية نفسها) هي بمثابة سيول من أنتان المدن الذي يجري كل عام عبر شبه الجزيرة القاحلة.

في الصباح الثامن من هذا الانتظار الطويل، كان الحجيج الذين سافروا طوال الليل، يُشاهدون وهم يصلون إلى السهل. كان جند الجردة[1] يعدون بسرعة، ويقفون مع ضباطهم لتحية الباشا، يتقدمهم ناصبو الخيام. في دقائق قليلة نصبوا بلدة خيام الحجاج، قرب مخيم الجردة. كانت الصلصلات ترن مرة أخرى في آذاننا، الموزونة على المشية الرزينة لجمال الحمولة الضخمة صلصلات تخوت الروم ذات الأُبهة (لكنها الآن قليلة المردود). جاء الحشد المتعدد الألوان للحجيج ممتطياً. مرّت مواكبهم المتتشرة بغير نظام لمدة نصف ساعة، عندما عاودتْ آخر جماعة دخول أماكن نزلهم. مرتين كل عام تقف مدينة القوافل هذه ليوم واحد، في السهل الثمودي المليء بالزحام! جلس الإسكافيون عند زوايا السوق ليديروا تجارتهم؛ كان معهم نعال خام لجمال ساقطة على الطريق، وبمثل هذه النعال كانوا يرقعون أحذية أولئك الذين يسافرون طويلاً سيراً على الأقدام، سرعان ما تمّ تكبير شارع الجردة لحوانيت

(1) المقصود بالجردة الجند المصاحب لقافلة الحج لحمايتها من قطّاع الطريق.

الخيام بخيام التجار الجدد. إن سعر السلع الصغيرة، في محطة منتصف الطريق هذه، يبلغ خمسة إلى ثمانية أضعاف قيمة السوق في دمشق. فالجردة قد جلبوا الزيتون السوري، والكراث والجبن وبسكويت القوافل. كان خباز الجردة مشغولاً بموقده المكون من العيدان في الأرض والمقالي الطوقية، التنور، لصنع خبز مفلطح أبيض ناعم، مقابل بنسات الحجاج الفقراء. رأيت أن الحلوى المنعشة والليمون الحامض والتمر الحلو، من العلا، تُباع سريعاً جداً. فتح التجار الراكبون على الجمال من دمشق بالاتهم في الخيام وأخرجوا فناجين القهوة، والأواني الحديدية، والسجاد النفيس (مثل حدائق ذات ألوان ناضرة وناعمة مثل مروج الربيع). هدايا لأجل الشيوخ الكبار! وألبسة لأجل البدو الفقراء. يجلب تجار الحج العائدون السلع من مكة؛ شاهدت في أكشاك خيامهم أكواماً من القهوة من اليمن (العربية السعيدة). . . . عوملت بطريقة ودية من قبل ضباط الجردة، وامتدحني محمد علي إلى الباشا؛ لكنني لم أفكر أن من اللائق أن أزوره في وقت مبكر من النهار المزدحم وهو الذي كان مستاءً استياءً شديداً من قدومي إلى مدائن صالح. وقد سمعت كل ذاك الموضوع من محمد علي، في مزاجه الأحسن حالاً وفي لحظات غضبه. في الليلة الكانونية[1] لانطلاق الحجيج من مدائن صالح، كان السيد أمين التركي ومحمد سعيد باشا قد أرسلا، قبل أن يتحركا، في طلب محمد علي مرة أخرى. «والله، قالا له، ألم تخفِ النصراني، لإرساله سراً إلى المدينة ومكة؟» «يشهد عليَّ الله، أن هذا الرجل بالتأكيد قد غامر بالذهاب إلى هناك فقط ليرى مدائن صالح: ثقوا بي إنه لن يذهب خطوة أبعد من ذلك: بأي حال سأعرف كيف أتركه؛ لكنني سأذهب لأحضره أمامكما: سيجيب عن نفسه». «لا». قال الباشا، «لن أرى وجهه، وأنا لدي كرامة لأحفظها». (ربما عندما زرته في دمشق، لم أكن قد راعيت أن أنادي المختلس البدين القديم للأموال العامة بكلمة «فخامتك»!) قال السيد أمين (من اسطمبول)، «اسمع، يا قلعجي، إذا

(1) المقصود بالليلة الباردة جداً، حيث إنَّ شهر كانون الأول والثاني من أبرد شهور السنة.

كان هذا الإنكليزي سيتبعنا ولو خطوة أخرى إلى المدينة، ستجلب لي رأس الكلب [الإنكليز، الذين يساعدون هؤلاء البربريين في القسطنطينية الذين لا يمكن تعليمهم، سيقتلونك سراً، ويدعون الكلاب حية في المدينة ومكة!]». قال الباشا لمحمد علي، «دعه يبقى معك في القلعة، وأنت ترسله يتجول في كل النصب، بحيث لا يأتي فرنجة آخرون إلى هنا بعد الآن. انتبه إلى ذلك، لئلّا يصيب هذا الرجل مكروه، لأنه والله سنطالب بتأمين حياته على يدك» سيد أمين: «بالله العظيم، إذا لم نجده حياً عند مجيئنا مرة أخرى، سوف نشنقك يا محمد علي، فوق باب قلعتك». كانوا مغتاظين من استدعائهم مؤخراً لأجل السؤال عن حياة المواطنين الأوروبيين. تفكَّرَ محمد علي في ذلك بشكل جريء وأجاب ضاحكاً: «سيطيع أوامرهما، ولكن بالله الجليل إنه مغربي، ولا يخاف من مخلوق حي». الآن يجب أن أسأل عن هبة الباشا، أي، إنه سوف يوصي بي إلى البدو الهمجيين في الطريق. عندما تحركت القافلة في الصباح، كان عليَّ أن أتقدم لأتجول مع العربي في البرية الشاسعة. كان ضباط الجردة قد غيروا رأي زيد، وكذلك حتى الباشا نفسه؛ لكن زيد كان يأمل في كسب الفضة، ولم يكونوا يمتلكون أية سلطة على الإطلاق على بدوي حر.

•

الباشا. الرحيل مع زيد

عند طلقة المدفع الأخيرة، قبل الفجر، حمَّل البدو جمالهم وارتحلوا. رأيت عن طريق النجوم أن طريقنا يمتد كثيراً باتجاه الشرق. لأن العرب مليئون بكل المكر الذي يمكن أن يفيدهم، فقد كان لدي عندئذٍ شبه شك برفقتي، حتى طلوع الفجر عندما لمحت من بعيد حاملي الحجاج بني صخر، قادمين بشكل فوضوي مع ترانيمهم البدوية الفجة، فالجسم الرئيسي للقافلة، بعيداً في الخلف، لكن لم يكن بعدُ منظوراً؛ رأيت أيضاً آثار الدواليب القديمة لمدفع الجردة، وعرفت بموجب ذلك بشكل مؤكد، أننا كنا في الطريق. لكن من أجل مزيد من التأكد، ترجلت لأمشي؛ وأخذت قسماً من زيد، الذي قطع الاتصال البارحة، بأن يسافر معي، أمام الباشا. منذ وقت قريب شاهدنا الباشا، يركب مبتعداً في الأمام، مع ضباطه وقليل من الجنود، كان ذلك قرب شوك العجوز. ثم ركبت مع زيد على ناقته (جملي كان مريضاً) وسرنا إليهم في خبب رشيق. حيا زيد بالبساطة البدوية النبيلة بنبراته الصارمة العميقة، وكإقطاعي في ضيعته الخاصة به، «رافقتكم السلامة» وقال محمد سعيد، وهو لا يسمع سوى الصوت البدوي خلفه، «هو!» مرة أخرى، دون أن يلتفت، لكنه ينظر جانباً تحت الشمس، رآني فعرفني؛ فقال على الفور بفكاهة جيدة لرفيقي البدوي، «أعهد به إليك، و(هو يضع اليد اليمنى فوق قلبه) فاعتنِ به كما تعتني بعينك». لذلك قال لي، هل أنهيت كل شيء في مدائن صالح؟ النقوش القبرية (الثمودية)، ما هي؟ هل تعتقد أن ثمة أحداً في بلادكم قادراً على قراءتها؟ وماذا عن البيوت؟ ألم تقل إنها لم تكن بيوتاً، بل مدافن؟ لكن

ألم تعثر على أي كنز؟ ـ وداعاً، توانيت مع ذلك، فتكلمت إلى الباشا عن الجمل المريض الذي اشتراه زيد لأجلي، فقال لزيد: «اسمع! أنت ستعيد الجمل إلى صاحبه، واسترجع المال مرة أخرى؛ و(موجهاً كلامه إليّ) قال: وإذا لم يفعل هذا البدوي ذلك سوف استرجعه أنا بنفسي منه في دمشق. (ومن ثمّ وجّه كلامه إلى زيد) أين يكون عريبك الآن؟

«على مسافة حوالي يوم واحد إلى الشرق من هنا، وجههم نحو تيماء».

سألني الباشا غاضباً: «إلى أين أنت ذاهب؟»

«إلى تيماء، إلى حائل، وآمل أن أذهب إلى خيبر».

أطلق الباشا زفرة: كان يمقت زيارتي إلى خيبر، التي تقع في دائرة المدينة المنورة، أجاب: «يحمل اللقاح معه وهذا سيكون لأجل سلامته بين العرب؛ رأيت ذلك بنفسي». وأضاف قائلاً، هل كل نقوشك معاً في اللفيفة التي سلمتها إلي؟

أجبت على الفور: «كلها موجودة وإن شاء الله سأكشفها ذات يوم لفضيلتك في دمشق».

أجاب الباشا بوقار: «إن شاء الله».

ومما لا شك فيه أن رأيه هو أنني من الصعب جداً أن أعود من هذه المغامرة العربية ـ كما أسرّ لي زيد فيما بعد ـ ناقلاً خطاب الباشا في خيام البدو، كثيراً من الباللهات[1] / الأيمان بالله البدوية، ولم أنطق أبداً، بحيث كنت أصغي إليه كمن يحلم.

ونحن نرحل عنهم، تنحينا جانباً عن طريق الحج، وذهبنا لنملأ قِربنا من بركة ماء مطر عذب. ثم دخلنا شرقاً في مرتفع برج سليمان الحجري الرملي المقفر، فوجدنا أمامنا سرباً لا نهاية له من الجراد، يطير ويحط تحت جفنات

(1) جمع لفظ الجلالة بالله المقسم بها.

الصحراء، إنه موعد تكاثره؛ أُنجزت مهمة الطبيعة، يبدو أن الجراد سيهلك قريباً. عندما ذهبنا لنفطر وجد زيد قليلاً من الكراث البري وحوضاً صغيراً من الزبيدي[1]، الذي عندما يُشوى لا يختلف كثيراً عن البطاطا. واقتلع أيضاً عيداناً من غصن نوع من الخضار لذيذ الطعم، (ذعلوق) والحماض البري، وقدمه لي لآكله؛ وهو يأخذ من حقيبة سرجه قطعة من خبز الشعير، كسرها وقسمها بيننا. «هذا» قال، هو من صرتنا؛ ألا يمكنك أن تأكل من خبز البدو يا خليل؟ «اجتزنا النجد[2] الذي يطلقون عليه اسم برج سلمان (اسم قديم من العصر البطولي لبني هلال) وهو امتداد مقفر من الحصباء والرمل، مليء بجروف الحجر الرملي الشديدة الانحدار. هذه ـ قال زيد، وهو يريني التربة القاحلة بيده الداكنة البشرة ـ هي أرض البدو. كان يراقب ليرى إن كان ابن المدينة قد ثبطت همته برؤية صحرائهم الخالية أمامه. وقال، «اسمع يا خليل؛ هكذا ستعيش هنا معنا، نقودك يمكن أن ترسل إليك عاماً بعد عام مع الحجيج، وسنعطيك خادمة لتتزوجها، وإذا ولد لك أولاد، فإنك لن تذهب من هنا، سيكونون مثل أولادي، أي بالله، ويبقون معي» ـ كما لو أنه سيعطيني من قطيعه جملاً.

(1) الزبيدي: نوع من الكمأة.

(2) النجد: المرتفع.

الحياة البدوية

وانطلقنا نتناوب المشي والركوب، وعندما كان زيد يريد تبديل عباءاتنا، حتى وقت متأخر من العصر؛ عندئذٍ كان يشك فيما إذا كان بمقدورنا أن نصل إلى العرب في هذا الوقت من النهار. إنهم يتنقلون غالباً، فلم يكن بمقدور زيد أن يحدد أرض مخيمهم ضمن عشرة أو عشرين ميلاً. ذهب أحد العقيليين الليلة الماضية برفقتنا، مسلحاً بمطرقة، وساق جملي إلى الأمام. عندما بحثنا عن العرب شاهدنا فجأة كتلاً مترنحة بطيئة من الجمال ترعى بشكل متفرق تحت الأفق؛ الشمس تقترب من الغروب، كانت تُساق نحو مخيم البدو، المنزل، على بعد ساعة أخرى. عندما وصلنا إلى الرعاة، ترجلنا وجلسنا، وكان أحد الغلمان «يستلم قصعتنا، جرى تحت ناقاته ليحلبها لأجلنا. هذا خير الله، يجب ألا يُمنع عن أي إنسان مسافر، حتى ولو كان أصحاب النوق الفقراء سيبيتون بلا عشاء. بعد ذلك بقليل، استفسر مرافقيَّ، إن كنت أشعر بأي سوء» لأن الغرباء، كما قالوا، يشعرون عموماً بألم بعد شرب حليب النوق لأول مرة». هذا الحليب الرقيق غير المستساغ بشكل ما يتحول فوراً إلى خثارات صلبة في المعدة[1].

لدى الاقتراب من خيام البدو تطلعت إلى الوراء مع العقيلي، نراقب جلال الصحراء، في حين كان مضيفنا زيد قد سبقنا. وجدنا أن خيمته صغيرة

(1) كلامه غير صحيح بل إنّه أفضل مسهل للأمعاء، بل أثبت الطب الحديث أنّه علاج لكثير من الأمراض.

أو هي خيمة لتمضية الوقت، ويسمونها حجرة «مبنية» (هكذا يقولون) على رمل الصحراء. كانت تبدو فقيرة وضيقة، لا تليق بشيخ كبير، ولم يكن ثمة سجاد زاهي الألوان مفروش بداخلها. هنا لم يكن يوجد الرفاه الذي عرفته حتى الآن، لدى البدو الشماليين. قادني زيد إلى الداخل بابتسامته الصارمة؛ وما أثار دهشتي قليلاً، أنني يجب أن أخطو خلفه إلى قسم النساء. هؤلاء البدو المهاجرون أحياناً، الذين ليس لديهم أي شك بالنصارى، فقد شاهدوهم في الشمال وسمعوهم ولديهم قناعة بأنهم أناس شريفون ذوو سمعة حسنة، أكثر من المسلمين. هناك قدّمني إلى زوجته الشابة: «خليل (قال)، هذه هي همتك (أي مضيفتك)؛ وهرفة، هذا خليل، واحرصي أن تعتني به جيداً». قبل الصباح كان رجال القبيلة الغائبون قد عادوا من سوق الحج؛ أقام البدو حتى الآن يوماً واحداً في برج سلمان: في اليوم الثالث ارتحلنا. يبلغ امتداد هذا الريف حوالي 4,500 قدماً.

إن إزالة مخيم العرب، وسَوْق الماشية معهم من مرعى إلى آخر تُدعى رحلة. في مجلسهم المنعقد البارحة قرروا إلى أين الرحيل والموعد في الصباح الباكر؛ أو أن يترك ذلك في يد الشيخ، فأولئك الذين في المقصورات المجاورة يراقبون متى يطلع النهار، ليروا إن كان حريم الشيخ حتى الآن قد قوضن خيمهن، وبرؤية ذلك، تكون الرحلة. عندئذ، تسارع ربات المنزل البدويات إلى اقتلاع أوتاد الخيام[1]، فتسقط مقصوراتهن؛ يتم لف قماش الخيام، وتجمع أعمدة الخيام مع بعضها وتعصب في حزمة؛ هكذا يخرجن الأمتعة المنزلية (مضبوبة في أكياس صوفية من حياكتهن الخاصة)[2]، لتحميلها على جمال الحمل. عندما يرى الجيران والجيران المجاورون هؤلاء، فإن كل المقصورات ترمى حالاً في المنزل المشتت الواسع. يتقدم الرعاة الآن إلى الأمام؛ أما الحريم [جمع حرمة، امرأة] فيركبن مع أمتعتهن؛ يتقدم الرجال،

---

(1) الخيام من القطن الأبيض، وتلك المصنوعة من شعر الماعز تُسمّى بيوتاً.

(2) الأكياس المصنوعة عندهم تُسمّى مزودة وجمعها مزاود.

لا يحملون سوى أسلحتهم، سيف أو بندقية فتيل، تتدلى من شجرة السرج[1] خلفهم، والرماح الطويلة في أيديهم، راكبين جمالهم، يتبعون الركب مع الشيخ؛ ـ وهذه هي مسيرة القرية البدوية[2]. لكن إذا بقيت خيمة الشيخ منتصبة ومرّت ساعة على شروق الشمس، عندها يتعيّن سَوق الماشية إلى المرعى، حيث يردد الناس «لن تكون رحلة اليوم، دعوا الدواب ترعى إذاً».

هذا الفجر، في حوالي السادس عشر من شهر شباط، كان الجو عاصفاً وبارداً في ذاك الريف المرتفع. شيل، [أي احمل الآن]، صاح زيد وهرفة[3]، التي كانت ترتجف وتتنهد وكانت تجمع أدواتهم المنزلية، لا يساعد الأزواج الشيوخ ربات منازلهم الضعيفات في حزم الأمتعة؛ فقد كان ذلك إهانة حتى في عيون النساء. يجلس الرجال، وهم يُدفئون أنفسهم فوق عيدان متقدة قد جمعوها، حتى آخر لحظة، وعلى العموم فقد كان زيد يصنع القهوة. تُدخَل جمال الحمل وتناخ بين الأحمال؛ وحدهم الرعاة يساعدون هرفة على تحميلها على سروج رَزْم بدائية تتألف من هيكل خشبي من خشب أقاقيا الصحراء، هو نتاج جهد صانع بدوي أو صليبي. إن الدثار الذي يوضع تحت السرج المصنوع من قماش الخيام العتيق، الوِثر، يكون محشواً ببعض الأعشاب الجافة، ويُحزم كله تحت بطن الجمل بحبل بسيط. طُلب من زيد المساعدة في رفع الأحمال، لأنها كانت ثقيلة جداً ففعل ذلك متذمراً، متمتماً «هل كان الشيخ حمّالاً ليحمل الأثقال؟» لقد ساعدتهن أيضاً على تثبيت أنصاف الأحمال الثقيلة وربطت أجناب السروج إلى أن أصبحت بشكل متساوٍ ورُبطت. كان زيد أميراً صغيراً في قبيلة ليست وضيعة. مثل هذا الشيخ لا ينبغي عليه في نظر الرجال أن يضع يده في أي عمل شاق أو حقير؛ إنه يترك ذلك لعامله. فالشيخ الجليل يجوز له أن يأخذ على عاتقه عناية جزئية بفرسه، في المنزل، في حين

(1) ما يوضع على ظهر الجمل يُسمّى رحلاً، وما يُوضع على ظهر الحصان يُسمّى سرجاً.
(2) هذه تُسمى نزلة فالقرية ما بُنيت فيها البيوت الحجرية أو الطينية.
(3) هرفة: زوجة زيد

أن الرعاة يرعون القطيع طوال النهار في البراري؛ مع أن الشيخ يكون قد ساقها إلى البئر، إذا كان هناك أي بئر في الجوار، فإنه ينادي على أي رجل من رجال القبيلة العوام لكي يسحب لها الماء. مع ذلك فإن أبناء الشيوخ حينما يكونون أطفالاً، ولاحقاً كشباب مسلحين، يخرجون كثيراً مع ماشية القبيلة والمرافقين مع الرعاة. لقد رأيت زيداً يخرج مع منجل عشب ليحش علف مهرته ويجلب مرة أخرى ملء عباءة على ظهره، ويتمتم، بكرب في وجهه الأسود، فقد كان ذلك من مهمة ابنه سليم الصبي المتمرد في أغلب الأحيان، كان يوبخه، داعياً إياه مصدر عذاب حياته، **شيطان**، إلا أنه لا يزعجه أبداً، لأن ذلك كان بعيداً عن ذهن الأب البدوي.

بالكاد قطعنا عشرة أميال، ونصبنا الخيام على مسافة أربع ساعات إلى الشرق من دار الحمرا. فانشغلت الحريم «ببناء» خيامهن، أما الرجال، فعندما ترجلوا كانوا متبطلين، فعندما يرعون القطعان أو يركبون الخيول في غزوة يجلسون طوال النهار في البيت متكاسلين ومستبدين فقط «الجّواري (ربات المنزل البدويات) كما يقولون، هن من أجل عمل البيت ولكي يكنَّ تحت التأديب». إن زيداً، بقدميه الغائصتين في الضفة الرملية حيث التجأنا من الريح العاصفة إلى أن انتصبت البيوت، قد صنع موقداً؛ ثم ركع بالابتهاج البدوي ليوقد نارنا الغجرية. قام سليم بجمع الحطب، وجلسنا لكي ندفىء أنفسنا ونشوي الجراد.

هنا مكثنا يومين، وارتحلنا من جديد خمس ساعات شرقاً عبر الأرض المستنقعية الرملية نفسها، ذات الطقس المعتدل، ونصبنا الخيام في أرض التخييم المسماة العنترية. يكون الهواء النقي عليلاً وخفيفاً في هذه الصحارى العالية، لكن الماء شحيح وملوث ببول الجمال. تصدّقت هرفة عليّ، بأمر من زيد، بأونصة أو أونصتين بالكاد من الماء الثمين كل صباح، كي أغتسل «مثل أهل المدن». كانت تظن أنه من التبذير أن تريق الماء هكذا في حين أن أهل القبيلة العطاشى طوال اليوم لا يجدون الماء الكافي ليشربوا. في مرات كثيرة

بين سقاياتهم لا يُترك ثُمن $\frac{1}{8}$ غالون من الماء في خيام أكبر الشيوخ؛ وعندما يأمر الرجل الطيب ربة منزله أن تملأ الطاسة لصنع القهوة لضيوفه يأتيه الجواب من جانبهن، «ليس لدينا ماء» يُستهلك الكثير جداً من احتياطي الشيخ الكبير من قبل فرسه؛ فالحصان، من بين كل الدواب في الصحراء، هو الأقل صبراً على العطش. كان زيد يستعمل غالباً هذا العذر المعسول، (كونه بائساً حتى في التوزيع للقهوة،) «لا يوجد ماء». جاء مطلق الشيخ الكبير ذات صباح لزيارتي، فسألني أولاً: «هل شربت القهوة؟» - «لا، اليوم، يقولون إنه لا يوجد ماء؛» - «ماذا! سأل، ألم يصنع لك زيد القهوة هذا الصباح؟» لأنه حتى الشيوخ الفقراء لا يقصرون في تقديم فنجان الصباح، كل واحد لأصحابه. كان مطلق يعرف ابن عمه زيداً، وابتسم، قائلاً. «ما هذا» زيد ليس عنده ماء! لكن، يا خليل، تعال إلينا وسأصنع لك القهوة». قادني إلى خيمته، التي لم تكن بعيدة، حيث، جلسنا إلى الموقد، وكان هو نفسه شيخ قبيلته، قام بتحميص وطحن وغلي وإعداد هذا الفنجان من الضيافة لأجل الغريب المسيحي. في ذلك المكان صدف أن فقد زيد جملاً، أنهكته الذئاب. ركب فرسه في ضوء النهار، وساق ومعه رمح الفارس المرتعش الطويل على كتفه ليقتفي آثاره. بعد يوم عاد زيد إلينا، وهو يسوق دابته المفقودة: فقد وجدها قرب بركة معدّم(1).

---

(1) لعلّها بركة المعظم.

مرعى الربيع. المخيم. الخيام

كانت الجمال التي تتغذى الآن على الربيع الريان جزين[1] أو «لا تشرب». في سنوات الربيع الجيد تبقى في هذه الديرات حوالي شهرين ونصف لا تشرب ولا تُساق إلى الشرب. عندئذٍ، تستخلص قوة الحياة من العشب الغض جداً على الأرض، أما الذابل منه تحت الشمس فيتم تجفيفه. بعد وابل من المطر، وعندما تجد الماشية الكبيرة ماء المطر المتجمع في الصخور الجوفاء، فقد رأيتها تتباطأ لتحني أعناقها الطويلة الثقيلة؛ وهكذا تتنشقه، ولا تبلل سوى أطراف شفاهها المفترة، تنفخها وتهزّ الرأس مرة أخرى كما لو كان ذلك بقرف. تكون جمال البدو قوية ومرحة في هذه الأسابيع الغنية بمرعى الربيع. إنها الآن تدّخر اللحم، والشحم في نتوءاتها، من أجل كسل صيف الصحراء والعام الطويل. عندما تُساق إلى البيت ممتلئة البطون عند غروب الشمس تأتي ممتلئة الجسم بشكل هائل أمام رعاتها: ينطلق أرباب البيوت حيث يكمنون لها وهي تجري متمايلة بقربهم، بكلمات وولو وولو وولو بصوت عالٍ، ولإبقائها بكلمات ووه ـ هو، ووه ـ هو، ووه ـ هو! يعنفون أي جمل يرتطم بحبل خيمة بكلمة هتش! تُناخ الجمال على شكل مجموعات بجانب بعضها حول، وأكثرها أمام، بيت صاحبها، وهناك تبرك طوال الليل تجتر وتمضغ ما تجترّه حتى صباح اليوم التالي. يقول الأعراب إن جمالهم لا تنام؛ فالحيوان المتعب يمكنه أن يمطّ عنقه الطويل على الأرض، مغلقاً في هذه

(1) الجزو: للإبل البقاء في البرية واكتفاءها بالعشب الرطب عن ورود الماء.

الأثناء عينيه البراقتين الكبيرتين؛ لكن بعد فسحة يرفع مرة أخرى الجسم الواهن الكبير ويستغرق في الاجترار. في هذا الفصل المنعش تنهض هذه الجمال لترعى من جديد في ضوء القمر وتتجول بين مضارب الأعراب الهاجعين، لكنها تكون خائفة بالطبيعة، فلا تشرد بعيداً جداً بعدئذٍ. في بعض الأحيان كنا نستيقظ بعد منتصف الليل ونرى أن جمالنا قد شردت، فكنتُ أخرج لجلبها؛ لكن البدو يقولون لي: «تابع نومك، لا داعي لذلك، دعها تتغذى كما تشاء». سيرونها ترعى الآن بكل ما بوسعها؛ لذلك ليس من النادر أن يحرمهم من ماشيتهم لصوص الليل[1] الذي يطوفون خلسة. إن الجمال مورد الرزق الوحيد للبدو، وهي السبب الرئيس لكل صراعهم.

يقولون نشيل، نحمل عليها، ونشرب حليبها. تحمل النوق صغارها اثني عشر شهراً، وموعد الولادة، يقع في بداية الربيع. يقسم العام البدوي بهذا الشكل: الربيع، من ثلاثة أشهر، القيظ، منتصف الصيف، ثلاثة أشهر، الصفري، الخريف، ثلاثة أشهر والشتاء. لكي تكون إنساناً مؤهلاً في هذا النوع من التراث، يجب أن تعمل كاتباً مع البدو، وأن تمتلك معرفة المسافر بالنجوم. وهم عندما يجدون مرعى جيداً يخيّمون، وكنا نقيم على تلك الأرض في معظم الأحيان حتى الصباح الثالث أو الرابع. وعن البدو القاطنين، حتى اليوم التالي، في أي مكان، يقولون الأعراب مجيمين [مقيمين] (يلفظون جيم بدلاً من القاف)، أو المضرب قائم. الرعاة يجوبون كل المرعى من حولهم، وعندما يقرر الشيوخ في المجلس فإن الناس سوف ينتقلون مرة أخرى عموماً إلى مسافة اثني عشر أو ثلاثة عشر ميلاً؛ والآن كان وجههم صوب تيماء.

إذا كانت الرحلة قصيرة يسير البدو على مهل، فترعى دوابهم في أثنائها تحتهم. الشيوخ يركبون معاً في المقدمة، والحريم يأتين راكبات في مواكب جمال الأمتعة؛ إذا أصابهن مكروه يكون الرعاة قريبين منهن لمساعدتهن؛ الجيران سوف يترجلون لمساعدة الجيران وحتى الغريب. الماشية الكبيرة

---

(1) لصوص الليل: يسمّون في لهجة البادية حواف جمع حائف وهو لص الليل.

والصغيرة، تُساق على طول الطريق مع أصحابها. سترى ربات البيوت يترجلن متدثرات يتابعن السير معاً حافيات (فالكل يمشون هنا حفاة) ويغزلن الصوف قرب جمالهن البطيئة الخطو. لكن يقول الأزواج البدو، «سنجعل الحريم يركبن دائماً وألا يرهقن أنفسهن، لأن مهامهن كثيرة في البيت». تترجل النساء الفقيرات قبل الظهر بساعة، في أثناء المسير، ليحلبن أغنامهن القليلات العدد. تشاهد كل عائلة وعشيرة تسرح لوحدها مع ماشيتها. لذلك فإن الأعراب الذين يتجولون هكذا يكونون منتشرين على نطاق واسع، وفي الأرض المتعرجة الشاسعة (المنبسطة في معظمها لكن المليئة بالجروف الصخرية) رغم أن المئات يمضون معاً سيراً على الأقدام، فإننا عموماً لا نرى سوى أولئك الذين يمرّون حولنا. فيما كان البدو يقتربون من المكان الذي سيخيمون فيه، عاد زيد إلينا؛ وحيث فكر أنه من المستحسن هنا أن يغرز عقب رمحه (أو شلفته) الطويل، سانداً إياه بدغلة صحراوية رملية: هكذا هو معيار زمالة زيد، ـ الذين يخيمون معه، ويُدعون أهله. كانت هرفة تنيخ جملها؛ وسوف تبني «بيتاً» هناك، تصل بقية عشيرة زيد وتابعوها، يترجلون، كل عائلة تسير مبتعدة قليلاً، لتنصب بيتها حوله. هذا هو منزل زيد والناس هم أعراب زيد أما جمال الحمولة التي ينيخونها تحت أحمالها بالصوت الحلقي إخ إخ إخ! يُضرب العنق المتيبس لأي حيوان ممانع بلطف بعصا القيادة أو بيد توضع على كفله الثقيل، وأية مقاومة مع ذلك تجتث عن طريق اللحية؛ بدون أي جهد آخر سينزل على ركبتيه وهو يئن. وتُرفع سروج الرزم ثم برفسة من قدم السيد تنهض جمال الحمل بتثاقل مرة أخرى وتُطرد إلى المرعى. تنشر ربات البيوت أقمشة الخيام، وهن يُخرجن حبال الأركان والحبال الجانبية، ويعثرن على حجر غير مشذب كمطرقة، يدقن أوتادها في الأرض، ويثبتن ركائز الخيمة أو «الأعمدة» (العمدان) ويمددن قماش الخيام، والآن تكون بيوتهن قائمة. تدخل الزوجة، وعندما تكون قد وضعت أمتعتها، تقوم بتقديم الإفطار للرجل؛ وهو عبارة عن قصعة من اللبن، يسكب من حلبة حليب رائب، أو كتلة من التمر مع قصعة من ماء الصحراء: من أجل أيام الضيافة يكون الإفطار تمراً مع طاسة من مخيض

اللبن [الشنينة] مع قطعة من الزبدة الحلوة بعد ذلك تجلس بالداخل، وهي تخضّ على ركبتيها الصميل أو قربة الحليب الرائب، لصنع زبدة اليوم.

لما كان زيد شخصاً أساسياً جداً من هؤلاء البدو، فهو رب منزل صغير بحد ذاته: التخييم لا يُرتب (كما هو تقليد الأعراب الشماليين) في دائرة شكلية. إن بدو هذه المسيرات ينصبون خيامهم ويقوضونها في كل «مكان لحط الرحال» حسب مشيئتهم. الفقير أو الفقراء لا يطوفون أبداً في فرقان [أو فرجان] أو قرى بدوية، بل يتشتتون خلف عشائرهم، وهو الأسلوب البدوي الترحالي في كل مكان، وذلك لمصلحة الرعي. لكنهم يرتحلون ويخيمون دوماً معاً. والسبب هو أنه، باستثناء أنصاف الأصدقاء، وأولئك الأكثر ازدراءً على تخومهم أو الأعداء تماماً، لا توجد حسابات كثيرة جداً مطلوبة منهم، وبلادهم تمتد مفتوحة. كان أعراب زيد يشغلون ستة بيوت: كانت خيمة زوجة زيد المطلقة، أمّ ابنه الصغير والوحيد، بعده مباشرة؛ ثم خيمة جارية منبوذة أخرى، أمّ بالوصاية على ابنه، سطام، وكان نفسه قد رزق بابنة منها؛ وإلى جانب هاتين (لم يكن لزيد أقرباء مباشرون)، كان راعي الجمال مع العامل العجوز أبيه، من عمر والد زيد، وراعي الغنم من أقربائهما. إن الأشخاص البائسين ينضمون إلى منزل شيخ ما، وكان معنا أرملة مسنة في حالة بؤس، تقوم بدور الأم لأولاد ابنتها الميتة اليتيمة الأب، وابن مشوه للغاية كان يدب مثل البهيمة على الرمل [يا لطيف] «ما هذا المنظر السعيد!» قالت الجدة الأكثر فقراً وبؤساً، بسخرية دينية، لدى إبصارها [المريض] وفتاة بشعة المنظر بشكل عجيب. كانوا بلا بيت، يعيشون حياتهم تحت سماوات الله، كان الصبي عارياً كما دخل إلى عالم الصحراء. الجمل الذي كانوا يركبون عليه كان تقدمة للإحسان المشترك؛ أما ما هو طعامهم اليومي فلا يعلمه إلا الله الذي يطعم كل مخلوقات الحياة. لا يوجد بدوي واحد غير تقي بحيث يوبخ ويعظ هكذا أهل قبيلته، أو يهزأ من الذين ابتلاهم الله بهذا الشكل المؤلم؛ ولا أي شخص يمكن أن يردّهم خائبين أينما رحلوا في أرض البرية المشاع. في بعض الأحيان كان ينتصب بيت الغرباء بيننا، للمسافرين البدو أو لعائلة

منفية من القبائل المجاورة: مثل هؤلاء يدخلون لينصبوا خيمة عن طريق معارفهم.

سألت هرفة زوجها في أي جهة يجب أن يبني «البيت». «غطّي الوجه» أجاب زيد، «في هذا الجانب»، وهو يشير لها بيده إلى الجنوب، لأنه إذا كانت واجهة البيت موجَّهة طوال النهار إلى الشمس الحارة سيقل عدد الرجال المتسكعين والطفيليين الذين سيكونون شاربي قهوته. بما أن الشيوخ، الزعماء، وحدهم هم الذين يتلقون صرة قبيلتهم، فلا ينبغي عليهم أن يكونوا مضيفي قهوة مفتوحي الأذرع. فقد رأيت زيداً يتحاشى عندما يراهم يقتربون، أو حتى ينهض بفظاظة لدى ظهور مثل هؤلاء الرجال أنفسهم، (نصف كل بيت، أي جهة الرجال، يكون مفتوحاً في كل الأوقات، ويدخل هناك كل من يشاء، في الصحراء الحرة،) وهو يتمتم ويخبرهم، والله إن عليه شؤوناً تستدعي منه أن ينصرف، وداعاً، يجب عليه أن يذهب إلى المجلس، فيذهبون ويلتمسون القهوة في أماكن أخرى. لو كان ثمة أي شيخ معهم، سيد قهوة، لما كان بمقدور زيد أن يختار بنزاهة إلا أن يبقى ويقدم لهم القهوة، وإذا كان هو نفسه غائباً، مع ذلك فإن أي شيخ يأتي إلى خيمة شيخ يجب أن تصنع القهوة لأجله، إلا إذا احتج بكياسة، بالله، لا يود أن يشرب. إن هرفة، وهي ابنة شيخ وقريبته، كانت عوناً مخلصاً لزيد في كل سياسته التوفيرية المقترة.

بات منزلنا منتصباً الآن، الرجال يذهبون إلى نار قهوة زيد، إذا لم يكن الشيخ قد مضى إلى المجلس ليشرب فنجان الظهيرة هناك، يرمي عدد قليل من العيدان المجمعة بجانب الموقد: بحجر من الصوان وقداحة من الفولاذ يحدودب ويضرم النار في الصوف، ينفخ ويدلل بذور اللهب البهيج في بعر الإبل الجاف. عندما تضطرم النار يتناول الشيخ دِلال القهوة، التي تكون في القَتية، أي سلة عدة القهوة. هذا الشعب ذو الحياة البدوية يضع كل شيء من أشيائه في بيت ملائم وإلا فإنه سيضيع في تنقلهم اليومي. ينهض المرء لكي يذهب ويملأ القدور من قُرَبِ الماء، أو تُمرر قصعة من الماء فوق الستارة من

جانب المرأة؛ القِدرْ (الدلة) على النار، هرفة تُناول ملء كفها الصغير من حبات القهوة الخضراء. نجلس في نصف حلقة حول الموقد؛ هناك قد يدخل بعض المعارف أو رجال القبيلة الذين يتوهون بين المنزلين المجاورين. كان زيد يحضر القهوة في موعد الذهاب إلى الفراش؛ بعد ذلك، عندما رأى لديه ميلاً قليلاً لقهوته، ذهب ليشرب الفنجان خارجاً. فإذا لم يذهب إلى المجلس، يكون قد أخفى نفسه لمدة ساعتين أو ثلاث مثل البومة، أو يقولون مثل الكلب، في خيمتي الصغيرة المجاورة، رغم كونها حارة بشكل لا يطاق من خلال قماش الشادر الرقيق في شمس الظهيرة. لقد كان مصدر مرح أن أرى زيداً يستلقي ويتصبب عرقاً وفي حالة من اضطراب الذهن يأمرنا أن نخبر كل القادمين «أن زيداً كان آتياً من البيت»؛ وحيث إن رجال قبيلته الجنيين كانوا سعداء كما الشحاذين بكشفه. مُكارين البدو! (يقول الأعراب المتوطنون) أي مليئون بالحيل الماكرة.

يجتمع الشيوخ والشخصيات المهمة في خيمة الشيخ الكبير أو في خيمة زعيم آخر، عندما يكونون قد ترجّلوا في أرض تخييم [مضرب] جديدة، هناك يشربون القهوة، ومعظمهم لا يزال يمسك عصا الإبل، أو المشعاب، أو المحجان أو الباكورة كصولجان، (وهي مفردة من العالم القديم) في أيديهم الأسئلة الأولى القليلة فيما بينهم هي عموماً عن الترتيبات الجديدة لمنازلهم العديدة: مثل، «رحيل! (شقيق الشيخ)، فين أهلك؟ أين أهلك (أين نصبوا الخيام)؟ الثرية (ابن الشيخ) فين أهلك؟ محسَن (وهو رجل بسيط طيب، وقد تزوج شقيقة زيد الوحيدة) خَلَف والبقية، أين منازلكم؟ زيد ليس هنا! من رأى زيداً؟ - ومجول، أين أعرابه؟» لأن كل مسيرة جديدة تشرد هؤلاء البدو، ونشاهد بيوت قليلة في مدى أفق الصحراء في أي مكان تحت النظر. ترى البدو ساكتين في حين تُجهز القهوة، لأن كل حديثهم المألوف قد قيل مئة مرة قبلئذٍ، والبعض لتزجية الوقت ويرسم بعصى السُّوْق في الرمل الكسول. إنهم يطوفون بهذه العصي الزاهية في وضح النهار: لكن حيث تكون المنازل متباعدة، أو بعد هبوط الليل، فإنهم يحملون السيف في أيديهم: يُدلى السيف

بحبل من الكتف. أفضل معدن هو العجمي، [وهو] منحنٍ قليلاً بمقبض متصالب صغير (جميل شكله)، ملفوف حوله بسلك معدني؛ بعد [السيف] الفارسي يرغبون السيف «الهندي» [أو المهند].

في الآذان البدوية تدل كلمة عَرَب على «الناس». فالمسافرون البدويون عندما يلتقون مع الرعاة في الصحراء يسألون فين العرب؟ أي «أين الناس؟» وعن مجموع القبائل البدوية شرقاً وغرباً، يقولون في صيغة الجمع، العربان. أما الكلمة الأخرى، بدوي، التي دخلت إلى كل لغاتنا، فهي في الكلام العربي بدوي، أي بمعنى ساكن القفر، (البادية)، في البوادي، لكن الاسم الشائع هو البدو. عندما نجلس، يدور الفنجان الصغير، ذو القطرات السوداء القليلة، مرتين. عندما يكونون قد ابتلعوا تلك الرشفات الشديدة السخونة من القهوة، وبعد أن يكون خبر صغير قد روي بينهم، ينهض الرجال واحداً تلو الآخر ليذهبوا إلى بيوتهم فوق الرمل الحار: كلهم حفاة، ونادراً جداً ما تجد أحداً من هؤلاء العرب يملك زوجاً من الصنادل. وهكذا يعود كل واحد إلى بيته، يصلون صلاة الظهر؛ وعندما يتناولون طعام الإفطار، فإنهم في الأغلب ينامون قيلولة ساعات الظهيرة الشديدة الحر والرطوبة كل واحد في حجرة ربة منزله المغلقة. سألت زوجة شريفة «كيف يمكن لمغفليك أن يمضوا هذه النهارات الطويلة حتى المساء؟» فأجابت، مبتسمة باحتشام، «كيف، يا سيدي، إلا بالتسلي مع الحريم!».

إن الحجرة، أو خيمة قضاء الوقت الصغيرة، التي تنشرها ربة المنزل بحبالها الممدودة إلى الأوتاد على الأرض، قبل أن تُرفع العمدان أو الدعامات، هي بهذا الشكل: لكل زوج من الحبال يوجد زوج من الأوتاد؛ توجد ثلاثة أوتاد لكل زوج من الحبال في خاصرة الخيمة. أما البيوت الأكبر حجماً فتتثبت عن طريق أزواج أخرى من حبال الخاصرة، تنتصب على الساريات الأكثر ارتفاعاً. إن الخيمة العربية، التي يسمونها بيت [جمعها بيوت] الشعر «مسكن، أو بيت من الشعر» أي من النسيج الصوفي الأسود أو

قماش الشعر، تمتلك بسقفها الضيق إلى حدٍّ ما شكل الكوخ، إن قماش الخيمة، القوي والبسيط تحميه حاشية مخاطة تحت رؤوس العمدان، ويمكن أن تصمد، كما يقولون، جبلاً، سوى أنها تهترىء فتصبح أقل سماكة: لكن عندما يكون قماش سقفها بالياً تكون مأوى ضعيفاً، تخترقها الأشعة المتحدية للشمس العربية، ولا يلقي سوى ظلٍّ رماديٍّ. إن الخيمة العربية المشدودة بقوة على كل الأضلاع، وفي أرض تثبيت جيدة، يمكن أن تقاوم هبات الرياح العاصفة التي تحدث في أزمات العام، خصوصاً في بعض الوديان العميقة. حتى في الرمل الضعيف نادراً ما تُقتلع الخيام. مع أن الحبال، طنب البيت، التي تكون صوفاً مجدولاً من غزل النساء، تنقطع في أغلب الأحيان: لذلك فمن يستطيع إنفاق الفضة (كالشيوخ الكبار) سيجعلها من القنب الذي يباع في المدينة. لدى كل قبائل الطريق، يتلقون كل عام حبلاً، مع بعض الأقمشة والأدوات، على حساب صرة حجهم. ويُخاط قماش الخيمة من أطوال ضيقة من حياكة الغزل الصوفي لربات البيوت؛ والخيط المغزول هو من غزلهن الخاص، من صوف الغنم الممزوج مع شعر الإبل والماعز معاً. لهذا يكون القماش مائلاً إلى السواد: نقرأ في الكتاب المقدس العبراني: «أسود كخيام قيدار»؛ إن النساجات الجيدات ينسجن بالأبيض حواف مصنوعة من صوف غنمهن، أو من خيط القطن المغزول (يشترى القطن الصوفي[1] [الطبي] من المدينة المنورة أو من ساحل البحر).

عندما يُمدّ قماش البيت على الأضلاع، يعلقون إلى هذا السقف ستائر البيت، التي تكون غالباً قماشة حاشية متدلية طويلة واحدة تصبح الجدار المسوّر للمقصورة البدوية: الحواشي تحزز معاً بالسفود الخشبية. تترك واجهة الخيمة مفتوحة بشكل عام، إلى النصف على الأقل كما رأينا، من أجل المُقعد، أو غرفة جلوس الرجال[2]: الغرفة المجاورة التي من جهة النساء،

(1) لا يوجد صوف قطني طبي ولعلّه يقصد الصوف الخام قبل غزله.

(2) يسمّى ما يستقبل به الرجال من بيت الشعر رَبْعة البيت أو رفّة.

والأسرة تشاهد في بعض الأحيان مغلقة (عندما لا يُلمحن سواء كن نائمات أو يطبخن)، بقماشة أمامية؛ يكون قسم النساء مفصولاً بشكل دائم عن شقة الرجل بستارة، لا يتجاوز ارتفاعها عموماً ارتفاع الصدر أو العنق، عند قوائم خاصرة الخيمة. لا يسيج المقعد الأمامي بقماش الخيمة، إلا أنهم عند المطر يميلون العمدان ويسحبون إفريز الخيمة نحو الأسفل، لهذا تكون خيام البدو مسكناً رديئا جداً، والبدو، الذين لا يلبسون أفضل من الموتى، ويعانون من البرد والطقس العاصف في بعض الأحيان في الشتاء، يحملون الحاشية الأرضية للقماشة الخلفية بالحجارة الكبيرة، ويسيجون واجهتها المفتوحة على جهة الرجال بالأغصان اليابسة. إن القماشات الجانبية للخيمة يمكن تغييرها حسب الريح والشمس: لهذا فإن ظهر مقصورة البدوي يمكن أن يصبح في لحظة واجهة جديدة. فربة المنزل الجيدة سوف تتذكر بنفسها فك وتغيير الستارة، بحيث يحصل ضيوف زوجها على الظل والهواء، أو الملجأ.

على جانب الحريم، أي شقة أهل المنزل، تُخزن كل مدخراتهم. عند ستارة المرأة توجد الأكياس الخيشية القليلة لأمتعتهم البائسة، «الغوش»: في هذه الأكياس توضع الذرة والأرز إن كانوا يملكون شيئاً من ذلك، بعض كتل من الملح الصخري، كذلك منتوج ربة البيت من الصوف الغزل. أنْ تكون المرأة غزّالة صوف جيدة هو شيء مشرف بين نساء العرب؛ والبعض منهن يتّقنَّ ربما شغل الكاليكو (الخام) الجديد. قد يوجد لدى البقية جذر من الأرعن أو صبغة الصوف، تُنقع الشرائح القرمزية في الماء، وفي يومين أو ثلاثة، بين الرحلتين، يعالجون بها جلود ماعزهم من أجل صناعة القِرب الجلدية والصملان (الخضاضات)، بالإضافة إلى الجلد من أجل صناعة قرب الماء والأدوات البدوية الأخرى. إن أفقر زوجة لها صندوق ما، (عموماً، هدية من المدينة) تضع فيه أدويتها المنزلية القليلة ومشطها ومرآتها «المرقوية» وحليها الموروثة، والأقراط (حلقات الأذن)، حلقات الأنف الفضية أو حتى الذهبية (من الأجيال السابقة) ومعها أية أشياء صغيرة لزوجها، (لا تُصنع جيوب في ملابسهم،) تكون في عهدتها. لكن لو كان زوجها الصالح ذا ثروة،

شيخ صرة، فمن أجل حزمته من الريالات وأشيائها النفيسة القليلة يكون لديها صندوق حديدي مقفول مطلي بالزنجفر (اللون القرمزي) من المدينة المنورة، يوثق في الرحلة (وهو أيضاً علامة على منزلة الشيخ) على جمل حمولتها. قد يكون هذا شبيهاً بتابوت العهد للأشياء المقدسة بالنسبة للديانة العلنية، الذي كان معروفاً في الحياة البدوية لبني إسرائيل.

على العموم يُشاهد مفتاح صندوق ربة المنزل كقلادة براقة، على خلقية حجابها؛ ويتدلى، مع كشتبانها ومنقاشها (لانتزاع الأشواك من أخمص قدمها العارية) برباط قرمزي زاوٍ، إن كنَّ يمتلكن شيئاً من ذلك، من عصبة الرأس. إن تمورهم المكنوزة، إن كانوا يملكون شيئاً منها، تكون ميبسة في أكياس ثقيلة من جلد الإبل، تشاهد في الرحلة تعلو وتهبط على دابة الحمولة بخيطان طويلة من الجلد. هذا الجهاز من الحواشي والشرابات ملائم دوماً للمزاج السامي؛ إذ نقرأ شبيهاً بذلك لدى موسى، ونراه في الكتب المقدسة اليهودية القديمة. فمن أكياس جمالهم الجلدية القديمة المبللة بعصير التمر، كانوا يفصلون أفضل الصنادل. توضع قُرب الماء المتعرقة الممتلئة البطون، لكي لا تتآكل على الأرض، على فروع طرية من المكانس أو نباتات خضراء أخرى في الصحراء. ووسطها جميعاً يقف القِدر النحاسي الكبير، **الجدر**، الذي يُطلى بالقصدير من الداخل من قبل النحّاس البدوي، أو من قبل الصانع في قرية السوق. إنهم يغلون فيها زبدتهم (عندما يكون لديهم أي شيء منها، لصنع السمن) وألوان الطعام المنزلية القليلية؛ يغلون وجبة الضيف فيها في يوم الضيافة.

هكذا فإن بيوت الشعر العربية هي خيام من قماش الشعر تُجعل على شكل بيت. إن بيوت الشعر تنسجم مع ذاك المشهد الحزين؛ فالخيمة هي البيت السامي: يبنى بيتهم الطيني بطريقة مماثلة؛ قاعة عمومية للرجال والضيوف، وشقة داخلية للنساء والأسرة. هذه البيوت الموقتة في البرية التي يقطنها الصلب هي أيضاً مزارات ضيوف الله، المسافرون ومن يحط رحاله

بالصدفة قبلهم. الجواسون الخطرون في الميدان. فرعاة الصحراء هم الملوك في المنزل، آباء الضيافة لكل من يلتجىء إليهم من أجل مأوى الليل. «ألسنا جميعاً ضيوف الله؟» يقول البدو الفقراء: إذا كان الله قد وهبهم، فإن ضيف الله سوف يتقاسم معهم ما وهبهم إيّاه، وإذا هم لم يعطوا: ما لله لله، فلن تسير أمورهم خيراً. يدخل الضيف ويجلس بينهم، يُراعون صمتاً تبجلياً، فلا يسألون أسئلة غير لائقة (هكذا هي مدرسة وتنشئة الصحراء) حتى يكون قد أكل وشرب شيئاً ما على الأقل، إلى حين من الزمن (يقدّر بليلتين والنهار في المنتصف، في حين لا يزال طعامهم في جوفه) هكذا هو العالم الذهبي وأمان الله في وسط البرية: البدو الرحل يذهلون لرؤية سوء الضيافة المتسمة بالبخل لدى أهل المدن؛ لكن هنا من المستحيل أن يصمد التقليد البدوي.

أسرة زيد: هرفة

والآن دعونا نتكلم عن أسرة زيد. كانت له زوجة أخرى، لكنها فرّت منه ـ وهذا شائع، في استبدادهم الذكوري ذي الزيجات المتعددة ـ وهي الآن تسكن لدى قبيلة أمها، البِشْر؛ كانوا يرعون قريباً قبلنا في هذه القفار. ركب زيد ومضى إلى جيرانه، محملاً بوعود مبهجة، كان يعرف جيداً كيف يختلقها ويلفقها، تودّدَ إلى أهلها مرة أخرى. أخبرني شيخٌ أنها جميلة، «لها عينان كبيرتان (بحجم البيضة) لكن حين رأيتها، كان هذا كل جمالها الباهت». الزوجة المستعادة لم تنصب خيمتها بيننا، حيث كانت هرفة الغيورة، بل «أقامت» حجيرتها مع بعض الأقرباء في منزل آخر. كان زيد وهرفة ابن عم وبنت عم مباشرة؛ (أبناء عمومة مباشرة)، كانت هرفة يتيمة شيخ، يبدو أن زيداً قد أخذها، جزئياً، من أجل إبلها الموروثة القليلة. وكانت هرفة فتاة بدوية ثخينة ناقصة النمو، وربما كانت في العشرين من عمرها؛ كان الشباب الذهبي قد خبا تقريباً إلى خريف في وجهها الطفولي، لكنها ليست كريهة؛ فقد كان ثمة ضحكة خشبية دائماً في فمها، تنتهي بشكل معتاد، من القلب غير المشبع، بالتنهيد. «المرأة التي تتنهد (يقول المثل) يكون لها زوج عليل». كانت هرفة تتنهد من أجل الأمومة: فقد أمضت هذين العامين مع زوج وكانت لا تزال بنتاً، كما يقول البدو، وكانت تبكي سراً بأسى امراة سامية. كان زيد وهرفة مثل اسحق وربقة؛ بالبساطة البدوية كانا يجلسان يومياً ويلعبان معاً بعشق أمامنا، لأننا كنا جميعاً أسرة واحدة وعيون صدوقة، لكن في غالب الأحيان في وسط اللعب كانت هرفة تتجهم؛ عندئذٍ كان زيد يتخلى عنها ببرود، وتتفرق

روحاهما من جديد. كانت هرفة في نفسها المتعبة ترغب في زوج فتي غض، بدلاً من هذا الزيد الممل، الذي كانت تشك في أنه يستطيع أن يمنحها أولاداً. مراراً وتكراراً، طالبا الغريب المسيحي أن يصدر حكماً على زواجهما العقيم. ما إذا كان شرعياً، كما بين أولاد الإخوة. كانت هرفة، ذات الجسد الصغير النزق، من منبتها الرفيع في حجيرات الشيوخ، شيخة بين الحريم، وهكذا كانت تُعتبر حتى من قبل الرجال؛ فكل الشيوخ الأساسيين كانوا أقرباءها تقريباً. في القبائل والقرى العربية الصغيرة يوجد امتزاج مستمر للدم الشقيق: إلى اليوم بعد أجيال كثيرة من يمكنه أن يظن أن هذا العرق السامي قد أضعف بذلك؟ لكننا حقاً نرى عدداً ليس قليلاً من المعتوهين والمعاقين بينهم بسبب زواج الأقارب.

كانت السيدة هرفة، المهتمة بنفسها، الفتاة الوقحة، قد وضعت عينها، في السر، على راعيهم الشاب الجذاب الذي كانت تتودد إليه بشكل مفضوح في غياب زوجها ونكاية بزيد، لكنه كان حكيماً ومخلصاً لخدمة شيخه. هنا، رغم متاخمة الحجاز المتزمت ومنطقة نجد الوهابية الصارمة، كانت النساء الفقيرات يذهبن مكشوفات الوجه، وحيث الكل أقرباء لم يكن بوسعي أن أميّز بينهم أية غيرة للأزواج. في هذه القبيلة من آكلي التمر، لم يكن ثمة دوماً رجل ناضج، إلى جانب الشيخ مطلق وأبنائه، ولا أية امرأة لائقة. إن زيداً سيروض زوجته الصغيرة العنيدة؛ وذات مرة عاقبها بالعصا في الليل.

أصبحت مهزلة هرفة وزيد مادة للمزاح اليومي في مجلس الشيوخ شاربي القهوة من أبناء عمومتهما؛ حيث، فيما أنا أدخل وحدي، كنت اسمعهم يقولون، «ها هو خليل: مرحبا، أهلاً، يا خليل؛ أفسحوا مكاناً لخليل؛ مرّ يا خليل واجلس هنا بجانبي» لا - لا أهلاً، يا خليل! لكن أين عمك زيد اليوم؟ - «زيد زعلان، أو مكتئب؛ إنه يضطجع بهذا المزاج هاجعاً بشكل عنيد طوال اليوم في البيت». في بلاد الشمس الرجال يقضون حزنهم نياماً. «لكن أخبرنا، هل ضُربت هرفة؟ ما الأخبار اليوم؟ خليل، هل تحب عمك؟» قال واحد لا

يحبه (خلف العايدة، وهو منفي، من شيوخ وُلْد علي)، «زيد ليس رجلاً، من يضرب زوجته؛ المرا [المرأة]، هي التي تضرب مرا، هل يفعل أهلك ذلك، يا خليل؟».

فأجبت بقولي: «لا، بالتأكيد، ما لم تكن ساقطة غليظة».

لذلك فهو عيب بيننا نحن البدو، عار، والله.

كانت آثار عصا زيد باقية في روحها الصغيرة العنيدة؛ وفي محطّ الرحال الثاني، عندما بنت الحجيرة على عجل وسار زيد إلى المجلس، فرت هرفة، تاركة كل شيء، وعادت مغتاظة إلى البادية. أمسك بدوي تقي من منزلنا، كأنه من الشهب، يديها الصغيرتين للحظة متوسلاً إليها أن تعود إلى رشدها؛ لكن، كونها ابنة شيخ، فهي لا تُمسك وأفلتت منه بتبرم.

هكذا يكون العلاج العلني لزوجة بدوية ساخطة؛ بإظهار نفسها مغربة عن زوجها، ومستعدة لهجر عش الزوجية وأسرته، جاعلة إياه موضع احتقار عام لأنه لن يطردها. وهناك لحق بهرفة، حالما سمع الأنباء، قريبها من جهة أمها، الذي يشبه هرفة كما لو كان أخاها: كانت تركض مثل نعامة لوحدها في الصحراء المقفرة. مرت ساعة قبل أن يعيدها إلينا، وتركها مرة أخرى حزينة عند خيمتها وخيمة زيد. قال: «ها، خليل»، ماذا ستعطيني الآن وقد جلبت خالتك مرة أخرى، التي تسكب لك اللبن والماء؟ و(هو يريني قطلسه[1]) «والله، لقد جلبتها بالسيف». تردد زيد المستاء في ذاك الوقت لبعض الليالي إلى حجيرة زوجته البشْرِيّة [من قبيلة بُشر]؛ وهرفة الغيورة، غير متحملة هذه الجديدة يوماً آخر، حتى في حضور الغرباء، ضيوف زيد، فرت بضغينة قلبها من الخيمة المنصوبة حديثاً عندما ترجل الناس عند المنزل؛ جلس زيد، مثل رجل محزون، يتبعها بنظراته فقط، لكنه لا يمنعها (في نظرهم كان ذلك غير لائق، فحياة الإنسان حرة). إن للزوجة البدوية الهاربة الحرية في الهرب إلى

(1) القطلس: سيف قصير ثقيل مقوس يستخدمه البحارة عادة (المترجم).

أي مكان تريده؛ إنها طليقة كما الصحراء، لا يوجد أحد بمقدوره أن يحتجزها. حيّتْ هرفة أهل أمها، وجلست، وكلها تنهدات، في حجيرة خالتها؛ وفي أي بيت تلتجىء إليه الزوجة الهاربة، لا يجوز لزوجها الشرعي أن يمارس حقّه الشرعي ليستعيد حصته فيها.

انصرف الغرباء، وجلس زيد عند حجيرته المهجورة الآن في شرود طويل؛ لكن إظهار أي امتعاض قوي بسبب امرأة فقط، إنما كان دليل تنشئة رديئة وغير رجولية. تمدد على الرمل لينام تمضية لأساه، وهجع برأسه في الشمس الحارقة. البدو يؤدون الشعائر الدينية مراعاة لهذا اللطف والتجمّل في الحياة المنزلية! «سلام الله» هو في تلك البقعة من البرية الكبيرة والرهيبة التي تظللها حجيرة كل راعٍ فقير. بعد وقت قصير، هززته وقلت له: «ليس جيداً أن تنام هكذا وتتخدر في الشمس». بعدئذٍ مضينا معاً نلتمس القهوة في المجلس، حيث كان بعض الخبثاء يبتسمون لحزنه ونظراته المشوشة الجديدة، كان زيد اشتكى بصوته الكبير المتهدج آنذاك أنه لم يعد يمتلك أسرة، إلا إذا كان خليل (ضيفهم) سوف يعيد هرفة إلى البيت. كل خبر ينتشر فوراً على نطاق واسع في كل الخيام المفتوحة من المنزل البدوي، ولا توجد حكاية تافهة لا تركب على الألسنة، خفيفة كأوراق الشجر، عن البدو الحمقى، لتزجية ساعات الفراغ.

نصيب المرأة. الأبناء في مقابل البنات

عندما فهمت في منزلنا أن هذا هو الواجب المشرّف للضيف، ذهبت عصر اليوم التالي لأدعو هرفة كي تعود إلى بيت زيد؛ حيث شعرت أن من المحرج عودتها من تلقاء نفسها وهم يبحثون عنها. وجدتُ هرفة مخجولة قليلاً، جالسة وسط رفيقاتها؛ أهل الزوجة العجائز كنَّ صديقات أمها المتوفاة؛ كنَّ مجتمعات في حجيرة الخالة لمواساتها، وكان هناك الشبان أبناء خالها. جلستْ الزوجة الشابة عديمة الأولاد الحزينة الوجه، تلعب بولع مع طفل من أطفال الجيران. «خليل، قالت، يجب أن تملأ غليون تبغها الكبير، أو أنها لن تسمع كلماتي» (صاحت الزوجات العجائز، «أنت، يا خليل، ستملأ كل غليوناتنا (فهن «مدخنات» تبغ عظيمات)، وإلا فلن ندع هرفة تذهب». قال الرجال الشباب: إنهم سوف يحتجزون هرفة، ويزوّجونها بأنفسهم، ولن يعطوها مرة أخرى «إلى ذاك الزيد الشرير».

تم توزيع التبغ، أخذت هرفة باليد البدوية الصغيرة (هنَّ لا يشقين أبداً، وكلهنَّ يمتلكن هذه الأيدي الصغيرة)، وأنا آمرها بالنهوض، أجابتني ربة المنزل النكدة الصغيرة «لكنها لن تُمسك، يجب على خليل أن يفلت يدها». قلت عندئذٍ «سأجلبك إلى البيت، مضيفة، تعودين معي؛ وإلا يجب علي أن أترجل لأنصب خيمتي بقربك، منذ الرحلة الثانية». قالت هرفة: «وهو كذلك، يا خليل، وعلى الرحب: سأذهب وإياك، آه حيث سنأكل جملاً معاً (كانت ستقول أسرة كريمة)، املأ غليوني مرة أخرى فحسب». قالت الخالة: «وغليوني، يا خليل؛ أو إن هرفة ستظل هنا، أي، ولن ندعها تذهب». أما وقد ملأت غلايينهنَّ جميعاً، سألتُ إن

كانت سيدتنا هرفة لن تأتي الآن. قال ابن خال شاب «أنا أبوها، وهرفة لي، يا خليل؛ لا! لن نعطيها لزيد بعد الآن». قالت خالتها: «حسناً، اذهب، يا خليل؛ ستلحق بك هرفة، وكلنا (جماعة النساء العجائز) سنرافقها». بعد ذلك بوقت قصير. وأنا أصل أمام باب خيمتي، دعوني للخروج لكي أعطيهم إعانة أخرى من التبغ: وجلستْ هرفة مرة أخرى في بيتها.

نصيب المرأة هنا هو التسرّي غير المتكافئ، في هذه الحياة المعوزة حيث العبودية الشاقة. إن ملكية الوالدين والأولياء فيها قد تمّ التخلي عنها بثمن ما لزوج (في احتقار وتقييد لجنسها الضعيف)، يمكنه أن يطردها في أي يوم لا يحصل فيه على المتعة منها، وقد يحدث (مع أن ذلك نادر الحدوث بين البدو أن تقسر إرادتهن) أن تمنح تلك السنوات المزدهرة القليلة من شبابها، مع عذريتها إلى رجل من سن بغيض، وقلبه ليس لقلبها وحدها؛ بل، إن لم يكن مقسماً قبلئذٍ، يجب عليها أن تتقاسم زواجها في وقت من الأوقات مع زوجة أخرى. وبالتأكيد عندما تذبل، وهو أمر لا يطول موعد مجيئه، أو لا تمتلك أية فرصة مبشرة بالنجاح لتلد أولاداً ذكوراً، فإنها سترمى مثل شيء عديم الفائدة؛ في هذه الأثناء كان كل عمل المنزل هو شغلها، وسيطيح بحبه لها. فما هو توحّد القلوب الذي يمكن أن يكون بين هذين الفاشلين، الذين ليست حظوظهما مرتبطة بإخلاص؟ فالحب الطبيعي الجميل قد يبرعم للحظة، لكنه لا يدوم بطرق غير متكافئة للغاية. الحب هو سر وديع، ولذلك لا يتقبل قلب المرأة المظلومة هذا الوضع.

قليلاتٍ هنَّ البدويات اللواتي يحظين بسعادة زوجية طويلة! إنهن قليلات بالفعل أو يكدن ينعدمن، اللواتي يبقين في منزل الزوج الأول. مثل هؤلاء يكنَّ عموماً أمهات لأولاد كثيرين، أو يتزوجن في عائلات فقيرة، بحيث إن أرباب الأسر لا يكونون قادرين على الحفاظ على ربة منزل أخرى. لكن الأشخاص الهامين وذوي المكانة يمضون أوقات النوم مع هذه الزوجات العجائز، وينتقلون إلى مخادع عرائس جديدات أو غير مسلمات؛ وكونهم رجالاً أغنياء فهم ينفقون بمرح من أجل الزوجات الجديدات كما ينفقون من أجل التغيير

الموسمي للملابس. قربة المنزل المنبوذة يمكن أن يتخذها رجل كفؤ آخر، بفضل ولع قديم، أو تنتقل إلى الزواج الجديد والخدمة المنزلية لشخص أفقر. إن بهجة المرأة وراحتها هي أن تكون أماً لأبناء، أي على الأقل يمكنها أن تبقى مطروحة في خيمة صبيها، عندما يكون أبوه القاسي قد تبرأ منها، هكذا كان الأمر مع غبنة، أم سليم الابن الصغير لزيد. فزيد، رأفة بدموعها، وجد لها زوجاً آخر من الخاملين الفقراء، وصار لها منه طفل جديد: لكن الرجل تعامل معها بقسوة؛ ولذلك لجأت إلى ابنها الشاب فنصب لها زيد خيمة مرة أخرى مثل أرملة بائسة لتعيش فيها. عندما طلع الفجر، وكانت حجيرة غبنة قد ولت! وقف العرب نصف ضاحكين ومندهشين، لأنها مخلوق بائس الروح، وهي التي كانت امرأة جميلة في شبابها، حتى فهمنا من سليم أنها قد حُملت على جملها في الليل وخطفت إلى الخمالي في منزل بعيد. البائس، في اليوم السابق، عندما جاء إلى هنا، قبّلها وأقسم لها مثل عاشق لطيف متملق بأن يستقبلها مرة أخرى. لكن بعد يومين عادت إلينا المرأة المحبة الفقيرة، والسارة قليلاً الآن، بعينين حمراوين، لتحتضن طفلها، الذي بقي في هذه الأثناء مشوشاً مع أبيه؛ ومنذ الرحلة التالية، ترجلت الزوجة المخرفة المهجورة من قبل لتخيم قرب زيد.

يقول هؤلاء العرب، «الحريم ضعفا الرجال عدداً». وإذا كان الأمر كذلك، فإن المنطق الطبيعي يعلمنا أن الرجل يجوز له أن يتخذ أكثر من زوجة واحدة؛ ويمكنني أن أظن أن جنس النساء يفوقهم. من أشهر الربيع إلى أشهر الربيع، تسعة أشهر في السنة تضع معظم النساء البدويات: يلدن أطفالاً قليلين؛ لم أسمع بينهم بولادة اثنين معاً. إنهن أمهات جيدات ويرضعن الطفل لفترة طويلة من أثدائهن الهزيلة، إذا لم يحملن بطفل. في مخيم زيد كان ثمة فتاة صغيرة عمرها أربع سنوات، لم تُفطم بعد؛ وقالت الأم. «ليس لدينا عنزات، لا يوجد شيء البتة في هذه القفار، وماذا غير ذلك يمكنني أن أعمل لأجل ابنتي الصغيرة؟» إنهن يغسلن أطفالهن ببول الجمال، ولهذا يجب التفكير بنجدتهم من الحشرات: إنه لاذع خصوصاً عندما يكون القطيع قد رعى من

بعض الشجيرات القلوية، كالرمث. وبهذا الماء يسرّحون جميعاً شعرهم الطويل، رجالاً ونساءً، مع أنهم في بعض الأحيان يبيضون به خصلات شعورهم لذلك فقد رأيت «قروناً» مجدولة لشبان وقد أصبحت رمادية اللون. ثمة عادة غريبة (ليس فقط للنساء البدويات، بل في البلدان العربية حتى بين المسيحيين، قد تبدو أنها عادة باقية من عبادة الأصنام القديمة بينهم) أن تقوم الأمهات، ورفيقاتهن، وحتى الخادمات الصغيرات بزيارة النساء المتزوجات ليقبلن بنوع من التقوى حمام الأولاد الذكور.

في كل الجزيرة العربية فإن الرجال والنساء، أهل المدن والبدو، حيثما يمرون به، يدهنون بياض عيونهم باللون الأزرق، بالكحل أو الأنتيمون؛ هكذا دهنَ محمد بن رشيد عينيه الشبيهتين بعيني الطير. فهم لا يبدون أكثر جمالاً فحسب، في نظر نسائهم، اللواتي طلينهم، وجدلن خصل شعورهم الجانبية الرجالية الطويلة؛ بل يعتقدون أن هذا يجعل بصرهم حاداً كثيراً ويحفظه. مع الشعر الطويل المفروق في المنتصف، ويتدلى نزولاً على الجانبين في قرون مضفورة، وعينين مموهتين مطليتين بالكحل، فإن الرأس الطويل للرجل العربي وتحت المنديل الملون، هو في أنظارنا أكثر من نصف أنثوي؛ وهم في كثير من الأحيان يشبهون النساء.

إن نساء المدينة من العائلات الثرية، في كل فترة الحكم القديم للوهابيين يجري تعليمهن الصلاة ويوجد البعض منهن اللواتي تعلمن القراءة. في القبائل العربية نادراً ما تشاهد النساء وهن يصلين، إلا في رمضان، شهر التقشف الجسدي والتقوى: قليلات هن اللواتي يعرفن الصلوات؛ أعتقد أن نصف الرجال لم يتعلموها. فالبدوي، في الجزيرة العربية، يعتبر رجل دين جيداً من يستطيع أن يصلي صلاته الواجبة! البدو الذين يكثرون الصلاة هم الأكثر شكاً. لا تصلي النساء كما يصلي الرجال، الذين يسجدون على وجوههم؛ بل يرتلن صيغة من الكلمات مع طي الأذرع والركوع. فالأنثى (الغضة على الشغل وإنتاج الثروات الرعوية) هي الأفضل في كل الحيوانات، كما يقول سكان الجزيرة العربية، إلا

في الجنس البشري. مع ذلك فإن هذا ليس هو رأي كل العرب، لأن الحُر، أو فحل الجمل العربي يُفضَّل من أجل قوته الذكرية من قبل المغاربة أو العرب الغربيين. فعلى الأنثى البشرية يلقي الساميون كل لومهم. فطبيعتها. كما يقولون، هي طبيعة شريرة، والعرب يشكون من أن «لها سبع أرواح». العرب معادون لجنس النساء اللواتي تنزل عليهن لعنة الله؛ «البعض (يقول البدو) منهن سمامات أزواج، ويوجد الكثير من الزانيات». إنهن، كونهن مفعمات بالخطيئة، ضعيفات النفوس، غير أن ربات المنازل الشريفات يوبخن برفق أكثر مما ينبغي وإنْ ليس بدون سبب. لكن ما الذي لا يمكن لأولئك النسوة أن يجدنه ليحكينه طوال النهار عن التقلب الخبيث للأزواج؟ فالحرمة يضعونها تحت الإخضاع: بمنحها المساواة، تتحطم حماقة طبيعتها الشريرة. فهم يحتجزونها طوال اليوم في البيت، ولا يسمحون لها أبداً أن تتحرر من العبودية. إذا كان الملك الحكيم في أورشليم لم يجد أبداً امرأة صالحة، فإن كثيراً من الرجال وجدوا من هن أفضل منهم. إن الحجاب والملاءة هما بالأحرى من علامات التزمت الديني في المدن: وبين سكان الخيام المعتدلين في البرية المفتوحة تمتلك ربات المنازل الحرية عندما يكون الجميع أقرباء، مع أن حريمهم يشاهدن الآن في معظم القبائل العربية نصف محجبات. عندما سألني البعض، عند نار قهوة زيد، إذا كانت حريمنا يسرن محجبات أجبت، «لا! إنهن سافرات، لا حاجة لمناديل الوجوه بين الناس الشرفاء؛ كذلك أعتقد أن بينكم أنتم العرب الذين تكون وجوه نسائهم محجبة، توجد القبائل الأكثر فسوقاً». البدو يكونون سعداء دائماً بسماع رجال القبائل الآخرين يلامون. رد على كلامي «أي، بالله، إنهم فاسدون». سألت زيد، «هل أنت من هذا الرأي؟» خليل قال في سره، «أنت تفكر مثل الكفار وجه الزوجة يجب ألا يراه رجل آخر سوى زوجها».

يُحتقر جنس المرأة من قبل القانون البدوي والدين القديم لدى موسى، فبسبب ولادة أنثى تُضاعف أيام طهارتها، كذلك ينخفض تقدير طفلها إلى النصف. لو نطقت بأي قسم، فإنه يكون باطلاً، إذا قال زوجها لا. لكن الأم السامية التي تلد ابناً هي محط احترام، إذ نقرأ: «دع الرجل يطيع أمه وأباه»،

فالنقش السامي يذكر أمه أولاً، وبشكل عام يلاحظ بين العرب البدائيين أن الابن الناضج يكنُّ تقديراً محباً تجاه والدته، إنها هي أمه قبل الحب العارم حتى لزوجته الشابة الغضة. لذلك فإن حب الأم لدى القبائل هو حب نسوي، حنون وإذ تسمي أبناءها ستضيف مثلاً محباً، مثل «الله يحفظهم»! تلد حريم البدو كما الأمهات الآخريات، بآلام مفاجئة شديدة، بعد مخاض لبضع ساعات. إن الرأي الأحمق هو أن بنات الصحراء هن مثل المخلوقات البرية، لا يعانين في الولادة. لكن أسرتها وقومها مترحلون؛ لا يوجد أمل بوقتٍ لراحتها واسترخائها. يُستهلك العشب يومياً من حولهم والماشية العطشى في حالة اندفاع دائم إلى المرعى والمياه، الناس دائمو التنقل: في أرض التخييم اليوم، لا يمكنهم ربما أن يناموا غداً. فراشهم هو عباءة أو قماش خيمة يُفرش على الأرض؛ إنهم يعيشون بالفعل في شبه البساطة الضرورية للمخلوقات البرية. لذلك فالمرأة البدوية تمتلك، بحكم العادة، بحكم الضرورة! شجاعة أخرى. هل يخرج العرب في رحلة عندما يأتي موعد ولادتها؟ تتوقف أسرتها، وتترجل، فيبنون حجيرة فوقها. هل يخيم رجال القبيلة؟ تنسل خلسة مع بعض النساء الصديقات الأكبر سناً لكي تُولّد، على مسافة في البرية. إذا كان البدو على وشك الخروج في رحلة، عندما يكون هناك خطر في أن تُترك وراءهم، فترفع بلطف وتجلس مثل أي شخص مريض وعاجز في مكان يُصنع من سجادتها أو قماش خيمتها يلف على سرج حمولة الجمل، لكي تتبعهم راكبة في الرحلة: ولكونهم يمضون حياتهم هكذا يشعر البدو بقليل من الإعياء، لكنهم يرتاحون في الركوب.

في الجاهلية أو «العصر القديم للجهل الوثني»، كان ثمة تقليد رهيب في الصحراء، حتى وقت قريب من جيل محمد، يقضي بدفن [وأد] البنت حية، مما يدل أيضاً على أن الولادات الأنثوية بينهم كانت أكثر من الولادات الذكرية، فالمرأة لا تولد لتستعمل السيف، بل إن يدها هي من أجل الأعمال العادية، فلا هي تؤازر العشيرة ولا تزيد من سطوة بيت زوجها، بل هي فم غير مفيد يُضاف إلى الآكلين الجائعين للزاد الغث: وطوال السنين يجب على الوالد أن يشغل ذهنه

بالحفاظ على البنت؛ الغاية من كل ذلك هي مهر عروس غير مؤكد (وبه يشترى لأجلها مرة أخرى بعض الأغراض المنزلية، وهي مهرها)، عندما ستذهب مثل غريبة إلى بيت آخر. يخفي الزوج نفسه في يوم ولادتها، عن معارفه العموميين.

عندما سألت البدو «إن كانوا قد سمعوا بهذا عن طريق التراث؟ فأجابوا، متعجبين أنه ليس بمقدورهم أن يتخيلوا أنه كان ثمة مثل هذا التقليد اللعين في البلاد». فالبنات عندما يتجاوزن الطفولة الأنيسة الأولى لا يمكثن إلا قليلاً في الأسر العربية، يكون الابن محبوباً من قبل أبيه أكثر من الزوجة التي أنجبته، بل يقدمه على نفسه أيضاً، ويأتي في المرتبة بعد جده؛ والولد الصغير في الأسرة يكاد يكون محبوباً أقل من إخوته الأكبر منه. لقد أرسل الله ابناً، والأب لا يستطيع أن يعاكسه في أي شيء حين يكون ولداً، وهذا ريثما يحين الوقت ليريحه في شيخوخته، وفي نهايته الأخيرة يدفنه بشرف؛ وعاماً بعد عام، عندما يأتي البدو في رحلاتهم مرة أخرى، يقدمون أضحية للميت ويصلون عليه: وهكذا يبقى اسمه محفوظاً في الذاكرة بين الأحياء. عندئذٍ سرعان ما يسدد الرجل لكمة إلى زوجته، أو عشرين لكمة، في حين يربت بيده على ظهر الولد المنحرف ابنهما، فيحرف ذهنه إلى الأبد. في مرارة الأستياء يزجر ابنه المتمرد بكلمات عنيفة لكن غضبه لا يذهب بعيداً إلى حد خرق سلام البيت. بعد سنوات سيكون ولده أفضل منه ذاته، ولذلك لن يجرؤ هو على مضايقته. ثمة آباء، يقول البدو، يحكمون بالعصا. لا أستطيع أن أصدقهم. عندما يموت الابن، تكون روح الأب منبوذة لفترة طويلة، يكون مثقلاً أثناءها بحزن صامت؛ لكن ذكرى الابنة المتوفاة، ما لم تكن حياتها ذات قيمة فردية أو ذات وعد كبير تتلاشى قبل الأوان، (هذه الذكرى) لا تدوم طويلاً عند المسلمين (أي المسلّمين بالحكم الإلهي للعالم)، الرجال لا يقيمون مناحة لأجل الموتى؛ سوى أنهم يقولون «لقد توفي، رحمه الله!».

وجدت أيضاً بين هؤلاء البدو، أنهم بالكاد يتخيلون أية حياة مستقبلية، فهم يصلون ويصومون كفرضين رئيسين من الفروض في الدين، يبحثون (كما

بحث الآباء الساميون من قبلهم) عن نعمة الحياة الراهنة. ثمة تضحية لأجل الموتى، رأيت أنها تستمر إلى الجيل الثالث، فقد رأيت شيخاً يأتي بورع، ليذبح أضحيته ويصلي عند كومة تراب حيث دفن والده أو جده: ولقد رأيت واحداً كهذا يقبل يده، لدى المرور في أي وقت قرب المكان الذي يرقد فيه الأب، ويطلق، برقة شبه نسوية، كلمات التبريك والصلاة؛ وهذا بالتأكيد مريح للمرء عند احتضاره، أنه سيكون محفوظاً لوقت طويل بلطف، في ذهن أولاده. في البلدان السامية المستوطنة فإن حريمهم، وحتى النساء المسيحيات، يخرجن في أيام معينة إلى القبور ليبكين. فقد رأيت أرملة تقود أولادها يتامى الأب إلى هناك، فركعوا معاً؛ رأيت الأم تعلمهم أن يبكوا، وندبت فقيدها بصوت مختنق متكلف ونشيج، يا حبيبي، آه، آه، يا حبيبي!.

يُحكم الأولاد العرب ويحكمون بالاستعطافات؛ الفتيات البدويات يكن غالباً شكسات في البيت، أما الصبيان فيصمّون آذانهم عن صوت الأم مرات كثيرة.

لقد عرفت ولدا نكداً يمد عصا إلى ظهر أمه الطيبة المدللة [له]، وسألت لماذا تتحمل ذلك، فأجابت، متنهدة: «ولدي كافر»، أي ذو طبيعة وقحة وثنية؛ هذا الصبي لم يكن من دم بدوي كامل، كون والده هو أبو سنون المغربي. البعض يسأل إن كان أولادنا أيضاً عنيدون، عندما سمعوا مني عن الصرامة المفزعة لقانون موسى، هتفوا، «لا يحدث كثيراً أن الغلام السيىء الطبع بيننا، والذي يكون قوياً بما يكفي، يضرب أباه». والعرب يثرثرون، وهنا أيضاً كان من الصعب أن نصدقهم. البدو يمرسون أبناءهم لكن الأولادهم يكبرون بدون إرشاد الأهل. يتعلمون لكن بسماع أقوال الناس، في الخيام الصوفية، حيث يكون رقيبهم الوحيد هو الرأي العام. يوجد بدو أتقياء مفعمون، في تلك الحياة الدينية للصحراء، بالدين الطبيعي، يمكن في بعض الأحيان أن يوبخوهم؛ لكن الولد لا يُوبخ من أجل الكذب، رغم أن العرب يقولون «الكذب مخزٍ». كذبهم هو خدعة سهلة ودفاع المرء الأسرع لتضليل عدوه. فالطبيعة هي نفسها في معظمها مليئة بكل المكر، وهذا الفم الكاذب يتساهل معه الدين العربي.

القرية الجوالة. اجتماع القهوة. مطلق

كانت الجمال آنذاك ممتنعة عن الماء، فتجولنا دون الاهتمام بأماكن السقي الكبيرة، إذ إن الناس يشربون من أية مياه قليلة من **الصفا**، أو صخر الأرض. توجد في كل هذه التربة الجبلية الصحراوية أماكن من الصخر تشبه الحفر مسدودة بالرمل البني القديم. في هذه البرك الرملية يوجد ماء محفوظ، من أمطار الشتاء، منذ زمن طويل، لكنه عموماً كثيف وذو رائحة كريهة في الرمل الرطب، ومتعفن بالألياف العطنة للنباتات وبول ماشية البدو، التي سُقيت هنا منذ البدء. من هذا الماء كان العرب (الذين يفضلون ماء الصحراء الكثيف على الماء النقي) يغلون قهوتهم اليومية التي لا تكون عندئذٍ سيئة الطعم. الأسوأ هو ذاك الماء المائل إلى السواد المسحوب من حفر مهجورة منذ زمن طويل، إلى أن أفرغت ذات مرة، وما أن شربت ماءها حتى عانيت من العطش، وفي أغلب الأحيان كنت أقضي الليالي نصف أرق. غريبة هي الأشكال الغالبة في هذه الصحراء من الصخر الرملي القاحل، وأوراق الأعشاب، والإبر، والذرى والجبال المتقابلة، التي هي علامات جيدة. سألت زيداً «هل يعرفها كلها؟» فأجاب: «منذ طفولتي، أعرفها بشكل جيد مثل كل حجر كبير على كل طرق المسيرات»، على بعد أكثر من ثلاثة أو أربعة آلاف ميل يكون الجبل (في البلدان المستوطنة) على العموم تلة ـ «اسفح» (وتصغيره تُلية) عند البدو؛ نحن نقول بالإنكليزية Coast. بالشكل نفسه تقريباً، أي قمة عالية أو جبل ثلجي أو جبيل، يفيد كنقطة علام، يسمونه **طويل**؛ الأرض الرأسية هي خشم، الأنف، الخطم؛ (يقال خشم في الجزيرة العربية من أجل

أنف الإنسان). بعض السفوح الجبلية التلالية تسمى هُضْب؛ بُطين في لهجات البدو المواهبين يطلق على أي ارتفاع تلالي مثلًّم، القفر الصحراوي يُدعى خلاء، «الأرض الخالية» التراب، بلاد. وهكذا هي الجزيرة العربية الصحراوية.

لكن لنتكلم الآن عن السكان البدو وكيف يعيشون حياتهم. فالبدو ما يتعبون جسدياً (لا يتعبون) (هكذا يقولون)، لكن نفوسهم تُنهك بالترقب الدائم لأعدائهم وينهك جسدهم بالعطش والجوع المتواصلين. إن الحياة المعوزة للعرب قد تطال المقدرة الفعالة؛ إنها مقيدة بالسلابين «الحياة في الصحراء أفضل من أي حياة أخرى، لولا وجود البدو» هكذا يقول عرب الواحات؛ يعتقدون أن البدوي الفقير مفعم بالإثم فهو ملعون الوالدين، «من نوع ملعون، على الجهتين، جهة والده وجهة أمه». تكون الإقامة المؤقتة سارّة في القرية الجوالة، في هذا التراب والهواء الأنقى، مع الزملاء البشريين، الذين يصادفون طوال اليوم بدون شغل حول نار القهوة البهيجة ووسط ألف توقع جديد. هنا، حيث تكون قد ترجلت لا استراحة هذا اليوم، في الغد سيكون بيتنا هناك. فجر الصحراء القادم من الشرق يوقظ البدوي، الذي ينهض إلى صلواته؛ أو قد يكون غير عالمٍ بالشكليات (الفروض) فلا يفعل شيئاً سوى أن يتمتم نحو السماء بتضرع بحكم طبيعته البشرية الخائفة، ويقول: «يا رب يا إلهي!» أو ليكن هذا اليوم مسعوداً. نجّنا من الشر! من الطعام اليومي لا ينالون نصف كفايتهم، وإن حصل على أي رأس من الماشية! ـ وكيف يمكن لأسرته مع ذلك أن تعيش؟ فعما قريب يكون الراعي مستعداً، وتُساق دوابه بعيداً عن نظره.

لا زقزقة حلوة للعصافير تحيّي قدوم نور الصحراء، فبالإضافة إلى صوت الإنسان لا يوجد أي صوت في هذا الجفاف القاحل. يكون البدو، الذين يستلقون بعباءاتهم على الأرض الأم الرملية في الخيام المفتوحة، قبيل منتصف الليل، مستيقظين تماماً ويحثون أنفسهم. في خيمة كل شيخ قهوة توجد نار

جديدة تشعل في الموقد، وعليها توضع ركوات قهوته [دلاته]؛ ثم يلتقط جمرة بأصابعه، ويضعها في غليون تبغه. تُحمص حبات القهوة القليلة المستلمة من ربة منزله وتسحق بالهاون؛ عندما يغلي كل شيء، يُخرج الفناجين الصغيرة (الفناجيل) التي لاحظنا أنها مصنوعة لأجل العرب غير المبدعين في الغرب. عندما فتح (قوتيته) أو صندوق الفناجين رأينا البدوي لا يملك أكثر من ثلاثة أو أربعة فناجين ملفوفة بخرقة عتيقة صدئة، يجلوها بها بانهماك، كما لو أن ذلك سيجعل فناجينه نظيفة. تُدق الحبات المحمصة لدى العرب بقعقعة شهمة، وإيقاع (كما كل عملهم) في مدق نحاسي من المدينة، أو هاون خشبي قديم، مرصع هنا وهناك بالمسامير، شغل حداد بدوي. يسكب الماء المغلي في الدلال الصغيرة على مسحوق القهوة الناعم، البن، ويسحب الركوة لتفور لحظة. من عقدة في منديله يأخذ بعدئذٍ قليلاً من القرنفل، أو قطعة من القرفة أو أي بهار آخر، ويسحقه، ويرمي غباره في الركوة. بعد ذلك مباشرة يسكب بعض القطرات الساخنة ليتذوق قهوته؛ إذا كان الطعم حسب رغبته، وإذ يصنع بشكل بارع عشاً من كل الفناجين في يده، بثرثرة سارة، يكون جاهزاً لكي يسكب لأجل الحاضرين، ويبدأ على يمينه؛ ويبدأ أولاً، إذا كان هذا هو الحال، بأي شيخ معتبر أو الأشخاص الهامين. فنجان القهوة ليس سوى أربع رشفات: إن ملأه للضيف، كما في المدن الشمالية هو بين البدو إهانة، وله هذا المعنى المرير، «اشرب هذا وارحل». عندئذٍ غالباً ما يشاهد نزاع بكياسة فيما بينهم، خصوصاً في التجمعات الأكبر، حول من سيشرب أولاً. فالرجل الذي يتلقى الفنجان بدوره، لا يشرب منه مع ذلك، بل يقدمه إلى الجالس دونه بالترتيب، كما إلى الأكثر احتراماً: لكن الآخر يدفع بيده وهو يجيب بكلمة أبداً، «أبداً»، لن يحصل أبداً، بالله! هلا شربت! إن الرجل المتواضع، المجاز هكذا يزود بثلاث رشفات. ويناول فنجانه الفارغ. لكن إذا ألحّ عليه كثيراً، فإنه بذلك يفاتح برغبته بأن يُصالح مع شخص ليس صديقاً له. ذلك الجار، إذ يرى شلة شاربي القهوة يراقبونه، قد يتلقى الفنجان برشاقة نزيهة،

ويدع الأمر يبدو وكأنه بدون إرادة منه: لكن الرجل غير الودود في بعض الأحيان يصد العرض اللطيف للرجل الآخر.

يمكن للبعض أن يتخذ مقاعد أدنى مما يليق بمنزلة الشيخ البدوي، والذين يغار منهم البدو؛ إنهم، إذ يدخلون في توقيت غير مناسب، ويجلسون خارج الترتيب، سرعان ما يوقعون الاضطراب في كل الجلسة. إن الشيخ، الذي يأتي متأخراً، والمكان الامامي مشغول، سيجلس بعيداً في المجلس؛ ويظهر نفسه شخصاً شعبياً في هذا النوع من التواضع المحترم. كلما زاد توغلاً في الحجيرات كان ذا مقام أعلى، حيث أيضاً، مع الشيوخ، يكون مقعد الغريب. أما الجلوس في دائرة مفككة في الخارج وأمام الخيمة، فهو لأجل العامة. إن رجل القبيلة القادم يقدم نفسه في ذاك القسم، أو في قسم أدنى قليلاً، حيث سيكون تقديمه لنفسه في عيون كل الرجال مقبولاً جيداً؛ وفي مثل هذه الطقوس من التنشئة الصالحة، يكون شرف الرجل البدوي بين رجال قبيلته. وهذا هو تقريباً كل ما يخدم البدوي لأجل الضمير. أي الصورة التي يأخذها الرجال عنه. إن الشخص الفقير الذي يقترب من الخلف، يقف مغموراً، ملفعاً بعباءته الرثة، بطقس رزين، إلى أن يتعطف بملاحظته ذاك الجالس بتراخٍ أمامه في الرمل: ثم ينهضان، ويعيدان توسيع دائرة القهوة لاستقباله. لكن إذا وصل شيخ مضياف كريم يملك قليلاً من الماشية فإن كل الرفاق في الداخل سوف يرحّبون به بتملق وسرور بعبارة تَعَال هنيي **«تفضل إلى هنا»**.

إن الشيوخ الفقراء الأذكياء يبزون كل الرجال في لباقتهم في شرب القهوة، وزيد نفسه كان أكثر من أي كبير في هذا الدجل شبه الجنتلماني: كان مفعماً بالرضى الذاتي والتبجح، وتقديم الإطراءات إلى شخص أوضع. بلطف يمكنه أن يشجع، وبلطف أيضاً يرغم رجلاً وهو يرفع نفسه على أن يمنحه قطعة من حجرة رجل! بمثل هذه الوسائل كان زيد يظهر نفسه رجلاً كبيراً كريماً، فقد كان في الواقع الأعظم بخلاً لكن يدار عليه بالفناجين مرتين، في

كل مرة يرتشف الفنجان على أثر شفتي الآخر بدون تقزز. لشيوخ القهوة الكبار يمكن أن يُملأ الفنجان مرات أكثر، لكن هذا تزلف من مقدم القهوة. يوجد بعض الشيوخ الفقراء المترفين المرهفين للغاية يستمدون من هذه الرشفات المرة الثلاث، كل استمتاعهم إذ يفتلون، ويدوّرون ويهزون الفنجان مرة أخرى، يمكنهم أن يكسبوا عشر رشفات. عندما انتهى تقديم القهوة، أفرغ الثَفَل من الركوة الصغيرة إلى ركوة التخزين الكبيرة التي تحفظ مليئة بالماء الساخن: بمحلول القلي المر، يصنع البدو الشراب التالي معتقدين أنهم يوفرون القهوة.

هذا عن تجمعات القهوة الكبرى: لكن لنتكلم بالأحرى عن الرفقة اليومية الصغيرة في منزل شيخ خاص، الذين ينجذبون إلى قعقعة السربوت[1] أو مدق القهوة للرجل الطيب. يكون محيا الرجل البدوي الكسلان كئيباً، مع شيء من الخفة. كما الكثير من زعماء البدو، كذلك هناك العدد الكبير من الغليونات، مع عدم وجود شيء عموماً ليوضع فيها. إذا شوهد أي رجل يمتلك قليلاً من الورق [ورق التبغ] المشتهى، ملفوفاً في منديله، لا يجرؤ على رفض اقتسامه معهم، لأنه إذا امتنع، مع أنه يتظاهر بالمرح، فإن الباقين سيأخذونه منه، بالقوة. إذا لم يوجد أي شيء بينهم، يجلسون وهم ينكشون الوسخ القديم من غليوناتهم ويشعور حزين، يضعون عليه الفحم، الذي يكونون قد خلطوه ببعر الجمال الجاف المسحوق قليلاً، أو بعشب ذابل ما؛ هكذا يتذوقون على الأقل (هكذا هي الحلاوة بالنسبة إليهم) نكهة التبغ، الذي عندما يحرمون منه لأية فترة من الزمن، رأيتهم يقطعون سيقان الغليونات قطعاً صغيرة من أجل رطوبة التبغ القليلة المتبقية فيها؛ وهم يضعون جمرة على هذا الخشب المنقوع «يشربونه» بالدخان بسلوان أخير.

بالنسبة للبدو الذين يجلسون في خيمة قهوة منزلهم، عندما ترتفع الشمس في السماء، يحين الوقت للذهاب إلى المجلس، «جلسة»، تجمع أو برلمان

(1) السربوت: المهباج.

رجال القبيلة. يوجد أيضاً شرب القهوة العام، الذي ينعقد في بيت مطلق أو بيت شعر آخر من بيوت كبار الشيوخ، حيث الشيوخ الكبار ورفاق القهوة يمكن أن يجتمعوا في ذاك الصباح، لأنه، حيث يوجد ملك نحلهم يجتمع رجال القبيلة معاً. فالباحثون عن مجلس يشقون طريقهم عبر المخيم الواسع، يستفسرون من أي شخص يلتقونه «المجلس، أين؟» ايه، يا ولد! هل رأيت الشيوخ جالسين؟. في هذا البرلمان يتحادثون معاً في الشؤون المشتركة؛ عن مبرر سياستهم فيما يتعلق بابن رشيد أو الدولة، القبائل من حولهم. هنا يقال كل ما يمكن أن يكون قد سُمع عن تحرك الأعداء، أو أية أشارات قد شوهدت على الغزو وعن سيول من حين إلى آخر تحدثها مياههم أو المياه الأجنبية؛ يخبر أرباب المنازل عن مرعى عثر عليه البارحة رعاتهم المشتتون. يدعون كل من يريد أن يتكلم هنا، فصوت الأصغر شأناً يكون مسموعاً بينهم؛ فهو رجل من القبيلة. المجلس يقرر مسبقاً الرحلات التالية للقبيلة، الذي يبقى منه نوع من المشورة الحالية في أذهانهم، يسمونه الشور؛ وهذا غالباً ما يتم إبلاغه إلى حلفائهم، وهو ضروري جداً لأي واحد منهم على وشك أن يقوم برحلة.

هذا هو مجلس كبار السن والمنبر العمومي: إلى هنا يحمل رجال القبيلة قضاياهم في كل الأوقات، ويدافع عنها المدافعون عن الطرفين بصخب متواصل؛ وكل شخص يمكنه أن يقول الكلمة التي يريد. يتشاور الشيخ في هذه الأثناء مع الشيوخ، الأشخاص الكبار في السن والأكثر اعتباراً؛ ويعطي الحكم عموماً بدون محاباة ودائماً بدون رشاوى. هذا الحكم يكون نهائياً [مبرماً]. فالخاسر يُغرم برؤوس من الماشية الصغيرة أو الجمال ويجب عليه أن يدفعها حالاً، أو يذهب إلى المنفى، قبل أن يرسل الشيخ الكبير المنفذين لكي يحجزوا على أية حيوانات له، وذلك حسب تخمين الدَّيْن. يكون البدو الفقراء مسددين مكرهين جداً، وغالباً يظنون أنفسهم عاجزين في الوقت الحالي: لهذا ففي كل قبيلة يمكن رؤية بعض الأسر من منفيي قبائل أخرى.

هكذا هي عدالتهم بحيث إن عرب البوادي برأي البلدان المجاورة هم

أعدل الفانين [البشر]. نادراً ما يخطىء القاضي. والحكماء، في هذه المجتمعات الصغيرة من الأنسباء، حيث تكون حياة كل رجل قبيلة مكشوفة منذ طفولته وحالته معروفة جيداً لكل الناس. حتى دعاويهم يُبتّ فيها بسرعة كما كل الأشغال الأخرى للعرب. من النادر ألا تسمع أن قضية تُحل بجلسة واحدة. حيث تكون التهمة خطيرة ويتبين أن بعض الغائبين يتعين أن يكونوا شهوداً، فإن قضيتهم تؤجَّل إلى جلسة استماع أخرى. العدالة البدوية تكون معتدلة حيث تسود الشريعة العبرية، أما في هذه البلدان المتوطنة فتكون العدالة فجة[1]. في الصحراء لا توجد غرامة بشرية، لا يوجد شيء من ذلك حتى في قتل الإنسان، إذا كان الأقربون بالدم لا يمنعون موافقتهم، التي قد لا تكون هادئة، ويدفع المذنب التعويض (يقدر برؤوس من الماشية). كانت الشريعة العبرية تستأصل القروح في الجماعة المتآزرة، واليقين بأن الثأر يجب أن ترجح كفته وينخس في عقول كل فاعلي الشر. لم يكن أمام البدوي شيء يخافه أكثر من الإبعاد؛ قد ينجو من كل شيء إذا كان قلبه الشرير يكفيه، إلا أن يرحَّل عن عشيرته إلى المنفى الدائم.

عند الظهر في الأيام التي يكون فيها المخيم قائماً، عندما ينتهي المجلس، تبدأ الجماعة بالتفرق ويعود البدوي الحافي القدمين لوحده فوق الرمل الحار، ويهجع في حجيرته، حتى صلاة العصر. البدو نوامو نهار؛ بعض البدو ينقلبون على جانبهمليناموا، كما لو أن الليل قد جاء مرة أخرى، في الساعة العاشرة، لكن إذا غفا رجل، وهو جالس في حلقة القهوة، فهذا شيء غير لائق؛ يدعونه لينصرف ويضطجع في أحد جوانب الخيمة. إذا تغلب النوم على واحد لا شعورياً بينهم، فإن الباقين سوف يهزونه ويقولون له: «قم، يا رجل! هل جئت هنا لتنام؟» مع ذلك ففي وسط حديثهم المبربر، ورغم كوني واهناً من الصيام، فإنني نادراً ما وقعت غافياً، على غفلة وأنا أجلس

(1) ليس مستغرب على جاسوس لصالح اليهود أن يمدح شريعة اليهود المحرّفة ويرى أنّ تحاكم العرب فج.

لشرب القهوة؛ وهو ضعف في الطبيعة كانوا ينظرون إليه لدى الغريب بشفقة متعجبة وإنسانية! كل العرب يوقّرون نوم الإنسان؛ إنه كما لو كان في غشية مع الله وهدنة من عزلته الصاحية. ينسحبون إلى منازلهم بورع، ولا أحد يزعجه بخفة، حتى يستيقظ من تلقاء نفسه. فقط من العصر حتى غروب الشمس، لا ينامون بعُد، إذ يعتقدون أن هذا غير حكيم. بسبب نومهم الكثير يكونون أكثر يقظة في ساعات الليل المظلم، هذا الوقت في القفار المكشوفة يكون مشوشاً بالإنذارات التحذيرية؛ فالكلاب غالباً ما تنبح على الذئب حتى طلوع الفجر، وتكون الأبالسة سارحة. يسير البعض في ساعات منتصف النهار بعيداً ويستلقون خارجاً في ظل الجرف الصخري التالي، أو تحت ظل رقيق لشجرة أقاقيا الصمغ، أو في الخيمة الكبيرة لشيخ. عند المساء يستيقظ البدوي؛ ينطلق مرة أخرى، متمتماً بعض كلمات الاستعداد التقي، ليتلو صلاة العصر: وهو يركع على ركبتيه، يضرب راحتيه على الرمل أمامه، ويفركهما، ثم ينزلهما عن الجبهة وبذلك يغسل جانبي وجهه [يتيمم]، لأنه لا يوجد ماء. وهو ينهض مرة أخرى من تعبده، يمشي إلى الخارج للبحث عن أي دخان جديد صاعد هو علامة على نار القهوة والزمالة البهيجة. إن الشيخ الذي سيقطع المخيم العريض، يثب على ظهر فرسه العاري ليذهب راكباً إلى هناك. لقد كان الأكثر عرضاً للخدمات من مضيفي القهوة بعد الظهر هو برجس، وهو شيخ صغير السن غني من شيوخ «قبيلة» وُلْد علي الساخطين الذين يعيشون الآن مع «قبيلة» الفقرا(*)؛ كانت خيمته هي الأرحب في مخيمنا. إذا التأم المجلس مرة أخرى من أجل أي شأن عام، أو بعد رحلة، تكون الجماعة أكثر عدداً إذ يدخل الكثير من رعاة الغنم في تلك الساعة.

أما فيما يتعلق برئيس القبيلة، مطلق، فقد كان رجلاً قوياً حسن المظهر ومتناسقاً على نحو جيد، متوسط القامة، متوسط العمر، وذا سيماء وسيم، وإليه الشرف العربي للحيته السوداء الكثيفة، وينظر إلى الأمام بثقة رجولية

(*) الفقرا : قبيلة من عنزة وكانت تسكن في ما مضى مجاورة لولد علي. (ماجد شبر).

تحت ذاك الحاجب الخادع لاعتداله كشيخ. كان رجلاً مهذباً، وكما يكونون جميعاً في الطقس الجميل، مفعماً بالفنون البدوية الفطرية عندما تُمس مصلحته، بسيطاً في تصرفاته، يذهب وحده بدون أي عصا جمال مزخرفة في يده ولا يحمل سيفاً؛ بمدنيته السياسية كان يغطي العجرفة الزائدة للرجل النبيل، الذي يليق به جيداً. عندما كان المجلس يضمّ كثيرين في حجبرته، فقد كان هو الشيخ الكبير والمضيف، يجلس خارجاً، بتواضع فخور بين الناس العاديين، يظل مثبتاً نظراته إلى الأرض؛ لكنها نظرات مليئة باللمحات الجانبية المضطربة، كما كان ذهنه متوفزاً ويقظاً. كانت سلطته الهاجعة، حتى وجود مناسبة ما، تحكم بكلمة البدو الصعبي المراس. جلس ولد فظ من الصحراء بقربي في المجلس عند قدومي لأول مرة، إنه راعي غنم أسرة زيد. سألته في إذنه «أيهم هو مطلق؟» فأجاب: «هاك مطلق!» وأضاف بشكل صاخب، للغريب. «الرجل هناك هو الباشا علينا كما باشا الحج، هذا المطلق يحكم الأعراب». عندما يقول «الرحلة» يمتطي الجميع وينطلقون؛ وحيث يترجل ننصب خيامنا، «أوهو، أنت مطلق! ألم أتكلم جيداً إلى هذا النصراني؟ وخليل، لو شاء يقطع رؤوسنا جميعاً، والله بالله». رفع مطلق عينيه إلينا للحظة بنصف ابتسامة، ثم ارتد إلى نفسه. شيخ القبيلة البدوية ليس طاغية؛ الشيخ الكبير يضرب رجل القبيلة إذا خدش شرفه؛ فضرب الإنسان في المنزل هو وحشية شديدة، في نظرهم.

عشاء الحليب البدوي. المهارات البدوية

مُبهجة هي نار مسائنا العادي، عندما ينجلي الحر الناري لنهار الصحراء. الشمس تغرب على سهب ناهض من الجزيرة العربية، يبلغ ارتفاعه العادي أكثر من ثلاثة آلاف قدم، يتجدد الهواء الجاف الرقيق في الحال، ويصبح الرمل بارداً على الفور، إلا أنه يبقى مع ذلك وعلى عمق ثلاثة أصابع، ذاك الدفء الشمسي لحرارة النهار المنصرم حتى الشروق الجديد للشمس. بعد نصف ساعة يكون الليل الأزرق، وضوء النجوم الجليل الصافي الذي تشع فيه حزمة درب التبانة بصفاء عجيب. عند غروب الشمس، تُدخل ربة المنزل البدوية حزمة من العيدان والأغصان اليابسة، التي سحبتها أو عزقتها بالمعول (وهو أداة نادراً ما يمتلكونها) في البرية؛ إنها ترمي هذه المؤونة قرب موقدنا، من أجل نار المساء ذات الرائحة الطيبة. أما بالنسبة لهرفة، زوجته الشيخة الشابة، فقد جلب زيد خادمة بدوية صغيرة لمساعدتها. كان لربة المنزل في جناحها النسائي موقد مستقل، هو موقد الطهو. على العموم كانت هرفة تخبز آنذاك، تحت الرماد، كعكة خبز من أجل الغريب: فزيد زوجها البائس، أو لسبب آخر، لم يأكل بعدُ، لكنه سيأكل عند منتصف الليل، عندما يأتي مرة أخرى من المجلس كي يأوي إلى الفراش.

في ساعة المساء الأولى هذه يكون كل البدو بين أهلهم، ليتعشوا في هذا البؤس مما يمكن أن يكون لديهم. إذ لا تجوال بعد الآن عبر المخيم الواسع، ويكون دخول أي شخص بعدئذٍ، وليس الغرباء، «جهلاً» غير لائق. تستلقي الإبل المرضعة مضطجعة، أمام خيمة الشعر: وهؤلاء البدو يدعونها

تستلقي ساكنة لمدة ساعة، قبل الحلب. هذه البهائم الضخمة الواهنة قد تجوّلت طوال النهار على الوجه الجاف للبرية، فهي بالكاد قد تجني كفاياتها، في تلك الساعات الكثيرة، من المراعي الهزيلة للغاية. تقف الفرس المطولة (المربوطة بحبل طويل) أمام الخيمة عند جهة النساء، حيث لا توجد حركة مرور كثيرة. يرمى هذا العلف النجيلي الجاف كما يجدونه في ذاك القفر، إلى جانبها. عندما يكون العرب قد أكلوا لقيمتهم وشربوا لبن الماشية، يبدأ رجال منزلنا القلائل بالتجمع حول موقد الشيخ حيث يوجد توقع ما للقهوة. إن أصغر أو أوضع الحضور الذي يكون جالساً أو متكئاً على مرفقه أو يستلقي قرب حزمة الحطب سيمدّ يده المتراخية من حين لآخر من أجل مزيد من الرمث الجاف، ليرميه على النار، والعيدان الراتنجية الحلوة الأخرى، إلى أن يثب الضوء الملتهب مرة أخرى في الظلمة الكئيبة الشاسعة. البدو لا يحرقون شجيرات المرعى الجيدة «الروثة»، حتى في بلاد أعدائهم. إنها خبز الماشية. لقد أغظتهم أحياناً بشكل غير متعمد، حتى عرفت النباتات، وأنا أقتلعها وأقدمها للهب حيث كان البعض منها ينمو في التربة قرب يدي؛ عندئذٍ لامني الأولاد والنساء والرجال على الفهم القليل، وقالوا متعجبين: «هذا عمل وثني».

إن ربات المنازل السعيدات بحلول ضوء النهار الفارغ، يجلسن مرة أخرى ليتحادثن، أو يكن صامتات وكسولات، بالرزانة المبتئسة للحيوانات العجماء. أما الرجال المسنين، المتعبين دوماً، والرعاة، الذين كانوا طوال النهار خارج البيت في الشمس، فيضطجعون الآن على مرافقهم (هذه هي الوضعية العربية الصحيحة، والتي كان زيد يريدني أن أتعلمها واستخدمها) حول النار المشتركة. لكن الاتكاء من النوع الشائع في البيت هو بسط العقبين إلى الوراء، حول الموقد، مثل برامق الدولاب، والانبطاح على بطونهم (الذي يظنون أنه يهدىء لسعات الجوع)؛ ويرفعون أنفسهم قليلاً، يتحدثون وهم يستندون على صدورهم وعلى المرفقين، وهكذا رجال هذه الأمة المُتعَبة سينامون لاحقاً، فارشين فقط عباءاتهم الممزقة تحتهم؛ على التراب البور

(البيلد) وهي وضعية يستنكرونها أنفسهم. فالبيلد، كما فهمنا على لسان البدو، هو التراب المأهول للصحراء المكشوفة وكذلك تراب الواحة؛ يقولون عن الميت: «إنه تحت البيلد». إن كلمة الديرة، الدائرة البدوية، يسمع أيضاً في بعض الواحات كناية عن مستوطنتهم المدنية، سألت زيداً، «إذاً هل تقول إن البيلد هو أمنا؟» آه حسناً، بالتأكيد، يا خليل؛ لأن من التراب خلق الله الإنسان وكله يعود إلى هنا. يسألونني عن تقليدنا، قلت «أنتم جليسو الأرض، لكننا نحن نجلس على كراسي بدون مساند مثل الأتراك». كانوا يظنون أن أرجل جليسي الكراسي التي تتدلى كل اليوم، تكون متعبة بشكل لا يمكن احتماله. «خليل يقول حسناً»، أجاب زيد، الذي، كونه شيخ عرب، كان في الحضور العالي للباشاوات ورجال الحكومة في دمشق؛ وحكى كيف وجدهم يجلسون على كراسٍ ذات أذرع [مساند] (وكلهم شرقيون متربعون مع ساق تلتف فوق الأخرى، قصبة ساق أو قدم: «القدم البسيطة الملتفة هي للموظفين الدونيين: لكن طوي الظنبوب (أظهر لنا زيد الطريقة،) قال إنه من [عادات] شخصياتهم الأساسية». العرب سألوني غالباً، إذا كنا نجلس مجتمعين بهذا الشكل الودي حول نار المساء؟ وإذا كان جيراننا يجولون على بيوت الجيران بحثاً عن شلة الأصدقاء وشرب القهوة؟ وهم يجلسون هكذا، إذا نهض أي شخص، تنخر الفرس برقة إذ يبدو أنه هو الذي سيجلب لها الآن الشراب اللذيذ من حليب الناقة الدافئ، وتحدق وراءه، وتصهل بابتهاج، توجد ناقة لكل فرس بدوية، نظراً إلى أنها لا تذوق الذرة، وسيقان نباتات الصحراء القاسية لا يمكنها بغير ذلك أن تكون قوتاً لها: فالحصان، الذي لا يجتر ويفقد الكثير من الرطوبة عن طريق الجلد، هو مخلوق عديم الصبر جداً على الجوع والعطش. لذلك فإن مهرته ليست صالحة للحمولة بالنسبة لشيخ في الصحراء، إذ يجب عليه غالباً أن يحمل جملاً آخر بمؤونتها من الماء. ستشرب مرتين، في أحرّ أوقات فصل الصيف، وحتى ثلاث مرات في النهار، وحمولة الجمل من القرب[1] يمكن

(1) القرب جمع قربة: إناء حمل الماء.

بصعوبة أن ترويها أكثر من يومين. من له زوجة أو حصان، حسب المثل القديم، يمكن أن يندم، لا يرتاح، لأن مثل هذه الممتلكات الهشة من المرجح أن تكون دائماً متوعكة. مع ذلك في ظل هذا المناخ الرائق، حيث السماء هي خيمة العالم، يكون للبدو اهتمام آخر قليل بالأفراس، المجهولة في الصحراء إلى درجة زوالها. إنهم يحلبون أولاً لأجل الفرس ومن ثم (غالباً في الوعاء نفسه) لأجل ربة المنزل البدوية. إنها تقف مشدودة على طوالتها، تتطلع نحو صوت الحلب السار: تُحمل القصعة المزبدة من الضرع إليها في يد الراعي، فترتشف من خلال أسنانها الحليب الدافئ الحلو، بتنشق طويل. إن موعد حلب النوق ليس سوى مرة واحدة في اليوم، عند المساء، ما لم يُحلب القليل من أجل شخص مريض أو غريب في الصباح، أو من أجل أي رجل مسافر في أوقات النهار. تُحلب الماشية الصغيرة، الغنم أو البوش، عند غروب الشمس؛ وفي مناطق الربيع الغني فقط يمكن لربات المنازل أن يشددن حلماتها مرة أخرى في الصباح. فالبوش تحلبها ربات منازلهم، أما النوق فيحلبها الرجال والغلمان فقط. الربيع هو الفصل الحليبي، عندما يرتحل البشر والبهائم (إذا لم ينقطع مطر الشتاء) على أفضل وجه في البرية. مع الماشية الصغيرة، يستمر ذلك أسابيع قليلة فقط من الولادة حتى يحل عليهم ذبول العام مرة أخرى، عندما يجف العشب: لكن النوق[1] تستمر حوالي إحدى عشر شهراً في إدرار الحليب.

من الضروري للغاية تقديم الحليب إلى خيول الصحراء، بحيث إنه عندما تساق الجمال في الصيف الجاف، أو في بعض الأوقات السيئة الأخرى، بعيداً عن المنزل القائم لكي تكون عزيباً، تغيب أياماً معينة، طلباً للمرعى، فإن الفرس أيضاً تُساق معها في حشد صاحبها، لتشرب حليب الرضاعة. لكن إذا كان الشيخ بحاجة لفرسه بعدئذٍ في البيت، فإنه سوف يطعمها، بقدر ما يتمكن، بدون المرضعة [الظئر] [بأن] يمزج في المساء قصعة من المريسة أو

(1) النوق أي إناث الجمال.

الحليب الجاف المفروك[1] في الماء. فالمريسة هي مخيض لبن الماشية، المجفف بالغلي إلى أن يصبح قطعة جامدة، ويشبه الطباشير إنه شراب يُشكر الله كثيراً من أجله، في كل الأوقات العجاف، وفي حرّ السنة، في القفار، في الأشهر القاحلة الطويلة، عندما لا يوجد حليب، يصبح عزيزاً أكثر مع كل يوم ومن الصعب الحصول عليه. والمريسة رائعة لتناولها في الرحلات؛ فالمريسة هي شراب غجري لكنه ليس لذيذاً في البلدان الحدودية؛ أما في الواحات العربية فإنها تقدر كثيراً لاستعمالها مع حمية التمر الكريهة، والذي يكون لوحده مولداً للحرارة الشديدة. المريسة (التي تفرك بين راحتي اليدين ويمكن مزجها مع الماء) أو الحليب المجفف، تدعى بأسماء أخرى كثيرة في مقاطعات الجزيرة العربية، مثل مضبرة ويُقيلة، بقل[2]. في غرب نجد، أما في الجنوب باتجاه مكة فتدعى مضير. الزبدة هي سلعة السوق للبدو الفقراء: فيها يمكنهم أن يقايضوا ما في المدن من احتياجاتهم المنزلية. نظراً لكوننا لم يكن أمامنا سوى المريسة في الحقائب السرجية والماء كل ثلث يوم على الطريق، فلم أتردد في الشروع في رحلات طويلة في الخلاء. فالمريسة ستبقى بدون تغيير حتى الموسم التالي؛ إذ تكون صالحة في العام الثاني، إلا أنها تصبح أقسى. كان من الأفضل طحنها حتى تصبح دقيقاً، كما يفعلون في القصيم وتُحرك مع قليل من السكر، في قصعة من ماء الصحراء فتكون شراباً منعشاً سائغاً بعد التعب وحر رحلة الصحراء.

المتعة هي الإصغاء إلى الحديث البدوي المسلي البهيج، درس في مدرسة الرحالة للإنسانية المجردة، لا توجد أرض محفوفة بالمخاطر للغاية لا يمكنه عن طريق الإنسانية أن يجتازها، لأن الإنسان ذو تفكير واحد في كل مكان، وفي نوعهم، حتى الحيوانات العجماء من نفس الأرض الأم ـ خلو في

(1) ليس هناك حليب مجفف وإنّما هو اللبن المعروف بالجزيرة بالأقط والمعروف بالشام بالجميد وبالعراق الكرثي، الجرثي.

(2) بقل يعرف بكل أنحاء نجد حاضرة وبادية.

حينه من الهموم المعقدة التافهة التي تغيم علينا ستعيش بسلام في التوحد الأخلاقي للعالم. ومبهجة تلك أصوات الحليب، تحت الضروع في أواني العرب! غذاء للإنسان والصحة لدى الشرب في بلد فاتر الهمة. عندما تدخل القصعة تعلوها الرغوة، يجتمع عليها الأولاد، ويدعى الضيف غالباً ليتعشى معهم، بأصابعه، الرغوة الحلوة، الأورغة أو الرغوة: أو يسكب هذا الحليب في قربة اللبن الرائب ويُخضّ هناك للحظة، تقدمه ربة المنزل مرة أخرى إلى المتعشين، مع تلك الحموضة المركزة الآن التي يعتبرونها الأكثر إنعاشاً.

(الصلبية) الجوالون

عندما مضينا إلى المجلس قال زيد، «هناك سأريك بعضاً من شعب العصر القديم». كانت أسرة واصلة لتوها من الجوالين الفقراء، (الصلبية). أُعجبت بالجمال الطبيعي «اليراق الممتلىء الوجه لأولادهم الرثي الملابس، وقد لوحظ دائماً الشبه أيضاً بالبدو الحاتميين. فهؤلاء الأنسباء الغرباء والمنبوذون ذوو طلعات أجمل من البدو الذين قضّهم الجوع. إن آل حاتم، الأغنياء بالماشية الصغيرة، يمتلكون غذاءً كافياً في الصحراء والصلبية يتغذون من قنصهم وعملهم الغجري: لأنهم سمكريو[1] ركوات ومصلحو أسلحة، في المنازل البدوية. إنهم يطرقون على البليطات السندانية، الجدوم[2]، (التي يقطع الرعاة بها أغصان الأكاسيا الحلوة، لتغذية قطعانهم) محشات العشب من أجل قصّ العلف، والفولاذ من أجل إشعال النار بالصوان، وما شابه. إنهم بالإضافة إلى ذلك نجارون، بخشب أكاسيا الصحراء، لأشجار السروج البدائية لأجل جمال الحمولة، وهياكل سروج النوق، ولبكرات السحب (المحال) من أجل السحب من أية آبار عميقة من الصحراء، كذلك لأوعية الحليب البدائية، ومهن أخرى كهذه: بالإضافة إلى ذلك، فإنهم جراحو ماشية، وفي كل مهنتهم (سوى أنهم أقل مهارة) يشبهون طبقة الحدادين أو الصُنّاع. الصلبية يطيعون أمر زعيمهم، الذي حظّر عليهم أن يكونوا مربي ماشية، وأمرهم بأن يعيشوا من قنصهم في البراري،

(1) سمكريو: صانعو ومبيضو آلات القهوة.

(2) الجدوم: القدوم.

ويحطون الرحال أمام حجيرات البدو، كي يصبحوا ضيوفهم، وأن يشتغلوا كحدادين لدى القبائل لكسب عيشهم. وكونهم لا يمتلكون حيوانات حلوب، لذلك يطلبونه في الخيمة البدوية، فتقوم ربة المنزل بسكب اللبن من صميلها[1]، لكن في قصعتهم الخاصة، للصلبية الفقراء: لأن البدو، الظرفاء قليلاً من نواحٍ أخرى لن يشربوا عن طيب خاطر بعد الصلبيين، لأنهم يمكن أن يكونوا قد أكلوا بعض الفطيس، أو المخلوق الذي مات من تلقاء نفسه كذلك يقول البدو عنهم، «إنهم يأكلون حشرات قذرة وديدان» وأما هذه الأخيرة فهي خرافة، فهم لا يأكلون مثل هذه الحشرات الطفيلية. بشكل متهور تصفهم اللغة الشريرة للبدو بأنهم «كفار»، لأن قلة فقط من الصلبيين يمكنها تلاوة الصلوات الرسمية؛ فالبدو أنفسهم لا يحظون بتقدير أفضل في المدن. يبدي الصلبية حماساً متواضعاً جيداً لأجل دين البلد الذي ولدوا فيه، وليس لديهم أية مراعاة لأي دين آخر؛ إنهم متسامحون، وبطريقتهم البائسة إنسانيون، نظراً لأنهم أنفسهم أشخاص محتقرون ومضطهدون[2].

في الصيف، عندما لا يكون لدى البدو مزيد من الحليب، يحمّلون خيامهم الخفيفة وأدواتهم المنزلية، مع ما جنوه، على الحمير التي هي دوابهم الوحيدة، فيهجرون مضرب الأعراب، ويتابعون رحلتهم عبر الخلاء الواسع. بعدئذٍ تمضي الأسر الصلبية لتستوطن بعيداً، عند بئر ماء جيد، في قفار غير مطروقة، حيث توجد الطرائد. إنهم وحدهم (من كل البشر) متحررون من الصحارى العربية ليسافروا إلى حيثما يشاؤون؛ إنهم، إذ يدفعون لكل الناس جزية صغيرة، فلا أحد يضايقهم. إنهم من مواليد البلد، مع ذلك فإنهم لا يحملون جنسية (مواطنية) شبه الجزيرة العربية. لا يوجد بدوي، كما يقولون، يسلب صلبياً، رغم أنه يصادفه بمفرده، في عمق البرية

(1) الصميل: إناء جلدي يُخضّ فيه اللبن الرائب لاستخراج الزبدة.

(2) يصف داوتي الصلبية في الفترة التي كانت فيها رحلته، أمّا الآن فالصلبة تعلّموا وتنوّروا وهم يعدّون من سائر المسلمين في الجزيرة العربية وأطراف الشام والعراق.

وفي يده جلد نعامة يساوي ناقة. لكن البدوي المترحل يكتفي بالنظر من بعيد إلى خيمة صلبي، منصوبة على بئر، منعزل، ويأمل في أن يأكل هناك من قِدْر القناص؛ والصلبي الفقير سيجعل الرجل الطيب يبتهج بلحم طرائده أيضاً ـ إنهم يركبون ليقوموا بالقنص على ظهر الحمار. وعلى هذه الدواب الضعيفة التي يجب أن تشرب كل يومين، (لكن خلافاً لذلك فمن الصعب أن تكون أقل من الجمل شأناً كدابة صحراء)، يسافرون مع عائلاتهم عبر مناطق كبيرة لا ماء فيها، حيث البدوي على جمله السريع والقوي، يتحمل العطش ثلاثة أيام، قد لا تمرّ بخفة. هذه العشيرة المشتتة من رجال الصحراء في الجزيرة العربية، تبزّ البدو الرعاة في كل مهن البر، بقدر ما يسبق هؤلاء قرويي الواحات المتأخرين. إن (الصلبية) (لدى كل هؤلاء البائسين الجهلة من نواحٍ أخرى) قد ورثوا معارف البر، من الأب إلى الابن، عن أقل أماكن العثور على الماء. إنهم يطوفون على السطح الهائل للجزيرة العربية، من هضبة سوريا إلى اليمن، بعد الطائف ولا أعرف إلى أين أبعد من ذلك! وعن الأشياء ضمن فهمهم المتعمّق، يخبرني أهل الجزيرة العربية، أن من الأفضل للإنسان أن يستفهم منهم.

لا بد أنهم أساتذة في القنص، بحيث يمكنهم أن يطعموا أنفسهم في أرض قاحلة؛ وحيث الرجال الآخرون يمكنهم بالكاد أن يروا أثراً لطريدة، فهناك غالباً، يكون الصلبيون الفقراء يسلقون اللحم اللذيذ للغزلان والبدن[1]، وفي بعض المناطق الرملية، لحم البقر الوحشي[المها]؛ في كل مكان يعرفون مسارات وأماكن هروب طرائدهم. إن البدو هم الذين يحكون هذه العجائب عنهم؛ إذ يقولون، الصلبية مثل رعاة الصيد البري، لأنهم عندما يرون حشداً يمكنهم أن يكسروه وينتقوا منه كما لو كان قطيعاً، ويقولون: هذه الرؤوس سنأخذها اليوم، أما تلك الرؤوس الأخرى هناك، فيمكننا أن نأخذها بعد غد ـ إنه إنساني أن نضخم الأمور، ونجد أعجوبة

(1) البدن: تيس الجبل.

سارة فهذا النوع من الكلام الكبير هو شهامة للعرب؛ لكن مما لا شك فيه، أن الصلبية رحالة مثيرون للإعجاب، ورجال قساة، شديدون، كما يعيشون من أياديهم والأفضل إبصاراً منهم هم قناصون ممتازون جداً. الصلبية أو الصلبي إضافة إلى هذا الاسم العلم لقومهم، لديهم بعض الأسماء الأخرى التي هي نعوت، فإلى الغرب من حائل يسمون غالباً الخلّوة أو الخلوي، «الخلو»، لأنهم يقطنون بعيداً عن القبائل، لا يملكون ماشية أو رفقة؛ - كلمة يقولها البدو عن أنفسهم، عندما يكونون في رحلة، لا يجدون منزلاً من منازل العرب، إذ يجب عليهم أن يضطجعوا ليناموا» منعزلين في الخلاء الفارغ. الغانم هو اسم عشيرة أخرى من الصلبية في شرق نجد؛ ويقال، إنهم لا يتزاوجون مع غيرهم. يعتقد أهالي الجزيرة العربية عموماً أنهم ينحدرون جميعاً من نوع كافر قديم أو من النصارى(*).

(*) راجع موضوع الصلبة في كتاب البدو ماكس اوبنهايم ج4 الصادر عن شركتنا الوراق.

زيارة إلى تيماء

ونحن نطوف ونخيّم، اقتربنا من تيماء؛ وصرنا الآن بالكاد على مسافة يوم منها، فذهب بعض أناسنا للتسوق هناك، وذهب زيد معهم، لشراء المؤن: وكان عليّ أن أركب أيضاً برفقة زيد. انطلقنا في الصباح مع شلة رثة الملابس، من عشيرة الفهيقات في معظمهم، من ثلاثين رجلاً مع إبلهم. عبرنا حالاً من المرتفعات الرملية إلى القفر الأكثر قحطاً من الأراضي الناهضة والأغوار، والأرض الصخرية وحصباء من حجر الحديد. إن هذا القحط الشديد للصحراء يقع حول تيماء، بلا ورقة نبات أو دغلة. مررنا بأرض عميقة، مهاي، وسرنا هناك بواسطة علامات غامضة على مستوطنة قديمة، جريدة، حيث تشاهد دوائر قديمة قليلة من الأحجار اللوحية، المطلية بالقار في اتجاه الحافة، على ارتفاع ثمانية أو تسعة ياردات، تبدو هكذا كما يمكن أن تكون قد سُيِّجت الخيام الشتوية للعرب القدماء، الذين كانوا يلتجئون في هذا الغور. في المعلقات، أو القصائد المختارة للجزيرة العربية القديمة، يوجد ذكر للخيام المدورة، لكن حجيرات كل البدو العرب هي الآن مربعة فقط. صاحت بي الجماعة «انظر هنا! خليل، إنها قرية من **الأولين**، من الأزمنة القديمة» ـ وماذا كان هؤلاء القدماء؟ «البعض يقول إنهم بنو كلب؛ أو تشلب، ولهم، بالله، كان برج سلمان وأرض أم شريفة» أضاف زيد: «كان هذا لأهل ثيماء (وليس تيماء)، وشيخهم علي السويسي». ونحن نطلّ على أعلى أرض خلفه، دلني زيد على نقاط العلام الجبلية، باتجاه غرب منطار Muntar بيت عطية، ثم طويل سعيدة Twoyel Sa'ida، حلايمة Helaima أمامنا، في واجهة

جبل الغنيم (جبل الغرنيم el Ghreneym)، التي تقع خلف الواحة. تمتم البعض «لماذا يريه زيد بعض نقاط علامنا ؟» فقال لهم «سأجعل خليل يصبح بدوياً».

كان المنظر الأخضر لتيماء بهيجاً، فقد اقتربنا من جزيرة النخيل الباسقة، المسيّجة بأسوار البساتين الطينية، المحصّنة بأبراج عالية. تيماء قاع فيضانات، ضحل طُفالي وخصب جداً في هذه السهول المكشوفة العالية، التي تمتد من غرب نجد. تلك البروج الشبيهة بالمنارات، مبنية بشكل جيد جداً من الآجر المجفف بالشمس، هي منذ القدم عديمة الأمان قبل حكم ابن رشيد، عندما كانت تيماء مثل معظم الأمكنة العربية، مضطربة بفعل انقسامات الشيوخ، وأحياء البلدة مقسمة بفعل عداواتهم الوراثية، فكل شخص ميسور الحال، عندما يكون قد حصّن نخيله بجدار آجري صلصالي مرتفع بنى برجه عليه؛ كذلك كان في كل سوق من البلدة ثمة برج صلصالي للدفاع والالتجاء لأجل أناس ذاك الدرب. في حال الخطر الفردي ينسحب المرء مع عائلته إلى مزرعتهم المسوّرة: في ذاك السياج، يمكنهم أن يشتغلوا ويأكلوا الثمار، رغم أن أعداءه القدامى يحتجزونه مطوقاً لسنة أو سنتين: كان أي عدو يقترب في النهار يُشاهَد من برج المراقبة. هذا التسوير قد يظهر أنه دفاع ضعيف؛ لكن بسبب كل المكر الثعلبي للعقول السامية، ليس فيها تقريباً أي ابتكار. إن التفجير بالبارود، والقصف الثقيل المستمر بعوارض النخيل قد حطما مقاومة هذا الصلصال، لكن ما أن يحكم الولد، حتى يتوحد المجانين فوراً لمحاولة أي شيء غير مجرب. في أمثولات الإنجيل، عندما يغرس المرء كرمة، يبني برجاً هناك لصونها. إن برج المراقبة في البستان يشاهد مع ذلك على كل تخوم الصحراء. دخلنا بين جداري بستان، تغطيهما أغصان مزهرة من أشجار الخوخ؛ وكم كان مصدر الاطمئنان لأعيننا الظمأى! قرأت ارتفاع الواحة 3,400 قدماً. ترجلنا عند رأس السوق الأولي قبل الدار، بيت أو فناء شاب من معارفنا اسمه سليمان، كان في وقت الحج أحد ضيوف القلعة في مدائن صالح. هنا كان يسكن مع أخيه، الذي كان تاجر تمور زيد؛ لذلك

فقد استُقبلنا بحفاوة، وتسلينا. كانت الحريم قد أدخلن هرفة، التي ركبت معنا طوال الرحلة، إلى جناحهن.

عندما يبدأ مدق القهوة [المهباج] (الذي يصنع مع الهاونات، هنا من الرخام الكلسي، من عمل الصناع، من جَوْفْ) بالرنين، يعلن عن قدوم الضيوف؛ دخل الجيران بوقار من السوق، نهض شيخنا زيد لكل واحد بتحيته الودودة الكبيرة، وبالكياسة القديمة أخذ أيديهم وعانقهم.

تيماء هي مستعمرة ندية لشمر، الذين جاء آباؤهم ليستقروا هنا حسب قولهم، منذ ما لا يزيد عن ثلاثمائة سنة: منذ ذاك الوقت بقي نخيلهم الباسق القليل الذي يشاهد نامياً إلى خمس عشرة قامة، بواسطة الجُبّ الكبير، هداج؛ ويوجد القليلون فقط، الزنوج، الذين يجرؤون على التسلق لقطف ثمارها. كل أصناف نخيلهم جُلبت من جبل شمر، باستثناء الحلو، الذي جلب من العلا وكلامهم حتى الآن، في ديرة أخرى، هو كلام شمر. هنا لأول مرة نشاهد أهل نجد النحيلين التياهين السليطي اللسان ذوي الضيافة الخادعة الجاهزة، وللغريب، الواصل من الحجاز، يكادون يشبهون البدو. يسيرون حفاة، ولكن مكسوين بجرأة ببضائع حائل من العراق، ويقطنون بيوتاً فسيحة مبنية من الطين، معظمها ذو طابق علوي؛ النوافذ بابية تفتح لأجل النور والهواء، أرضيتها من التراب المرصوص، الباب البدائي هو من ألواح خشب النخيل، كما في كل الواحات. هذه البلدة الشمرية المفتوحة لم تضربها الأوبئة أبداً، فهواء البر أو أعالي الصحراء النقي يقع في كل ما حولها من الأسوار: وحدهم البدو من الصحراء الجافة يشكون هنا من الليل (التبخر من التربة المروية)، الذي يسبب لهم برداً في الرأس، زكام. هنا لا توجد خرائب البيوت، والأسوار المهدمة والأطيان المهجورة، التي تُشاهد في معظم الأمكنة العربية. هذه المستوطنة المترامية الأطراف من نجد مزدهرة، إذ لم أرَ أكبر منها في أسفاري في الجزيرة العربية. إذا اكتشف أي شخص هنا بئراً قديماً، خارج الأسوار، فيكون ملكاً له؛ وهو يقوم بتسوير كثيراً من الأرض البور حوله بما

يكفي للسقاية؛ بعد فلاحة أرضه الجديدة تكون ملائمة لأجل بذر وغرس النخيل، وبعد خمس عشرة سنة فإن كل جذع نخيل سوف يساوي جملاً. إن تيماء،التي كانت حتى ذاك الوقت بلدية حرة، قد استسلمت بدون مقاومة لحكم ابن رشيد. إنهم مزارعون ماهرون في استعمال ما يملكون بدون أي إبداع: آبارهم ليست سوى آبار القدماء، التي يجدونها مرة أخرى، كما حفروها لأجل أنفسهم: محرومين من كل ابتكار، لا يحفرون الآبار أبداً، ويظنون أنفسهم غير قادرين على حفر قامة أخيرة في الرمل الصخري الناعم الذي يقع في قاع الآبار البالغ عمقها سبع قامات. إن المسلمين، يقولون، لا يمكنهم أن يحفروا مثل هذه الآبار، بل وحدهم النصارى يحبّون العمل، واليهود. من بين حفاري الآبار العرب بالحجر لا يوجد أقرب من القصيم، وهؤلاء العرب الكسولون لا يستدعون أي عمّال أجانب، إنهم يتكلون على الله من أجل عيشهم الذي كما تقول قلوب هؤلاء الرجال المقترين، هو أفضل من وضع فضتهم في مغامرة.

لم يكن ثمة هناك من يطلب الصدقات في الشارع؛ وبالفعل ليس مألوفاً أن ترى أشخاصاً معدمين في غرب نجد. لم أعرف في تيماء سوى رجلٍ فقير كهذا، عاجز لكنه ليس كبير السن. كان يدخل إلى أي بيت في وقت العشاء، كان بإمكانه أن يجلس مع البقية ليأكل ويلقى ترحيباً، لكنهم كانوا يتذمرون ممن يحمل معه أية لقمة. كان ثمة في البلدة بدوي أو بدويان معدمان، يدخلان ليتعشيا ويذهبان إلى القهوة التي تدخل إليها الأسر، فلا يمنعهما أي رجل. في الليل كانا يستلقيان بعباءتيهما، في أية صالة قهوة يوجدا فيها أو يخرجان إلى النوم، في الهواء المنعش، على بعض مقاعد الطريق الطينية.

مسيرة إجبارية. صورة أبي زيد. الفَرَس الشاردة.

في هذا المنزل، لأن الناس يجب عليهم أن يسيروا منذ الصباح، فقد قُوِّضت الخيام ورزمت الأمتعة قبل أن يناموا. اضطجعت الأسر البدوية خارج الخيام تحت النجوم، إلى جانب أدواتهم المنزلية وقرب الماء المتعرقة المليئة بشكل قبيح. كان الليل بارداً، على ارتفاع 3600 قدماً. رأيت البدو متمددين على الرمل، متلفعين بعباءاتهم: القليلون منهم كانت لديهم سجادات نوم تفرش تحتهم تصنع من قماش صوفي أسود مثل قماش خيامهم، إنما من غزل صوفي أنعم وحياكة أفضل، مزيّنة بحافة من مربعات من الصوف الأبيض والملون وهُدب مدبوغة بألوان بهيجة. إن لأكيمات تيماء اسم في هذا البلد.

كان الجو بارداً تحت النجوم في هذا الفصل، والمسير سيكون قبل شروق الشمس في القفار المفتوحة. لا يملك أولاد الفقراء عباءة، بل سمقاً قطنياً يغطي أجسادهم الغضّة؛ وبعض الأطفال يُشاهدون عراة. وجدت أن درجة الحرارة تبلغ 48 درجة فهرنايت؛ وعندما طلعت الشمس بلغت درجة الحرارة 86 فهرنايت كانت مسيرة إجبارية، فالقطعان والأسراب، الطُرش، كانت تُساق إلى جانبنا. وعند الحاجة فإن البدو لا يوفرون الماشية التي هي كل ثروتهم، لكنهم يفكرون في التصرف جيداً لإنقاذ أنفسهم ومتاعهم، حتى لو كان ذلك بإتلاف البعض منها. كانت ناقاتهم الكبيرة مع صغارها تلد يومياً آنذاك. إن الحملان والجداء المفطومة حديثاً، وصغار الجمال المترنِّحة التي يبلغ عمرها أقل من خمسة أيام والجراء الصغيرة، التي سيربونها من كلاب المخيم، تضعها ربات المنازل، مع أولادهن، على جمال الحمولة. إذ تشاهد

كل أم وهي تركب على جمل في منتصف لفة قماش خيمتها (شادرها) أو بساطها، وفي الطيات تؤوي أيضاً الحيوانات الصغيرة؛ وتحمل أولادها الصغار أمامها. إن الأولاد الصغار، والمسنين، والمرضى وحتى الأشخاص طريحي الفراش، ينقلون على مدى ساعات طوال، دون أن يظهروا علامات التعب في ركوب الجمال. يركب الأشخاص المعانون من الأمراض جالسين في عش من قماش الخيام؛ أما الآخرون، الذين كانوا رعاة، فيركعون أو يستلقون، دون أن يخافوا من السقوط، ويبدو أنهم يهجعون هكذا على الظهر العاري للجمل المتمايل. إنه تقليد من تقاليد الصحراء أن يسافروا صائمين: مهما كانت الرحلة طويلة، فإن أعراب الصحراء لا يأكلون إلا عندما يترجلون عند المنزل؛ مع ذلك فإن الأمهات يقدمن الماء لأولادهن ليشربوا، أو لقمة في الأفواه، في الطريق الطويل.

ونحن نرتحل في هذا الحر المضجر، رأينا أولاً، في أفق بعد الظهر، جبل بيرد الحجري الرملي المنعزل المرتفع. هناك تلة «صاح جيراني برطانتهم المضحكة هو شيخ ديرتنا». يبلغ ارتفاع جبل بيرد (برد) حوالي5,000 قدم. على الجهة اليمنى يمتد خط من أشجار الأكاسيا في السهل المقفر. نقطة العلام سرير سيل جاف، ينحدر، كما قالوا، من على بعد يوم واحد باتجاه غرب خيبر، وينتهي هنا في الصحراء. في كل هذا الريف المرتفع، بين تيماء وتبوك ومدائن صالح، لا توجد وديان. المطر الأخير القليل الذي قد يهطل في العام لا يسقط سوى رذاذٍ في الرمل. ونحن لا نزال نرتحل، غربت شمس آذار التي شهدت رحلتنا، وهي تشرق، خلفنا في سرادق ضخم من الأمجاد الشرقية، وهو ليس نادراً في هذه المسيرات القاحلة العربية، الجو ليس صاحياً تماماً. رأينا مرة أخرى ضوء النجوم البارد قبل أن تترجل الأسر الواهنة تحت بيرد حتى الصباح، عندما ينتقلون من جديد؛ لا تصنع الحريم المتعبات سوى ملجأ من أقمشة الخيام المفروشة على وتدين للاتقاء من ريح الليل. لقد كان عبثاً أن نبحث عن حليب الماشية التي أفرط في سوقها وذات الضروع الجافة. هذا اليوم انتقلت النزلة البدوية دفعة واحدة أكثر من أربعين ميلاً. في الأوقات

العادية يتخذ هؤلاء الرعاة الجوالون منازلهم ويطردون الماشية إلى المرعى، قبل الظهر العالي. وعلى عجل، عندما رأينا اليوم الجديد، ارتحلنا ونصبنا خيامنا على بعد أميال قليلة في ديرة بِشر[1]؛ ومن هنا حسبوا رحلة ثلاثة أيام إلى حائل، ومثلها من دار الحمرا، مسيرة يوم ونصف إلى تيماء.

جاءت امرأة فقيرة وهي تبكي إلى خيمتي متوسلة لأرى وأتكهن في كتبي ما الذي حل بولدها. كان الصبي الصغير الحافي القدمين مع الغنم، وفُقد بعد رحلة البارحة الطويلة، كان من الصعب إقناع الأم، في غمرة أساها، أن كتبي ليست قبالية[2]. لم أستطع أن أقنع العرب بأن يرسلوا بعضاً منهم، بالإضافة إلى والد الطفل، للبحث عنه. فلو شرد جمل أرملة فقيرة، فلن يقوم رجل باقتفاء أثره من أجل الخير الإنساني، ما لم يكن بمقدورها أن تدفع ريالاً. عثر على الراعي الصغير في نهاية المخيم، حيث كان قد ترجّل أولاً في خيمة قريب له.

ارتحلنا من هناك لمسافة قليلة ضمن التخوم البيضاء العالية للنفود، ونحن نسير من خلال ريف رملي مليء بنباتات «وردة أريحا» من العام الماضي. وهذه يدعوها البدو كف مرحاب. فالكف هو راحة اليد المجوفة، مع الأصابع المطبقة عليها. أما مرحاب في تراثهم فهو شيخ قبيلة خيبر اليهودية القديمة. وجدنا أيضاً العشب الفتي، ذا الورقتين الخضراوين المخمليتين، له الطعم الصحي للرشاد، وهو صالح لأجل ماشية البدو. ترجل الأعراب بعدئذٍ في أرض التخييم **ضمول المسوية**؛ تُعرف من بعيد بنقطة العلام لمسلة شبيهة بالبرج منفردة من الحجر الرملي، يبلغ ارتفاعها ستين قدماً، **الطُويلان** Towilan. في اليوم الثالث انطلقنا من هناك، مع هبوب الريح الرطبة والباردة، على جبل تشيباد[3]؛ من تشيباد ذهبنا إلى مقاطعة الجبال الوعرة. بعد رحلة

---

(1) وهي إحدى فروع قبيلة عنزة.

(2) نسبة إلى القبلانية، وهي فلسفة دينية سرية يهودية تقوم على تفسير الكتاب المقدس تفسيراً صوفياً (المترجم).

(3) لعلّه جبل كباد.

أخرى، جئنا لننصب خيامنا أمام قمة جبل عرنان Irana الحجرية الرملية الكبيرة، في نجد. وراء هذه [القمة] تقدمنا باتجاه الجنوب الشرقي إلى الساحل الوعر يبا مغرير Ybba Moghrair؛ إن البدو، الذين ينطلقون كل يوم ثانٍ أو ثالث، سافروا لمسافة سبعة أو ثمانية أميال وترجّلوا. رأيت حول الجبال دوائر أخرى من الألواح الحجرية غير المشذبة، المرتبة من جهة الحواف. مثل ألواح جريدة. في مكان آخر ثمة سياجان جداريان مزوّيان، ذوي مداميك قليلة؛ كانا مقامين على أسس بارزة منخفضة وظننت أنهما ربما كانا نوعاً من المتاريس المرتجلة؛ لم يكن بمقدور البدو أن يعطوني أي تفسير لهما، نظراً لكونهما شيئين سابقين لزمانهم وتراثهم. إلى الشرق من يبا مغرير، مررنا بسفح بريج[1] بدائي قديم صغير في تراب الصحراء. أريته لبعض الأشخاص الراكبين بالقرب مني في الرحلة. الأعمال المتبقية (كما أجابوني) من إبداع العالم؛ ما هي المنفعة في أن تستعلم عنها؟ «لكن كل شيء من هذا لا يساوي شيئاً (قال زيد) بالمقارنة مع ما سيُريني إياه في الغد، الذي كان أعجوبة: تمثال أبي زيد، وهو شخصية بطولية خرافية، والسيدة عليا زوجته، المرسومة على جرف ما من ذاك الجبل يبا مغرير».

ونحن نتجول في كل الجزيرة العربية القاحلة، غالباً ما نرى أحجاراً ثلاثية القوائم غير مشذّبة مرتبة كل ثلاثة معاً، هكذا هي مواقد القدور (الأثافي) البدوية القديمة؛ وهي علامة إنسانية مريحة، وجد البعض أنها تبهجهم، أمامنا، في أرض تبدو فيها حياة الإنسان شبه منبوذة، لكن في أي وقت يكون ذلك غير مؤكد لأن الحجارة، عندما تنصب في ذاك القحط المهجور، يمكن أن تستمر هكذا لعصور. فالبرية الحصبائية والأكثر قسوة ترى متقاطعة في كل مكان مع مسارات الجمال المطروقة القديمة؛ هذه أيضاً من الأجيال القديمة، ولا يوجد أي مكان من البرية الشاسعة، لا يُزار في وقت من الأوقات في تجوالات الأعراب؛ ومع ذلك فيما كنا نمر لا توجد أي حياة أخرى، إذ لم

(1) تصغير برج وهو من وسائل الدفاع في القلاع.

يكن بمقدورها أن توجد في دائرة نصف قطرها مئة ميل حولنا. لا يوجد تقريباً أي جزء من الأرض لا يمكن إيجاد الوقود فيه، من روث الجمال القديم، الجلة، الذي يبيّض لونه تحت الشمس؛ قد يكمن ثلاث سنوات، ويتراكم عليه قليل من الرمل، وفي بعض الأحيان لفترة أطول. توجد علامة بشرية أخرى في القفار تنظر إليها الأمهات بارتياب؛ إذ نكاد نرى في كل رحلة جديدة، أشكالاً بيضاوية صغيرة من الحجارة، تدل على المتوفين قبل الأوان من البدو: لكن الأشخاص البالغين المتوفين الذين يموتون في ديراتهم، يُحملون (إذا لم يكن ذلك بالغ الصعوبة) إلى أقرب مقبرة عمومية.

في الصباح الباكر، أخذ زيد فرسه ورمحه وانطلقنا لزيارة تمثال أبي زيد، أعجوبة هذه الصحراء، عبرنا السهل الرملي، حتى كان الظهر حامياً فوقنا؛ وأتينا إلى الجبل، ودرنا حوله لبعض الوقت عبثاً: زيد لم يكن بمقدوره أن يجد المكان. تشاهد البقع البيضاء، مثل علامات البحر، على بعض تلك الجروف الصخرية المقفرة، إنها أماكن جثوم للطيور الجارحة، والصقور، والصقور الحوامة والبوم: أعشاشها الكبيرة من العيدان تشاهد غالباً في الجروف الشديدة الانحدار المقفرة من هذه التخوم الحجرية الرملية. في التربة عديمة الماء تعيش حيوانات صغيرة كثيرة لا تشرب، كالجرذان والسحالي والأرانب البرية. سمعنا بومات تنعق أحياناً في الليل الساكن؛ عندئذٍ كانت الزوجات والأولاد البدو يردون عليها بتقليدها مرة أخرى بشكل ساخر! يمقباس، يمقباس! قالت النساء «إنها امرأة نواحة تبحث عن ولدها المفقود في البرية، فتحولت إلى هذا الطير البائس». الفحيجات[1] يأكلون البومة؛ ومن أجل ذلك يسخر منهم البدو، وهو أنهم مفترسون لهوام أخرى. مضينا على سفوح تلك الجبال حتى تعبنا. إن زيداً، ابن شيخ، رفيق قهوة من شبابه، وهنا في ديرة أخرى، لم يستطع أن يتذكر نقاط علامه. كانت شمس الظهيرة عالية؛ تجوّلنا على نحو عشوائي، وبسبب الجوع

(1) الفحيجات: بطن من بني سنان من موسى من جهينة، ص375 من معجم قبائل الحجاز لمؤلفه عاتق بن غيث البلادي.

والعطش نقطع الهندباء البرية النابتة منذ بعض الوابلات في تلك الصخور، نبدأ بكسر صيامنا. أخيراً، ونحن نطل على مكان عميق، لمحنا جمالاً، كانت ترعى على سفح الجبل: هنا وجدنا رعاة الفحيجات. قالوا التماثيل ليست بعيدة أمامنا، فوضعونا على الطريق، لكنهم دعونا أولاً إلى الجلوس لننعش أنفسنا. عندئذٍ هرع الرجال الفقراء تحت ضروع الأغنام من أجلنا، وعادوا بقرب[1] الحليب مملوءة بذلك الطعام الدافئ؛ السماء تتذكر بالخير البدو المحسنين الفقراء! عندما شربنا جاؤوا معنا، وهم يسوقون القطيع: انفتح أمامنا مضيق صغير، كان مدخلاً صغيراً في صدر الجبل، يعجّ بالخضرة ذات الطراوة التي لا تُضاهى بالنسبة لحواسنا، للأعشاب النامية بوفرة. عند طرف هذا البستان من الأعشاب البرية يوجد حوض طيني راكد؛ وفوقه أدركت أن الصخور مليئة بالنقوش المحفورة، وتمثال أبي زيد البالغ ارتفاعه ياردة واحدة، وهو يحمل في يده عصا الجمال المعقوفة، الباكورة، أو السيف كما يقول الأعراب الذين لا يستطيعون الحكم على فن التصوير والنحت؛ إلى جانبه، يوجد شخص أدنى منه، ربما يكون أنثى، يسمونها «عليا زوجته». من المرجح أن هذه الأشكال النابضة بالحياة القديمة، قد قصفت بالحجارة وأسقطت على الحجر الرملي؛ فهي ليست مثل النحت المخربش للبدو، بل مرسومة برشاقة بالحجم الطبيعي القديم. هنا توجد خرافات حميرية قصيرة في معظمها، مكتوبة (كما هو شائع في هذه الصحارى) من الأعلى إلى الأسفل؛ الأسماء بلا شك، الأمثال، السلامات للمسافرين وراكبي الجمال الكثيرين من الأجيال الغابرة. يَبا تُقال بدلاً من أبو، الأب، في هذه الأجزاء من الجزيرة العربية، وفي المدينة [المنورة]؛ المغير، ربما يكون الكهف. أمرت زيداً أن يسمح لي أن أمتلك ناقة حلوب وأن يتركني هنا مع أبي زيد. فأجاب زيد (بحكاية خرافية)، أنه كان قد دفع لبِشر جملاً مقابل السماح له بأن يريني أبا زيدهم. أجاب الفحيجات ببساطة «الرجل يجب ألا يقطن هنا لوحده، في الليل، فالعفاريت سوف تصرعه».

---

(1) قربة اللبن تسمّى صميل عند البادية أو سعن.

عندما جئنا مرة أخرى، ترجّل زيد على حوض رملي طبيعي بين الصخور، تحت الجبل، وهناك صار يغوص بيديه إلى المرفق فوصل إلى رطوبة نتنة ضئيلة. ابتسم زيد مزهواً وصاح، «ها! لقد اكتشفنا ماءً جديداً. والله. هنا يوجد ماء تحت الوحل قليلاً، العاملة ستأتي إلى هناك غداً وتملأ جرباتنا». ولذلك نبتت حشيشة عنب الثعلب الآن في مرحلة الثمرة؛ الرجل البدوي لم يكن قد شاهد مثلها من قبل، وأمرني أن أحملها إلى البيت، لكي تتفحصها النساء إذ إن أحداً منهم برغم كل نظرهم الحكيم، لم يعرفها. «نبات غريب (قالوا) في هذه الديرة». من صفات ربة المنزل بينهم أن تُعتبر بارعة في العقاقير والنباتات الطبية. باتجاه الأسفل، جئنا إلى بركة صغيرة في الصخر؛ الماء كان يبدو بنياً مائلاً إلى الحمرة ونشادرياً، القاع كان ملوثاً بالبعر القديم للجمال. قال: «من هذا الماء سوف نصنع قهوتنا، إذا لم يوجد ماء آخر». على الحجر رأيت رموزاً حميرية. وهنا جلست راعيتان صغيرتان؛ وهما تشاهدان الرجال يقتربون، تركتا اللعب، وقطيعهما الصغير يتجول قربهما. حيّاهما زيد الشيخ الكبير، بالمرح الصاخب للصحراء، فردت الفتاتان عليه بمرح أيضاً: إنهما لا تخافان أياً من رجال قبيلتهما، والفتيات الراعيات يمكنهن أن يذهبن وحدهن مع القطعان بعيداً خارج مدى المنزل في البرية الخالية. نظرنا إلى فوق وتحت، لكننا لم نستطع أن نلمح فرس زيد التي تركها، ونحن ندخل الجبل، مربوطة تحت العذار أعاد ربطها عن طريق الرسن، إلى الطرف الخلفي بالأسلوب البدوي هكذا، وهي تمد ساقاً في كل خطوة، يمكن للفرس البدوية أن ترعى حرة؛ لكنها لا تستطيع أن تجول بعيداً. أخيراً، من مكان مرتفع، أبصرناها وهي تعود على أعقابها إلى المخيم البعيد. «إنها عطشى (قال زيد)، دعوها لوحدها وهي ستجد طريقها إلى البيت» رغم أن الحجيرات السوداء كانت مع ذلك تحت أفقنا. هكذا تأتي الخيول البدوية مرة أخرى من تلقاء ذاتها. يومياً، عندما تشرق الشمس تماماً، تُقيد الفرس البدوية بحلقات حديدية، تُفتح بمفتاح، وتفلَّتْ لتأكل من خيمة صاحبها. تتجول الخيول، باحثة عن بعضها البعض، إذا لم تكن المنازل مبعثرة بعيداً عن

بعضها، وتستمر في الرعي والتريض معاً؛ فأصحابها الشيوخ لا يبالون بها بأكثر مما يبالون بكلاب المخيم، حتى الظهيرة، عندما تساق الأفراس، العائدة نحو البيت من تلقاء ذاتها، لتشرب. بعدئذٍ تذهب من جديد إلى المرعى، أو تقف لتتفيأ خارجاً من تلك الساعة الحارة في حجيرة صاحبها[1] (إذا كانت الحجيرة كبيرة). إنها ترعى قريباً حتى غروب الشمس. عندما يجرّونها إلى منازلهم، أو تحضر إلى المنزل وتُربط بحبل طويل [تطْول] طوال الليل.

وهناك تقفز أمام أقدامنا، عندما أتينا، نوع دقيق من الجراد الثاني، ذو لون رصاصي، وجناحين متبرعمين مثل أوراق الربيع، مولودة من تلك الأسراب الزاهية التي مرت قبل أسابيع قليلة ونهبت الصحراء، بعد أربعين يوماً ستطير هذه أيضاً كوباء، مع ذلك تكون أكثر جوعاً من السابقة، وتملأ الجو. رأينا سماء داكنة فوق الخيام البدوية السوداء، وأريت زيداً وابلاً يسقط أمام الشمس الغاربة - «إن شاء الله» أجاب «قد يصل إلينا!». إن حياة ماشيتهم في هذه الأرض المجدبة تعتمد على قليل جداً من المطر. فسماء الجزيرة العربية، الصاحية نادراً، تبكي بكاء المنافقين.

ارتحلنا من هنا، ونصبنا الحجيرات السوداء على ذاك الجرد من الرمل الأبيض، يدعى هنا النفود[2]، الذي تظهر حافته على طول الصحراء الحجيرية الرملية البنية: يقسمها سرير سيل، ترابي. الأعراب سيرحلون تالياً إلى بئر جيدة، الحيزة، في ريف النفود، حيث يجدون في السنوات الجيدة ربيع المرعى الجديد: لكن نظراً لوجود القليل لرؤيته على هذا التخم، فقد عُدنا في يوم آخر نحو جبل حلوان؛ في تلك المسيرة رأيت دوائر أخرى من ألواح الحجر الرملي (يبلغ حجمها ثمانية أو تسعة ياردات). كانت هذه الرحلة العربية كئيبة؛ فمن سُحب آذار هبّت على الفور عاصفة مطر بارد، وفيما النساء البدويات يترجلن بسرعة، بالكاد التقطن أنفاسهن في الوابل المدوّم لبناء

---

(1) بيت صاحبها.

(2) النفود: الرمل المتراكم.

بيوتهن: إن البيت يمكن أن يُهيأ في ثلاث دقائق. جلسنا في البيوت حتى انقضاء الساعات العاصفة على الرمل الرطب في عباءاتنا المبللة المتيبسة؛ وكانت القطرات الآتية مع الريح تسقط علينا من خلال الغطاء البالي. في النفود، باتجاه الحيزة، توجد بعض التلال الرملية المتنامية، مثل رَوْسة Rowsa، دفافيات deffafiat، سوبية Subbia وايرزوم Irzum، مثل الجرف الرملي لجبل ناقوس. قرب قرية طور البحرية، في سيناء: الرمل العلوي الذي ينزلق نزولاً إلى تحت قدم المسافر، يبرز هناك، من الحبيبات المتفتتة المتناهية الصغر، مثل الصوت الطنان العالي المسبب للدوار، كما عندما تسحب أصبعك المبللة حول شفة كأس من الماء. ومثل تلك الجلبة المتلاشية بعد قرع جرس كبير، أو فنجان من المعدن. **الناقوس** هو اسم اللوحة المصوتة في برج جرس الدير اليوناني، التي يضرب عليها كما يفعل حافظ المقدسات بمطرقته، فيصدر الخشب نغمة موسيقية سارّة، تستدعي رجال الدين الرسميين إلى صلواتهم: ثمة جرف رملي شادٍ آخر كهذا، الهوارية في الجروف الصخرية العالية (شرق المزهم) من مدائن صالح.

تجمّعت سحب المساء؛ كانت عباءات الشيوخ الذاهبين باتجاه بيوتهم مبللة. عادت الفرس من تلقاء نفسها عبر الطقس الهاطل، وجاءت ووقفت عند موقد قهوتنا، بطريقة بشرية لتجفف جلدها المنقوع وتدفئ نفسها، كما يفعل الواحد منا. يمكن القول عن الخيول البدوية الضعيفة، إنها لا تحمل أية ضغينة. لقد رأيت فرساً تزرب نفسها في ظل الظهيرة لبيت صاحبها، اقتربت من الجالسين حول موقد القهوة وصارت تضع خشمها الناعم فأدار المجاورون رؤوسهم ليقبلوها، إلى أن نهض الشيخ ليطرد فرسه بعيداً. تكون [الخيول] ضعيفة، من علف الصحراء الغث والخشن؛ ولطيفة ليد الإنسان تلك، التي هي بمثابة الأم بالنسبة لها في البرية. تشاهد الجمال الهائجة والحمقاء يومياً، لكن نادراً ما ترى الخيول الجامحة؛ ولا تُرى الشكسة أبداً: الغالبية هي من اللون الكميت. إن أمل الشيخ في فرسه هو أن تحمله بميزة على عدوه، أو أن تسعفه بسرعة من الميدان؛ فعلى ظهرها يمكنه على النحو الأفضل أن يأخذ غنيمة وأن

يسبق كل الذين يركبون على الجمال، ولا تُساء معاملتها (ولا حياة، لإنسان أو دابة، بالإضافة إلى الكلاب) أبداً بينهم. الفرس لا تُدلّل أبداً من قبل أسرة صاحبها، مع ذلك فإن إقامتها الطبيعية هي في الخيمة البدوية المعتدلة. إنها حليفة للرفقة المفيدة للإنسان؛ فشكله سار لها في الخلاء الموحش. إن اعتدال بيت العربي هو ما ينشره نبيهم عن البيت الإلهي، الله في القرآن رحيم القلب، ربّ البيت السامي المهيمن، كم هو متسامح مع شعبه! هذا الإله هو الذي وصف نفسه بأنّه شديد العقاب لمن خالف أمره وعصاه.

أيام الصيف في القفر. المخلوقات البرية

الآن ومنذ زمن طويل كانت بيوتنا السوداء التي بُنيت على الامتدادات الرملية، تقبع أمام طرف النفود الأبيض المنتفخ: السفح الشاهق لعرنان في الأمام، الذي كانت صدوعه الصخرية الشديدة الانحدار، حيث لا يوجد أي موطئ لأجل الأعشاب الصغيرة التي تتغذى من هذا الجو القاحل، هي ملاذ الماعز البري[1]، الذي لا يشرب أبداً. لعل الصيف في نهايته، إذ ترتفع الشمس كتاج من اللهب المعادي من المخبأ الهائل لجبال الحجر الرملي القاحلة؛ نهار الصحراء لا يطلع شيئاً فشيئاً، بل يكون مدّاً ظهرياً في ساعة واحدة. إن الشمس، وهي تدخل مثل طاغية على المشهد المترامي تنهال عليه عذاباً من الأشعة النارية، تُبتعث حتى المساء البعيد.

لا صباحيات للطيور هنا؛ إذ لا يوجد ديك حجل صخري، يصيح بقوقأة مرحة فوق المكان المقفر عديم الماء الشديد الجفاف. مُهلك هو ذلك الحر المسبّب للدوار على تاج الرأس؛ الأذنان تستشعران إحساساً بالوهج المترجرج بفرقعة رقيقة، في زجاجية هذه الطبيعة المضروبة بالشمس: وهج الرمل الحار في العيون وثمة طراوة قليلة توجد في ملجأ الخيام؛ الحجيرات المصنوعة من حبال الصوف ترتشح إلى هذا المطر الناري من الضوء الشمسي. الجبال التي

(1) الماعز البري: من وحوش البراري، وهي تشرب مما تمسكه الجبال أو يتسرب من الجبال، فإذا علمت ذلك فهي تشرب عن طريق أكلها ثمار الحنظل المرّ، يمكن أن الله قد جعله شبه الزيتون وتذوق الإنسان له.

تلوح مثل العظام الجافة من خلال الهواء الرقيق، تنتصب بعيداً من حولنا: الخاصرة الوحشية لـ«بيا مغريرة»، القمة المستدقة المرتفعة والأكوام المتهدمة للجبل، أكباد، ساحل حلوان! قطعان من جمال البدو الضعيفة تتمايل على نحو مشتت، باحثة عن المرعى في وسط هذا الريف الأجوف، حيث التهم الجراد المندفع بأعداد كبيرة في الآونة الأخيرة كل شيء أخضر؛ هذا الهواء الساكن الذي يشتعل حولنا، نتحمله، منقطعي الأنفاس حتى العصر عندما ينتعش العرب الدائخون في الخيام بعد ساعاتهم الثقيلة. يمتد النهار المتواني إلى غروب الشمس. يأتي الرعاة، المرهقون من الشمس، مرة أخرى مع الماشية، ليتذوقوا في منازلهم الحلاوة الأولى للمرح والاسترخاء. انتهى النهار وهناك تبرز الطراوة الليلية لهذا الهواء الجبلي الأنقى: ومن ثم إلى الفناء البهيج والفنجان عند النار المشتركة. يطلع القمر المتورد من ذاك الغموض الوقور للجبل مثل منارة جبارة: الغد سيكون كهذا اليوم، الأيام تغرق بشكل مميت في شمس برية الصيف..... إن فصل الربيع القصير هو الإنعاش الوحيد للعام الصحراوي. فالبهائم والبشر يحتشدون على هذا المد المزدهر؛ يأخذ القطيع كفايته من المرعى اللذيذ، ويكون مخيض اللبن في بيوت الأعراب؛ لكن كان القليل أو لا شيء منه في خيمة زيد. الجداء والحملان تقف جميعاً مربوطة، كل عنق صغير بأنشوطة، على خط أرضي ممدود في البيت البدوي عند طلوع النهار توضع الصغار الثاغية تحت الأمهات المرضعات، وكل أم تتلقى صغيرها (عن طريق الرائحة) فهي تهمل كل آخر. عندما يُساق القطيع إلى المرعى، يبقى الصغار مربوطين في البيت، لأنهم إذا تبعوا الأمهات فإنهم [الصغار] يجففون ضروعها ولا يتركون أي طعام للأعراب. تكون الخيمة الصوفية مليئة طوال النهار بالثغاءات الجائعة الصغيرة، حتى يأتي الغنم إلى البيت في المساء، عندما يفلتون مرة أخرى، ويهرعون ليشربوا، وهم ينطحون تحت حلمات أمهاتهم، بأذنابهم التي تتهزهز؛ وفي هذه الأسابيع الربيعية، لا يوجد سوى القليل من الراحة لأجل صيحاتهم الضعيفة. طوال الليل في بيوت الأعراب: ربات البيوت يسحبن ما يتبقى من الحليب

الحلو بعدهم، إن قبائل بني وهب من هذه المرتفعات المكشوفة، هم بدو إبل؛ فالماشية الصغيرة قليلة بينهم: يحصلون على حليب الربيع الطازج عندما تلد نوقهم. إن الناقة المفطمة، المستلقية على جنبها، تلد بدون صوت، يكون الحوار الساقط كبيراً بحجم رجل ناضج: يقوم الراعي بمط أرجله، بكل قوته؛ ويسحب الحوار، مثل الميت، إلى أمام الأم. تتشمم وليدها، تنهض وتقف على أقدامها لتلعقه. بتربيتة كبيرة من راحة الرجل على ذاك الخفّ القرني (الزور) (الذي، مثل العمود، وضعته الطبيعة تحت ثدي الناقة، ليحمل العنق الضخم) يعود الحوار إلى الحياة: في نهاية الساعات الثلاث، لا يزال ضعيفاً ومترنحاً وبعد سقطات عديدة، يكون قادراً على الوقوف ماطّاً عنقه الطويل ومتحسساً بحثاً عن حلمة الأم. في الصباح التالي فإن هذا المولود الجديد سوف يتبع الأم إلى المرعى. يمكن حلب الناقة حالاً، لكن ما يُحلب منها، ليوم أو يومين، يكون مسهلاً. الصوت الأول للحوار هو شكوى شبه غنمية باه باه، بصوت مرتفع وواضح يكون الصوف ناعماً حريرياً، الرأس مدوراً ومرتفعاً؛ وهذا الحوار ذو جسم قصير، محمول بشكل قنطري، ومشية وثّابة على أرجل طويلة للغاية، ما يجعلك، بإغماض قليل للعينين، تحسبهما فراخاً لطير ضخم ما. تخرج لمدة اثني عشر شهراً لكي تتبع الحلمة؛ لكن عندما يبلغ عمرها بضعة أسابيع تبدأ بأن تقطف بنفسها ذرى شجيرات الصحراء: ولكون أعناقها ليست بعد ذات استطالة متناسبة، تكون فقط بين الساقين الأماميتين المفرشختين، بحيث يمكنها أن تأكل على الأرض. ذات مساء، عندما مسّدت الظهور الصوفية الناعمة للجمال الحديثة الولادة، «خليل» قال الراعي [وهو يأتي بوجه عدواني]، انظر أنت لا تفعل ذلك بعد الآن، . . . إذ إنها ستصبح ملتصقة الجلد باللحم ولن تكبر بشكل جيد؛ أنت لا تعرف ذلك! لقد ظنّ أن الغريب [يتكلم] حول ضغينة ما؛ لكن زيداً، الذي كانت روحه بعيدة عن كل الخرافة هدّأه بابتسامة سهلة، فقد كانت إبله الخاصة به، يساوي حوار الجمل عند الولادة ريالاً واحداً وكل شهر ترتفع القيمة بهذا المقدار. في بعض الأسر «الضعيفة» يذبح الحوار، حيث يتوجب أن يشربوا بأنفسهم كل حليب ناقتهم.

تجول الأم الثكلى، وهي تخور برقة، وتتشمم بحثاً عن حوارها؛ وعندما تحزن، سترى بؤبؤيها الشبيهين ببؤبؤي الغزال، يقول العرب «يقفان مليئين بالدموع». بعد عشرة أيام أخرى يتلاشى كربها البهيمي إلى النسيان؛ فتأكل مرة أخرى ملء بطنها في المرعى، وتعطي حليبها إلى الأعراب، عندئذٍ يمكن سحب ثلاثة ليترات منها في الصباح، وبالقدر نفسه لعشائهم: فضرع هذه الحيوانات المقتصدة الضخمة ليس أكبر مما رأيت ثدي عنزة مالط. الناقة الحلوب ذات الحوار تحلب في المساء فقط. لضرعها أربع حلمات، يقسمها البدو الجنوبيون هكذا: اثنتان يربطونهما بخيط صوفي وأوتاد خشبية، لأنفسهم، والاثنتين الباقيتين يتركونهما للإرضاع. أما أعراب الشمال فيؤمنون ضروع نوقهم، بكيس شبكي من الصوف (شمالة). في أثناء الترحال، أو عندما تكون عطشى، يُنقص حليبها إلى النصف. كل نوقهم لا تعطي الحليب بشكل متساوٍ. ففي حين أن حليب الربيع يكون أتياً، فإن البدو يتغذون من القليل الآخر. في الأسر الأفقر يكون ذلك هو كل طعامهم ذينك الشهرين. البدو لا يشربون الحليب الكامل، باستثناء حليب نوقهم؛ فمن ماشيتهم الصغيرة لا يشربون سوى مخيض اللبن. الحريم يصنعن الزبدة، فيؤرجحن بانهماك قربة اللبن الرائب[1] (المنتفخة) على ركبهن. في البرية الشمالية الوافرة يكون الصميل أكبر؛ ويُعلق لكي يؤرجح (يخض) بشوكة الوتد الحامل القوي للخيمة البدوية. أما بالنسبة لحمية الحليب هذه، فقد وجدت بالبرهان في الحياة البدوية، أنه من أفضل الغذاء البشري. لكن في كل منزل بدوي، توجد بعض المعدات، التي لا يمكنها أن تتحمله؛ والرجال الأقوياء الذين يستعملون هذا الطعام السائل المنزلق يشعرون دائماً بمرض الجوع في أجسامهم؛ مع أنهم لا يبدون في محنة للغاية أبداً. البدو يتكلمون هكذا عن بضعة أنواع من الحليب: حليب العنز حلو، إنه يسمّن أكثر مما يقوي البدن؛ حليب النعجة حلو جداً، ويسمن أكثر من الجميع، إنه غير صحي للشرب كاملاً: هكذا يقولون، «إنه يقتل

---

(1) تسمّى في البادية صميل.

البشر»، أي بالمغص (القولنج). برغم أقاويلهم، فقد شربته مرات كثيرة دافئاً من الثدي مع شعور كبير بالتعب المضني. إنه غني جداً بأفضل السمن: مخيض النعجة «ينبغي أن يترك رائباً لبعض الوقت في الصميل، مع حليب آخر، إلى أن يُعدل كله معاً، وعندئذٍ يكون صالحاً للشرب». حليب الناقة كما يرون هو من أفضل القوت، وهذا معظمه (كما أنه مسهل قليلاً) من البكرة، أو الناقة الفتية مع حوارها الأول، والأكثر تقتيراً منهم يضيفون ببساطة بدوية، «من يشرب وله جارة لن ينتظر ساعة واحدة». حليب العنزة والناقة له طعم النباتات التي ترعاها الماشية؛ في بعض الأراضي وجدت طعمه مثل الافسنتين (المر).

ناداني أحد أولئك الشيوخ الأيدا في الرحلة، «هل لديك بعض الكعك الدمشقي لتعطيني كي آكل. والله، منذ ستة أسابيع لم أمضغ شيئاً بأسناني، كل طعامنا الآن هو هذا الغيض من الحليب. ألا ترى حياة البدو؛ إنهم مثل الطرائد مشتتين في كل البرية. ثمة شيخ آخر التمس مني حفنة من التمر»؛ مع هذا الحليب، فقط. كان يشعر بهذا الجوع ينسل بداخله عن اقتسام الطعام معهم يحفظ البدو ذكرى حميدة؛ وعندما لا يملكون شيئاً فإنهم ينادونك بحرارة مرة أخرى.

يكون الأعراب الذين تقوم حميتهم على الحليب سعداء بتناول أي لقمة من طريدة صغيرة. بالإضافة إلى أرنب الصحراء الذي يُفاجأ غالباً في الرحلات، قبل طريدة أخرى هي الضبّ الذي يسمونه هنا «المعلم حامد، شيخ الوحوش البشرية» ويقولون إنه بشري، زلمي، - هذه هي ابتسامتهم الجنية ولعبهم، وبرهاناً على ذلك يعرضون يديه الصغيرتين ذوات الأصابع الخمس. لا يأكلون كفيه، ولا الحلقات الأخيرة السبع للذيل الطويل للشيخ حامد، الذي، كما يقولون، هو «لحم إنسان». مرعاه هو معظم دغل نجد ذي الرائحة الطيبة، يكون الجسم منبسطاً عريضاً مفلطحاً، ينتهي بذيل ذي طول مكافئ؛ حيث أحصيت ثلاث وعشرين حلقة. اللون مائل إلى السواد ومبقع بالأخضر، فوق البطن الشاحب المائل إلى الصفرة والباهت من جلده يصنع البدو صملان

حليب الرعاة. العظائي القزم، ذو اليدين القويتين، يحفر جحره تحت التراب الحصبائي القاسي، حيث يرقد طوال الشتاء، وهو يحلم. إن صياد الضبّ عندما يجد الحجر، ويدخل قصبته الطويلة المسلحة بخطاف حديدي، ويسحب حامد. تقطع حنجرته، يرمون الذبيحة، كاملة على الجمر؛ ولكونها تُشوى بهذه الطريقة يرون أنه شواء لذيذ. إن عدوه الرئيسي بين الوحوش الذي يصرعه ويفترسه هو، كما يقولون، الظربان، لا أعرف إن كان حيواناً حيّاً أم خرافياً. إن الجربوع، أو جرذ الربيع، هو مخلوق وكري أبيض صغير في الصحراء القاحلة الواسعة ذو قبح يرثى له. هذه المخلوقات الصحراوية الدنيا ترقد تحت الأرض في ضوء النهار، فهي لا تشرب أبداً. إن الحيوان الشوكي، الذي يسمونه القنفذ، وأبو شوك، يؤكل في هذه المناطق من قبل أبناء قبيلة الفقرا، لكنه يُحتقر من قبل جيرانهم، رغم كونهم يشكلون سلالة واحدة من عنزة. جلب سليم قنفذاً كان قد ضربه على الرأس فشوى الأشواك في الجمر وقطّعه ووزع اللقمات، على كل واحد بحسب نصيبه. تخلّيت عن حصتي بالمناسبة إلى الكلب السلوقي الجائع؛ لكن الكلب المتشمم للحم رفضها. عندما حكيت هذه الحكاية في يوم آخر في القبائل المجاورة، ضحكوا بشكل ماكر. يؤكل الشيهم (النيص) من قبل كل البدو، والوبر أيضاً. لقد رأيت هذا الوحش الغليظ الجسم ثقيلاً مثل الأرنب البري، ويشبه الجرذ الألبي الكبير؛ إنه يسير أزواجاً، أو أربعاً أو ستة، أو ثمانية، أو عشرة، معاً. يصادف الوبر تحت حافة الجبال الحجرية الرملية، حيث يتغذى على الأعشاب الغضة، وأوراق الأكاسيا الصمغية، إذ يتسلق الشجرة برشاقة، يتمسك بقدميه اللباديتين بدون مخالب؛ المخالب الأمامية لها أربع أصابع، أما المخالب الخلفية فلها ثلاث: يكون اللحم مدهناً وحلواً: لا تشاهد جالسة على القوائم الخلفية؛ يكون الجلد رمادياً، ومثل جلد الدب.

من النادر أن يقتل الرماة البدو الذئب، لكن إذا وقع أي ذئب من طلقتهم فإنه يؤكل من قبل البدو (كان الذئب يؤكل في أوروبا القروسطية). يعتقد الأعراب أن لحمه من الناحية الطبية «جيد جداً كما يقولون من أجل الآلام في

السيقان، الشائعة جداً لدى الذين يمشون عراة السيقان وحفاة الأقدام في كل الفصول». كان زيد قد أكل الذئب،لكنه أباحه لكونه من نوع الكلب «أيه، بالله (أجابني)، أم الذئب هي خالة الكلب». يمسك الثعلب، الحصيني، غالباً عن طريق كلاب الصيد، ويأكله أبناء قبيلة الفقرا إذ يكون اللحم حلواً، وقريباً من لحم الأرنب البري. حتى أنهم يأكلون الضبعة الكريهة عندما يصطادونها، ويقولون: «إنها لحم جيد». ومن طرائد الصحراء الكبيرة، لكنها نادراً ما تقتل بطلقة هؤلاء الناس الرعويين وساكني الخيام، هناك بدن[1] الجبال (الماعز البري للكتاب المقدس)، جمعه بدون، مع وعول قحطان كما في سوريا. تنبت القرون الضخمة إلى عرض الكف، ورأيت طولها يبلغ قدمين ونصف؛ تنمو ممتدة إلى الوراء على الظهر إلى الكفل[2]. الوحش عند الحاجة، كما يروي كل الصيادين يرمي بنفسه عليهم ورأسه في المقدمة مرتداً نحو الوراء: هو لا يمتّ بقرابة إلى وعل الحجر لجبال الألب الأوروبية.

إن الغزال، جمعه غزلان، هو من السهول؛ يقول أهل الجزيرة العربية عنه غالباً الظبي. يكون أبيض في السهول الرملية العظيمة، ورمادياً داكناً في الحرار السود؛ هذه هي يحمورات الكتب المقدسة. ثمة مع ذلك مخلوق بري نبيل من الصحارى السوريا، كان حتى الآن مجهولاً بيننا، هو الوضيحي، أو «البقر الوحشي» المذكور أعلاه. رأيت فيما بعد الذكر والأنثى يعيشان في حائل، البقرة الوحشية المها، القريبة من حيوانات إفريقيا الجميلة. يبدو أن ليس هذا هو «الثور البري» لموسى: لكنه أليس هو الريم (العبراني)، «وحيد القرن» لدى مترجمي السبعونية ؟ فقرنيها مثل القصبات النحيلة كتلك التي رأيناها من طفولتنا، قرون وحيدات القرن المصورة، فقد قرأنا في أمثولة بلعام[3] «ايل أخرجهم من مصر؛ كان له من القوة مثل قوة الريم». وفي مباركة موسى

---

(1) يسمّى في البادية ماعز الجبل.

(2) لا يوجد لتيس الجبل كفل وإنما له ذنب.

(3) المقارنة بكل شيء يهودي (عبراني).

للأسباط، «قرنا يوسف مثل قرني الريم». في سفر أيوب خصوصاً، يتم إظهار الصفات الجامحة لهذا المخلوق البري Velox. «هل سيكون الريم في خدمتك، هل بمقدورك أن تقيد الريم في أخدودك؟» يكون الاقتراب من المها الجريحة خطيراً؛ فهذه البقرة الوحشية، يمكنها، بطعنة من قرنيها الحادّين، أن تخترق جسد الإنسان؛ لذلك يقبع الصيادون اللحظات الأخيرة لكي ينقضّوا عليها ويقطعوا حنجرة طريدتهم. كان ظلاماً رهبانياً في المعرفة الطبيعية أن ينسب قرن وحيد إلى جبهة مزدوجة! ـ ونحن لا نقلُ إثماً بالإضافة، بأن نضع أجنحة على الصور الوثنية للآلهة والملائكة؛ لذلك فينبغي أن تكون لها أزواج من الأطراف الأمامية! لا تقع المها إلا على أذكى الصيادين: فالمها تترافق في الصحراء القاحلة في جماعات من ثلاثة أو خمسة معاً.

من الحيوانات المؤذية توجد أفاع وثعابين كثيرة؛ ولا يؤكل أي منها من قبل قبائل البدو. **الجلامي** هو ذاك الضبّ البني الصغير من البراري الذي يجفل من كل وقع خطوة؛ العقارب تكمن تحت الحجارة الباردة، فقد وجدتها في خيمتي، وعلى ملابسي لكنها لم تصبني بأي أذى. لقد رأيت كثيراً من البالغين والأطفال الملسوعين لكن اللسعة ليست خطيرة؛ إذ يستدعى رجل حكيم «للقراءة» عليهم. يُصاب الجزء المجروح بتنميل وألم حتى اليوم الثالث. ولا يحدث ورم كثير. كثيرة هي مستعمرات النمل الجامع للبذور تحت رمل الصحراء؛ فقد قست بعض شوارع الوتل، خمساً وثمانين خطوة: إنها تعدو قاطعة المسافة وتعود مرة أخرى، محمّلة مثل الجمال، فهناك رحلة يوم صيفي لهذه الشغالات الصغيرة.

بالإضافة إلى ذلك، من الحيوانات البرية المفترسة الكبيرة الأكثر شيوعاً هو الضبع، ثم النمر، وهو مخطط بالأسود والبني ومنقط: الشائع قليلاً هو الفهد، وهو قط بري ليس أكبر من الثعلب؛ إنه مخطط بالأحمر والبني، ومبقع. في ذاكرة هؤلاء البدو أن فهداً صغيراً تربّى بين البشر (فهي سريعة القدمين بشكل عجيب) وقد استخدمه صاحبه البدوي لقنص الغزلان. في كل

البلدان العربية توجد خرافة الأهل الغريبة، (وهذه توجد أيضاً بين الطوائف المسيحية في سوريا) وهي أنه إذا بدا أي ولد مريضاً، أو عاجز الفهم، أو مات إخوته من قبل، فإنهم يضعون عليه اسم وحش بري (بشكل خاص الذئب، الفهد) - إذ إن هشاشتهم البشرية يمكن أن تتخذ إذا جاز القول مزاجاً من نوع تلك الحيوانات. تشاهد الصقور والصقور الحوّامة غالباً وهي تحوم في سماء الصحراء، والعقاب، وهو نسر أسود صغير، والرّخم، نسر الجيف الأبيض الصغير، - وهي تطير في الجو تشبه نوارس البحر: لم أشاهد النسور ولا أي عقاب أكبر في الصحارى (إلا في سيناء). هذه هي أكثر المخلوقات الحية، وتوجد قلة بالإضافة إليها في براري الجزيرة العربية.

أولاد الأعراب في اللعب. حفلات الختان

تكون ليالي الصيف البهيجة باردة منذ الغروب في هذه المرتفعات الجافة. عندما يتناولون العشاء، يتجول الرجال ليتحدثوا مع الجيران، ويبحث شاربو القهوة عن فنجان المساء: في جماعة قهوة المجلس، يتسامر الأعراب حتى منتصف الليل. في أغلب الأحيان لا يبقى في منزلنا سوى الراعي في البيت، الذي يوقظ صوته الخشن الوتر الكئيب للربابة.

في بعض سهرات ضوء القمر كنا نستحثّ الأولاد. تخرج جماعات الصبيان والبنات معاً من بيوت أمهاتهم ويقفزون فوق الرمل ليلعبوا بالأحصنة، إلى أن يجدوا المكان حيث يمكن أن يتسلقوا على الرابية الرملية أو صخرة. هناك تتجمع جوقة من فتيات أكبر، يغنين، مع تصفيق اليدين اللازمة نفسها، من قصيدة واحدة. أما الصبيان الجامحون الصغار فيتجردون من ستراتهم ويطرحون المناديل، أو يكونون قد تركوا كل شيء في بيوت الأمهات ويركضون إلى الخارج عراة؛ لا يوجد سوى الحقو ملفوفاً حول العانة النحيلة: هذا الشريط الجلدي المطوي يُرتدى، ولا يُترك أبداً، من قبل كل العرب الحقيقيين، الرجال والحريم. كل صبي ـ حصان اختار رفيقة، فرساً؛ يمشيان معاً يداً بيد، ويبتعدان، كل زوج يتزلج بعد الآخر ويبقون أنفسهم في حالة مطاردة في برية ضوء القمر. إنه يرفس إلى الوراء إلى الأحصنة التي تعدو خلفهم بسرعة فائقة، ويهرب مرة أخرى من الصهيل. وهذه التسلية لأطفال الأعراب، سباق صرف، بدون خلاف للقلوب الحسودة، لا يُسمع فيها صوت غاضب، ولا تضرب ضربة بينهم. البدو ليسوا وحشيين أبداً. وقد يدوم هذا لساعة أو ساعتين: الشبان

الأصغر سناً ينجرّون في بعض الأحيان إلى اللهو الصاخب حيث توجد الفتيات الصغيرات: يمرحون مثل الجمال الكبيرة وسط الغنم لكنهن لسن سافرات فلا يقتربون إلا بالعيون، من تلك الجماعة المغنية للآنسات الصغيرات؛ الطبيعة السيئة النية التي تظهر لدى أي شاب ستجعل صاحبها ينال التقدير الأقل بينهن. بعد سن الصبا، لا يكون لهؤلاء العرب الكسالى أي نوع من التسلية الرجالية فيما بينهم. من أهل قبلي أو البدو الجنوبيين، لم أرَ فرساناً يمرّنون أنفسهم بهذا القدر على أفراسهم. فهو لعب أولاد في نظرهم، ويرهقهم، ولن يكونوا أحسن حالاً. ليس لديهم رياضة أخرى غير إطلاق بنادق الفتيل في أية مهرجانات منزلية. فالرعاة يكونون بشكل طبيعي ذوي حياة تأملية. فكونهم سيئي التغذية، يمكن أن يجري في عروقهم قليل من الروح الدموية البدائية، التي من شأنها أن تدفعهم إلى الألعاب الرجالية؛ من النادر جداً أن يكون البدوي قوي البنية. باتجاه جنوب حائل لم أر امرأة شابة ذات دم وردي في وجنتيها: حتى أنهن في خوف من جفاف الصيف، ويُحجبن في أنضر عمرهن.

الآن في الصيف المعتدل يكون موسم المزيّنين، احتفالات ختان الأولاد البدو: يُفرش بيت الأم بشراريب القماش البالية من المزق القرمزية، وباقات من ريش النعام، ومثل هذه الزينة المبهرجة تكون بقدر ما يمكنهم أن يستعيروا أو يجدوا. تجتمع جوقة من بنات جيرانهم النحيلات، فيغنين في هذا الاحتفال في أفضل ترتيبهن. يُلف منديل طري حول جبهة كل فتاة مع ريشة؛ تلبس أقراط آذن كبيرة كالأساور، وترتدي حلق أنفها هذا اليوم، الزميم[1]: إنها حلي بالفضة؛ وقليل منها، كما يقال، من قديم الزمان، هو من معدن الذهب الصافي، الذهب الأصفر. هذه هي حلي النساء البدويات التي من الصعب أن تُشاهد في أوقات أخرى (في المنخر المثقوب، يرتدين لأجل كل يوم رأساً من الثوم)[2]، وهي

(1) تصغير زمام وهو حبلة الأنف.

(2) إنها مقولة غير صحيحة فأين يوجد الثوم في البوادي العربية لأنه لا يعرف بالحواضر فكيف بالبوادي.

تمتلك أساور من الخرز وخواتم الإصبع المعدنية. تتدلى الضفائر السوداء الرقيقة المحلولة طوال اليوم لكنها ليست طويلة، على صدورهن النحيلة، وتشع في الشمس، كونها مسرّحة حديثاً ببول الناقة. لقد استعارت الفتيات عباءات جديدة، وتصلح العباءة نفسها للرجل أو المرأة. وهن يتحلقن في حلقة جنية، يبدأن بالتصفيق براحات أيديهن الصغيرة، ليشبكنها وهن يدرن معاً، وهن ينشدن دائماً الإيقاع نفسه من كلمات قليلة، هي بيت شعر واحد. بالنظر إلى الوجوه الفنية المجوّعة، قد تحسبهن بعض بنات الغجر؛ الشكسات لسن نادرات في بيوت أمهاتهن، يذهبن الآن ليلعبن أمام أنظار الرجال، دون أن ينظرن مباشرة إلى الشخص وبحياء عذري. لكن المزاح الأعرابي لا يصمت طويلاً، وغالباً ما يقف الشباب، في احتفال ضوء النهار هذا، وهم ينكتون حولهن. البعض منهم ينتف بخشونة ريشات الفتيات، بنات أعمامهم القريبات، أثناء الرقص، فلا يجرؤون على الرد عليهم بشيء، إلا بنظرات موبّخة: أو يكون الأولاد الضاحكون بصوت عالٍ قد وزّعوا بالمناسبة هذه الجماعة اللطيفة بينهم كزوجات لهم؛ وإذا وجد غريب، فإنهم يأمرونه أن يختار أي واحدة سيتزوجها من بينهن. «هاي ـ هو! ما رأيك بفتياتنا، وهي، وهي ألسن مليحات الوجوه؟» لكن العذراوات لا يبتسمن، وإذا تطلعت أية واحدة إلى الأعلى، فإن عيونهن البرية ترى مغربة وكئيبة. إنهن مثل الأطفال تحت السلطة، يحتفظن هنا بسلوك مدروس؛ ومن أجل كل ذلك فهن لسن سبرينات (عرائس البحر). فإن التقدير يُنال على السلوك العذري الجافي للبنات الصغيرات؛ وهنا يرقصن بوصفهن المرشحات الغضّات لأجل الزواج السعيد، والأمومة المباركة للأبناء، عسى مستقبلهن يقترب! والذي سيكون مثل هذا اليوم البهيج، وهن اللواتي ينشدن حظهن الآن، الذي يُضم فيه رجل ـ ولد إلى دين الإسلام؛ إنه أفضل من يوم ميلاده. يُختن الابن البدوي كونه بلغ ثلاثة أعوام كاملة؛ وعندئذٍ عندما يمكن للموسم أن يخدم بدون خرافة الأيام، وعندما تكون الأم قادرة على تقديم الذرة أو الأرز الكافي لأجل عشاء ضيوفها. في بعض الأحيان يؤجلون الجراحة حتى الغد، في حال حدوث أي طقس عاصف عنيف أو بسبب رحلة الأعراب.

يأتي أصدقاء الأب ليكونوا ضيوفه: يكون بعضهم قد زيّن نفسه بحزام رماة البنادق وحزام الكتف المبهرج، يخشخش بالسلاسل الفولاذية الصغيرة الكثيرة وخرطوشات البارود النحاسية؛ ويحملون على أكتافهم بنادق الفتيل الطويلة. بعد ذلك يبرهنون على براعتهم في التسديد على جمجمة نعجة، التي ضحى بها أب الولد إلى «المضافة». كل رجل يقتل أضحيته، كما في العالم القديم، بيديه، وتسلخ الذبيحة وتقطع بالسرعة المعهودة للعرب. البدو كلهم قصّابون خبراء؛ تعلق الأرباع الآن على جفنة ما أو على الأغصان، التي ربما بحثوا عنها في سفح جبل بعيد وهم يجولون في البرية المفتوحة. عندما تنحدر الشمس نحو المغيب يُرمى اللحم في المرجل ـ أو الجرة. الأحشاء الكبيرة تبقى معلقة على غصنهم التذكاري. بعد اللحم، يُطهى مقدار من الطعام من حساء أحد الحبوب التي بحوزتهم. مع غروب الشمس تتفرق فتيات الرقص الحلقي: ينسحب الرجال الآن إلى صلواتهم، وفي هذا الوقت يتمّ سوق ماشية كل أسرة، إلى الداخل، ينهض الرجال من صلواتهم، فيقدم العشاء في الخيمة: غالباً يكون اللحم [الكافي] لثلاثين رجلاً في ذاك الطبق الكبير الخشبي بحجم الترس الذي يوضع أمامهم. بعد ذلك بوقت قليل سيأتي إلى هنا بعض الرعاة الفتيان العائدين المسترسلين في الصخب من الحقل؛ إنهم ينجذبون إلى الضجيج المرح للمزين فيشعرون بخفة في ركبهم تدفعهم للرقص. على شكل نسق يضع كل واحد ذراعه على كتف الآخر فيقف هؤلاء الأولاد الضاحكون مفعمين بالفكاهة؛ وبصيحة واحدة يخبطون بأقدامهم وهم يتقدمون؛ في هذه الأثناء ينشدون بصوت أجش أغنية شعبية من بيت واحد. ربّات البيوت في الداخل يصفقن بأكفهن، وتنهض واحدة مع عصا في يدها، فيما الرجال الراقصون يتقدمون، وواحدة ترقص لملاقاتهم؛ إنها الأم على الأرجح، وبمرح تردّ عليهم بأغنيتها: فيما هم يتابعون الانحناء والتمايل معاً صفاً واحداً بلازمتهم الدائمة. يتقدمون نحوها، فترقص متراجعة إلى الوراء، متظاهرة بالدفاع بالعصا؛ يلتفت وجهها إليهم، وهم يصرخون بأعلى أصواتهم، بذاك البيت من حناجرهم الرجولية، كما لو كانوا يطاردونها

ويهجمون عليها. يتخيل البدو حتى ضرورة الختان: كونهم رعاة ماشية فإنهم يتذرعون بالأمثلة على كل الدواب، أنه لدى ابن آدم وحده، توجد هذه الطريقة للإعاقة[1]. عندما سألوني قلت: «يمكنكم أن تعدّلوا إذاً عمل الله!» لا نتكلم عن هذا، أجابوا، بل فقط عن الفائدة «سألت، ما هي واجبات المسلم؟ فردوا، أن يصوم الإنسان شهراً، ويصلي صلواته اليومية»؛ دون أي ذكر للختان، الذي يسمونه «التطهير».

(1) هي إعاقة بنظر الرحّالة بينما هي سُنّة إسلامية وهي مأثورة عن النبي إبراهيم ﷺ.

غارة الجمال

في الخامس عشر من شهر نيسان، بعد ريح صباحية، تعصف برداً من جهة الشمال الشرقي، وجدت في وقت مبكر من بعد الظهر، مع الهواء الساكن وأشعة الشمس، على ارتفاع 4000 قدم أن درجة الحرارة تبلغ 95 درجة فهرنهايت في ظل البيت. ذبل العشب المتدلي، إذ حلّ جفاف الصيف والبرية غيّرت لونها؛ فالربيع انتهى. انتقل البدو وسكنوا في مخيماتهم المهجورة: ففي صباح الغد، عندما كانت الجمال قد سيقت قدماً لمدة ساعة، صدر إنذار من المقدمة، عن وجود أعداء. جاء راعٍ ممتطياً ناقة، كان قد هرب، وأبلغ عن ذلك في المجلس، «الإبل ـ قطعان الجمال تسلب». نهض الشيوخ عن الموقد وتركوا فناجينهم بنظرات مجفلة رزينة: خرجوا جميعاً بجرأة وبسرعة ليجدوا أفراسهم، لقد شوهد اللصوص يحومون حول المكان البارحة، الآن سارع كل رجل لامتشاق السلاح. ركض الناس، مثل الدبابير الهائجة، من البيوت: بعضهم كانوا رجال بنادق فتيلية، البعض لديهم رماح، وكلهم حفاة باستثناء الشيوخ الفرسان، وهرعوا لمقابلة أعدائهم، الذين لم يكن بالإمكان رؤيتهم في ذاك الأفق الصحراوي القصير: بعد ذلك بوقت قصير لم يبق في المخيم سوى ربّات المنازل، والأولاد وعدد قليل من الرجال المرضى والمسنين. سألني بعضهم إن كنت لن أركب لأقبض على اللصوص؛ لأن خليل بحسب كلام زيد سوف يغزو معهم. «خليل» (صاحت ربّات البيوت) انظر لأجلنا في كتبك الحكيمة! ألا يمكنك أن تتنبأ بها (شوف الغيب): اقرأ وأخبرنا بالذي تراه فيها عن هؤلاء الأعداء. اللعنة عليهم! بالتأكيد لقد أبصروا نيران حراسة الناس هنا

في الليلة الأخيرة، وكانوا يكمنون خلف ذاك الجبل إلى أن سيقت الجمال، مرّ الصباح الطويل من فوقنا، في الشك البارد لهذه البلية.

كان مطلق قد سافر قبل أيام إلى حائل ليفاوض مع الأمير، وترك رحيل ليحكم القبيلة؛ إنه رجل ذو ذهن معقد في هذا النوع المفاجىء من الأزمة. إن عاد رجال القبيلة بعد منتصف النهار، ذهبنا لنجلس في المجلس ونتشاور حول هذا المصاب. لم أسمع كلمة مع ذلك عن المطاردة، وأنا استفهم من جاري قال «أي، سيمتطون جماله، حالما تأتي الإبل إلى البيت في المساء»؛ لأن كل الدواب الكبيرة لم تؤخذ، بل تلك التي سيقت من الجانب الشمالي للمنزل. السرعة هي الضربات المزدوجة في الحرب، لكن هؤلاء البدو ظلوا جالسين طوال النهار وتركوا اللصوص يهربون، ليتساءلوا من يكونون؛ كلهم قالوا «بعض أعراب الشمال»، لأنهم رأوهم مسلحين بالمسدسات. فكروا فيما إذا كان هؤلاء من شرارات أم من حويطات ابن جازي (بدو من حول معان)، أو من الرولة. اسمعوني، وسأجعلكم تعرفون من هم، قال زيد (الذي كان يمتلك ذاك الغرور بينهم)، أقول عندئذٍ، الصخور، وستجدون ذلك صحيحاً. كانت الكلمات القليلة التي سقطت من شفاه الأعداء تُفحص بفضول. فهم قد تحدوا قطعان الجمال «أي أعراب أنتم ـ ها! الفقيرِ؟» لكن هذا لم يكن كافياً لتمييز لغة قبيلة. فالقوم كانوا ثلاثة عشر فارساً وعشرين راكباً على الجمال. لدى سوق الغنيمة، أفلتت مهرة منهم واقتيدت إلى المخيم، لكنهم لم يستطيعوا أن يفهموا شيئاً من ذلك، فشيوخ البدو غير معتادين على دمغ خيولهم بعلامة ماشية القبيلة. نفقت هذه الفرس، في اليوم الثالث، من العطش! إذ إن أحداً لم يسكب لها الماء من ماءهم الشحيح. لو شردت عنزة رجل من القبيلة بينهم، وصاحبها غير معروف، فلن يسقيها أحد. في ذاك الوقت عندما كنت معهم، أنقذت أرواح دابة شاردة أو اثنتين، مقنعاً أحد مرضاي بأن يسقيها. خرج فريق مطاردة الرحيّل لثلاث ليالٍ. كان الرجال المتروكين في المخيم قليلين جداً الآن، فكانوا يأتون دائماً معاً ليشربوا القهوة. ربّات المنازل الحنونات جلسن في الخارج طوال النهار يراقبن. عند منتصف العصر، في

اليوم الرابع، سمعنا تهليل الحريم لولي لو! لكن نغمة الفرح تلاشت في حناجرهن عندما رأين، بعد طول تطلعهن، أن أولئك الذين جاؤوا راكبين في الأفق لم يكونوا يسوقون شيئاً معهم إلى البيت. نهض الرجال معاً، ومضوا، حملقوا بثبات قالوا: «ماذا، تعني صرخة الحريم؟ انظروا، إنهم يصلون خاليي الوفاض، وكل رجل يركب على انفراد ليترجل عند بيته!». وهكذا يعودون إلى كسلهم القاتل، فقد عاودوا الدخول كرجال خاسرين، وجلسوا مرة أخرى «بعضهم، كما قالوا، سيجلب لنا الأنباء في الحال». ترجل رحيل في الحال عند خيمته، المنصوبة قريباً خلفنا. تتقدم ربة المنزل فيما زوجها ينيخ جمله؛ تستقبله بصمت، تنزع السرج عن الدابة، وتحمل عدّته. الرجل لا يجيبها علناً، وإن كان سيدخل إلى المجلس، لا يتكلم إلى زوجته مع ذلك، لذلك فإن رحيل بدون أن يدخل بيته، خطا إلينا. ـ «رافقتك السلامة!» قالت هي من حنجرة جافة، وهو يجلس بتنهيدة رجل متعب، بشيء من الحزن، أخبرنا، «أنه في اليوم الثاني، وهم يلاحقون العدو في النفود جاؤوا إلى حيث كانت الريح قد محت آثار الأقدام، وقال هكذا شاء الله!» عندئذٍ أداروا رؤوس دوابهم، لم يكن لديهم أية نية أو رغبة في أن يأتوا مرة أخرى في أعقاب اللصوص. «حسناً! هكذا أراد الله! أجاب الأعرابي الكسول. هكذا يتركون عدواً ضعيفاً ينسلّ بشكل جبان من بين أصابعهم، بسبب ريح صغيرة، مع أن هؤلاء كانوا يسوقون معهم حوالي العشر من كل جمالهم. لكن رحيل، ليحبك حكايته الحزينة بنهاية جيدة، صاح والله، لقد وجدوا الماء في آبار الهيزة في النفود؛ وعندما جاؤوا مرة أخرى عن طريق تيماء، سمع أن بعض القوم (الأعداء) قد اقتربوا من هناك، وكانوا من الشرارات»: ـ «رحيل مع جنده، كانوا قد قطعوا راكبين حوالي مئتي ميل بدون جدوى». عما قريب سنعرف (قال البدو) من هم رجال القبائل الذين سرقوا جمالنا؛ عندئذٍ سوف نغزي عليهم، وإن شاء الله، نسترد الكثير منهم مرة أخرى. لكن الغزوات تعود خالية الوفاض: فريق من الفقرا، «عشرين ركاباً» يمتطون جمالاً أغاروا مؤخراً على بني عطية، لم يأخذوا شيئاً.

كل رجل يتكئ على يده في الصحراء المفتوحة، وهناك لن يكون أحد البتة ليقدم له خدمة عامة. فالشيخ يمكن أن يقتنع، لا يمكنه أن يجبر أي إنسان؛ وإذا كان الساخطون سيتفرقون، فإنه لا يستطيع أن يمنعهم فالجسم الرديء يكون ضعيفاً، مكوناً من أفراد مفككين جداً، وهناك تحلّ بهم كثير من الأحداث الشريرة، التي يمكن تفاديها بالسياسة العامة «لماذا لا ترسلون الكشافة (هكذا فكرت مع زيد)، الذين يمكنهم أن يستطلعوا الخلاء قبل رعي ماشيتكم؟ أو ألا يمكنكم أن تعينوا بعض الرجال ليراقبوا في قمم الصخور، من أجل ظهور أي عدو! لماذا تسلمون أنفسكم هكذا إلى المخاطر البرية، وأنتم الذين تعيشون بشكل مكشوف في وسط الخطر؟» عندما كرّر زيد كلماتي بشكل وقور في المجلس، أجاب ابن الشيخ على الفور: «أي، وكان ذلك جيداً جداً، لو طبقناه عملياً؛ لكن اعلم يا خليل، لا يوجد من البدو من سيخاطرون بأنفسهم هكذا مثنى أو ثلاثاً معاً، خوفاً من الأباليس، لا يمكننا أن نعرف أين يكمنون حتى تسمع من الخلف صوت انهيار صخرة أو قصف غصن!».

تل البركان، الحرة

رغبت في صعود التلة البركانية الكبيرة عناز، والنظر بعيداً فوق هذا الريف الحممي البركاني: لكن لو وافق أحد على مرافقتي، لمنعه الشيخ سراً. كان طَلَق يحتفظ بهذه الميزة لنفسه ولأبنائه. لقد افترض أنني قد أكون ماهراً في اكتشاف الينابيع أو الكنوز: فلكونه بدوياً، لم يكن بإمكانه أن يخطر بباله إلا أنني قد أتيت لكي أغتني، وهو سوف يغتني معي. كان شيوخ الفقرا، وهم رجال ذوو عقول أكثر تمدناً، أفضل فهماً لموظفي الحج؛ لكن هؤلاء كانوا رجالاً متشبثين في آرائهم، ومتسلقي جبال أشداء. سألني طَلَق، الذي يبتعد في صميمه عن كل ما سمعه غريباً عن النصارى، سألني عند موقد القهوة: «خليل، والله، ألا توجد سفينة لأجل الجو ـ قال لي ذلك، وجعل أفراد الجماعة يسمعون ذلك ـ يمكن فيها للنصارى أن يطيروا؟» ـ «صحيح جداً، يا طَلَق؛ إنها فقاعة كبيرة في كيس من الحرير، أكبر من هذا البيت، ويمكنها أن تعوم في الجو». قال طَلَق: «لكن أخبرنا أكثر، ألا توجد باخرة مصنوعة لتبحر تحت سطح الماء، بكل العرب، ويمكن أن تطفو مرة أخرى؟ «سألته من أين حصلت على ذلك؟» فقال «من ابن عمه السبيعي[1] من سوريا، الذي تزوج امرأة غريبة، غنية جداً، من تلك البلاد وراء البحار، أو أنه لا يذكر أين».

ارتحلنا مرة أخرى، وعندما خيّمنا، تطلعت حوالي من أرض ناهضة وأحصيت أربعين تلة بركانية ضمن أفقنا؛ خرجت لأزور أقربها. فالذهاب

(1) المقصود بذلك بليهان بن معرب من القمصة من السبعة من عنزة الذي تزوج الإنكليزية.

مسافة ميل واحد هو إرهاق، فوق حقل الكتل والأحجار البركانية الموحشة. عبرت بسرعة، قبل أن يتمكن أحد أصدقائي من مناداتي؛ هكذا وصلت إلى مخروط وفوهة بركان من أصغر ما يُشاهد هنا، يبلغ ارتفاعه 300 قدم، من مادة مندفعة مقذوفة، الخفاف الزجاجي البركاني والخبث البركاني القشري الخفيف، ذات الأفاريز الكثيرة من الحمم البركانية. كان سفح التلة مزوداً بميازيب إلى الأسفل بفعل الوابلات المطرية السنوية القليلة في العصور المديدة. صعدت ودخلت فوهة البركان. في الداخل كان جدران حادة من الحمم البركانية الخبثية، الجزء الأبعد مهدم ـ كان أمام ثقب الحمم المتدفقة إلى الخارج. وتقشرت عن طريق التيار الناري للاندفاع البركاني. على جنبات تلك التلة، وجدت كتلة من الغرانيت الأحمر صاعدة من رأس عرق بلوتوني (جوفي) ما، في عمق الجبل. الغرانيت الأحمر، الذي يسميه هؤلاء البدو حجر الكرا، في بعض أجزاء حراء يقبع على عمق ليس بعيداً، إذ يقولون إنه يُرى قرب عناز، أسفل الجبل العويري. في الجو، توجد بعض الآثار القديمة، المبنية من كتل كبيرة من نفس الفلز: فهمت منهم أنها صخرة من ريف شيفا التالي الأدنى توضعاً، ومن تلك العلامات الأرضية (نقاط العلام)، ذات القمم الجبارة،التي تبدو في الأفق الشمالي الغربي، من جبال التهامة، وتيد وحولة. من حجر الكرا يصنع البدو أفضل أحجار الجرش (الرحى) إذ ليس لديهم أدوات، لكن عندما يختارون كتلة، ينهالون عليها طرقاً على نحو متواصل بحجر صلد آخر، إلى أن يشذّبوها حسب الشكل الذي يريدون؛ ويحفرون ثقب المرتكز (المحور)، بالطرق على مسمار. وجدت حفرة طبيعية تحت التلة البركانية من التوفة الصفراء، هبت نسمة من البرد من الخليج البركاني، وفي الحجارة الخبثية الكبيرة حولها، البلورات البركانية المائلة إلى الخضرة الشائعة (الكريسوليت) الكثيرة.

نطل من كل مرتفع، على الحراء، فوق العزلة الحديدية؛ يا له من سواد

أخرق وعاتق عديم الحياة من المادة البركانية! ـ وجه طبيعة عنيد بدون ابتسامة إلى الأبد، قفر من الرعب الحارق والصدئي لمادة غير مشكّلة. إنها حياة موحشة لن تستطيع كبح نفسك عن ارتكاب الإثم هنا! السماء العارية، الأرض الكابوسية! أين يتعين عليه أن يبحث عن الراحة؟ ـ وثمة ضمير مذهول داخل الإنسان من كونه مسكيناً، ودنساً، في حضرة المقام الإلهي للعالم الأولي! هذا النوم الأسدي للقوى المرتبطة بنشوء الكون، التي تُبتلع فيها بعوضة الروح إلى داخلها ـ تلك الحركة القصيرة والاغتصاب التطفلي الذي هو الحدث الضعيف للحياة في المادة. ظهر عناز، يمتطي، إذا جاز القول، العاصفة الصخرية، على مسافة اثني عشر ميلاً؛ ـ يئست من المجيء إلى هناك، فوق تلك الأعماق البركانية وحيدان الحمم الكثيرة جداً، والامتدادات السافعة الطويلة لحجارة البازلت المتدحرجة.

عندما ارتحلنا ثانية فوق الحرة، ظننت أنه من غير الممكن أن أكون قد حلمت بمثل هذا البلد الفظيع، إنه مثل ذاك (ألف ضعف) الذي يرهق العين التي تتطلع إلى الأسفل من فيزوفيوس إلى الجنوب الشرقي، حيث يغامر الأوروبي بشق النفس وبقلب ثقيل بأن يربك قدميه؛ لكن ذلك قد جلب، في الجزيرة العربية، اللبن والسمن إلى البدو الفقراء. فحيث يترجل الأعراب في مكان ذي صخور منحدرة أو قاع بري ما، يكون المأوى لثلاث ليالٍ ونهارات صحراوية، وهناك الصخرة الخفيضة المخفية من البازلت، وأدغال وشجر الشوك القليلة وأدغال الرتم (الوزال) غير المثمرة، وتكتسي حلتها لتعارفنا الأليف، وتصبح حتى من عواطفنا الإنسانية، بحيث نكون غير راغبين في تركها؛ ـ ومما لا شك فيه أن الماهوبي[1] المولود في هذا الوطن يكون متعلقاً بحرّاته الأم. إنهم إذ يفكرون كرجال بسطاء، يفترضون عموماً أن جزءاً كبيراً من العالم هو هكذا، ريف من الحمم البركانية: ليس أولادهم فقط، بل الرجال والنساء قد سألوني: «هل ديرتك، يا خليل، حرة أم سهول رملية؟».

---

(1) الماهوبي: لعلّه يقصد أنّه من بني وهب أحد فروع عنزة.

بالإضافة إلى الأعراب وماشيتهم، لا توجد تقريباً أي حياة على الحرة. في هذا الارتفاع الهوائي الخالص بالكاد يتبعنا الذباب الذي يكثر حتى في الديار البدوية القاحلة. لا يوجد هنا سوى طير وحيد أسود صغير ذو شكل هزيل، أصغر من السمنة[1] (الفرّي)، مع بعض الريشات البيضاء، إنه السويدية، الذي هو، مثل أبو الحناء الصغير، جار مبهج للجنس البشري. في كثير من الأحيان يسمع المسافر شدوه على حين غرة، المساير القصير على المستنقعات القاحلة، في أيام الصحراء المعقدة، في جو الرهبة والخرائب التيتانية للجبال، بعذوبة فضية، كما لو كان صوتاً [يتناهى] إليه من روح لطيفة ما. من وحوش الأرض الكبيرة، وحدها الذئاب تجوس في ريح منازلنا الجبلية؛ إنها أكثر عدداً في الحرة، وأجرأ مما هي في الديرات السهلية. مع ذلك كانت الليالي، الشديدة الصفاء في الجزيرة العربية طرية عند هذا الارتفاع في «الأسبوع الأول من شهر حزيران؛ حتى أيام الصيف تكون مهواة هنا». وجدت ذات صباح، عند شروق الشمس، 79 درجة فهرنايت، 90 درجة عند الجائلة[2]، وحوالي منتصف النهار 95 درجة في ظل الخيمة. هذه الأرض المرتفعة باردة بشكل لا يطاق في الشتاء؛ المسافرون البدو يمكنهم بصعوبة أن يقفوا في مواجهة هبوبه اللاسع: حتى الوحوش البرية كانت قد هجرت الحرة. ينكفىء المؤاهب في ذاك الوقت إلى تهامة، ويلتجئون في قاع وادي جيزل؛ حيث يجدون وفرة من خشب الطرفاء الجاف، الطُّرفة، الذي يلمع كل الليل في خيامهم الصوفية المغلقة: والبدو لا يملكون سوى رداء قطنياً فضفاضاً على أجسادهم الضامرة، وعباءة واسعة، ومعظمهم ينامون بدون غطاء، مع أنهم يمكن أن يقولوا، «نحن نعاني قليلاً أو لا نعاني من البرد». في وقت النهار يريحون أنفسهم برشفات من القهوة أو الحليب المسخّن؛ شمس ظهيرة الشتاء هي دائماً دافئة هناك.

---

(1) واحدة السمان.

(2) الجائلة: لعلّ المقصود القائلة وهو وقت القيلولة.

ما كان علينا أن نشربه في ريف الحمم البركانية هو ماء بركة أسود، كثيفاً ونتناً. على العموم، بعد شرب جملين أو ثلاثة تسحب البركة حتى الحثالة، وذاك الماء يفسد بأسرع من الكتان الأبيض؛ مع ذلك فمن هذا الماء يكون البدو مسرورين بأن يملؤوا قربهم ويكونوا ممتنين: إذ لا يوجد ماء آخر. لكن الأسوأ! أن البعض ينزلون ليغسلوا أنفسهم، إذا لم يروا شيخاً يمنعهم، وهناك ينقعون ويعصرون أرديتهم العتيقة: ـ ودائماً، حيث يجد البدوي الماء كافياً، يمارس الطقوس الدينية، ليغسل الجسم؛ في المنازل يحمل الرجل من الخيمة قصعة من الماء، ويذهب ليطهر نفسه في مكان سري من الصحراء. قد يشطف البدو البرك (التي يجب أن يتخلوا عنها الآن في منتصف الماء) من المآوي العكرة للأجيال؛ إنهم يمتلكون من الفطنة ما يكفي، لكن ليس الفضيلة العامة من أجل عمل مشترك؛ وسلطة الشيخ لا يمكنها أن تجبر رجال قبيلته الأحرار. هناك يوجد من حين إلى آخر أشخاص نشطون بينهم، ما بين الإرادة الحرة ومنفعتهم الخاصة، يقومون بشطف بعض الآبار التي جفّت.

العويري. ثوران فيزوفيوس في عام 1872

عندما نطل على العويري، فليس من المهمة الهينة أن نتكهن بقصة ذاك المظهر الخارجي المذهل للطبيعة! إنه جبل منصي حجيري رملي منبسط، بمساحة ألفي ميل مربع، إلى الشفير، عن طريق دفق الحمم البركانية: ثم وراء القشرة البركانية، من كل الجهات، نرى تخماً مقفراً من الجروف التحتية وإبر الصخر الحجري الرملي، نزولاً إلى السهول الواطئة! لذلك يبدو أن فيضانات الحمم قد حفظت الصخور الرملية السفلية المتقلقلة في حين أن الريف الحجري الرملي القديم قد تآكل، وأقفر عن طريق التحللات الأكثر بطأً، على هذا النحو تقف الكتلة العويرية على ارتفاع ستمئة قامة، مثل جبل هائل، التي كانت في الزمن الغابر مستوية مع أرضية السهول الحجرية الرملية المنخفضة الآن.

بالنظر إلى السماكة الكبيرة لفيضانات الحمم، يمكننا أن نتخيل البداية القديمة جداً للحرات، تلك الجداول فوق الجداول من البازلت، التي تظهر في جدران بعض صدوع الوديان من العويري المقفر. برؤية أن التلال ليست أكبر، قد نفترض أن كثيراً منها (مثل الجبل الجديد Mont Nuavo الجهنمي) هي عبارة عن الخبث والمسحوق المقذوفين في ثوران قوي واحد. إن الحمم الغائصة السابقة هي أقدم من الشكل الذي هو شكل الأرض الآن: إننا في حيرة في بلد لا مطر فيه، لرؤية الغور البازلتي الحممي للحرة، المشقوق والمفتوح على

عمق مئة قامة إلى بعض أراضي الوديان مثل ثيرية. كل كتلة تكون متآكلة في أخاديد في الأجزاء غير المستقرة، لا يمكن أبداً التحرك عليها؛ لكن ما هذا الاهتراء الكبير «لحجارة الحديد»، المادة التي لا تُقهر ولا تتلف تقريباً! إننا نرى في النقوش الجرفية في مدائن، أن سماكة ظفرك لا تتبدد من وجه حجر رملي لين، في هذا المناخ، وفي حوالي ألفي سنة.

كل كتلة عجينية تكون مضعفة في الإطار؛ ومثل هذا النوع من الشقوق قد نظن أنه مفتوح في الهيكل الحجري الرملي لهذا الجبل المتراكب على رأس مجتاح من المقذوفات الكوكبية؛ وذاك، ينتفخ بعنف هائل، ينبغي أن تلتحم المقذوفات في صدوع طبيعية كثيرة، وترتفع، عن طريق بعضها إلى التراب، هناك يتكسر بذلك الصوت والانبجاس اللانهائيين لبخار الماء الناري المفرط السخونة، المتشابك والمجسّد في بحيرة من الحجر المصهور، الذي،مع إصدار الحمم، يكون هو الغيظ الأولي الهائل للثوران البركاني. في عام 1871 كنت شاهداً على الثوران الكبير لبركان فيزوفيوس. وأنا أقف منذ الصباح وحيداً على قمة الجبل، في ذاك اليوم الذي بدأ فيه الانفجار الكبير، خضت بعمق الكاحل في دقيق الكبريت على تربة جوفاء ملتهبة من الحمم، في الوسط كان ثمة مدخنة ثديية الشكل، ليست طويلة، تطلق دخاناً بنفس حات (أُكال) خفيف؛ كان يبدو بالنسبة لأولئك الذين في السهل في الليل، مثل منارة نارية بالحمم المتقطرة. في الخلف كان ثمة منصة جديدة من الثوران اليومي الضعيف، حوض من الحمم المذابة ومنها يصدر كل ذاك الصخب المصم القوي والمخاض الغريب للجبل؛ من هناك كان من وقت إلى آخر يُطرح عالياً، ويُقذف في الهواء حشد من القذائف الملتفة نصف الذائبة. دنوت من الاهتياج المفزع، وراقبت تلك البركة النارية الجائشة في الجوانب والطافحة، والتي تسبح في وسط نافورة من المعدن، وحددت كيف كانت تبرد في ذاك الهواء غشاء، مثل تلك الشبكة الطافية على الحليب الساخن، طفاوة رغوية معدنية رقيقة، لا تدوم سوى لحظة، في اللحظة التالية، بهبة رهيبة كالتي من مدفع بخاري، عن طريق التحطم العنيف في الريح للأبخرة الحبيسة الناشئة عن

المغما الجهنمية في الأسفل، هذا المرجل كان يُطلق إلى الأعلى مثل الملاءة في الهواء، حيث، يدوّم عندما يصعد بصوت صاخب، فكان اللوح الخبثي ينشق بشكل مختلف، ورأيته يتخلّع إلى مزق كبيرة وأصغر كثيرة. كان الخبث المضفور البركاني يسقط مهسهساً مرة أخرى في الهواء، مع أنه رقيق، من القطع المكافئة التي يبلغ ارتفاعها غالباً نصف ميل، معظمها كان كبيراً مثل الآجر، والقليل منها قشرات ضخمة مثل أحجار الرصيف. كان جانب الحوض يفيض نزولاً إلى ميزاب يمور بالحمم البركانية.

في فترة بعد الظهر، كان ثقل المعدن المذاب الصاعد في بطن تل البركان (الذي هو جدار من مسحوق بركاني وعروق حمم قديمة، ومثل ملاط الجصاص في حوض من الرمل) قد تلاشى، وصار يتسرب في منتصف الارتفاع من خلال جوانب التل المحتوتة، وهناك تدفق شلال من الحمم. سقط على بعض الأشخاص التعساء الذين اقتربوا من هناك وابل ناري من المسحوق البركاني، فاحترقوا في تلك اللحظة المخيفة عبر ملابسهم، وسفعوا حتى الموت، بالكاد عاشوا ساعة بعد ذلك. ثمة شاب طوّقه وابتلعه في نوبات من العذاب السفح المتواصل للحمم، التي كان تيارها في الحال ضخماً مثل نهر التيمس عند جسر لندن. ـ كانت الحمم الدنيا الصاعدة بعدها من البطن العميق للبركان، والتي تكون عنيفة على نحو أكبر، تنسف الطريق الآن إلى رأس الجبل ويبدأ الدمار الفظيع الهائل نحو الأعلى.

قبل الصباح، يُصبح النفق وفنجان الجبل مرجلاً من الحمم، كبيراً بحجم مدينة، يخلخل جيشانه التربة لمسافة مسيرة نصف يوم من حوله. إن المادة الفلزية السائلة العليا، المقذوفة في الجو، والمتناثرة إلى أجزاء دقيقة مع البخار المنطلق، تبرد فجأة متحولة إلى مسحوق متساقط؛ سماء البخار المطري والدخان الذي يعلق فوق مساحة واسعة، وتشتمل على العاصفة البركانية الغادرة، تكون مشحونة بشكل مفرط بالكهرباء؛ الرعود التي تنفجر لا يمكن سماعها في ذاك الضجيج الأكثر ترويعاً. يمتلئ الهواء أياماً كثيرة، لمسافة

أميال من حوله، بدويّ ثقيل، وهذا الجؤار المخيف للجبل. يهطل المسحوق النيزكي مع الريح فوق اتساع كبير من الريف؛ تسقط الفلزات البركانية الصغيرة إلى الأسفل حول دائرة الجبل، الانقذاف الوهاج للخبث الكبير حسب وزنه في مكان أعلى على الجوانب وأقرب إلى فوهة الاندفاع؛ وبينها توجد بعض المربعات من الصخور الغريبة التي انشقت من الإطار السفلي للأرض (5,000) قدمٍ إلى الأسفل على فيزوفيوس، تكون حجراً كلسياً. إن الاندفاع منظوراً إليه في الليل، من سرج الجبل، هو انفجار عنيف حزمي يبلغ كبره ميلاً من الوهج القرمزي واللَّهب الأحمر الذي ينقذف بشكل مخيف والدخان الأسود المتدحرج صعوداً من الخليج البركاني، الذي يبلغ عرضه الآن نصف ميل. الضوء الرهيب للحريق الهائل الكوكبي يعتمه الحجاب السميك من المسحوق البركاني الساقط؛ الظلام، الغبار الأسود، هو بحيث لا يمكننا أن نبصر أيدينا، ولا الأرض تحت أقدامنا؛ إننا نتكئ على الجدران المتهزهزة، الجبل يرتجف على نحو متواصل تحتنا: على بعد ميل، في ذاك الصخب الهائل للنزاع بين العناصر، يكاد لا يستطيع المرء أن يسمع صوته أو صوت جاره. تمرّ الأيام والثورات تحت الأرضية تخمد ببطء، الاندفاع يبلغ النهاية.

تخفف الرحم البركاني من عبئه الزائد، عمود الحمم والمقذوفات يسقط، في اللحظات الأخيرة، إلى الجذور الجوفاء للتل؛ حيث تظل القوة النارية تحت القشرة الكثيرة فوقه، الآخذة في التبرد. التصلد الكبير في أية قناة كبيرة، إلى قامات ليست كثيرة، يمكن حدوثه بصعوبة كما نعرف بالخبرة، في جيلين أو ثلاثة إذا مرّت عصور كثيرة من السكون، والنفق البركاني القديم، قرب سطح الأرض، يمكن عندئذٍ أن يكون محكم الانسداد بعمق إلى حدٍ ما. كما هو الحال بالنسبة لأي جيب من المعدن المصهور، المتوضع في الأدنى، مثل بحيرة في الأسفل، لا يمكننا أن نفترض أنه يشكّل عن طريق التبرد، في فضاء طويل جداً كما يُقاس بسنوات الكوكب؛ ولا توقف التسرب مع المغما المذابة لعمق الأرض. عندما يعود الانفجار البركاني إلى الحياة، يمكننا أن نفترض مثل هذا الرحم من المعدن المذاب المنتفخ في ولادة جديدة؛ يمكن

تبخيره عن طريق بعض الترشح من ماء البحر. ببطء يجب أن يلين الصخر السدادي البازلتي مرة أخرى على الحرارة البركانية المرتفعة؛ أو يمكن فتح طريق مفاجئ عن طريق النزع نحو الأعلى للقوة الأولية التي لا تُقاوم. هل دخلت هذه الكلمة (لابة (أي الحمم) في العربية)، في لغاتنا الأوروبية الجديدة من اللغة الإيطالية المغاربية الصقلية؟ فاللابة هم ساكنو الجزيرة العربية، (حيث الحرّار الكبرى الأفضل معرفة بالنسبة إلي)، (والعويرات، وحرات خيبر) ليست كل ما نفهمه عن طريق اللابة. بل تقال عن الأنواع الضخمة البازلتية، المسحوبة والحادة التشكيل والزجاجية تقريباً: فالخبث، الرغوة المعدنية، القشرات الخبثية الفلز والحجر الخفاف لا تسمى لابة ـ هكذا حتى الآن عن الريف البركاني.

الفقير في تيماء، عيسى وزيد

شربت الفقير مرة أخرى في تيماء؛ رأيت الماشية الكبيرة لأسرتنا تُساق إلى الداخل، وبعد سقي جمالهم المحمّلة كانت تُناخ قرب البيوت لأن محسن والبقية سوف يرحلون في الصباح ويعودون إلى الصحراء. بين الدواب وجدت ناقتي العجوز ورأيت أنها متقرحة بشكل سيىء على الظهر؛ الجرح بالكاد يمكن أن يندمل في خمسة عشر إلى عشرين يوماً، لكنني يجب أن أسافر غداً. جلبت الأصدقاء البدو لكي ينظروا إليها، فوجدوا أنها قد امتُطيت وأسيئت معاملتها، فعلامات حبال السرج لا تزال تظهر في الجلد المشعر. لا يمكن أن يكون سوى خطأ من عيسى، راعي زيد، وهو شاب كنت قد صادقته. وأنا آخذه من لحيته أمامهم جميعاً، لعنت أبا هذا الشاب اليهودي. وضع الشاب، القوي والعازم يديه على كتفي وشتمني كنصراني؛ لكنني قلت، «سراح، ينبغي عليك أن تكون قد حافظت عليها بشكل أفضل»؛ وأمسكته بشكل ثابت باللحية. رجال القبيلة المتجمعون حولنا التزموا الصمت، حتى أسرته، كلهم أصدقائي، وكان لهم رأي سديد بتحركي فقط في مسألة عادلة. إن عيسى وهو يرى أن غلطته كانت موضع ملامة، يجب أن يعاني من هذا التوبيخ، لذلك فقد خفضت رأس الولد الوسيم إلى لحيته، وأفلته. مسعى القوة كان غير لائق، وكان من الحماقة أن أتحمل أي إزعاج من أجل شيء بلا علاج؛ لقد تغاضيت عن غلطته، لكنني فكرت أن اعتبر ذلك بصعوبة سياسة ضرورية. هكذا العرب يجعلون الرجل مثل الرمانة مراً ـ حلواً، معتدلاً وحنوناً مع أصدقائه في حالة

الأمن، لكنه يقوى بغضب عادل إذا دعاه الزمن لكي يكون مدافعاً في قضيته أو قضية جاره. جاء والد عيسى بعد ذلك إلى خيمتي، وبصوت فيه تنازل اعترف العامل العجوز بخطأ ابنه؛ «مع ذلك، يا خليل، لماذا وضعت اللوم عليّ، عندما كنا أصدقاء، لتسميني أمام الناس يهودياً؟» لكن عندما رآني صالح العجوز ابتسم مرة أخرى، وأخذ اليد اليمنى التي مددتها إليه.

وجدت زيداً، في المساء، جالساً على أحد المقاعد الطينية قرب الهداج[1]، كان ينتظرني في وسط البلدة، على أمل أن يأتي أحد معارفه من القرويين قبل غروب الشمس، علّه يدعوه إلى العشاء. وأنا أعود بعد ساعة وجدت زيداً ما يزال في المكان، وجهه شبه الأسود حائر بين صبر البدوي على الجوع واحتقاره الإقطاعي للتيامنة. فزيد يمكن أن يبدو رجلاً مزدهراً، لو كان متحرراً، يحفظ الصداقة في السماء وفي دنياه؛ لكن اليد الضحلة لا بد أن تقدم الهزال والإرادة الباهتة لجيران الرجل أيضاً. تريثت لأتكلم كلمة مع زيد، ورأيته يسحب أخيراً غليونه، علاج الجوع: عندئذٍ نادى غلاماً، خرج من الدار المجاور، ليجلب له جمرة مشتعلة، فلبّاه القروي الصغير.

في الساعة الأولى من هذه الليلة هبّت علينا عاصفة ريح ومطر. كانت أشجار النخيل الباسقة تتمايل، وتتقوّس بكل طولها أمام العصفات الهادرة التي كان يبدو أنها ستقتلع الجذور. وجدت ملاذاً مع مشعان في بيت فقير مضيفنا؛ لكن السقف المفلطح من السويقات والتراب المدكوك سرعان ما كان مبللاً، فسال البلل غير المألوف نزولاً نحو الداخل عن طريق الجدران، تكلم محسن عن انطلاقي غداً مع البِشْر، وهو يدعو فِجْر ليشهد، سعى الرجل الودود الجبان لكي يثنيني «كذلك زيد، قال، قد تخلى عني» وهو الذي ينبغي أن يكون قد أوصى بي إليه، من المرجح ألا أراه بعد - هل ينبغي أن أستغرب ذلك؟ - لم يكن لزيد قلب، أجاباني معاً: «أي،

(1) الهداج: بئر تيماء المشهورة.

بالله. زيد ما له قلب، وردد ما له قلب؛!» كان فجر يعاني ألماً حاداً من «الحصى»، مرض شائع في هذه المناطق، رغم أن الريف حجري رملي؛ مع ذلك ففي بعض الأحيان قد يكون هناك بالأحرى التهاب، لأنهم يظنون أنه يأتي من سيرهم حفاة على التراب الحارق. عندما هدأ الطقس، ذهبنا نحو خيامنا المبللة لننام الليلة الأخيرة في تيماء.

الترحال مع بِشر

قامت نساء الغوطة بتحميل الخيام وعدتها، ورأيت الأعراب يرحلون قبل الفجر. ركب زيد على فرسه، من القرية التي نام فيها؛ قال: «إذا كنت سأذهب الآن معه، فإنه سوف يجلبني إلى بشر ويلزمهم بسلامتي الأفضل»، لكن زيد لم يكن بمقدوره أن يستقر، إذ يجب عليه أن يتبع أعرابه، ولم يكن بمقدوري أن أكون جاهزاً في لحظة؛ لم أرَ الرفاق الفقرا بعد ذلك. فالغريب الذي كان يمرّ من هناك، ساعدني على عجل، عندما كنت أحمل (أمتعتي) على ناقتي العجوز: وسقتها. وهي لا تزال تقاوم وتجهد لتلحق بالبقية، نصف ميل حول الأسوار إلى بشر. بالصدفة. لم يكونوا من الذين يتحركون باكراً. هناك لجأت بنفسي إلى حيزان، الرجل الذي وافق على توصيلي: ومن رجل آخر جلبت هيكل سرج الركوب، لكي أتمكن من تحميل [أمتعتي] على جملي الجريح. كانوا يشحنون ماشيتهم، وانطلقنا فوراً.

ونحن نغادر تيماء نحو اليمين، مررنا، بين قمم العِرية والغنيّم[1]، إلى الصحراء؛ بعد الحدود الجرداء فوراً في مدى النفود، الذي يتجه أيضاً نحو الشرق. تابعنا ترحالنا في المطر والطقس الكثير الضباب؛ في الرابعة بعد الظهر ترجّلوا عن دوابهم، في البرية الرطبة، على ارتفاع 600 قدم فوق تيماء، وطُردت الجمال الجائعة إلى المرعى. أضرم المسافرون البدو النيران، ووضعوها على دغلة راتنجية معينة، رغم كونها نباتاً تأكله الماشية ومع أنها مليئة بقطرات المطر،

(1) جبل غنيم.

سرعان ما اشتعلت. لقد حصّنوا أنفسهم قدر الإمكان من الريح الرطبة والوابلات الجارفة بمراكمة الأدغال حولهم؛ وهذه كانوا يثبتونها بالحجارة الثقيلة.

تحركنا عند شروق الشمس: الرغاء[1] المفاجئ والهرج والمرج لجمال البدو الكثيرة المتذمرة لكونها تُحمّل، كل ذلك جعلني أتذكر رحلات حج العام الماضي! قبل العاشرة صباحاً، كنا قد وضعنا حلوان أمامنا، وطقساً أكثر صحواً. ارتحل بشر قليلاً باتجاه الجنوب الشرقي؛ فبانت بيرد: في الساعة الثانية بعد الظهر، ترجّلنا، وطردنا الإبل إلى المرعى؛ كان الارتفاع هنا كما البارحة، حوالي 4,000 قدماً. كان المطر قد توقف وخرج حيزان لصيد الصقور. كان ثمة رجلان أو ثلاثة في هذا البلد يحملون بازاتهم معهم، وهي تجثم على قمم سروجهم، ببراقعها وقيودها، أو تجثم على قبضة صاحبها. في بعض الأحيان كانت الطيور تطلق، عندما كنا نرتحل، على أرانب الصحراء الصغيرة المجفلة القليلة؛ كانت أجنحة الصقور كلها مثقلة بالرطوبة: كانت الطيور تطير بدون شجاعة وهي تدور على ارتفاع قليل، بعد دورة أو دورتين. كانت مبللة تماماً ويهرع صياد الباز، ليأخذ الطريدة المسكينة. هكذا كان حيزان يأخذ أرنباً كل يوم، فيجلب لي حصة من قدره كل مساء، وكان ذلك مصدر راحة كبيرة لأجسامنا المنهكة. لقد افتقدت حنس وابن عمه ريان، في الطريق؛ فقد تركا أعرابنا الراحلين ليذهبا إلى أهلهما المخيمين بعيداً إلى الجنوب، فوق حرات خيبر. اليوم تُركت لوحدي مع العواجي، الذين يتعاملون بشكل عنيف نوعاً ما وهم دائماً غير مضيافين، لكن على أمل جيد بالوصول العاجل إلى حائل. جلسنا لنشرب القهوة مع الشيخ مشعل، الذي سيصنعها بنفسه. هذا «الحاكم للقبائل السبع» حمّص وطحن وغلى وقدم المزيج البهيج بيده. لم يسكب مشعل لي سوى فنجان واحد، وسكب لرجال قبيلته اثنين أو ثلاثة. لأن فعل السليطة هذا كان بدافع الشعور بالخزي لكوني نصرانياً فقد هتفت، هنا بالله شيخ جليل وقهوة قليلة! هل هذه عادة العواجي، يا مشعل،

(1) الرغاء: صوت الإبل.

أن يجلس الضيف بينكم وأنتم تشربون جميعاً، وفنجانه فارغ؟ «إن مشعل وقد تعرّض للتحدي هكذا سكب لي على مضض، وهو يتمتم من بين أسنانه كلمة من فكاهته المتعصبة، يا فرقا.

في وقت مبكر من اليوم الثالث، أبصرنا جبل عرنان؛ وقلت لجاري، ها، عرنان. «صاحت امرأة موبخة، كانت تمتطي جملها ضمن مدى السمع» اوه ما الذي ستفعلونه بعرنان؟ «في منتصف بعد الظهر ترجلنا في أرض مرتفعة، على مرتفع أبو مغير، حيث وجدت بالجهاز أن الارتفاع يبلغ 4,000 قدم. بعض الجمال التي كانت تُرى الآن عن بعد، لأعراب ابن مرتاد حلفاء العواجي. عندما بتنا، جاءت امرأة إلى خيمتي؛ سألت عن إبرة وخيط (مثل هذه الأشياء التافهة هي هدايا مقبولة في الخلاء)؛ لكن عندما تساومت بشكل مزعج مع الغريب المنهك أمرتها أن تنصرف فأجابت، بنظرة شريرة: «ها! يا نصراني، لكن قبل ذلك سنأخذ كل هذه الأشياء منك». رأيت بمقت [العِرق]، أن كل ربّات المنازل البِشْريات يرتدين البرقع أو منديل الوجه، الذي لا تظهر منه سوى العينين المضطربتين الجوفاوتين. هذه الكآبة لوجه المرأة كانت إشارة لي على أنني قد ارتحلت في بلد آخر، هو نجد الغيور (والوهابي)؛ ـ لأنه حتى التراب الماحل للجزيرة العربية مليء بالتنوع.

في الصباح الرابع من انطلاقنا من تيماء، كنا نعبر الأرض الوعرة المرتفعة للصخور الحجرية الرملية خلف أبو مغير. غريب هو إزعاج المطر والهواء الرطب البارد في الجزيرة العربية، عندما تطل عيوننا، التي أعمتها الشمس، على شابورات (سدائم) كامدة تتدلى إلى أطراف هذه الجبال اليابسة! فالريح، مع المطر، تهبّ بقوة من خلال البرية المفتوحة في الليل. بتنا، في المساء، قرب بعض بيوت أعراب مرتاد، وذهبتُ بعد ذلك مباشرة إلى نيران محارسهم البهيجة. حيث دخلت ضوء النار أمام بيت شخص مهم، كان صاحب البيت يستقبلني بلطف وسرعان ما يجلب لي طاسة كبيرة من حليب النوق الطازج. لم يسألوني أية أسئلة، ـ فالتزام الصمت هو كياسة من

المضيف، وكانوا قد رأوا خيمتي البيضاء تنتصب قبل غروب الشمس. عندما كنت أنهض لأنصرف، أمرني الرجل، بإيماءة لطيفة، أن أبقى جالساً. رأيت نعجة تدخل لتذبح! لأن مشعل قد ترجل بقربهم، فإنه سيصنع عشاء الضيوف، أخبرني عايد بن مرتاد، هذا الشيخ الطيب،أن أعرابه قد صعدوا في سنوات الجفاف إلى الشمبل، وابتعدوا حتى تدمر، والقريتين! استلقيت وغفوت في الأمان المضياف لخيمته المنسوجة من خيوط الصوف حتى كانت ولبمته جاهزة، ثم أرسلوا واستدعوا مشعل وشيوخ العواجي. قُدّم لحم الغنم المسلوق (حتى الآن من ساحل البحر الأحمر) على منسف من ذاك النوع الآخر من الأرز، التمن، الذي يُجلب من العراق، ذو نكهة وقيمة غذائية أفضل (مع أنه يحظى بتقدير أقل). عندما نهض مشعل، وكل رجل من رجال قبيلة بشر هؤلاء، بعد العشاء وباركوا لمضيفهم، حمل معه ـ لم أشاهد ذلك من قبل ـ قطعة من اللحم وعظمة، وكان ذلك لأجل زوجته التي تسافر معه.

في الغد، اليوم الخامس من تيماء، صعدنا فوق المرتفعات الوعرة جداً باتجاه الشرق. عن طريق يسمى درب زِلاج، حيث يبلغ أعلى ارتفاع 4,500 قدم، ورأيت زهيرات صغيرة من نبات المطر نبتت للتو في الصحراء. عند الظهر، وصلنا منزل مشعل المؤلف من خيام قليلة فقط تنتصف معاً على هذا النجد الجبلي الحجري الرملي الواسع حيث وصلنا الآن إلى الخرام، على ارتفاع 5,400 قدم: كان مقياس الحرارة في العراء يقيس 80 فهرنايت. من هنا ظهرت السلسلة الجبلية الطويلة فوق السحب، من عرنان، في الشمال، على مسافة يوم تقريباً.

عند العصر دخل اثنان من رجال القبيلة الغرباء، وصلا من ديرة في الاتجاه الجنوبي قرب المدينة: قالا لم يهطل أي مطر في ديرة جهينة، ولا في كل بلاد الحُمث الغربية! كانت قصعة من التمر موضوعة أمامهما؛ والضيوف البدو، بكياسة الصحراء، أمروني [ضيفاً] أن اقترب لأتناول الطعام معهما: إن مشعل، رغم أنني كنت جالساً في خيمته، لم يدعُ النصراني! تناولت ثمرتين وأكلتهما، لكي يكون بيننا «الخبز والملح». كان معي حزام مغربي كبير من

الصوف الأحمر؛ عندئذٍ قال مشعل، إنني سأعطيه إياه، وإلا، بالله، فإنه سوف «يأخذني» وأغراضي كغنيمة.

إن حزام البلدان المتوطنة، الكمر يشتهيه رجال القبائل البدو، الذي يعصبون به أجزاء الجسد الأكثر وهناً به يعتقدون أن الرجل يبذل جهده بشكل أفضل. «الحزام»، قلت، «ضروري لي؛ مع ذلك دعوا مشعل يعطيني جملاً فتياً قوياً وسوف أعطيه ناقتي العجوز والحزام». كانت إبل هذا الرجل أكثر من مئتين! حسناً إذاً، أجاب مشعل، هو سيأخذني، - انظر نوى التمر في يدي، أنت لا تستطيع، يا مشعل، يوجد الآن بيننا «خبزاً وملحاً». لكن ذلك لن يفيد؛ ماذا لو أبعدتك غداً عنا، أنت وناقتك العجوز، هل تستطيع أن تجد طريقاً في البرية، وتعود إلى حجر؟» - «أنا أعرف أنه بعد مسير أربعة أيام جنوب الغرب، الله يتفقدك، وأنا لا أشك في أن ذلك قد يُسر الله، سأتقدم رغم ذلك». - لكن كل البلد مليء بالأباليس - «مشعل الغني، هل ستسلب رجلاً فقيراً! لكن كل هذه التهديدات باطلة، أنا ضيفك» - هم يؤمنون بأن النصارى رحالة خبيرون، هكذا قيل لي، «في الغد هل سألاقي مشعل على صهوة الحصان، وسأكون مسلحاً بمسدس؟» أجبت، «إذا كان يجب ذلك، سأبذل جهدي» - «لا، في الصباح خليل سيركب ناقته العجوز (قال مشعل مرة أخرى) وأركب إلى مدائن صالح»؛ هكذا بابتسامة قوية تخلى عن الطلب، فاهماً أنه لا يستطيع أن يحركني. ابنه الأصغر، الذي جلس منتفخاً في خيمة الأب، قال كلمة جيدة، «حسناً دعوا خليلاً ينام عليه - وغداً سيعطونني ناقة مقابل الخويرة والحزام» - في جشعهم لسلب حياة المنبوذ، الذي لا يساعدونه على التقدم إلى الأمام، يكون العرب أكثر شراً من أي قوم!

أمرني حيزان في الصباح بأن أستعد للرحيل، كان عسكر وبعض المرافقين ينطلقون إلى حائل ويمكننا أن نركب معهم؛ سأل: «هل ناقتي فاطر[1] قادرة على الجري مع الإبل؟» - «إنها ناقة عجوز، وليست جملاً عربياً

---

(1) الناقة العجوز في اصطلاح العرب المتأخرين.

ثم يجب أن نرحل بعيداً عنهم». قال حيزان، عندما تلقى نقوده إنه لا يستطيع أن يرافقني بنفسه، «لكن هذا الرجل الآخر» الذي ادعى أنه أخوه، بالإضافة إلى أنه قد أطلق عليه اسماً مزيفاً ـ كان من الصعب أن أتجنّب مثل هذه الحيل للبدو! قال مشعل «حسناً أنا أكفلك اذهب بسلام». اشترطت أن توضع حقائبي على جماله وقد أمتطيها بنفسي؛ وهكذا انطلقنا.

هذا الرفيق كان يبدو مثل رجل همجي: عسكر وزملاؤه كانوا قبلئذٍ في الطريق أمامنا؛ مررنا ببعض حفر الماء الضحلة التي نزحت حديثاً؛ دهشت لرؤيتها في هذه الأرض المرتفعة. أتينا بعدئذٍ إلى حافة جبل الخرام، إلى الشمال، هنا المكان عميق جداً وشديد الانحدار إلى السهل في الأسفل، في مكان عسير كهذا، فإن الجمال التي تبقى أرجلها الأمامية متيبسة وتهبط فجأة من حيد إلى حيد، تحدث تغيراً لتتسلق نزولاً. هكذا، ونحن نهبط، كلما استطعنا، بشكل موجع إلى الصحراء الرملية السفلية، ونحن نسير نحو ساحل منخفض من الحجر الرملي، هو ساحل عباسية، غرب ميسمة، أدركنا عما قريب رفاق عسكر. وهم يقتربون من الطرف الشرقي من الجبل، ظنوا أنهم قد لمحوا الأباليس الرابضين في الصخور، «هتيم النفود، والأعداء»، حيث شوهد المتبخترون في الأرض في اليوم السابق. «خليل» (قال عسكر)، هل يمكن لناقتك أن تماشينا؟ إننا بدو، وننهاش (نهاج) سوف نفلت من أي خطر على جمالنا؛ أسرع الآن بقدر ما تستطيع أو سنضطر إلى تركك خلفنا، بحيث ستقع لوحدك في أيدي قطّاع الطرق، دفعوا جميعاً جمالهم الخفيفة والغضة إلى الخبب، أما ناقتي الفاطر المحمّلة والمنهكة بعد الرحلة الطويلة من تيماء، فقد تخلفت عنهم فوراً وهكذا كانت مشيتها الخشبية التي لم أكن أقدر على تحملها. رأيت أن كل شيء سيكون جهداً بلا طائل في أي خطر؛ كانت النجوم معاكسة لهذه الرحلة، إذ لا أحد من مرافقي فيه أي خير إنساني، سوى عسكر فقط. فرفيقي الهمجي، الذي كنت قد ألزمته عند انطلاقنا بالقسَم الأكثر قدسية، «على ساق العشب» أنه لن يتخلى عني، فصاح عندئذٍ، «والله ـ بالله، أنه سيتخلى عني إذا لم أصلح خطوتي (وهو ما كان مستحيلاً)؛

يجب عليه أن يتبع رفاقه، وهو رفيقهم» وهكذا تابعوا المسير لمسافة ميل أو اثنين.

كان مطر الأيام الأخيرة قد برّد الهواء؛ كان هذا العصر ملبّداً بالغيوم لكن الشمس تسطع بدفء أحياناً. عندما أدركت بكثير من الجعجعة زملائي المنطلقين بسرعة، قلت لعسكر «لو أطبق الأعداء عليكم، فهل ستتخلى عني وأنا رفيق دربك؟» سأفعل، قال، سآخذك راكباً خلفي على جملي وسوف نجرب حظنا معاً؛ خليل، لن أتخلى عنك. كانوا يأملون في الإقامة مع الأعراب تلك الليلة، قبل أن نصل إلى جبل ميسمة، الذي كان أمامنا. كان السهل رملاً، وحيوداً من الصخور الحجرية الرملية، في تجاويفه برك من ماء المطر العذب. في منتصف بعد الظهر لمحوا الجمال بعيداً جداً في المقدمة؛ ترجّلنا، وتسلقنا نزولاً على الجروف التالية لكي نستطلع، وسرعان ما أبلغنا أن أولئك الأعراب هم راحلون، ويبدو أنهم على وشك التخييم، ثم ركبنا نحو جبل الميسمة، حتى وصلنا على أولئك البدو؛ لم يكونوا سوى عائلة من شمر، يرتحلون في القفار الهائلة الشاسعة. ومما لا شك فيه أنهم، وهم يروننا، شعروا بقشعريرة باردة في عورتهم، لأننا وجدناهم منكمشين في أرض منخفضة، مع جمالهم القليلة المُناخة من قبلهم، ولم تكن ربة المنزل قد شيدت البيت. كانوا يراقبوننا ونحن نمرّ راكبين بقربهم، بنظرات قلقة، لأنه لا يوجد تفاهم بين عنزة وشمر. هذا يقتضي أن عداوتهم هي فقط بأمر من الأمير. كنت سأطلب من هؤلاء البدو أن يدعوني أشرب الماء، لأنني طوال النهار قد ركبت الناقة بقوة بدون أن أشد اللجام، وكان الضوء الآن مبدداً تقريباً؛ لكن رفاقي يغذون السير إلى الأمام. أخيراً طلبت من رفيقي أن يعيرني جمله الأكثر سهولة، إذ إن ذلك كان موضوع اتفاقنا؛ لكن الزميل تنكر لي، ولم يبطئ خطوه. كنت غالباً، فيما كانوا يخبون، أتراجع إلى الوراء بحيث أصبحت في خطر أن أضيعهم عن نظري، وكنت دائماً في خوف من أن ناقتي المنهكة يمكن أن تغوص تحتي، وكذلك أن تطرح صغيرها.

نزولاً عند كلمة عسكر، عندما رأوا أنني قد لا أعود أحتمل، وافق الزميل على أن يتبادل الركوب معي، وامتطيت جمله؛ دخلنا بعدئذٍ في فجوة منخفضة في الميسمة قرب الطرف الشرقي لهذا الحيد الحجري الرملي الطويل المدى. تطلع رفاقي من فوق الحاجب، بحثاً عن أية بيوت سوداء للأعراب، في الصحراء السهلية في الوراء نحو الأفق. ظن أحدهم أنه رأى خياماً بعيدة جداً، لكن الباقين شكّوا في ذلك، وعندئذٍ كانت الشمس تغرب. نزلنا عن طريق الرمل المجروف عميقاً على جوانب الجبل، باندفاع عاصف، بدا مثل انقضاض طير عن الجمال تحتنا، رغم أنه في السهل يمكن لأي حصان أن يتجاوزها. إن الجلوس على جمل جيد «سابح»، كما يقول شعراؤهم الأقدمون، فوق أرض رملية، هو سهل جداً بحيث إن الراكب المتمرس يمكن في بعض الأحيان بالكاد أن يشعر بسرجه......

.... كنا قد سرنا ساعتين منذ غروب الشمس، وفي سباق هذا اليوم الطويل قطعنا الجزء الأكبر من خمسين ميلاً؛ وعندها تشاوروا معاً، ما إذا لم يكن من الأفضل الترجل وقضاء الليل حيث كنا؟ لم نكن قد تناولنا الطعام لهذا اليوم، ولم نكن نحمل طعاماً أو ماءً، لذلك فقد كانوا واثقين جداً أننا في كل ليلة يجب أن نتوقف مع الأعراب. لقد اتفقوا على أن نستمر في الركوب إلى مسافة أبعد؛ ولم يطل بنا الوقت قبل أن نرى قبساً من نيران محارس البدو. اقتربنا منهم في خلال ساعة، وسمعت الأصوات الليلية لمنزل بدوي؛ المرح الرتيب للأطفال، الذين يشردون حول نيران المحارس ويغنون في بيوت الأمير. وصلنا بصمت شديد، إذ لم تنبح الكلاب. كان ثمة بيتان أو ثلاثة. عندما شعر بنا الأعراب، سكتت كل الأصوات البشرية؛ ونيرانهم البهيجة، حيث رأينا الناس جالسين قبل لحظة، أطفئت فجأة بالرمل. كنا ستة أو سبعة راكبين، وظنوا أننا قد نكون غزواً معادياً. ونحن نترجل بصمت، جلسنا بعيداً قليلاً: لا أحد منا همس لفريقه بالاسم؛ لأن الصحراء المكشوفة مليئة بالديون القديمة لأجل الدم. في اجتماع غريب، ومع ذلك فهو أكثر غرابة في مثل هذه الساعات، يكون البدو في حالة ذهنية من القلق والترقب وفي شك كل

بالآخر. عندها، وقد فقدت صبري من سكوتهم، كان بإمكاني أن ألقي السلام! تضرعوا إليّ أن أسكت. بعد أن أخذ الهامسون في الداخل علماً كافياً بمسعانا السلمي، حيث كان أحدهم يقترب بحذر، أعطونا كلمة الأمان، سلام عليك. فكان الرد فوراً من قبلنا جميعاً بعبارة عليكم السلام. بعد هذا السر الشفوي المقدس بين البدو، لا يوجد أي شك بينهم بأي شر مبيّت. قاد الرجل عسكر ورفاقه إلى بيته، ومضينا نحن إلى بيت آخر مع نصر رفيقي وبدوي كنا قد التقينا به راكباً مع ابنه في الصحراء وراء الميسمة. نُفخ في الجمر المغطى، ورأينا النيران مرة أخرى.

لم يكن بمقدورنا أن نتبين ماهية هؤلاء الأعراب، ولا هم عرفوا ماهيتنا؛ لقد رأينا أهل الصحراء لا يسألون الضيف أي سؤال حتى يكون قد تناول اللحم؛ مع ذلك، بعد قليل من الاستطراد في الحديث بينهم، كأن يكون الحديث عن المطر هذا العام، والمرعى، يمكن أن يتوصل كل واحد عموماً إلى حزر قبيلة الآخر. عندما سألت رفيقي الفظ «من أي قبيلة هؤلاء الرجال؟» فأجاب همساً، «إنه لم يعرف بعد»؛ سرعان ما فهمنا عن طريق الأصوات أنهم قد تعرفوا على عسكر في الخيمة الأخرى. فقد كان ابن شيخهم الكبير؛ وكان هؤلاء الأعراب من ولد سليمان، من بشر، مع أن وجوه الرجال كانت شبه مجهولة بالنسبة لبعضهم البعض. إن مضيفنا، وقد مضى إلى خيمة الزعيم ليسمع الأخبار، تركنا مع ربة منزله، فرأيتها تشرع في سحن الحب (البن) بالنبوت، في هاون خشبي، وهي طريقة لا يستخدمها البدو الجنوبيون من معارفي السابقين؛ لكن البن المسحون هو هنا كما يقدم غالباً لأجل وجبة الضيوف كالتمن. كان الفصل يتحول الآن إلى الشتاء في البراري القاحلة المقفرة، فقد سيّجوا بيوتهم من المطر المتأخر والريح، بالأغصان الجافة.

هناك دخل واحد من الخيمة الباقية الثالثة، وتعشى معنا. تساءلت، وأنا أرى رجل القبيلة هذا، وتساءل هو عندما تطلع إليّ: إنه بدوي، يرتدي القلنسوة (العمامة) التركية الحمراء، الطربوش، وإزاراً مقلماً عتيقاً، قنباز، يستعمله أهل

البلدان الحضرية المتاخمة. عندما سألت ما هذا الرجل، أجاب بأنه نظراً لكونه «ضعيفاً» فقد ذهب إلى الجندية إلى الشام وقد خدم الدولة مقابل ريالات، والآن جاء إلى الوطن، إلى الحياة البدوية، بتلك الحفنة العزيزة من الفضة. بهذه [الفضة] كانت بداية ازدهاره أن اشترى لنفسه جمالاً وماعزاً وغنماً، وكان سيشتري أيضاً ناقتي العجوز بالسعر الذي أفرضه عليها، سبعة ريالات، ليذبحها في الوليمة من أجل روح والده المتوفى. حيثما كان البدو جنوداً كان ذلك يبدو لي عالماً جديداً! مع ذلك علمت فيما بعد، أنه يوجد رجال قبائل ركاب من بشر وحرب وعقيل[1] في المدن الكبيرة. فالبدوي الذي رأى في الغريب حياته المدينية الخاصة في دمشق، «قد سُر بالحديث طويلاً معي» إذ كان يكفي أن أعدد أسماء الأسواق الكبرى للمدينة الكبيرة الوفيرة. لابد أن يجلب ريالاته في الصباح؛ وإذا كنت سأبقى هنا، فإنه سوف يتكفل برحلتي الأطول إلى حائل، من هناك يجب عليه أن يذهب بنفسه قريباً ـ لكن عندما ناداني رفيقي لأركب قبل الفجر لم يكن بمقدوري أن أبقى لأنتظره. بعدئذٍ وقد صادفني في حائل، عاتبني لأنني لم أنتظره، واستفسر عن ناقتي، التي كنت قد بعتها للتو بخسارة. أخبرني أنه عند وصولنا في الليل، كانوا قد أخذوا بنادق فتيل ليطلقوا النار علينا؛ لكنهم برؤية الحقائب الكبيرة على جملي، وسماع صوتي، عرفوا أن لا أحد من البدو، وأننا لا نسير في غزوة.

هرعنا مرة أخرى فوق سطح البرية لنجد منزلاً كبيراً للأعراب، حيث وعد زملائي أنفسهم بشرب القهوة. اعتاد الشيوخ على خيمة القهوة إذ لا يحسبونه يوماً من حياتهم إذا لم يحتسوا فيه القهوة؛ وهم يسيرون هكذا كانوا يدخنون التتن برؤوس غلايينهم بشكل متواصل. وصلنا في الفجر وترجلنا، كما من قبل، في مجموعتين، عسكر ورفاقه يمضون إلى خيمة قهوة (مضافة) الشيخ: هذه هي كياستهم البدوية، لا يضعون عبئاً على أي أسرة. كان الناس

---

(1) عقيل: تطلق في الأصل على المتاجرين في الإبل والغنم، ثم صارت تشمل كل من جاء من جزيرة العرب إلى العراق والشام ومصر للتجارة أو البحث عن عمل.

من قبيلة شمر، واستقبلونا بضيافتهم المعهودة، فوضعوا التمر الفاخر (وهو ذو نكهة أخرى ولون غير ذاك الذي يتسم به تمر العلا وتيماء) هنا أمامنا، وطاسة كبيرة - هي الإنعاش الأكثر راحة في البادية - من لبن نوقهم. ثم استُدعينا إلى خيمة الشيخ، حيث كان الشيخ نفسه، بابتسامات شهمة، قد أعدّ القهوة مسبقاً. عندما سمع أنني حكيم [طبيب] طلب إدخال حفيدته المتوعكة الصغيرة. أخبرت الأم أننا لسنا سوى عابرين، وعلاجي لا يمكنه أن يفيد طفلتها إلا قليلاً. قال الشيخ، وهو يلتفت إلى رفاقي، لذلك، «إنني لا بد أن أكون شخصاً شريفاً جداً» - «هكذا هو» أجابه عسكر، «وأنت يمكن أن تكون واثقاً منه في كل شيء». ناولني الشيخ الطاسة، وبعد أن شربت جرعة سألني، «من أي بلد أنت؟» أجبت «أنا انكليزي» هكذا همس في إذني، «انكريزي! - إذاً نصراني؟» قلت بصوت عالٍ، «أي بالله»؛ ابتسم لي الشيخ مرة أخرى، بابتسامة قالت روحه فيها «لن أخونك» - القهوة كانت جاهزة فسكب لي قبلهم جميعاً. عندما ابتلع رفاقي الفنجان الثاني اللاذع، نهضوا في عجالتهم الدائمة التعيسة للانطلاق: طلب الشيخ مني أن أبقى لحظة لأشرب مزيداً من لبنه اللذيذ وأقوي نفسي.

تابعنا المسير في البراري المقفرة باتجاه الشرق، هنا حيث خرجنا من مقاطعة الميسمة، وعلى يميننا بعض الجبال، نقاط علام ذاك المشرب العظيم. من الخرام كان بإمكاننا أن ننطلق راكبين إلى حائل باتجاه شرق جبل إيجا، لكن ذاك الجزء ظنوه آنذاك خالياً من البدو الجوالين. هذا السهل المرتفع والمفتوح، الذي يبلغ ارتفاعه 3,800 قدم، كله مغطى بالطين الصفيحي كما لو كان من حجر الحديد؛ لكن باتجاه الظهر رأيت أننا قد دخلنا في ريف غرانيتي، ومررنا تحت جبل بازلت صغير، أسود فحمي، وبرّاق. كانت الجروف الصخرية الناتئة من هذه الأرض غرانيتاً رمادياً؛ بدا جبل ايبران، جبل مائل إلى السواد، في أفقنا، يبعد بضع ساعات، ويمتد نحو الشمال. بعد ذلك بوقت قصير دخلنا رمل النفود وإذ كنا نجد هناك القش البري ترجّل البدو لجمع العلف. كان هذا لإطعام

ماشيتهم في الوقت الذي سيكونون فيه مستلقين في حائل، حيث الريف التالي من حولنا ممحل، قحط الأرض يكاد يكون أقل مما يقع حول تيماء. لم يكن جمع القش يليق بشيخ جليل. وفي حين كان الباقون مشغولين، حفر عسكر بيديه في الرمل إلى المرفق، ليسبر عمق المطر الهاطل أخيراً، كون ذلك هو كل ما يمكن أن يبحثوا عنه حتى خريف آخر، ومنه يجب أن ينبت عشب العام الجديد. فقد هطلت وابلات من المطر مؤخراً، لمدة ستة عشر يوماً مجتمعة؛ مع ذلك لم نشاهد تقريباً أي علامة في تربة القفار على السيول الصغيرة. عندما أنزل عسكر ذراعه العاري تقريباً إلى الكتف، أخرج الجفاف الرملي القديم؛ فرطوبة المطر لم تكن قد غاصت باردة كاملة! الأمطار الموسمية تكون جزئية في الجزيرة العربية التي تعدّ في خطوط العرض هذه بلاداً عديمة الأمطار تقريباً، ففي حين كانت تمطر في الخرام لم تهطل وابلات في ديرة جهينة؛ وكذلك كان يهطل القليل في خيبر، على مسافة مئة ميل، بحيث إنه في أشهر السنة الجديدة لم ينبت هناك أي ربيع في تلك الجبال الحممية.

لم نكن قد سرنا بعيداً في هذه النفود، عندما شاهدنا في منتصف العصر قطيعاً من الإبل يتحرك أمامنا في مرعى، بطريقتها المشتتة البطيئة؛ وجدنا بعدها بيوت البدو منصوبة في مكان أجوف. إن البدو، عندما يخيمون قلة معاً، يختارون أرضاً عميقة، حيث يلتجئون من الطقس، وفي النهار لا يمكن تمييز البيوت السوداء فوراً، ولا نيران محارسهم في الليل. كان هؤلاء أيضاً من قبيلة شمر، التي كانت تسيطر آنذاك على كل الريف أمامنا إلى قرى الجبل؛ فقد كانت مبعثرة إلى عائلات كما في بلد مسالم من سلطنة الأمير ذات الآبار الكثيرة حولها كان الذباب المحتشد هنا على الرمل إشارة إلى أننا اقتربنا من مستوطنات النخيل. كلما جئنا إلى خيام في هذا الريف سألنا الأعراب فوراً، بجدية شديدة، «ماذا عن المطر؟ أخبرونا هل يوجد هطل كثير في ديرة العواجي؟». كان رفاقي يجيبون بالكلمة نفسها «لا تَنْشدْ»، «أي لا تسأل عنه». لو سألهم أحد، «من هذا الغريب الذي جلبوه معهم؟». فكان العواجي يردون،

بما معناه لا يمكنني أن اقول، «الخير الله». الشيخ في هذا المنزل سيشتري ناقتي، متعهداً أيضاً بنقلي إلى حائل؛ بعد أيام قليلة سأكون في أثنائها ضيفه.

فكرت أخيراً أننا ينبغي أن نرتاح هنا طوال هذه الليلة؛ لكن رفاقي، عندما نهضوا عن العشاء، أخذو جمالهم مرة أخرى وركبوا ومضوا، ومعهم نصر؛ فهم لن يتريثوا لحظة من أجلي في الاتفاق على بيع الناقة ـ فكرت أن من الأفضل أن أرحل مع هؤلاء الذين أعرفهم، وأن أضمن وصولي إلى حائل، على أن أتخلف عنهم في بيوت بدو مجهولين؛ علاوةً على ذلك، فقد سمعنا أن مضرباً [مخيماً] شمرياً كبيراً لا يبعد كثيراً أمامنا، وفيه شيخ قهوة، وعد عسكر بأن يسلمني إلى أولئك الأعراب، إذا اقنع رفيقي بالبقاء معي. كنت محطماً بهذا الركوب الشاق؛ فالقلب في كل لحظة يثب إلى حنجرتي، والألم الذي يسمونه **قطع القلب**. فقد كانوا يغذون الخطى أمامي كل ساعات النهار، في ركوبهم الخفيف، بحيث إنه بأقل من حفظ وصية جيدة، سيكون الموت في نهاية المطاف انعتاقاً مرحباً به من تعاسات الحاضر. نصب الأعراب بيوتهم أسفل الجبل التالي؛ لكن العواجية، وقد قطعوا مسافة أبعد في الظلام لمدة ساعتين ولم يشاهدوا نيران محارس، قد تابعوا مسيرهم راكبين طوال تلك الليلة الطويلة، ليصلوا أبكر ـ كما قالوا ـ إلى حائل. يجب عليهم فوراً أن يتخلوا عني، إذا لم يكن بإمكاني أن أمضي أبعد كثيراً، وناقتي العاجزة قد وهنت تحتي، عندها تمتم عسكر لرفاقه، وقد تغلب عليه النعاس، «دعونا نترجل إذاً وننام». في هذا الوقت لاحت نار محرس على يميننا، كانت محجوبة بتضاريس الأرض، لكنهم تجاهلوها، بسبب العذوبة الحالية للنوم: ترجلنا، أوثقنا رُكب الإبل، واستلقينا لنرتاح قرب ماشيتنا في الصحراء الرملية.

لم نكن قد تابعنا مسيرنا في الصباح لمدة ساعة عندما لمحنا، عند شروق الشمس، بيوت سوداء كثيرة من مضرب بدوي، حيث كان العواجية قد وعدوني بالاستراحة، لكن كما هو الحال دوماً فقد مرّت القهوة الساخنة عبر

حناجرهم، وابتلعوا قليلاً من التمر الشمري، ونهضوا ليأخذوا جمالهم مرة أخرى. إن وعود البدو كهذه ليست سوى أصوات في الهواء؛ فلا رفيقي الهمجي والمتوحش سمع كلامي، ولا عسكر استطاع أن يقنعه: «والله، لا سلطة لي» قال؛ وصاح نصر، «اختر أنت، يا خليل، ما إذا كنت ستجلس هنا أم ستركب معنا؛ لكنني أنا ذاهب مع جماعتي». «ماذا بقي لي، سوى أن أسايرهم؟ آنذاك كان ذلك مكرباً لي، وكانت ناقتي جاهزة للسقوط تحتي». عندما ركبنا، قال عسكر: «إنه سهل، بحيث إن خليل يمكنه أن يتابع؛ هل ستعود يا خليل، إلى البيوت؟ ولا تشك في أنهم سوف يستقبلونك». «كيف يستقبلونك؟ فأنت الآن قد كذبت عليهم في القهوة، بقولك أنك لست عواجياً، وأنت لم توصهم بي: فماذا عندما يفهمون أنني نصراني؟ كذلك نصر هذا، رفيقي، يتخلى عني! - «سنأتي اليوم، قالوا، إلى مستوطنة، وسنتركك هناك». كنا قد أغفلنا أن تشرب في الخيام، وسرنا عطاشاً جداً، عندما ارتفعت الشمس عالياً في السماء، كان لدينا أمل ضئيل في إيجاد برك مطرية أخرى في القفار الرملية. بعدئذٍ، وهم يلمحون وهجاً خافتاً تحت الشمس بعيداً، أسرعوا إلى هناك، - لكنه كان قاعاً صلصالياً متلئلئاً، وفي الوسط بريكة موحلة، فتخلينا عنها جميعاً. يبلغ ارتفاع هذا السهل 3,700 قدم، وكان يبدو أنه يهبط أمامنا إلى جبل أجأ الذي ظهر آنذاك كسفح هائل لجبل غرانيت غير مرتفع جداً، ويمتد شمالاً وجنوباً. التربة من غرانيت - الرمل والصخر الرملي الحبيبي، والأحجار المتدحرجة وصخر الغرانيت النتن. مررنا، قبل الظهر بساعتين، بخرائب مزرعة صغيرة ذات بئر واحد هُجرت قبل خمس سنوات. قال عسكر، «الماشية نفقت بعد سنوات من انقطاع المطر بسبب نقص المرعى، ومات بعض الناس من جدري البقر» - ليست نادرة مثل هذه الكوارث على المستوطنات الطرفية الصغيرة، في الجزيرة العربية. عندما سألت عن اسم المكان، أجاب فوراً وباختصار، **ملعون طالبه**. ما يعني «ملعون كل من يسأل عنه».

وجدنا بركة من ماء المطر الرائق في الصخر، سخنت في الشمس،

فكانت تبدو لنا أحلى من الحليب. هنا أطفأنا ظمأنا، وسقنا بهائمنا لتشرب، وهي التي كانت قد سارت مئة وثلاثين ميلاً بدون كلأ أو ماء. منذ الخرام. ذهب رفاقه قبل أن نركب ليقطعوا مزيداً من العشب الجاف، وقال لي عسكر؛ خليل، الناس حيث نحن ذاهبون هم غيورون. لا تدعهم يرونك تكتب، اكتب خفية، وأبعد أوراق الكتب هذه. لقد كنت هناك مع البدو، والبدو قد عرفوا ما أنت؛ لكن، هل تسمع؟ إنهم ليسوا طيبين، مثل أولئك الذين في تلك القرى!. ركبنا مرة أخرى لمدة ساعة أو ساعتين ورأينا الهامات الخضراء لأشجار النخيل، تحت الجبل، في وادٍ صغير، حيث، قالوا، تقطن خمس أو ست عائلات من جفيفا. إلى الشمال رأيت جبل تالي وهو جبل غرانيتي منفرد على أفق البادية. كانت جماعتي، وهي بعيدة دوماً في المقدمة تسبقني بمسافة طويلة، قد اختفت عن نظري. تركتهم يمرّون، لم يعد بمقدوري أن أتبعهم، لا أشك في أنني بنقاط العلام هذه أمامي سأصل قريباً إلى أماكن مأهولة. هناك ترجلت على درب مطروق بعمق، مثل هذه الدروب تكون محفورة في تربة الصحراء القاسية، قرب مستوطنات تقع على طرق عامة، من قبل أجيال من المسافرين البدو. ذهبت سيراً على القدمين،أسوق ناقتي الواهنة بخطو بطيء، إلى أن لمحت أولى هامات النخيل، والخطوط الخضراء من بساتين الموقق.أخيراً أبصرت نصر عائداً من بعيد لملاقاتي.عند دخول المكان سقطت ناقتي المنهوكة القوى وهي تجأر، وهذا ما أخّرنا قليلاً؛ لكن نصر رفعها وهو يسوقها بلطمات موجعة، فدخلنا موقق في حوالي الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر.

دهشت لرؤية القرية مليئة بالخرائب والكثير من نخيلها يابس وذاوٍ إلى أن علمت أن الموقق قد ضربها الطاعون قبل سنوات قليلة. فبناء بيوتهم لم يعد من الصلصال الذي نراه في تيماء، بل جدران طينية في طبقات، مع بعض نوى من الآجر الصلب المجفف بالشمس الممدود من جنب إلى جنب فيها؛ التربة هنا غرانيتية. المظهر المتقوض للمكان جعلني أفكر ببعض الواحات التي رأيتها قبل سنوات في الصحراء الجزائرية. ماؤها الجوفي فاتر، كما في كل

ريف الجزيرة العربية وذو نكهة فاسدة؛ الموقع جهنمي، وتمرهم وضيع جاف، وليس لذيذ الطعم. ذهبنا باتجاه قهوة الشيخ (المضيف)، حيث سبقنا الرفاق، والتقينا مع الشيخ الطيب الذي جاء لملاقاتي. قادني بمودة من يدي، وأمر رجله بأن يحشّ سويقات أعشاب خضراء من البستان من أجل جمالنا. عندما أجلسنا في غرفة القهوة دخل كثير من القرويين بدون إظهار تبدل في تعابير الوجوه - قد يكون ذلك بسبب توصية مسبقة من عسكر لمعاملتي بشكل محبب. وأنا أرى الكل يتخذ موقفاً ودياً هكذا، بسطت أمام الشيخ خلافي مع نصر، وأيّدني عسكر، فلم يسمح لنا بأن تتابع ناقتي تقدمها نحو الأمام.

حتى آنذاك كانوا سيمتطون دوابهم فوراً ويسيرون طوال الليل ليكونوا في حائل قبل النهار. قال نصر إنه «سينضم إلى جماعتهم، وإذا لم أستطع أن أركب معهم، فيجب أن يتخلى عني هنا». لقد قضى شيخ موقق بأنه بما أن الجمل لا يمكنه أن يتابع المسير، فإن نصراً، الذي قبض أجوراً، يجب أن يبقى معي، أو، إن يترك من ماله ما يمكن دفعه لرجل آخر (لحملي إلى حائل) يمكنه أن يرحل بحرية. إن العفريت، الذي كان عليه بموجب قرار الشيخ، أن يدفع ريالاً، اختار بدلاً من ذلك أن يبقى معي. نهض عسكر وزملاؤه مرة أخرى على عجل عن التمر والماء، ليركبوا إلى حائل. هذا الطريق الطويل من الخرام كانوا قد قطعوه في جري متواصل، لا يحملون معهم طعاماً ولا قرب الماء، ولا قهوة: فقد وثقوا ببصرهم الجيد ليجدوا الأعراب كل يوم - كانوا جميعاً شباناً بحرارة دمهم، بحيث إنهم ركبوا بنوع من التبجح بتحملهم ومقدرتهم الفتيتين، سألت عسكر، لِمَ هذه العجلة، ولماذا لم يأخذوا استراحة صغيرة في أي مكان. فأجاب: «لكي نكون في البيت عاجلاً والمكوث في المنازل قرب الطريق هو غير لائق (عيب)». عندما مضوا، فإن القرويين الجالسين في القهوة - وكانوا من شمر - قد لاموا رفاقي بوصفهم من عنزة. هذه الغيرة الضيقة للجيران قد عززتني غالباً، عندما رحلت بدون منة في بلاد الجزيرة العربية الشاسعة هذه.

هنا رأيت لأول مرة سلع بغداد، من السوق في حائل: رجال موقق لم يعودوا يشعلون الغلايين بالصوان والفولاذ، بل بولاعة Zundholzer الفييناوية [من فيينا] المنتشرة على نطاق العالم، كنا في العالم مرة أخرى! كانت صالة القهوة، المبنية بطريقة بدائية، عاتمة وأقل نظافة من أن تكون مضافة؛ الأرضية الترابية حيث جلسنا كانت مفروشة بنوى التمر القديمة من الخدمة المقدمة للضيوف اليوميين. كان القرويون ذوي مزاج لطيف، وكانوا يسلون أنفسهم بالتحادث مع الغريب، بقدر ما يمكن لكياستهم المحدودة أن تمتد، عن البلدان والأديان القديمة، فقط كانوا يوحون أن الوثنيين لا يزالون يقاومون الحقيقة، وبالأخص النصارى، الذين فيهم نبع من الفنون، والتعلم والعلم. كانوا يوصلون إليَّ من حين إلى آخر غليوناتهم المسالمة. فكرت في ذروة التعب بطعم تبغهم الأخضر المر، ذي الحلاوة التي لا تضاهى، وكان ثمة استرخاء مريح في تلك الأصوات المدنية وبعد الخباثة البرية لألسنة [بني قبيلة] بِشْر. سألني شاب، هل يمكنني أن أقرأ؟ هل لدي كتب؟ كان من موقق، وأستاذهم. وضعت في يده كتاب جغرافيا باللغة العربية كتبه مبشر أمريكي مثقف من بيروت. تمعن الشاب فيه وثبت نظره فوقه في الحجرة المعتمة، بمثل هذا التعلق الظمآن بالآداب، كتلك التي نضجت في بلاد أكثر سعادة في حقول المعرفة الكبيرة: وهو يغلق الكتاب أخيراً، عندما كانت الشمس تهبط نحو المغيب وضعه على رأسه كعلامة على مدى تقديره العالي له، إنها إيماءة شرقية لم أرها مرة أخرى في الجزيرة العربية، حيث يوجد القليل جداً من الكتب (إن لم ينعدم تماماً) عن «الاستشراق». سألني «هل يمكنه أن يشتري الكتاب؟ (ولأنني قلت لا) هل يمكنه أن يأخذه إلى البيت فيما بعد ليقرأه في الليل؟» فلبيت طلبه هذا.

دخل رجل داكن البشرة طويل القامة إلى القهوة، ورأيت أنه غريب من الشمال ذو مشية مغرورة، ولباس جيد جداً. حيّا الجماعة ببرود، وجلس: لقد وصل من قفار حيث كان قد انطلق هذا الصباح. وُضع التمر أمامه، وكان يتلفت حواليه عندما تذكر واحداً أو اثنين جالسين هنا، كان قد التقى بهما في السنوات

السابقة، حياهما وهو ينهض بوقار، قبلهما وسأل عن أحوالهما. كان شمرياً من العراق؛ كانت ديرته البدوية تقع على بعد 250 ميلاً من هنا. كان ينظر إليَّ طويلاً وبحسد، عندما جلست مع منديلي المردود إلى الوراء في الحر، ثم سأل، «من هو؟ - ايه! نصراني، قل! وكنت أعرف ذلك: هذا واحد، يا لهؤلاء الناس، لديه مشروع خطير، ولا يمكنك أن تعرف ما هو؛ هذا واحد من أمة الفرنجة!» فأجبت، «إنه من المعروف لكل من يجلس هنا، أنني إنكليزي، وهل علي أن أخجل من ذلك؟ أي رجل أنت، ولماذا أنت في هذه الأصقاع؟» «أنا في حائل لأجل شؤون الأمير!» - والله، قال، ملتفتاً إلى الجماعة، لا يمكن أن يكون سوى جاسوس، جاء ليفتش البلاد! قل لي ماذا يشاع عن هذا الرجل؟ إذا كان يسأل الأعراب، وهل يكتب أجوبتهم؟ - قال قروي، «منذ سنوات قبل أن يكون أحد هنا، جاء غريب كان يسمي نفسه مسلماً، لكنه استطاع أن يحزر أنه مثل خليل هذا، وقد كتب عن كل من استجوبهم».

تابع القرويون الجلوس باهتمام قليل بحديث نصر (كان أيضاً اسمه)، ماقتين، ربما، النظرات المتغطرسة للرجل الشمالي، وعلاوة على ذلك فقد كانوا مقتنعين جيداً بي. أجابه «الشيخ «إذا كان ثمة أي عيب في خليل، إنه ذاهب إلى حائل، ودعوا الأمير ينظر في ذلك». إن نصر، إذ فهم أن الجماعة لم تكن معه، خفض نظراته العدائية وبدأ الحديث بمودة معي. في المساء استُدعينا للخروج إلى بيت في القرية؛ فوضع أمامنا عشاء كبير، من لحم الغنم المسلوق والتمن، وأكلنا معاً.

أخبرني نصر أن الخيول الشمالية مربوطة في ديرته؛ كان لديه خمس أفراس، مع أنه لم يكن شيخ [قبيلة] وكانت جماله كثيرة؛ لأن بريتهم ليست مثل هذه البلدان الجنوبية القصية، بل كانت مليئة بكرم الله. عندما رآى ملابسي مهترئة وممزقة إذ إنني قد أمضيت حياتي في الخلاء - أمرني أن أذهب وألبس ثياباً أفضل أمام الأمير في حائل، وأن أكون حذراً جداً الا أقدم أي سبب، حتى ولو كلمة، من شأنه أن يفهم خطأ، بين شعب طائش، متهور،

سريع الغضب، وغير معتاد (وهنا تكمن كل مشقة الترحال في الجزيرة العربية) على رؤية غريب. هنا لأول مرة في نجد سمعت النون في نهاية أسماء تلفظ نكرة (غير معرفة)، إنها مثل حلاوة أثينية في اللسان العربي، ولها وقع مبهج للنفس عند السماع الأول، لكنها بالنسبة لهم معرفة طبيعية. اختتم المساء الشديد الحر والرطوبة بعاصفة رعد ومطر؛ كانت هذه هي الأيام الأخيرة من تشرين الأول. في هذه القرية الصغيرة كان يوجد حوالي 150 نسمة.

في الصباح تريثنا لنشرب القهوة المبكرة؛ ومن ثم ونحن نقطع آخر ميل من السهل ذي الصخور الغرانيتية الزرقاء والحمراء، إلى السفوح المنحدرة من أجأ، رأيت أمامنا ممراً في صدع ينفتح عبر منتصف الجبل، بطول ثمانية عشر ميلاً إلى السهل في الخلف؛ هذا المضيق يسمى ريع السلف. الطريق في البداية منحدر ووعر؛ في حوالي الساعة التاسعة مررنا بنبع بارد، كان يتدفق بسرعة من الجرف الصخري فوق! ـ لم أر شلالاً آخر في شبه الجزيرة العربية عديمة المياه. هنا ملأنا قربتينا، وهرع العرب، وهم يتعرون ليغتسلوا؛ فالبدو عند كل فرصة يجدون فيها ماء، يرشرشون الماء مثل عصافير الدوري. ليس بعيداً عنه توجد أسوار ترابية بدائية، من سد قديم، وفي خليج من الجبل يوجد النخيل غير المعتنى به للبدو؛ فقد كان يوجد بعض الفلاحة في الزمن الماضي. في أعلى نقطة من الريع، وجدت أن الارتفاع يبلغ 5,100 قدماً.

كان بدوي فقير قد انضم إلى جماعتنا في السهل، جاء، وهو يسوق حماراً، معنا على طول الطريق، وكان سعيداً عندما ناولته حفنة من تمر تيماء لطعام إفطاره. فيما بعد، عند منعطف صخرة قابلنا ثلاثة من رجال قبيلة شمر الخشنين، قادمين بسرعة شديدة، ومعهم أسلحة في أيديهم، أوقفنا هؤلاء الرجال وبينما كنا نقف، كما يفعل العرب، لسماع وإخبار الأنباء، كانوا ينظرون إليّ مثل الشياطين. إنهم يعرفون، ربما، من بعض الزملاء الأشرار لعسكر، عن مرور النصراني اليوم عن طريق الريع؛ فقد كانوا يفكرون في الإغارة علي. والآن وهم يرون أنفسهم في موقف متكافئ، قالوا للرجل ذي

الحمار، والذي كان رجلاً من قبيلتهم «ارجع أنت ودعنا نقتله!» ـ «لا سمح الله (أجابهم الرجل الفقير)، إنه زميلي!». انفضوا عنا وهم يصرّون بكل أسنانهم بوحشية، «الآن يا خليل! (قال نصر)، هل رأيت؟ ـ وهذا ما أخبرتك به، خطر السفر وحدك عبر بلادهم! هؤلاء الشمر الملاعين، ولو كنا لوحدنا، لانقضوا عليك» ـ «ألم نذق ضيافتهم في الأيام الأخيرة؟» «حسناً، أقول لك إنهم بشوشون وطيبون مع الضيوف في البيوت، لكن! إذا صادفوا رجلاً منفرداً، خلوياً، في الخلاء، ولم يكن هناك من يرى ذلك، فإنهم سيقتلونه! وهؤلاء قاتلون كما رأينا الآن، متربصون خلف الصخور، ليقضوا على أي شخص يمكن أن يجدوه بدون دفاع».

لا يوجد سوى سلام الأمير ولا يوجد حب بين بشْر وشمر. قبل سنوات ليست كثيرة، حدث شجار مرير على حقوق محطة المياه الأساسية لصحاريهم، بيضا نثيل، قسم هؤلاء الساكنين تقريباً. إن بيضا نثيل هي في تخوم بشر، ولم يكن بمقدورهم أن يتحملوا ذلك بصبر، أن تأتي شمر لتشرب هناك، وفي ذلك كان يدعمهم الأمير طلال. لذلك هجروا حتى ديرتهم الخاصة، وهاجروا نحو الشمر، وتجولوا في براري عشيرتهم عنزة في سوريا، وهناك بقوا سنتين أو ثلاث: لكن، لأنهم كانوا وافدين جدداً في تلك المناطق الغربية، فإن كثيراً من الأعداء المغيرين قد سرقوا ماشيتهم؛ ـ وعاد البشْر إلى بلدهم وإلى الأمير.

في وسط الريع يتراجع جبل الغرانيت على الجهة الشمالية وتوجد قبب واطئة من البازلت الجوفي، تشبه مخاريط البراكين. سمعنا هناك جلبة حصان يعدو وراءنا، وصوت جرجرة كبيرة لحوافر الجمال فوق الصخور الرملية، كان حشداً فالتاً من الأجلاب أو الجمال «المجلوبة»، إنه قطيع سمسار إبل. كان تجار الماشية يذهبون لبيعها «في جبل شمر». كان رجال القبيلة هؤلاء بشْريين (من بشر)، وفي رفقتهم انتهت مخاوفنا. صاح بي غلام يسوق الإبل، أليس معك بعض الكعك (كعك دمشق) لتعطيني؟ فأنا في كل المسير والركض هذا اليوم لم أذق شيئاً، كان ذلك في وقت متأخر من العصر، عندما تقدمنا،

وعندما نظرت إلى الأسفل فوق سهل قفار، كانت خضرة نخيل الواحة تمتد قليلاً أمامنا. كانت الشمس تغرب، وأراني نصر الجبل البازلتي ذا القرنين، سَمرا حائل، الذي ينتصب على مسافة قليلة خلف القرية العاصمة، على الجهة الشمالية. إن قفار، تُكتب كفار، وعلى لسان البدو جيفار، تقبع مثل موقق، ومحاطة ببستان يسورها من الصحراء. في السهل قبل البلدة، قرأت الارتفاع 4,300 قدم، دخلنا من طريق خالٍ عريض، بين سورين طويلين، حيث لم نشاهد أحداً، ولا بيوت في المكان. كان وقت الغروب، عندما يدخل القرويون العرب ليتناولوا عشاءهم. هناك لم يلاقنا سوى امرأة، كريهة للنظر إليها! لأن الوجه الأنثوي كان محجوباً بالخمار القذر؛ في أنظارنا، إنها نذالة آسيوية وثنية[1]! والعرق العربي النبيل الدم يصبح فظاً في مسألة الحريم.

بداية في قفار، فوجوه نسائهم، التي خلقها الله لأجل بهجة العالم البشري، يجري تحويلها إلى هذا الرعب الغيور؛ ولا يُشاهد شيء من زوجاتهم المحجبات بالأثواب الكئيبة، سوى اليدين! ترجلنا قرب مسجد في المُناخ، أو مكان إناخة إبل الضيوف، حيث ينزل كل المسافرين ويُستقبلون على العشاء: المهمة العامة العلنية من أجل الضيافة هي هنا (على الطريقة الشائعة) كبيرة جداً، لأنه، حسب التقليد العربي، ينطلق الرحالة عند العصر، وأولئك الذي يسافرون من حائل في اتجاه الجنوب يمرّون فقط بتلك المرحلة القصيرة الأولى، النوم في قفار.

بوصولنا مع تجار الماشية، دُعينا معاً لنتعشى من تمرهم الهزيل الحرشفي والماء؛ إن التمر، حتى أفضله، لا يُحسب طعام مساء ليوضع أمام الغرباء. قدم الرجل الذي خدمنا اعتذاراته، قائلاً إن رب المنزل في حائل. إن مواطني قفار، بني تميم، الذين لا يُمدحون من أجل الضيافة، سرعان ما وجدناهم في حائل التي تقطنها شمر. بدأ نصر، رفيقي، الذي ظهر نفسه أكثر قابلية للتعامل معه منذ رحيل الآخرين، بعدئذٍ بلوم المارة في الشارع لأن أحداً

---

(1) بل هي موتة الغيرة في نفس الغربي.

منهم لم يدعني إلى القهوة والنوم في بيوتهم، قائلاً، «هل سيتركون شخصاً محترماً ينام في الطرقات المكشوفة!» قدم نصر التبن من مخزن العلف الجاف بالتساوي إلى ذلوله وناقتي البائسة؛ ثم صنع عجينة من جريش الشعير الذي اشتريته في موقق وجعله مع التمر، وأطعم دابتي المنهكة وهو يقحم هذه العجينة في فمها بملء يده، هناك استلقى قرب ماشيتنا، ليمضي هذه الليلة المتلألئة النجوم، في غبار شارع قريتهم.

ركبنا عند انبلاج الفجر، فنصر سيكون في حائل في الوقت المناسب للذهاب إلى الفطور في المضيف، مع عسكر ورفاقه. استغربت لرؤية أن ذاك الجانب من بلدة قفار، باتجاه حائل، كان خرباً، وأن أراضي البساتين المثمرة فيما مضى كانت مثل أرض الصحراء الخاوية، ـ وسيقان النباتات الطويلة التي لا تزال منتصبة في صفوفها، من النخيل الذابل واليابس. مررنا راكبين بالمتاهات الكهفية من البناء الطيني تحت جدران البيوت المهدمة التي سُحب خشبها، وفوق المسارات المغمورة لجمال الجر، حيث كانت آبارهم تقبع مهجورة آنذاك. عندما سألت، «ما هذا؟» أجاب نصر «بيلد مات» «مكان ميت». كان القرويون قد اندثروا، مثلما مات أهل موقق، بطاعون أتى عليهم قبل سبع سنوات. في هذا الوقت كانت آبارهم المردومة يجب أن تُحفر في هذه المستوطنة إلى أكثر من خمس وعشرين قامة. إن مالكي الأرض، بعد الطاعون، قد افتقروا إلى القدرة على العمل، وقد انكفأوا إلى واحتهم الداخلية.

خلف أسوار بساتين قفار يوجد ذاك القحط الشديد للسهل الصحراوي (المحل) الذي يمتد قبل حائل؛ فالتراب، وهو رملي غرانيتي حاد الزوايا، ينفرش بين جبلي أجأ وسلمى المقفرين، القاحلين مثل شاطئ البحر وعديمي الحياة مثل غبار شوارعنا؛ ومع ذلك ثمة مزارع صغيرة (دساكر) وقرى، على عروق من الماء الجوفي. إنها أرض جبلية حيث يكاد لا ينمو فيها شيء من تلقاء ذاته، لكن إذا رويت فإنها تنتج الشعير والقمح وحبوب نجد الأخرى.

رغم أن نخيلهم ينمو عالياً فإنه لا يحمل سوى أنواع صغيرة وحريفة الطعم، وبالتالي أقل صحية، من بلح التمر. لقد وجدنا بالكاد ورقة أو أكمة زيادة على نبات السنامكي، الذي يزهر بأزهار صفراء تشبه حبة البازلاء. لا بد أن الماعز القليل للبلدة قد سيق بعيداً تحت ساحل أجأ ليجد المرعى. بعد ساعتين قال نصر «حائل أبعد قليلاً، نحن هنا في منتصف المسافة؛ فالنساء والأولاد يذهبون بين حائل وقفار قبل تناولهم الفطور (الظهر)». لهذا فإن الطريق قد يبلغ أحد عشر ميلاً تقريباً. كانت حائل لا تزال مخفية بحافة الصحراء، - في كل مكان كان الأفق يبدو لي قريباً جداً في الجزيرة العربية البدوية. بين هاتين البلدتين يوجد درب مطروق؛ وعندئذٍ كنا نلتقي بالخارجين من حائل. كانوا حريماً وأولاداً يسيرون على الأقدام، وبعض الرجال الراكبين على الحمير: «ها! (قال رجل، ثم آخر، وآخر، لنصر) لماذا تجلبه؟» - هكذا عرفت أن خبر مجيء النصراني قد نشر في حائل! ونصر الذي سمع كلماتهم بدأ يصبح مشدوهاً. «ماذا، قال، إذا كان يتعين أن يقطع رأسه!» - «خليل، أين كيس التبغ؟ وناولني ذلك الغليون، لأنه بالله رأسي يفتل». كنا قد ابتعدنا ميلاً، عندما لمحت خيالين يرهوان نحونا وسط غبار شديد. بدأت أتأمل، هل كان هذان الراكبان الهائجان هما بعض الرسل الفظين للأمير، يطاردانني من حائل - كان اسم نصراني مع ذلك لعنة في هذا البلد، وحتى بين البدو يقول رجل لآخر، «هل تظنني نصرانياً! حتى أقوم بمثل هذا الشيء [الشرير]». - قبلئذٍ كان الفارسان في أعقابنا، وكما لا يمكن سوى لراكبي الأحصنة العربية المتوسطة، فقد توقفا فجأة جنباً إلى جنب معنا، وعباءتاهما تطيران أمامهما في الهواء الساكن، وصاح أحدهما بصوت أجش لنصر (الذي لم يجب بشيء، لأنه كان مرعوباً)، «لمن كل تلك الحقائب، ها؟» - هكذا تابعا سيرهما مبتعدين عنا كما من قبل؛ جلست مبتئساً على ناقتي ومرهقاً، ولم أتبين من كانا.

الوصول إلى حائل: مقابلة الأمير

رأينا فيما بعد بناية عالية ذات أبراج قتالية. هذه البريجات النجدية الفخمة والمبنية جيداً من الآجر الصلصالي هي ذات شكل يشبه مناراتنا؛ وكما قال نصر، الذي لم يذهب إلى حائل منذ عهد طلال، «ذاك هو المقر الصيفي للأمير» عندما اقتربنا من حائل رأيت أن الجدران تمتد نحو الخلف، جاعلة من البلدة سياجاً ضخماً من النخيل. على يميننا رأيت بستاناً طويلاً من النخيل في الصحراء، مغلقاً بجدران عالية؛ على اليسار يقع امتداد آخر أكثر قفراً وأكبر حجماً زرعه عبيد من أجل ميراث أولاده. والآن كان يبدو كأنه معلق فوق البلدة، البرج المحصن المبيّض للقصر، هذه الأبنية الصلصالية يبيضونها بالجص. مررنا راكبين بذاك المقر الصيفي الذي ينتصب عند جانب الطريق؛ في البرج، كما يقولون، تُنصب قطعة صغيرة من المدفعية. أسفل جدار البيت الصيفي توجد قناة جديدة يجري عن طريقها ماء السقاية إلى خزان عام، وتأتي نساء البلدة إلى هنا لجلب الماء. هذا الذي يسمونه ماء السماء، يعتبر أفضل ماء في البلدة، فمن كل آبارهم الأخرى يصعد الماء ذو طعم الفلزات المالحة والمرة، «الذي يسبب الحمى (مع أنها ليست طفيفة). ترجلنا، وبناءً على طلبي أنزلت امرأة قدر الماء (المعدني) الكبير عن رأسها لتعطينا كي نشرب. تكلم نصر إلي ألا أركب من جديد؛ قال إن علينا أن نعبر بعض الممرات الواطئة. لم يكن ذلك سوى خداع من البدوي الهمجي، الذي بدا بخصلات شعره الطويلة المتلبدة مستذئباً أكثر من كونه رجلاً. إنهم

يخشون أن ينتقص من قدرهم بسبب كلمة، وحتى أن يُعاملوا بخشونة في البلدة؛ لذلك فقد كان حريصاً على ألا يُدخل النصراني راكباً بالارتفاع المغرور لجمله.

تابعت السير عن طريق الشارع الخارجي القصير، وجئت إلى المدخل البدائي ذي المصراعين (الذي يغلق ليلاً) لسوق حائل. هناك رأيت وجه أحد المعارف القدماء ينتظرني، عبد العزيز، إنه هو الذي يتولى قيادة فرس ابن رشيد، الذي مرّ عليه الآن اثنا عشر شهراً، إلى القلعة في بلاد الحجر. حييته، وحياني، وهو يسأل بلطف عن صحتي، ودعاني إلى الدخول. مضى أمامي، عن طريق آخر، لجلب أخبار الأمير، وتابعت المرور، وأنا أمشي عبر السوق العامة، المليئة بالتجار والبدو في هذه الساعة، ورأيت الكثيرين في الحوانيت العربية المظلمة الصغيرة، المشغولين بالشراء والبيع. حيثما جئنا مررنا بحشد من الرجال والجمال، كان الناس بالكاد يلاحظون الغريب، لم يلتفت سوى البعض للنظر إلينا. بعد ذلك بقليل خرج تاجر يلبس ثياباً جيدة، ذو لحية ذات لون زعفراني، أخذني بالطريقة العربية من يدي، وقادني بضع خطوات نحو الأمام، فقط ليسأل بحذر عن الغريب «من أين أتيت؟» تشاهد لحى زغفرانية قليلة في حائل: في سنواته الأخيرة كان عبيد بن رشيد قد حوّل شعره الرمادي إلى لحية زعفرانية. إنها الطريقة الفارسية، ويمكن أن أضيف ذلك إلى حظي الجيد، كوني مسافراً من اللون الإنكليزي، في الجزيرة العربية، الرجال الموسرون يصبغون عيونهم بالكحل، ومن هؤلاء العرب الذين يشبهون الطير، فإن جنس الذكور هو الذي يتأنق ويتزين. قرب نهاية السوق يوجد سوق الحبوب، حيث تباع حمولات جمال من الحطب، والأعشاب والحشائش البرية. إلى الأسفل رأيت بائعات محجبات تحت رواق ومعهن سلال حيث يجلسن يومياً منذ شروق الشمس ليبعن التمر والقرع؛ وبعضهن يبعن الحلي الرخيصة من الشمال، لأجل الحريم.

دخلنا إلى المكان العام المربع الطويل، المسحب الذي يقع قبل القلعة،

القصر. تحت الرواق التالي، الذي هو ملجأ لأجل المسافرين البدو الفقراء، أناخ نصر جملي على عجل، وهو ينزل الحقائب، وانصرف عني؛ كان البدوي البائس خائفاً. سألني عبد العزيز، الآتي مرة أخرى من القصر ليستفسر مرة أخرى عن صحتي. بدا أنه يتمنى للغريب خيراً، لكنه في ذلك يخشى الملامة، ألم يكن هو أيضاً قد شجع قدومي إلى هنا؟ تركني ودخل بوابة القصر، ليتكلم من جديد مع الأمير. كان عبد العزيز، في استراحة رجل مهم، كان جباناً وبخيلاً، فغاية الحياة بالنسبة إليهم جميعاً هي إحداث أقل إزعاج. فقد كان خادماً للأمير. يخصص له مقعد عام معين، تحت القهوة الخاصة للأمير على المسحب، حيث يجلس في حاشية مع رفاقه في كل مجلس. لم يكن الناس في الحي قد لاحظوا النصراني بعد، فتابعت الجلوس ثلاثة أرباع الساعة، في وسط حائل؛ في أثناء ذلك ربما كانوا يناقشون حياتي داخل تلك الجدران الترابية للقلعة. فكرت أن الفضول والجشع العربيين سوف يؤمنان لي فترة من الراحة، على الأقل كنت آمل أن أجد شخصاً ينجدني من ألم الجوع ويدعوني إلى الفطور.

في الطرف الآخر من المسحب كان ثمة قطعان من الجمال المناخة؛ كانت الجمال لجماعات البدو الذين يصلون يومياً، ليعالجوا أمورهم مع الأمير. تجمع حولي بعض البدو آنذاك الذين دهشوا لرؤية الغريب يجلس تحت هذا الرواق. رأيت أيضاً شخصاً معيناً خرج من بوابة القصر تحت برج صلصالي، بمظهر أنيق جيد، يمشي على عكازة منصبه، واقترب مني. كان هذا هو مفرج أو رجل المضيف[1]، أو القيّم على مضافة الأمير، وهو أجنبي، مثل الكثيرين في حائل الذين يخدمون الأمير. كانت بلدته هي عنيزة في قصيم (التي هجرها على أثر محنة رهيبة، ترِوى فيما بعد). جاء القيّم الوسيم ليدعو الغريب إلى الفطور؛ لكنه قادني أولاً وناقتي من خلال المسحب، وخصص لي مكاناً للإقامة، هو الأخير في صف من حجيرات الضيوف، **المخازن**، التي

---

(1) رجل المضيف: مدير التشريفات.

تكون في جانب طويل من هذا المكان العمومي أمام القصر: ثم أدخلني عن طريق بوابة القلعة، إلى قاعة القهوة الكبيرة، التي هي قاعة الضيوف، وخدمة الأمير في القلعة _ في هذه الساعة بعد وقت طويل من تناول الجميع لطعام الفطور وانصرافهم ـ كانت خالية، لكنهم أرسلوا في طلب مقدم القهوة. أعجبت بالأبعاد النبيلة لهذه القاعة الصلصالية، كما أعجبت من قبل بالقصر الهائل؛ الأسوار الشامخة، المطلية بمهارة بالمغرة والجص، وصف الأعمدة الطويلة، التي كانت في المنتصف تدعم السقف المفلطح البسيط، من خشب الاثل وحصيرة سعف النخيل، المطلي بشكل جميل والمورنش بدخان الضيافة اليومية. تحت الجدران توجد مقاعد من الصلصال مفروشة بالسجاد البغدادي. عند المدخل ينتصب حوض كبير مطلي بالقصدير والنحاس أو «بحرة» الماء، مع كوب مربوط بسلسلة (يعاد ملؤه يومياً من قبل حريم المطبخ العمومي من ماء السماء)؛ من هناك ينهل مقدم القهوة، ويشرب من يكون عطشاناً. في الطرف العلوي من هذه القهوة الأميرية يوجد موقدان، مثل قبرين ضحلين، حيث تحرق أدغال الصحراء في الطقس الأبرد؛ إنهم يفتقرون إلى الوقود الجيد، وتضرم النار عموماً تحت قدور القهوة العملاقة في موقد صلصالي مثل فرن الحداد؛ استدعاني مفرج في الحال للخروج إلى قاعة الضيوف، المضيف؛ يجعل بيت الضيوف هذا ضمن أبنية القصر، فناءً مربعاً محاطاً بأروقة معمدة، وعلى الأروقة توجد قاعة. يمرّ الضيوف بمدفعية الأمير، التي هي عبارة عن خمس أو ست قطع صغيرة من المدافع؛ الحديد عتيق، الخشب خرب.

يأكل البدو في الأسفل، أما الشيوخ الهامون وأصحابهم فيأكلون في الصالات؛ قادني مفرج إلى الطابق العلوي، إلى مكان مفروش بسجادة مبقعة بنوى التمر القديمة. هنا جلستُ وقُدم لي التمر، ـ أسوأ تمر في عالمهم الصحراوي في طبق دائم معدني، ذي طبقة سميكة من الغبار الشحمي؛ تركوني لكي آكل، لكنني مع ذلك اخترت أن أصوم. هكذا هي بهجة الصباح للحاكم العربي بالنسبة لضيوفهم ـ إنهم بدو ـ وخلافاً للنظافة الصحراوية لمعظم القرى

العربية، حيث يوجد الماء الكافي. حتى استدعوني بعيداً، بقيت أتمشى في الصالات، حيث كانت ترفرف حمامات منزلية بيضاء صغيرة من العراق، وكانت أليفة للغاية إلى درجة أنني أخذتها بيدي. وجدت أن هذه الصالات ذات الأرض الطينية يبلغ طولها ثمانون قدماً؛ إنها محمولة على خمسة أعمدة مدورة ذات تيجان بدائية من ناب الفرش. لدى ظهور مفرج مرة أخرى عدنا إلى المضيف حيث كانت القهوة جاهزة. دخل شاب في الحال يتألق بالملابس الحريرية، وبدأ يسألني. هذا العربي كان سكرتير الأمير، كانت كلماته القليلة تنم عن احتقار: «أقول، ايه! ماذا أنت؟ - من أين تنحدر، ولماذا أتيت؟» أجبت على الطريقة البدوية «يا ولد، لا أستطيع أن أجيب إلا على سؤال واحد دفعة واحدة، دعني أسمع ما هو سؤالك الأول» أظهر قليلاً من الحياء، للكلام المتحرر لرجل فقير، فهمس لي صوت صديق، «عامله باحترام أكثر، لأن هذا هو نصر». هكذا قال نصر، انهض! الأمير يطلبك. وخرجنا باتجاه جناح الأمير.

هناك تُقام صالة طويلة تحت بدن القصر الصلصالي، بعد الجدار الخارجي على المسحب؛ مررنا بذلك، وفي المنتصف يوجد باب مصفح بالحديد، يحرسه عبد شاب من الداخل؛ وهناك طرقنا الباب. ينفتح الباب على فناء داخلي صغير، حيث يجلس قليل من جنود الأمير القائمين على حراسته؛ في جهة الجنوب توجد حجرته. مررنا عبرها ودخلنا من باب حجرته المفتوحة في ضوء خافت، لأن نوافذها ليست سوى نوافذ بابية إلى الجو، ولا تشاهد ألواح واجهات زجاجية في كل نجد. الحاكم محمد - الابن الأصغر لعبد الله بن رشيد، أول أمير لشمر، والأمير الرابع منذ أبيه - كان نصف مستلقٍ على طوله مستنداً على مرفقه، مع المساند تحته، بجانب موقدته حيث كانت تشتعل نار الأغصان الصحراوية أمامه. حييته بعبارة «السلام عليك»؛ فرفع اليد اليمنى إلى رأسه، بالطريقة التي تشاهدها في البلدان الحدودية، لكنه لم يرد عليّ؛ - إن رأيهم العدائي أن لا أحد من خارج الدين المنجي يجوز له أن ينطق بكلمة سلام الله! كان يربي خصلات الشعر المجدولة الطويلة التي يمتدح

بسبب جمالها في الصحراء بوصفه «شاباً أنيقاً» بشرته سمراء مصفرة أكثر من المألوف، وحتى مائلة إلى الصفرة؛ هزيل اللحم غائر الخدين مثل النجديين، متوسط القامة، له سحنة نجدية مسطحة قليلاً، ونظرات محمد الطيرية مثل نظرات شخص نجا من أمراض العالم الكثيرة،ـ وما هي الأرجحية الموجودة سابقاً في أنه سيكون الأمير؟ «اجلس» قال لي. إن محمداً، الذي كان في ظل الأمير السابق مرشد الحج الفارسي، كان قد زار مدن بلاد ما بين النهرين، ورأى عادات الدولة ـ قادني رئيس الحرس إلى مقعد الغرباء. في منتصف سجادة طويلة فرشت تحت الجدار الصلصالي بين مكاني والأمير، جلس بعض الأشخاص المتكئين على الوسائد؛ لقد كان، كما سمعت، قريباً لابن رشيد، عجوزاً مبجلاً وذا محيا لطيف. سألني الأمير: «من أين تنحدر، وما هو الغرض من رحلتك؟».

«أنا واصل من تيماء والحِجْر، جئت من سوريا لزيارة مدائن صالح». «رجل صدوق، والله! رجل ثقة هتف الشيخ العجوز. هذا ليس مثله من جاء إلى هنا، أنت لا تتذكر محمد في تلك السنة، لكن واحداً أخبرنا كل تلك الأشياء بصراحة».

الأمير: «والآن من تيماء، حسناً! وماذا رأيت في تيماء ـ أي شيء؟».

«تيماء مكان مبهج من النخيل في جو جيد»ـ «اسمك؟».

خليل، «ها! وقد كنت مع البدو، أي يا خليل، ما رأيك بالبدو؟» لا يوجد أحد جيد من البدو».

ـ «مع أي بدو كنت؟ ـ الفوكارة[1]، المواهيب، السهامة بعد الحرة» ـ «وما هو رأيك بالفجير، وبشيخهم؟ مطلق، أليس هو جيداً؟»

ـ «الفوكارة لا يختلفون عن اسمهم، جيرانهم يسمونهم يهود خيبر».

(1) الفقراء: عشيرة من عشائر ولد سليمان من عنزة.

التقط الأمير كلماتي نصف مستغرب ومبتسم، (كما يفعل العرب) وكررها على الحاضرين: «يقول إنهم يهود خيبر![*] وحسناً، يا خليل، كيف تعامل العرب معك؟ هل حلبوا من أجلك، هل أظهروا لك حسن ضيافتهم؟»

- «حليبهم قليل جداً لأنفسهم».

تفكر الأمير وأطرق نظره، لأنه كان قد سمع أنني تجولت مع البدو لأشرب حليب النوق.

«ها! والمواهيب، سألني، هل هم جيدون؟ والطُلق كانوا عدواً قديماً لهم أو «متمرداً عليهم».

«كان الرجل جيداً جداً بالنسبة لي، أظن أنه شخص بدوي محترم».

ورداً على ذلك قال، هم! والسهامة، من هو شيخهم؟»

- «محمد وفضيل».

- «وكم بيتاً هم؟».

ثم قال: «هل لديك أي شيء (للبيع)؟ وما هي مهنتك؟».

- «معي أدوية، أنا حكيم».

- «أية أدوية؟ كنكينا (الكينا)؟».

- «لدي من هذه أفضل الأنواع».

- «وماذا غير ذلك؟».

- «لدي هذا وذاك لكن الأسماء كثيرة؛ كذلك لدي بعض التشاي (الشاي) الجيد جداً، سوف أقدمه لك، أيها الأمير!».

(*) هذا كلام لا يمت إلى الحقيقة بشيء وهو نوع من التنابز بين القبائل راجع بهذا الخصوص كتاب البدو ج1 وج2 اوبنهايم الصادر عن شركتنا الوراق - (ماجد شبر).

ـ لدينا تشاي هنا، من بغداد؛ لا، لا، لدينا ما يكفي».

فيما بعد قيل لي، في مكان آخر، ـ «ما كان ليقبل شايك، مع أنه لم يكن جيداً للغاية أبداً: ابن رشيد لا يأكل أو يشرب من شيء ليس محضراً لأجله من قبل عبده الخاص؛ إنه يعيش في خوف دائم من أن يُسمم».

قال الأمير: «حسناً، ما هي الأمراض التي تشفيها؟ ألا يمكنك أن تشفي المجنون؟» (الذي أصابه الجان، في عقله): ـ «الأمير لديه بعض أبناء العمومة المصابون في عائلة عبدة، وفي قلبه قد تكون الذكرى المحزنة لأخيه طلال. أجبت: «المجنون هو مجنون، المجنون بطبيعته هو مجنون فعلاً». ردد الأمير هذه الحكمة من بعدي، وهو يوافق برأسه بوقار، قال للحاضرين، هو صادق، لقد قال الحقيقة! أجابه بعض رجال الحاشية في طريق، «لكن ثمة طريقة في هذا أيضاً» يعتقد العرب أن ثمة طريق، إذا تمكن إنسان من إيجاده، طريقة ممنوحة من الله، للوصول إلى أية غاية يريدها.

ـ «وأخبرني، وأية وحوش رأيت في البرية؟».

ـ «الأرانب والغزلان، أنا لست صياداً».

ـ «هل لحم الأرنب ليس حلالاً! ـ هل تأكله؟».

قلت، ثمة وحش غريب في براري الشرارات، يسمونه الثور البري أو «الوضيحي» ولدي بعض قرونه من تيماء».

ـ «ألم تشاهد «الوضيحي»؟ لدينا واحد منها هنا، وسوف نريك إياه». أخيراً قال: «ألا تشرب «الدخان»؟ إن تعاطي التبغ، لم يُشاهد بعد في شوارع نجد بل مسموح داخل الأبواب، يعتقدون أنه غير لائق لدى الأشخاص الذين لهم وقار ودين أكثر مما لدى الناس العاديين. كان محمد نفسه وابن عمه حمود سابقاً مشاركين في تعاطي الغليون؛ لكن بحسب التخمين، فقد تخليا عن سلوانهما إلى الحميدي العطري. قال الأمير: «هكذا إذاً فأنت مسيحي» ـ تلك كانت كلمة كريمة! فهو لم يعد ينادني بالاسم التأنيبي نصراني؛

كذلك فإن الأمير، كما يقولون، «لديه امرأة مسيحية بين زوجاته» - النصارى ذوو اللسان العربي في أراضي الحدود الكبيرة يسمون أنفسهم مسيحيون.

طلب من نصر أن يقرأ في كتاب تاريخي كبير على الرف، مجلد بالأحمر عنوانه (أخبار الدول وآثار الأول من التاريخ)[1]، ما كتب فيه عن النبي عيسى ابن مريم؛ فقرأه، السكرتير بصوت عالٍ. يحكي لنا المؤلف المحمدي عن شخص ولون وصفات يسوع، «ابن العذراء البشرية»؛ وأسلوب حياته النبوية، كيف كان يسير مع مريديه في أرض إسرائيل، وكان من عادته أن ينام في المكان الذي تغرب عليه الشمس فيه. كان الأمير يصغي بتجهم إلى هذه الحكاية، وبنفاد صبر - «حسناً، حسناً! لكن ما الذي دفعك (قال) إلى القيام بمثل هذه الرحلة؟» فرددت فجأة؛ «العلوم! العلوم الإنسانية»؛ لكن معنى هذا الاسم في صيغة الجمع هو، في نجد وفي الكلام البدوي، الأخبار. فأجاب الحاكم على الفور «وهل من أجل هذا جئت إلى هنا!» كان من الصعب أن أبيّن له ما كنت أقصده بالعلوم، لأن ليس لديهم أية خبرة بالطرق المعزولة هكذا عن الأعمال الشفهية الشائعة للجنس البشري. عندئذٍ قال، «وهذه اللغة، ألم تتعلمها بين البدو، هل تقرأ العربي؟» - أمر نصر بجلب الكتاب، ووضعه في يدي خليل. نهض محمد من مكانه، يقال إنه يقرأ جيداً بالحروف العربية، وشاعر لطيف مع ذلك، في تسيير الشؤون الراهنة للدولة، إنه أيضاً مشغول الذهن أكثر مما ينبغي ليمضي فترة أطول في التمرن في التعلم عديم الجدوى؛ - وبالفضول شبه الطفولي النافد الصبر للعرب، أقبل الأمير ابن رشيد نفسه وجلس بقربي. «أين سأقرأ؟».

- «ابدأ في أي مكان منفصل، هناك!» وأشار بإصبعه. هكذا قرأت في المكان «الملك (أي ملك) ذبح كل إخوته وأقربائه» لقد كان شيطاناً هو من وقعت عليه في هذا الكتاب الدموي؛ تأثر الأمير بشكل ملحوظ! وبالشعور السريع للعرب، عرفت أنني قد اعتبرته إنساناً قاتلاً: «ليس هناك! قال بسرعة، بل اقرأ هنا! - من هذا الفصل فوق» (وهو ينقر المكان بإصبعه)؛ هكذا قرأت

(1) تأليف أحمد بن يوسف القرماني.

مرة أخرى مقطعاً ما. قال الأمير: «ها، حسناً! أرى أنك تعرف القراءة قليلاً»، وهكذا وهو ينهض مضى إلى مكانه مرة أخرى. بعدئذٍ قال، «وإلى أين ستذهب الآن؟».

- «إلى بغداد».

- «جيد جداً، سنرسلك إلى بغداد».

وبهذه الكلمة نهض وانطلق مع الذين من حوله إلى بستان النخيل، حيث سوف يريني البقر البري.

جاء نصر بعدئذٍ بمغلف رسائل في يده، وطلب مني أن أقرأ العنوان حسناً، قلت، هذه ليست عربية! «أي، ولذلك نطلب منك أن تقرأها».

- «ممن أخذت هذه الرسالة؟».

- «من نصراني، جاء من حوران إلى هنا، وهذه أخذناها منه».

على الختم كتب بالحروف اليونانية بطريركية دمشق، والشعار من حولها كان باللاتينية: **اخرجوا في كل العالم وبشروا بهذا الإنجيل لكل مخلوق**. انكبوا إلى الأمام ليرتدوا صنادلهم، وانتظروا لحظة لسماع ردي؛ وعندما تلوت بصوت عالٍ ما معناه **اخرجوا في كل العالم**. .... قال الشيخ الموقر بتقوى للأمير: «محمد، هل تسمع هذا؟ - وهي كلمات المسيح!».

كل من كانوا في حجرته آنذاك لحقوا بالأمير إلى الخارج؛ فهؤلاء هم أصدقاؤه المتوددون وحاشيته. بالإضافة إلى الشيخ العجوز، رئيس الحرس، ونصر، لم يكن ثمة أي رجل ذو محيا طيب بينهم. إنهم من القصر ورجال الأمير يرتدون زي المدينة، لكنهم يسيرون بدون حزام. بدا لي محمد الأمير، عندما دخلنا إلى الضوء، مثل بدوي ناقص النمو وقاسي الملامح من النوع الفقير؛ لكنه كان يمشي بغطرسة وبنظرات غير مباشرة قلقة إلى حدٍّ ما. عند بئر الري، قرب جدران قلعته، توقف، وهو يريني بيده الناعورة الدائرة الحادة الصوت، سأل فجأة، «هل كنت رأيت مثل هذا الجهاز؟».

ـ كم قامة لديكم هنا؟».

ـ «خمس عشرة». قال بصدق كلمته الأميرية، مع أنني ظننت أنها ليست هكذا،ـ بماذا يمكن أن يفيدهم أن يعتمدوا على الأرض من أعماق كبيرة جداً؟ تابعت المسير مع محمد والشيخ العجوز، إلى أن وصلنا إلى مزرعته، المسوّرة بجدار القصر؛ بدت لي غير مصانة جيداً. تريث الأمير عند نبتة خروع (لم يكن ثمة أخرى في حائل) ليسأل «ما هذا؟» سألني، ما بين السلطة الفاقدة للصبر والفضول الفطري للعرب، عن نباتاته وأشجاره، ـ النخيل والليمون، والكباد [الأترج] السميك القشرة؛ ثم أراني نبتة من عشب التتبيل الممتاز والبامياء والزعتر، وجذوراً منفردة من الأعشاب الأخرى والسَلَطات! كل هذه الأشياء الخضراء لا يأكلونها! هكذا هي الحمية الغذائية لعرب نجد خلافاً للاستعمال الشائع في البلدان الحدودية العربية.

كانت الغزلان تجري في الأراضي المسوّرة الأبعد وقف الأمير وأشار بإصبعه، «هناك (قال) يوجد الوضيحي!» كان ذكراً عمره عام ونصف، ليس أكبر من عنزة بيضاء كبيرة؛ كان يرقد مريضاً تحت شجرة تين. قال الأمير: «لكن انظر هناك، حيث يوجد أفضل، وتلك بقرة».

ـ «تراجع إلى الوراء خوفاً من قرونها ـ قال أفراد الحاشية من حولي ـ لا تقترب منها».

خرج أحدهم بباقة من أماليد التمر إلى الدابة الخطيرة، وأطعمها؛ كان قرناها مثل القضبان الحادة، مرفوعين إلى الأعلى، أخمن طولهما بسبعة وعشرين إنشاً. رأيتها، على بعد حوالي خمسة ياردات، أصغر من حمار صغير؛ كان جلدها ذا لون رمادي مائل إلى الأصفر الخالص، كان ثمة بروز طفيف قرب جذر عنقها، ولا سنام لها، ذيلها الطويل الأملس ينتهي بباقة. يمكن في الواقع أن نقول عنها إنها «تشبه بقرة صغيرة» لكن هذا المخلوق من مخلوقات البرية عديمة الماء كان ذا شكل جميل جداً، على تلك الرشاقة النارية لأطرافه الجامحة.

«اكتبها! اكتبها، أي صورها!» صاح الأمير. عندما عدنا، تحادث معي بدماثة؛ أخيراً قال: «أين صندلك؟» ما يثير قليلاً من العجب أنك تراني حافياً وثيابي ممزقة؛ منذ عام وأنا مع البدو في الخلاء» ـ هذا ليس خطأ لأنه هكذا كان يسير أنبياء الله» ـ هذا الرجل الموقر كان، كما سمعت، خال الأمير: لقد أظهر لي ذاك المحيا اللطيف والمحسن، الذي يحمله العرب لأولئك الذي يتمنون لهم مغامرة طيبة.

كان الأمير في مزاجه الكحولي، وسلوكه المألوف المتعجرف، يشبه كثيراً شيخاً كبيراً من شيوخ العرب. ففيه توجد علامة من علائم الثراء المعاكسة السابقة، مع علامة ربما على دناءة ذهن طبيعية؛ كان عمر محمد آنذاك «أربعين سنة كاملة»، لكنه كان يبدو أصغر من ذلك، دخلنا مرة أخرى في باحة القصر، حيث يخزن الحطب، وثمة بوابة مغلقة ذات مصراعين على المسحب؛ هنا الطرف الآخر لتلك القاعة تحت القلعة، التي دخلنا عن طريقها. الممر مغلق بباب مصفح بالحديد؛ الصفائح في افتقارها إلى الفنون أي عبارة عن مقالي حديدية شبيهة بالدروع (تنور صاج) تخبز عليه سيدات بيوت البلدة خبزهن المدور. لكن انظر الجزاء العادل للطغاة! فإن أكثر ما يخافونه هو ما يجعل كل البشر خائفين ـ أين تكون راحتهم؟ وهم أحلى الكائنات البشرية ـ لأن ما قد حصلوا عليه من الكثيرين بسلطتهم، يعرفون أن الكثيرين سيطالبون به مرة أخرى! هناك حيث الأمير صرف النصراني، بإيماءة ودودة، وأمر واحداً بمرافقتي إلى بيتي أو مكان إقامتي.

حمود ومحمد. اليوم العمومي. تراب الصحراء

عندما كانت شمس هذا اليوم آيلة إلى الغروب، ناداني مفرج إلى صالة المضيف، حيث وضع أمامي طبق عشاء من لحم الضأن والتمن. لمّا دخلت مرة أخرى إلى قاعة القهوة، ودار الفنجان بدأ التساؤل بين الضيوف البدو وخدم القصر، عن دياتني. عدت مبكراً إلى بيتي، ثم أُستدعيت من قبل خدمه لأرى شخصاً، يسمونه «الشيخ الكبير» سألت، من هو «الشيخ الكبير؟» فأجابوني: «الأمير!» وهكذا جلبوني إلى دار، كانت مجاورة تقريباً، وهذه تدعى قهوة العبيد. قرعوا الباب ففتح عبدٌ الباب. مررنا بمدخل قصير، كانت تفوح منه على نحو بهيج رائحة ماء الورد، إلى ما كان يبدو لناظري المليئتين بالصحراء حجرة مضافة كبيرة. الغرف الشرقية هي حظائر مسيّجة في الهواء الطلق، بدون قطع أثاث نقالة [موبيليا]، وزخرفاتها الوحيدة هي البسط لأجل أماكن الجلوس، التي تُفرش هنا على الجوانب الثلاثة من الطرف العلوي، مع أماكن بوسادات لأجل الأمير وقريبه الأقرب. كل شيء كان من الصلصال. الأرضية هي من الصلصال المدقوق، الجدران الطينية لاحظت أنها ملونة بالمغرة؛ الجالسون هم الأشخاص الرئيسيون للبلدة، شيخ بدوي أو اثنان، ورجال الخدمة الأميرية؛ وكانت الملابس المحلية لهؤلاء العرب الأثرياء تبدو زاهية. كانوا قد ذكروا الأمير! وفي المكان الرئيسي رأيت شخصاً نبيلاً كبيراً نصف مضطجع على مرفقه! لكن ألم أكن قد رأيت الأمير ابن رشيد نفسه هذا الصباح؟ إذا كان بإمكان العوام من العرب أن يروا غريباً مرتبكاً بينهم، فإن ذلك من دواعي سعادتهم اللئيمة.

هذا الشخص كان حمود، الوريث، رغم أنه ليس الابن الأكبر، لأبيه عبيد؛ لأن فهد، الأكبر منه، كان خبلاً، ذا عقل مشوش، لكنه خلافاً له، ذا سلوك جيد ومستقيم؛ كان السيد البائس على الدوام صديقاً لي إلى حدٍّ كبير - إن حمود الأميري قد قيّد نفسه بقَسَم لابن عمه الأمير، بأن يعيش ويموت معه؛ كان أبواهما شقيقين وبما أنه لم يتبق أحد من بيت الأمير، فإن حمود ابن رشيد الذي يلي محمد في السلطة، هو نائبه في البيت، يقاتل إلى جانبه في الميدان، ويحمل لقب الأمير. حمود هو دليل الحاكم في كل الخدمة اليومية والمشورة. أظهر لي ابن عبيد وجهاً بشوشاً، وطلب مني أن أجلس إلى يمينه، وعندما رأى أنني مرهق جداً، طلب مني أن أمدّ رجلي بسهولة، وأن أجلس بدون رسميات.

تكلم حمود بمودّة إلى الغريب النصراني؛ رأيت أنه كان ذا قامة ضخمة مليحة، وعينين ملونتين، وشعر مفروق [كما اعتدنا أن نرى في صور المسيح] ويتدلى إلى الأسفل من المنتصف في ضفائر، وذا لحية صغيرة. إن سحنته هي سحنة رجولية مبهجة، فهو يُداري بشكل مرح تشنجاً طفيفاً في العنق، ويحوله إلى نعمة، فيبدو أنه يميل إلى الأمام. في حديثنا استفسر عن أشياء نصر العجيبة، التلغراف، والزجاج، مم يصنع؟ أيضاً سمعوا أنه في بلادنا المسيحية يوجد قصر من البلور، وباريز (باريس) مدينة مبينة كلها من البلور؛ كذلك ما هو زيت الصخر [النفط]، كان ثمة مصباح ينتصب مشتعلاً به على كرسي أمامهم: إنه يستعمل الآن في بيوت حائل الرئيسية ولديهم قول بأن النفط يصنع من البول البشري. تعجب عندما أخبرتهم أنه يسحب من آبار في العالم الجديد [أمريكا]؛ كان قد سمع عن تلك الدنيا الجديدة، وتساءل في أي ركن تقع، ووراء أي بحر. سألني عن أدويتي، ثم قال، «ملْ عليّ، سوف استفسر منك عن شيء»، همس حمود تحت جنح منديله المعطر، «هل لديك دواء يمكن أن يقوي الرجل؟» فأجبت فوراً، «لا، وحياتك».

- «لا، بحياتي!» كرر، ملتفتاً مرة أخرى وابتسم للحضور، وضحك

بابتهاج «ها! ها!» ـ لأن بعض النفوس المعقدة قد تظن خطأ أنه همس ليسأل عن سم. كذلك فإن ذاك القسم الشائع في الصحراء، «بحياتك» يكون موضع لوم بين هؤلاء النصف وهابيين. قال حمود، بنفس السلوك المبتسم، «هل ترى هنا الفارسين اللذين قابلاك على الطريق؟».

ـ «لا أستطيع أن أميزهما، لأنني كنت في قمة الإعياء»؛ اسأله! «أشار حمود بإصبعه إلى شخص واحد من ذوي اللحى الزعفرانية في حائل، كان يجلس متكئاً على الوسائد، إلى جانبه، باعتباره يليه في التقدير. كان هذا رجلاً متبلد الذهن اسمه سليمان وهو ابن عمه. سألته، «هل هذا أنت؟» لكنه، لم يرد بشيء، بل اكتفى بالابتسام. قال حمود: «انظر جيداً! هل كانا مثلنا؟ ألم نكن نحن الفارسين؟ كان ذلك تنافساً أن تجرب أيهما الأفضل نفساً من بين المهرتين؛ كيف ترى أنت؟ هل خيول الإنكليز أفضل، أم خيولنا العربية النجدية؟» ـ كان حمود ينهض الآن ليذهب كي يرتاح (بيته في قسم آخر)، ونهضنا جميعاً معه. في ذلك البيت ـ يقع قرب البركة العامة التي تُغذي من ري باحة نخيل القهوة ـ يوجد أولاده، وزوجته وأمها، وإخوته الأصغر منه؛ لكنه، بصفته أميراً بالدم، يمتلك سكنى لنفسه (حيث ينام) ضمن بناء القلعة. يرتدي أمراء حائل مثل البدو، لكنهم يكونون نضرين ونظيفين وفي أفضل هندام؛ فالسترة الواسعة الطويلة، هنا في البلدة، تكون مغسولة بيضاء مثل الرداء الكهنوتي، وعلى أكتافهم توجد العباءة العربية من القماش الصوفي البغدادي الأكثر نعومة، أو من القماش الأسود من أوروبا. إنهم يرتدون الحقو على أجسامهم، كما في كل الجزيرة العربية البدوية.

لم أنل سوى إيواء سيىء في حجيرتي الضيقة، المظلمة وغير المكنوسة، أخبروني أن يهودياً أيضاً في أول مجيء له، كان قد أقام طويلاً هناك قبلي! كان يهودياً بغدادياً، وهو الآن مسلم ثري يقطن في حائل ومتزوج، ويزداد ثراء بشكل مستمر ببركة صهر الابن؛ كان الرجل يمتلك بيتاً جيداً في البلدة، ودكاناً في السوق، حيث يبيع الثياب والتمور والقهوة للبدو، زوجته الحائلية ولدت له

ولدين. صاح بي الناس «المتائبون» اشهد أنت مثله، يا خليل، «أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله»، وستكون ثروتك مثله، سيمنحك إياها الأمير. منذ ضوء فجر الغد، كان ثمة حشد من رجال البلدة المرضى والعاطلين عند باب النصراني حيث جلسوا ساعات طويلة وهم يثرثرون، ولم يتركوا لي لحظة راحة واحدة. سألوا عن الأدوية، واعدين، «إذا وجدت لهم علاجات جيدة فإنهم سيدفعون لي، لكن ليس الآن». عندما أجبت أنهم يمكن أن يدفعوا لي الكلفة الأولى للعقاقير، شجعهم ذلك؛ ولا شيء يمكن اختراعه لإرضاء نيتهم الجشعة. قلت أخيراً «لا أحد منكم يأتي إلى هنا ليتحادث معي، لأنني لن أسمعكم»، وأغلقت بابي في وجههم، وخرجت. عندما جلست عند عتبتي في برودة العصر، مرّ حمود مع أصدقائه؛ تريّث ليسلم علي، ودعاني للمجيء إلى العشاء، وأراني سيفه، الذي يحمله بارتخاء في يده مع حزام الكتف، مثل البدو، وهو يقول «ما رأيك به؟» ـ هم يعتقدون أن كل ابن نصارى لا بد أن يكون متمرناً في مهنة معدنية. عندما سحبت نصلته الكبيرة والثقيلة من الغمد لم يكن الفولاذ مدمشقاً (دمشقياً) ـ أضاف حمود، «إنه إنكليزي» (من شغل أفضل البلدان المسيحية). كان قد حصل على هذا السيف الضالع (سيف المبارزة) من ابن سعود، ودفع ثمنه ألف ريال.

«يبدو رائعاً»، قلت له وكرّر الكلمات مبتسماً على طريقتهم، «إنه رائع»، يُقدر العرب السيف، باعتباره أضمن سلاح؛ فكلهم يشتهون أن يمتلكوا سيوفاً ذات الحدة الأمضى. عند الغروب جاء عبد من مضافة عبيد ليقودني إلى العشاء. إن حمود يتعشى هناك عندما لا يُدعى للطعام مع الأمير؛ ابنه الأكبر ماجد، ومعلم الصبي، يأكلان معه؛ وبعدهما، يوضع نفس الطبق أمام رجال أسرته. وجبته البسيطة ذات قيمة غذائية، لحم مسلوق على مزيج من التمن، مع الزبدة المتبلة بالبصل، ونوع من الكاري [البهار الهندي]. عندها سكب العبد الماء على أيدينا، من إبريق معدني، فوق جرن. جلسنا متربعين حول الطبق الكبير النحاسي المطلي بالقصدير على الأرض المفروشة بالسجاد. «مدّ يدك» هي دعوة العرب، ومع عبارة بسم الله، يبدأون الأكل بأصابعهم. يجلسون على اللحم مدةً لا تزيد عن

ثمان أو عشر دقائق، عندما يشبعون تماماً؛ يقدم العبد عندئذٍ القصعة، ويشربون قليلاً من الماء؛ وهم ينهضون يقولون الحمد لله، وينصرفون لغسل أفواههم وأيديهم.

كان العبد قد جلب لنا صابوناً مبشوراً. هكذا يعودون إلى أماكنهم منتعشين، ويدّور الفنجان البهيج؛ لكن مقدم القهوة - خوفاً من الأمير - ذاقها قبل حمود. لا توجد ولائم فيما بينهم. فالعرب لم يكونوا قادرين على تصديق أن الكائنات الحية التي تصلح طعاماً في العناصر المسكونة الثلاثة[1] (في بعض البلدان الأسعد حالاً) يمكنها بصعوبة أن تعيل مصراناً بشرياً؛ فجلوس الرجال للشرب حسب تفكيرهم يبدو لهم حياة وثنية رهيبة جداً. هنا لا توجد نفقات مفرطة للقصر، ولا هبات سخية للمحسوبين والمتملقين من سلب الناس الهزيلين. بعد شروق الشمس مباشرة، يفطر أمراء شمر من الخبز المطوق والسمن مع جرعة من الحليب؛ وعند الظهر يوضع أمامهم صحن التمر؛ عند الغروب يتعشون كما رأينا: الأمير والناس، كلهم سواء يُطعمون باعتدال. الشيطان ليس في صحنهم؛ فكل عربدة وشهوانية طبيعتهم البشرية تكمن في التنعم المحمدي بالحريم.

أتذكر أنني قد سمعت، من بعض الذين يعرفونه، عن حمية المرحوم سلطان الإسلام عبد العزيز، الذي كان يوبخ من نواحٍ أخرى من أجل إسرافه الذي لا يشبع. إذ يوضع أمامه صحن واحد فقط - تكون أمه قد ذاقته وصادقت عليه، وكان هذا هو البيلا و(التمن) اليومي للأتراك (الذين يقولون إنه قد دخل مع تيمورلنك) المكون من الأرز المسلوق ولحم الغنم؛ وقد امتنع (لسبب يمكن التكهن به) عن القهوة والتبغ. سمعت حمود يقول إنه ذبح الغنم على شرفي؛ لكن على العموم فإن لحم الغنم الخاص بعشائه يشترى من السوق. . . .

---

(1) أي اليابسة والماء والجو (المترجم).

لا يذهب الأمير محمد سوى مرة واحدة عند العصر إلى المسجد الكبير. فيصلي بخطبة داخل القصر، أو يقف شكلياً في حجرته الخاصة. وكان الآخرون يخرجون مرات عديدة من القصر إلى تعبدهم العلني، فقد كان مصدر ضجر له ولخدمه ولأهل البلدة، بسبب الخوف عندما يرونه، نظراً لأنه يحمل سيف الطاغية. ومحمد يخاف! ـ فالسيف الذي دخل هذا البيت الأميري «لن يفارقهم ـ هكذا يتفكر العرب ـ حتى يفنون» لقد قطع كل الرؤوس العالية لأقربائه من حوله، ولم يترك سوى حمود؛ الأشخاص الأصغر سناً يقتربون من الشيخوخة؛ ولابد أن محمداً يرى أحلاماً كثيرة بالأشياء المفزعة، وبسبب كل أمنه القوي، يبحث دوماً عن (جزاء) الجنس البشري. فهل ينبغي عليه أن يثق بنفسه ليعبر المسحب غالباً كل يوم في ساعات معينة؟ ـ لكن الكثيرين أخفقوا هكذا. إن كلٌ من حمود والأمير محمد يسيران على العادات الشعبية: حمود بالصراحة السهلة، وذاك المحيا الباسم الذي لا يبدو بعيداً جداً عن كلام الناس العاديين؛ محمد بشيء من تليين قسوته الأميرية، ونثر كلمته السارة فيما بينهما؛ إنه رجلٌ فطنٌ جداً، وذو فهم لاذع. إن محمداً عندما يخرج إلى العراء يثبت عينيه القلقتين مثل الصقر؛ يسير، إلى حدٍّ ما بمشية ممثل مسرحي، في مقدمة أتباعه في الحجرة ورجاله المسلحين. عندما يكون حمود معه، يمشي الأميران أمام الحشد. يقول أهل البلدة (مهما اعتُبر ذلك مستحيلاً) إنهم «يحبونه ويخشونه»، إنهم يمتدحون الأمير الذي يسافرون تحت سلطته الكفؤة بشكل أفضل، ويعيشون بأمان، ويرون كل الازدهار من حولهم؛ لكنهم يخافون من حدّة سيف الحاكم، وهو المتعود كثيراً على القتل من قبل.

في المساء التالي، أرسل محمد في طلبي إلى شقته: الجدران الطينية مطلية بالمغرة. عندما قلت للأمير، أنا إنكليزي، لم يكن قد فهم ذلك من قبل! فقد كان دمثاً وسلساً. وهناك كان يجلس معه رجل كبير داكن البشرة، صالح، (سمعت أنه من البدو)، كان يراقبني بعينين متعصبتين وقاسيتين، يقول بعد لأي وبصوت مشؤوم بغيض، «هل تتطلع إلى رؤية بلادك مرة أخرى؟».

ـ كل الأشياء، أجبت، هي بقدرة الله».

ـ «لا، لا، يا صالح! صاح الأمير» وقال، خليل حسناً، كل الأشياء هي بيد الله».

عندئذٍ سألني محمد نفس أسئلة حمود تقريباً. «التلغراف هو ماذا؟ وقد رأيناه (في بغداد في زمن قيادته القديمة للحجيج «الفرس»)؛ لكن ألا يمكنك أن تخبرنا بالاختراع العجيب؟».

ـ «إنه تردد ـ يمكننا بواسطته أن نصنع إشارات معينة ـ يتم توليده لدى تأكسد المعادن، عن طريق عقاقير قوية مثل الخل».

قال الأمير: «إنه إذاً عمل الدواء، ألا يمكنك أن تصرح بذلك؟»

إذا كان بإمكاننا أن نفترض رجلاً ممدداً والرأس والكاحلين بين حائل واسطمبول، بمثل هذه القامة بحيث يلمسهما؛ فلو حرق شخص قدميه في حائل، ألن يشعر به في تلك اللحظة في رأسه، الذي هو في اسطمبول؟».

«وما هو الزجاج؟».

سأل أيضاً عن النفط؛ وعن القارة الجديدة، أين تقع، وما إذا كانت «ضمن المحيط». استمع ببرود إلى حكايتي عن العثور على الأرض الجديدة وراء البحار العظيمة وسأل، «ألم يكن هناك أناس يقطنون في البلد عندما تمّ اكتشافه؟» بعد فترة وجيزة سألني، «كيف رأيت حائل؟ وشارع السوق، هل كان حسناً، لكن آه (أجاب نفسه) إنه «سوق عرب!» صغير بالمقارنة مع مدن العالم الرئيسية. سأل «هل سمعت بجبل شمر في بلادي؟» سُرّ الحاكم بمعرفة أن النصارى لا يطمعون في مقاطعاته الصحراوية؛ لكن ما أغضب غرور الرجل أنه من كل هذا الفيض المضطرب من الكائنات البشرية تحت حكمه لم تصل إلى مسامعنا أية إشاعة تقريباً في بلادنا البعيدة. سألني حمود سؤالاً آخر شبيهاً، وأضاف، «ماذا! ألم تسمع بابن سعود الوهابي!» عندما جلست لمدة

ساعتين، وربما كانت الساعة العاشرة، قال الأمير لرئيس الحرس، الذي هو سائس خيل المضيف، «لقد حان الوقت لإغلاق الأبواب»، وانصرفت.

في الأيام الأولى من وجودي في حائل، إذا مشيت عبر سوقهم كان الأولاد والبدو الجاهلون والفقراء يندفعون إلي، فكنت أمر مثل الوقواق مع سحابته من العصافير الصغيرة المستغربة، إلى أن يتلقاني مواطن ذو هيبة أكبر، وهو يقول لهم «إن التحرش بالغريب سيكون مزعجاً للأمير!» في كل يوم كان بعض الأشخاص المهمين، يدعونني إلى القهوة والفطور؛ وكان معظمهم ينشدون مشورة الحكيم من أجل أمراضهم، والقليلون منهم تحركهم الضيافة الصرفة، لأن ضميرهم يأمرهم بألا يظهروا أي طيبة لخصم الدين المنجي؛ لكن المسلم القادم إلى حائل، أو حتى الغريب الفرنجي الذي ينحني بسهولة ويوافقهم، قد يجد أهل شمر مضيافين وهم يُعدون هكذا.

ودعيت أول مرة إلى عند غانم، مجوهراتي الأمير، وأخيه غنيم. كانا رجلين ثريين، من طبقة الحدادين، وهما سابقاً من الجوف، حيث يوجد أفضل الصنائعيين، بسبب عملهم في المعدن والخشب والحجر، في الجزيرة العربية البدوية. وجد عبيد عند الاستيلاء على المكان أن هذين الرجلين هما الأفضل في حرفتهما، وجلبهما بالقوة إلى حائل. إنهما مشغولان باستمرار بالعمل لأجل الأمراء، في صنع زخرفة مقابض السيوف بسلك من الفضة والذهب، وترصيع أخمص البندقية بقشور لماعة من نفس المادتين. ترسل إليهما كل نصال السيوف وأفضل البنادق الفتيلية، التي تؤخذ في غزوات ابن رشيد (من البدو)، لكي يُعاود تركيبها، ومن ثم تخزّن في مستودع أسلحة القلعة. من هذه، توضع بعض النصال الفارسية والهندية الجيدة جداً في أيدي جنود الأمير. كان غانم في شبابه قد تجوّل بتجارته المعدنية حول حوران، وقد سألني عن مشايخ الدروز، فلان وفلان الذين كان يعرفهم، هل هم ما زالوا على قيد الحياة. كان الرجل متعصباً، فعقله كان في يديه، وتأملاته لم تكن دائماً تأملات الحكماء في العالم، وهكذا يلتقيني كل يوم، قال غانم قبل

كلمات أخرى، «خليل، أنا عدوك!» وفي النهاية قدم مشوراته الصدوقة. كان قد بنى هذا البيت الطيني الجديد وزخرفه بكل ما أوتي من مهارة الصانع. فعلى الجدران الترابية المطلية بالمغرة، كانت رسوم الطيور والأزهار، وآيات من القرآن في زخرفة بيضاء من الجص، ـ الذي يوجد في كل مكان في رمل الصحراء: معظم البيوت في حائل مبنية بشكل جيد جداً، مع أن المادة بدائية. فقد بنى جداراً مزدوجاً مع نافذة بابية في كل واحد، لتدع الضوء يمرّ وليس عوامل الطقس. لم أرَ كير حداد ملوثاً بالسخام بالداخل، لكن غانم كان يجلس إلى عمله مرتدياً بأناقة، في أفضل مكان في حجرته؛ كانت أرضيتها مفروشة بالحصر الناعمة، وأمكنة الجلوس مفروشة بالسجاد البغدادي. دعا أخوه غنيم الحكيم إلى بيته لتناول الفطور: كان يعيقه المرض في عمله وكان يهدده في أغلب الأحيان بالتخلي عنه. أراني ابنه بارودة حربية [من الهند] وجدت عليها علامة البرج Tower. لقد أزيلت أجهزة التسديد، فهم لا يفهمون فائدتها!.

كان اليهودي ـ المسلم قد تلقى الاسم عبد الله، وكنية المعتنق الجديد المسلماني ـ جاء ليدعوني إلى القهوة. سألني رفيقه «هل قومي يحبون اليهود؟» «نحن لا نسأل، أجبت بقولي، عن ديانة الناس، بل يكفي أن يكونوا أشخاصاً طيبين». جئنا إلى بوابة اليهودي، ودخلنا بيته؛ كانت الجدران في الداخل مطلية بشكل مبهج بالمغرة، ومنقوشة بالزهيرات البيضاء والمقولات الدينية بطبقة من الجبس. قرأت: «لا حول ولا قوة إلا بالله» وفي مدخل المسلم الجديد، بدلاً من كلمات موسى نقشت عبارة، «لا إله إلا الله، محمداً رسول الله». كان عبد الله رجلاً جيد البنية من بغداد ذا المحيا التياه السار للمسلمين، باستثناء تلك العلامة (لتنطق بسلام) التي وضعها على الأسارير العبرية. في حين كان رفيقه غائباً للحظة، سألني بصوت خافت «هل لدي شيء ـ لم أستطع أن أسمع ماذا ـ ماذا تقول؟ «براندي، أنت لا تعرف هذه (الكلمة الخليجية الفارسية الإنكليزية) ـ براندي؟». لدى دخول زميله، الذي ربما كان أخا زوجته، قال عبد الله الآن بصوت جهوري إذا صرت مسلماً، فإن بيته

سيكون لي مشاركة معه. كان قد همس أيضاً كلمة في أذني ـ «الذي شيء أقوله لك، لكن ليس هذه المرة». كان هذا اليهودي البغدادي قد وصل إلى حائل قبل سبع سنوات. بعد أيام الضيافة ذهب إلى عبيد يقول، إنه سيجعل شهادة دين الإسلام على يده؛ وقبل عبيد كلمات اليهودي على يده الضخمة المليئة بسفك الدم القديم والعنف. كانت العائلة الأميرية قد خصّت المسلماني عند تحوله إلى الدين الجديد بمبلغ «ألف ريال» وسمح له الأمير أن يعيش في حائل، حيث يشتري ويبيع، وكان عبد الله يعرف الفن القديم ـ كان تاجراً مزدهراً. سمعت عنه في تيماء، وأنه يقرأ في كتب كتلك التي رأوني أقرأها مع ذلك وجدته رجلاً بدون ثقافة ـ مما لا شك فيه أنه كان يقرأ العبرية، مع أنه قد أنكر ذلك. جلب لي تاجر في البلدة، اسمه جار الله، كتاباً (سفراً) أجنبياً كبيراً. كان مجلداً مطبوعاً في أمستردام في القرن المنصرم، بالأحرف العبرية! لذلك قلت له: «احمله إلى عبد الله، هذه لغة اليهود». «يقول لي عبد الله إنه لا يعرفها». هذا الكتاب جُلب إلى هنا قبل سنوات من حمولة قافلة بغدادية، مات أفرادها من العطش في الطريق إلى سوريا. إن دليلهم، لأن الله قد شوش عقله، تاه بهم في البراري؛ فلم يستطع ركاب القافلة أن يجدوا الآبار، والقليلون منهم كانوا يمتلكون المزيد من القوة لإنقاذ أنفسهم، وهم يسيرون في مغامرة فيحطون بسعادة عند البدو. سلب البدو ما يريدونه من أحمال الجمال الواقعة، لمدة شهر وأكثر. كان ثمة بعض الكتب وجدت بينها، والقليل فقط من هذه السلع غير المربحة قد جلب إلى حائل.

زُعم لي أن عبد الله المولود يهودياً كان في أقصى سعادته هنا؛ أُرسلت إليه رسائل كثيرة من قبل أهله، مع أكبر المغريات إذا عاد، لكنه رفض دائماً أن يستلمها. كان قد تخلى عن الشريعة والوعود؛ لكن رجلاً تحركه نزعات الطبيعة البشرية، لا يمكن أن ينتقل بسهولة مما تعلق به وتربى عليه في الدنيا.

دعاني جار الله إلى بيته الفسيح، الذي ينتصب في الشارع العلوي قرب بوابة قفار كان تاجر حبوب أساسياً. ثمة شخص يدعى نصر، بدوي متعصب

من قبيلة حرب من الرجاجيل، يلاقينا في الطريق، وعنيبر الذي كان آتياً آنذاك. دُعينا جميعاً: قدم لنا مضيفنا المحترم، وهو متعصب قليلاً من نواحٍ أخرى، فطوراً ممتازاً. كان عنيبر حبشياً، ولد في عائلة عبد الله بن رشيد، ولذلك يعتبر الأخ العبد لطلال، ومتعب ومحمد، كذلك فإن اسمه هو اسم بيت السيد ابن رشيد. كان هذا الخليع شخصية أساسية في حائل، في قضايا ثقة الدولة في ظل الأمراء منذ زمن طلال. كان الرجل ذا ذهن رائق حيوي وأخلاق لطيفة، مع أن في صدره روح العبد الجبان التي ليست ملكاً له. تربى في هذه البلاد، فكان يمتلك فجاءة الكلام والميل إلى الشك، الموجودين لدى العرب! عندما جئت مرة أخرى إلى حائل كان عنيبر يملك حق التصرف بحياتي؛ فكانت صدفة سعيدة، اليوم، أنني تقاسمت الخبز معه.

دعاني حمود مرة أخرى إلى العشاء، وعندما كنت أغتسل قال أحدهم: «ما أبيض بشرته!». فأجاب حمود همساً، «إنه الجذام».

ـ «الحمد لله، هتفت، لا يوجد مجذومون في بلادي».

ـ «أيه! قال حمود (بشكل خارج عن الكياسة لأنني استرقت السمع إلى كلماته)، هكذا؟ ايه! ايه! (لأنه لم يجد شيئاً أفضل ليقوله، فردد ورائي) الحمد لله». قال آخر، «والله في بغداد رأيت فتاة بيضاء هكذا، ذات شعر أصفر، يمكنك أن تقول أنها شقيقة خليل».

ـ «لكن ـ أخبرني (قال ابن عبيد) ألا يشتري الناس الأفضل حالاً في بلدك النساء الجركسيات؟ ـ أو كيف يحصل بينكم أن يكون المرء ابن امرأة مشتراة (جارية)، وحتى ابن امرأة عبدة (أمة)، أقول هل هو غير لائق في نظركم؟».

عندما بدا أن الرجل الهمجي سيجعل مني، بسبب ذاك البياض غير المألوف، ابن عبدة جركسية، رددت بشيء من الدفء «إن شراء الجسد البشري لا يذكر كثيراً في بلادي، أما بالنسبة لأولئك الذين يتاجرون بالعبيد فقد سلطنا

الله للقضاء عليهم. إننا نصطاد مراكب العبيد اللعينة في كل البحار كما تصطادون الضبع». انزعج حمود قليلاً، لأنني أريته بعض العيوب في سلوكهم، بعض الظلال الوثنية في ديانته حيث لم تكن توجد أي لطخة في ديانتنا، وتبجحت بعدائيتنا البحرية - (التي تأثروا بها) جميعاً في ثرواتهم، إلى نهايات العالم المحمدي). - «وخليل» هل النصارى يأكلون لحم الخنزير؟»

- «أي بالله، وهذا لا يختلف كثيراً عن لحم الوبر الذي تأكلونه، أو لحم الشيهم. ألا يأكل البدو الذئاب والضبع، والثعلب، والضب، وجرذ الربيع؟ - البوم - الحدأة، والنسر الجيفي[1]؟ لكنني لم أذق شيئاً من هذا القبيل».

أجاب حمود، بإنسانيته السلسة «لم يكن قصدي أن أقول، يا خليل، إنه بسبب وجود أي قذارة أو مرض في اللحم نمتنع عن لحم الخنزير، بل لأن النبي قد أمرنا بذلك»؛ وهو يلتفت إلى سليمان قال، «أتذكر عبد الله، هو الذي جاء إلى حائل في زمن طلال، وعالج بندر، أخبر أبي أن لحم الخنزير هو لحم طيب جداً». وسأل ذاك الرأس الثقيل، الذي وجد اللغة للتعبير عن نفسه الوضيعة: ما هو زواج النصارى؟ فكما الحصان يسافد الفرس يقال [في كل نجد] إن النصارى يتجامعون . . . . والله مثل الكلاب».

ورغم أنهم لا يأكلون لحماً دنساً، مع ذلك فإن البعض في حائل يشرب عصير العنب، ماء العنب، العصير المخمر لثمرة الكروم القليلة في بساتينهم، التي تنضج هنا في منتصف الصيف. فقد أخبرني ماجد، أنه يُحضر في بيت أبيه؛ سألني الصبي إذا لم أتناول شيئاً كهذا، وكان هذا على الأرجح بطلب من أبيه. إن المسلمين، في ترفهم الديني، يشتهون المشروب المحرم اشتهاءً شديداً، متخيلين أنه يجعلهم أقوياء مع زوجاتهم.

عندما قدمت القهوة في بيت حمود، كنت أجلس دوماً مستغرباً أنني الوحيد الذي لم يسكب له فنجان؛ في هذا المساء، عندما مرّ الخادم ومعه

---

(1) الجغايفة قبيلة عربية تسكن في المنطقة الغربية من العراق قرب الحدود السورية والمعروف عن هذه القبيلة أنها قبيلة مشاكسة. (ماجد شبر).

الركوة والفناجين، أومأت له، فسكب لي فوراً. في يوم آخر، صاح ماجد الذي جلس بقربي، «ألا تشرب القهوة، يا خليل؟» عندما أجبت، «بالتأكيد أشربها»، سكب الفنجان لي، ـ تطلع حمود نحونا، كما لو أنه سيقول شيئاً. استطعت أن أفترض أن ذلك كان رعاية ودودة منه، ليجعلني أكثر ارتياحاً. في البلدان المحمدية يكون الموت السري للرجل في فنجان القهوة. فالأمير الذي يدخل بيتاً لا يقدم له القهوة، ولا تقدم القهوة إلى أي واحد في شقة الأمير، لكن الأمير يطلب القهوة عندما يرغب في ذلك؛ مثل هذه الوساوس المرعبة هي جزء من حياتهم اليومية!....

.... لنتكلم اليوم عن اليوم العمومي في حائل، بعد شروق الشمس بساعتين، عندما يتقدم الأمير علناً إلى المسحب ليعقد مجلسه الصباحي، الذي يشبه مجلس البدو. يجلس الشيخ الكبير بشكل مكشوف مع الشيوخ أمام الناس؛ إن مجلس الأمير يشبه المنبر العام، فهو يجلس كرئيس أو قاضٍ بينهم. إذ يُصنع مقعد من الطين على امتداد جدار قصر المسحب، في مواجهة المجلس، إلى بوابة البرج؛ في الوسط، يكون مرتفعاً بمقدار درجة، وبالخليط الطيني نفسه (لا يفرش عليه أي سجادة بسبب بساطتهم المتقشفة)، يكون المقعد العالي للأمير، مع درجة واحدة تحته، يجلس عليها كاتبه أو سكرتيره نصر، عند قدمي الأمير. إن مقعد حمود (مثل هذا المقعد الخشبي الطويل والدرجة الطينيين، لكنه أدنى قليلاً) هو الذي يجعل قرب باب القصر، يشاهد مقعد متدرج مشابه ومقعد خشبي طويل مرتفع تحت جدران المجلس المقابلة، حيث يجلس الشيوخ في ظل القصر، يعقدون المجلس الثاني، عند العصر. على الجانب، في وجه الأمير، يجلس دائماً القاضي، أو رجل الشريعة؛ من هذه الفئة يوجد أكثر من واحد في حائل، يمكنه في أية عملية صعبة أن يدوّن للأمير كلمات القرآن ويفسر المعنى. على جانبي الأمير يجلس الرجال الشيوخ، أعضاء المحكمة؛ يقف عبيد الأمير أمامهم؛ على جانبي الشيوخ، على المقعد الطيني الطويل، يجلس رؤساء الخدمة العامة ومرافقوهم؛ ويختلط بهم جميعاً، بدءاً من المكان الأعلى التالي بعد الأمير، أي بدو يتفقدون

مناصبهم الرفيعة. - إذ ترى رجالاً جالسين مثل انحناء قوس أمام كل هذا المجلس، في غبار المسحب، الرجاجيل، يتكئون على سيوفهم وأغمادها، يصل عددهم عموماً إلى مئة وخمسين، إنهم الجنود، جلادو الأمير الرهيب، والسائرون في غزواته؛ إنهم يجلسون هنا (أمام الطاغية) في مكان والناس في مجلس البدو. لذلك فإن المجلس في حائل هو اجتماع يومي لهذا الجسم المختلط من السيافين الذين يكون الكثيرون منهم في ساعات أخرى من النهار مشغولين بشكل متمدن في البلدة. في تلك الدائرة المسلمة يدخل المدعون مع المتهمين والمتوسلين، وبكلمة واحدة كل الذين لديهم مسألة (لا علاقة لها بالدولة) أو يظهرون للرد في الحضور العام أمام الأمير، وهو يسمع قضاياهم لتحقيق العدالة، وأية أحكام تصدر من فم الأمير تنفذ فوراً. في شهر وجودي في حائل كان الجالسون يومياً في المجلس مع الأمير يعدون حوالي أربعمائة شخص.

هكذا يقترب الأمير من الناس، يطّلع على معظم شؤونهم. إن حكم محمد وحكمته الشعبية هما الأفضل، حيث إنه هو نفسه قد عانى أحياناً من الضائقة. إنه قاضٍ ذو مساواة متساهلة، مثل شيخ في المجتمعات البدوية، وذو صرامة فجة، لم أسمع أي شخص يشكّ في إدارة الأمير الصادقة للعدل. عندما سألت إذا لم يكن هناك أي تعاطي للرشاوى في حائل من قبل أولئك القريبين من اذن الأمير، كان الجواب «كلا». الفساد البيزنطي لا يمكن أن يدخل إلى البساطة الأبوية والنبيلة للحياة (البهيجة) لهذا الشعب، في البلد البدوي الفقير، لكن (رأينا) أن هذا الفن ليس مجهولاً لأمراء شمر الحاذقين، الذين يستعينون به لدى الحكومات التركية الجارة. إن البعض أيضاً من عرب ابن رشيد، رجال قبائل ديرات المدينة [المنورة]، قد شهد ممارسة هذه العادة الشريرة: رويت حكاية لي عن شخص جلب رشوة للتعجيل في قضيته في حائل، وعندما كانت مشكلته على وشك أن تُبحث وضع خلسة عشرة ريالات في يد القاضي. لكن القاضي نهض وانهال بعكازته على كتفي البدوي الجاني

إلى أن تعب، ثم اقتاده إلى الأمير الجالس على مقعده، فسدّد له ضربات أخرى كثيرة بنفسه، وأمر عبيده بضربه.

المجلس نادراً ما ينعقد أكثر من عشرين دقيقة، وعلى العموم ثمة القليل لسماعه، كون الأمير معتلاً لبعض الأيام (معاناته العادية من الصداع والصفراء)، رأيت ذلك متقطعاً؛ ـ وبعد ذلك تمّ البت في قضايا سبعة أيام في جلسة صباحية! ينهض المجلس ويتفرق، عندما يقوم الأمير، يقولون ثار الأمير! ـ ومن ثم، بسبب المئات الخفاقة من المناديل القطنية الزاهية في المسحب، يبدو أننا نرى سلسلة من الفراشات. يذهب عرب البلدة نظيفين ولابسين بشكل لائق؛ لكن البدو يكونون رثي الثياب وحتى عراة في قراهم الجوالة.

يسير الأمير عموماً من المجلس، مع مرافقيه في الحجرة، إلى بيت له في الطرف العلوي من المسحب، حيث يشربون القهوة، ويجلس لبرهة من الزمن: ومن هناك يذهب مع حشد صغير من رجاجيله لزيارة مزرعة الخيل؛ هناك ثلاثون من أفراس الأمير في البلدة، مربوطة في أرض قرب القلعة الطينية، وهي تقريباً في مقابل قهوة عبيد. بعد ذلك يصرف الأمير رجاله، قائلاً لهم: «نعم يمكنكم الذهاب، يا عيال»، ويعاود دخول القصر؛ أو في بعض الأحيان يمشي مع حمود وأصدقاء حجرته إلى الخارج ليتنفس الهواء، قد يكون ذلك إلى مقرّه الصيفي قرب ماء السماء، أو إلى مزرعة عبيد، أو يقوم بمجرد مرور من خلال السوق ليزور شخصاً ما في البلدة، مثل غانم الحداد، أو ليرى كيف تنفذ أوامره؛ ـ وهكذا يعود إلى القلعة، عندما يكون لديه أي شغل مع البدو، أو رجال من قراه ورُسُل ينتظرونه، فإنهم يُدخلون إلى مقابلته. في بعض الأحيان يركب الأمير ابن رشيد ليشم الهواء على صهوة الحصان، على فرس بيضاء، وغير مكتملة النمو، كما هي خيول نجد في بلادهم، ولا ذات شكل جميل جداً. كنت أجلس ذات غروب على مقعد طيني عند بوابة القلعة عندما وصل الأمير نفسه، يركب لوحده، وقفت لأحيي الأمير فأجفل

حصانه، وهو يرى في الغسق، منديلاً أبيض كبيراً. ركب محمد بالركابات، استحث فرسه مرة أخرى، لكنها لم تذعن، فتخلى العربي الفطن عن دابته غير العاقلة؛ بخفة الأمير قادها وسلمها إلى أقرب يد إليه من خدم القصر.

كانت جماعات البدو تصل كل يوم من أجل شؤونهم مع الأمير، ولكل جماعة أو ربع يخصص مخزن فيكونون ضيوفاً عموميين (عموماً حتى اليوم الثالث) في البلدة. بالإضافة إلى رجال القبيلة أتباعه، رأيت في حائل بدواً أجانب كثيرين مثل صُفير ومطير الذين كانوا عرباً ودِيين خارج حلفه وسيطرته، مع أن ابن رشيد اعتاد أن يتلقى منهم بعض الهدايا السنوية. علاوة على ذلك فقد وصل إلى هناك رجال قبائل من العنزة الشمالية الحرة، ومن شمر الغربية، وبعض قحطان المهجرة التي تتجول الآن في القصيم.

قبل ساعة من مجلس الصباح يُبدأ الشغل المشترك لليوم في الواحة. يكون السكان مزارعين وتجاراً (غرباء في معظمهم) في السوق، ورجاجيل الشيوخ، وعبيد المنازل غير الكثيرين. عندما تطلع الشمس يخرج المزارعون إلى العمل. في خلال ساعة تُفتح السوق يصيح الدلالون، السماسرة لكل ما يُطرح للبيع، جديداً أم قديماً، سواء كان ثياباً أم أسلحة، من أول الشارع إلى آخره، ويفرشون سلعهم لكل من يلتقونه، ويدخلون الدكاكين وهم يمضون بهذا الضجيج الفظ، فيبيعون للذين يدفعون أعلى الأسعار؛ وهكذا ذات صباح باكر بعت ناقتي الخويرة. قست سوقهم، الذي يقع ما بين المسحب والبوابة الداخلية باتجاه قفار، على بعد مئتي خطوة؛ على الجانبين توجد الدكاكين، غرف مستودع المدقات الخشبية المبنية باتجاه الخلف، التي يدخلها الضوء من الباب، ـ يبلغ عددها حوالي مئة وثلاثين، كلها مملوكة ومؤجرة من الأمير. كان سوق اللحامين في باحة مجاورة خارج البوابة العليا للسوق، هناك يباع بسرعة لحم الغنم الممتاز لمدة ساعة بعد شروق الشمس، بأقل من بنسين للرطل الواحد، وتكلف الساق الصغيرة ستة بنسات، في الوقت الذي كان يدفع فيه تسعة شلنات ثمن نعجة حية في

حائل، وثمن العنزة حوالي ستة شلنات. هكذا رأيت البدو يعودون مع ماشيتهم القليلة، بدلاً من بيعها هنا بهذه الأسعار المتدنية: ـ فكانوا يسوقونها بعدئذٍ، حوالي ثلاثمائة ميل، إلى سوق في المدينة المنورة! حيث القيمة الحالية للغنم كما سمعوا نفس قيمتها في الجبل. إن مهنة الجزارين، مع أن البدو جميعاً قصابون، فليست مهنة أشخاص ذوي حالة وافرة في بلدات نجد.

يسير مفرِّج في المساء مرة أخرى في المسحب، يتقدم إلى بوابة القلعة، أو يرسل خادماً من المطبخ، غالباً عندما تظهر وجهات سير الضيوف، ليدخل ربوعاً بدوية أخرى إلى العشاء العمومي، الذي ليس سوى طبق غث من ألوان التمن المسلوقة والجريش، المدهون بقليل جداً من السمن. ويدعوهم مفرج بلياقته المناسبة، بتفريق مناسب ومراعاة لوضعهم الشيوخي أو العوامي، تبعاً لكونهم هنا أقل أو أكثر ترحيباً من قبل الأمير، وتحالفات أو عداوات رجال القبائل. هكذا كنت أنا، النصراني، أُستدعى يومياً إلى العشاء في القاعة؛ وهذه كانت مقبولة لسببين، ـ فقد كنت واهناً، بحيث إن العمل مرهق لي لو كان عليَّ أن أطبخ أي شيء لنفسي، ولم يكن لدي وقود، وحيث لم يكن توجد مدخنة، كان علي أن أختنق في مخزني بالدخان، كذلك فيما كنت آكل الخبز والملح في المضيف كنت، كما كنت أظن في خطر أقل من أي استبداد مفاجئ من الأمير؛ لكن فطور المضيف كنت أتنازل عنه بما أنني يمكن أن أنال أفضل التمور في السوق مقابل قليل من المال. فلو كنت قادراً على الإنفاق بحرية، لكنت قد أقمت بشكل مقبول أكثر في حائل؛ فقد مضى الآن عام منذ قدومي إلى الجزيرة العربية، وهناك لم يتبق سوى القليل في محفظتي لكي أدخره من أجل الضرورات القصوى.

في قرى الجبل يُدعى الضيف بكلمة سمّ، [قل بسم الله] أو يقال ما يشبهها عندما يوضع اللحم أمامه. قد يكون ذلك بالأحرى «سمّ» اختصاراً لكلمة اسم في عبارة باسم الله أو بسم الله. لكنني عندما سمعت لأول مرة هذا

السم! عندما وضع صبي من المضيف طبق التمن أمامي، ظننت أنه قال (بمكر) سُمّ (التي تعني السم) ولم يكن الولد أقل ارتباكاً،عندما بفجاءة العرب، صليت إلى الله أن يلعن والديه: ـ في هذا اللايقين مما إذا كان قد قال السم تعشيت من خبيصتهم، لأنهم لو كانوا سيتعاملون معي هكذا فقد اعتقدت أنني قد لا أنجو منهم. منذ تناول العشاء، يلجأ البدو في ربعهم إلى القهوة العمومية: بعد عشاء الضيوف يُخدم الرجاجيل بطريقة مماثلة بخبيصات من الأكل، في فناء المضيف؛ هناك يأكلون أيضاً عند الظهر وجبتهم الخفيفة الغثة من تقدمة التمر، بطريقة مشابهة كما يأكل الضيوف العموميون. لقد تمّ استلام التمر والحب البائسين للمطبخ العمومي على نفقة الضريبة الحكومية للأمير، من دساكره ومزارعه وقراه العديدة؛ إذ يُحفظ أفضلها جميعاً من أجل مؤن العائلات الشيوخية. عندما يُنهى العشاء العمومي، قد ترى نساء فقيرات كثيرات، وبعض الأطفال، ينتظرن، مع قصعاتهن عند بوابة القصر. هؤلاء هم الذين منحهم الأمير جراية [حصة] مسائية مما تبقى، لأنفسهم، ولأجل أشخاص بائسين آخرين. هناك تقدم الخدمة يومياً في المضيف إلى الضيوف، والرجاجيل، بمعدل 180 وجبة من خبز الشعير والتمن من الصنف الثاني، بمعدل ثلاث بنتات وربع لكل شخص؛ كان ثمة مخصصات معينة من السمن. هذا السمن المخصص للضيافة العمومية يؤخذ من بدو الأمير، بكمية كبيرة من كل بيت، ليدفع ثمنه بسعر قديم، يساوي الآن في حائل ريالاً واحداً. يذبح جمل أو حيوان أصغر، ويقدم اللحم القليل الهبرة إلى الضيوف المدعوين أولاً، بمعدل مرة واحدة كل ثمانية أو عشرة أيام. عندما يكون الأمير غائباً، لا يأتي البدو إلى حائل، وبالتالي كما رأيت لا يوجد ضيوف. هكذا حسبت أنه يمكن أن تصرف لأجل النفقات السنوية لمضافة الأمير، حوالي 11500 جنيه استرليني.

في هذا الوقت في القهوة العمومية تصنع قهوة المساء ويُطاف بها. كما يحدث غالباً عندما كنت أجلس معهم كانت الربوع المختلطة من البدو تلتزم تجاهي بالسلوك المتسامح الذي يطبق في خيامهم؛ وهنا ألم يكن كل الضيوف معاً هم ضيوف الأمير؟ تفتح مضافة القهوة الأميرية، حالاً بعد صلاة الفجر،

لهؤلاء الشاربين لفنجان الصباح؛ يغلق الباب مرة أخرى، عندما ينصرف الجميع في حوالي موعد المجلس الأول. يفتح من جديد، وتقدم القهوة مرة أخرى بعد صلاة المغرب. يُملأ الفنجان مرتين لكل ضيف ويقدم فنجان ثالث، كما يقول بدوي من قبائل نجد، بعد ذلك بوقت قصير، بكياسة الصحراء كرمك الله. يغلق باب القهوة طوال الليل عندما ينصرف البدو، الذي يسيل لعابهم على القهوة، إلى الصلاة الأخيرة في المسجد. بعد ذاك الوقت، تغلق البوابات البدائية ذات المصراعين لهذا الحي (الأميري) وشوارع السوق.

خرج الأمير محمد في منتصف عصر ذات يوم مع رفاق حجرته[1] والحاضرين لزيارة البوش، ثروته الحية في الصحراء. فأمير نجد صاحب ماشية غني جداً، إذا صدقتهم فهو يمتلك أربعين ألف جمل. حصانه من دم نجدي جيد وكما أخبرني علي العايد[2]، حوالي ثلاثمائة فرس، ومئة حصان، مع كثير من المهور والمهرات. بعد إخبار الآخرين أن ابن رشيد يمتلك أربعمائة جندي من الأحرار والعبيد، ومئتي فرس من الدم الأصيل، مئة حصان: إنها ترعى حيث تُساق بعيداً في الصحارى؛ وله «مئة خادم من العبيد (يعيشون مع عائلاتهم في خيام من قماش الشعر، كما البدو)، لتربيتها.

أخبرني شخص آخر أن مزرعة خيول الأمير مقسمة إلى مجموعات من خمسين أو ستين، كل المهرات معاً أو كل الأحصنة معاً؛ المهور والمهرات بعد الفطام ترعى في البراري، تارة هنا، وتارة هناك، قريباً أو بعيداً، ـ وفقاً للنمو السنوي للأعشاب البرية. ترعى أحصنة الأمير بالطريقة البدوية؛ تشكّل [تقيد] الأطراف الأمامية، إذ تطرد إلى المرعى منذ الصباح. لا تذوق الشعير أو أي حب آخر، تُساق إلى البيت إلى المقصورات وتُربط بحبال طويلة في المساء، وتشرب حليب المساء من الناقات، أمهاتها المرضعة. لذلك قد يبدو

---

(1) رفاق حجرته: المقصود بهم جلساؤه الخاصين.

(2) رجل شريف، وجاري، كان سابقاً في خدمة مزرعة الخيول، فقد كان يسوس الخيول لأجل الأمراء السابقين إلى باشاوات مصر.

أن أمير غرب نجد يمتلك أحصنة وجمالاً بقيمة تساوي حوالي ربع مليون جنيهاً استرلينياً؛ وقد تمّ الحصول على ذلك في جيلين من سلب البدو الفقراء. ويمتلك بالإضافة إلى ذلك ثروات خاصة كبيرة مكدسة بالمعدن، لكن ضرائبه العامة تُدخل إلى خزينة الحكومة، بيت المال، وتوضع في أكياس وفي حفر. إنه يمتلك مزارع كبيرة أيضاً في الجَوْف، وفي بعض الواحات المفتوحة الأخرى. ـ رأيت محمداً يركب عند بوابة القلعة على جمل عربي مرتفع، مزركش السرج بفخامة. بعد أيام قليلة من إقامته الهادئة في الخلاء، يبيت الأمير مع رفاقه في خيام مثل البدو. لقد ترك حمود في حائل، ليعقد المجلس اليومي الصغير الآن؛ـ لا يجلس ابن عبيد عندئذٍ في مقعد الأمير، بل في مقعده الأدنى قرب البرج.

أرسل حمود في طلبي في وقت فراغه بعد الظهر: «لقد ذهب محمد، قال، وبقينا نحن لنصبح صديقين». أراني آنذاك ساعات الخليج الرخيصة، التي كان يرتدي منها اثنتين على صدره وكذلك فعل ابنه ماجد الذي يمتلك ذهناً فضولياً في مثل هذه الحلي، ـ قيل إنه يمسح الساعات! وإن حمود يمتلك منها ما لا يقل عن مئة، وإن الأمير يملك أكثر من ذلك بكثير. سألني حمود إذا لم تكن هذه «إنكليزية» إذ قال إنها من أفضل أشغال النصارى. كان متلهفاً ليفهم مني إذا لم أجلب أشياء ظريفة كثيرة في حقائبي السرجية العميقة من المصنوعات اليدوية الظريفة للنصارى: إنه سوف يدفع ثمنها، وعدني بتأكيد غير فصيح، فلوس! «قشور فضية» أو نقود يعتقد العرب البائسون أن كل الرجال يعزونها مثل دم حياتهم. وجدت حموداً يستلقي مثل البدو، متبطلاً ومتثائباً، في مزرعة قهوة عبيد، التي، كما قال، تمتد وراء المخازن إلى بيت عائلته في البلدة (الذي ليس في الواقع واحداً من أفضل البيوت). في أرض النخيل هذه لديه غزلان كثيرة، تتغذى من البيقية التي تنثر لها يومياً، لكنها كانت تستحي من اقتراب الإنسان، هناك رأيت أيضاً وعل البيدان. هذا الماعز الجبلي البري الضخم يتبع الإنسان وحتى يطارده، ويدخل إلى القهوة بلا خوف. هذا الوحش ذو جسم أكبر وأقوى من كبش الماعز، وذو شعر قصير

كثيف؛ لونه أحمر أرجواني أو قريب من ذاك الاحمرار الذي يشاهد قبل غروب شمس الجبال الداكنة. . . . . كان ماجد الأكبر بين أولاد حمود، صبياً في الخامسة عشرة، صغيراً بالنسبة لسنه، ذا جمال أنثوي، ابن امرأة بدوية (فالأمراء أيضاً يتزاوجون مع البدو) هناك كان يرافقه دوماً شاب فاسق، اسمه علي، لديه أربع زوجات وكان مرتبطاً بخدمة حمود. هذا الثنائي الجميل كان يغزوني باستمرار في بيتي، بالفضول الطفولي للعرب، متعمدين وضع أصابعهما الماكرة على أي شيء أجنبي للنصارى؛ وهكذا كانا يأملان في أن يجدا لدي كثيراً من الأمتعة؛ وعندما لم يقعا على شيء البتة كان ماجد وزميله الشرير علي يأخذانه؛ بالقوة. عندما فكرت أنهما يمكن هكذا أن يعثرا على مسدسي والأدوات، فقد انتزعت الأشياء من أصابعهما الشريرة وذكرتهما بالأمثال الشريفة للبدو، فأجابني ماجد بخلاعة طفولية: «الكنك، يا خليل، تحت سلطتنا، والأمير يمكنه أن يقطع رأسك على هواه!» ذات يوم عندما سمعتهما عند الباب، رميت الشرشف فوق أغراضي المفكوكة وجلست عليه، لكن لا شيء كان بالإمكان إخفاؤه عن وقاحتهما مع كلمة بإذنك! بإذنك! صدف أنهما وجداني جالساً على القرآن. «ها! قالا بمرارة تعصبية، إنه يجلس على القرآن!» ـ هذه الحكاية نقلت فوراً بلسان ماجد إلى القلعة؛ وعاد ماجد الخبيث ليخبرني أن الأمير قد تضايق كثيراً.

أظهر ماجد نفسه بمزاج حنون، مع الميل السعيد السهل لوالده، والتهلل بشكل طفولي غالباً، لكنه بطبعه أناني واستبدادي جداً. فهو يضرب الأولاد الفقراء بعكازته عندما يمرّ بهم في الشارع ويصرخ «الله يلعن أباك!» فلا يجرؤون على الامتعاض من الأذى أو مقاومته. أفضل عيال الشيوخ، لأنه هكذا يدعى أولاد البيت الأميري. طوال حياته كان فاسد القلب ومشتهياً لمال الغير، لكنهم جميعاً يربون من قبل العبيد! فإذا وصل به الأمر أن يكون الأمير، أعتقد أنه سيكون يوماً مشؤوماً لحائل، إلا إذا امتلك عقلاً جيداً بما يكفي ليصلح نفسه، وترعرع على فهم أكثر إنسانية. إن ماجد، المفعم بوداعة لباقة العرب، مع ابتسامة مقنعة كان ينزع إلى معاملتي

دوماً وفقاً لإحسان أبيه، فيسميني «صديقه العزيز»، ومع ذلك فقد كان يشعر أنني أمتلك تبصراً بارداً في قصده الطموح. لذلك فقد كان فيه الكثير من السامي الجوال، بحيث إنه لعب دور البائع المتجول ويساوم من أجل ناقتي بأدنى سعر، متخيلاً أن يحصل على ضعفي سعرها (عندما ستكون ناقة حلوب مع فلو) في الربيع القادم، وهذا ما تنازلت عنه فوراً،لكن لا، قال عندئذٍ الأمير الصغير، إذا كنت سأعطيه عدة ركوبها أيضاً (التي كانت تساوي الثلث زيادة). لقد تأملت مرات عديدة فيما إذا يمكن أن يكون تقديرهم للشرف! إذ يعتقدون أنهم يفعلون ذلك جيداً بشكل كافٍ في العالم الذي يتبع لهم؛ فالمآثر الإنسانية :التي تحاكي أحلامنا بالطرق الإلهية هي كلمات جميلة لشعرائهم، وهي خلافاً لذلك غير معروفة لهؤلاء الشرقيين.

عندما تمشيت خلال بلدتهم الطينية النظيفة الجيدة البناء فكرت أنه من الممتع أن أعيش هنا، ـ باستثناء خشية الحاكم وحياتهم القلقة للركوب في الغزوات السنوية للأمير. مع ذلك فإن المزعج لعيوننا هو تلك القذارة من تراب الصحراء الذي يقع حولهم! إن حائل، بسبب عدم أهلية الموقع، هي بلدة أكثر مما هي واحة، أو إنها، إذا جاز القول، واحة مصنوعة غصباً، بالقوة. كالدائرة، لأن مزارعهم ليست واسعة جداً، قد تبلغ حوالي ساعة؛ تقع البلدة على مسافة بعيدة عن جرود الأجأ (يسمى هناك المنيف). إن بلدتهم المحمية من الهواء الشمالي المأمون بجبال سمراء حائل هي خانقة في أشهر الصيف الطويل. فالسُّمراء، من البازلت الجوفي كانت مصبوبة (يمكن مشاهدتها في وجه بوابة مسهد) على الغرانيت الأحمر ـ الرمادي نصف المطمور لأجأ، جبلان يقعان على مسافة قليلة وراء البلدة، في نصف دائرة، وسرير سيل حائل، يأتي كما يقولون من قفار، يمرّ خارجاً من بينهما. الجبل الذي يقع إلى الغرب هو الأخفض؛ أما الجبل الشرقي فيرتفع إلى علو قدره خمسمائة قدم، وعلى القمة توجد رجمات؛ وكان هناك في السابق توجد محطة المراقبة، عندما كانت حائل أضعف فالسمراء العليا، أم أركاب، منحدرة، وقد استأجرت ذات صباح حماراً، جحشاً، مقابل ثمانية بنسات لأركبه إلى

هناك. إن الحجارة المتناثرة والكثيفة على هذا الجبل، هي من نفس البازلت الأسود الصدئ الذي يسمونه الحرة أو الحرار ثقيل وقاسٍ كالحديد، ويرن مثل معدن الجرس.

سمراء في كلام نجد البدوي هي جبل أسود صدئ من الحجر الصلد في الصحراء؛ وفي الريف البلوتوني (الجوفي) العظيم من هنا إلى مكة تكون السمرات دوماً بازلتية. الشيء نفسه، عندما تنمو الأدغال عليه، يسمى حزم، والحزم هو مثل هذا التل البركاني على الهراس. لقد رأيت من الرجم أن حائل متوضعة عند المنتصف في سهل طويل، يسمى ساهلات الخماشية ويقع بين منيف الأجأ (الذي قد يرتفع في أعلى نقطة فيه فوق السهل إلى 1500 قدم)، وتلك السلسلة التلالية المكسورة، التي تربط بها الساهلات على امتدادها، على بعد فرسخين إلى الشرق، باتجاه سلما، جبل فتيج؛ وتحتنا باتجاه الشمال الشرقي من حائل تشاهد الخريماء، وهي ملكية كبيرة من النخيل الفتي، - إنها ملك للأمير، وتوجد ينابيع، كما يقولون، ترويها!

لدى العودة إلى البيت باتجاه البوابة الشمالية، زرت ضاحية واسط الخربة، التي لا يفصلها عن بلدة حائل سوى مجرى السيل وحقولها. كان ثمة (خربة الآن) منذ سنوات قليلة في الشارع، «أربعين قهوة» أي أربعين أسرة مرفهة تستقبل أصدقاءها يومياً على القهوة.

إن واسط اليوم هي خرائب خالية من السكان؛ هنا الناس (مثل أولئك الذين في حي قفار الخرب وفي الموقّق المهدم) ماتوا قبل سبع سنوات في الوباء. رأيت جدران بيوتهم الطينية بدون سقوف وآيلة إلى السقوط، لأن الخشب قد انتزع منها، الحقول والآبار كانت تقبع مهجورة. إن مالكي وورثة الأرض قد تركوا عمل السقائين منذ زمن طويل بحيث أصبحت أشجار النخيل يابسة وذاوية، كان عدد قليل من النخلات التي لا يزال يظهر في رؤوسها الواهنة أية خضرة متبقية. قبل أن أغادر حائل رأيت تلك الجذوع اليابسة تقطع، والتراب يوضع من جديد في بقع البذار. هناك مات في واسط ثلاثمائة

شخص؛ في حائل هلك شخص أو اثنان من كل أسرة (التي كان يبلغ تعدادها سبعمائة أو ثمانمائة)؛ أما الآن، الحمد لله، فقد كان الأولاد يشبون ويكادون يملأون غرفهم. من العائلات الأميرية والشيخية الميسورة لم يمت إنسان. إن البدو الذين زاروا حائل في زمن الطاعون قد هلكوا بأسرع من أهل البلدة؛ مع أن العدوى كانت أخفّ في الصحراء ولم تنتشر في منازلهم كمرض قاتل. كان المرض يصيب الرأس والأمعاء، البعض مات في اليوم نفسه، والبعض بقي لفترة أطول. كانت العلامات المرضية لدى المصاب بالطاعون هي بقعة سوداء تظهر على الأنف،وتغيّر لون الأظافر؛ والآلام هي تقريباً نفس آلام الكوليرا. بعد الطاعون نزلت بالبلاد حمى خبيثة لمدة سنتين، عندما تعب الناجون الضعفاء الذين يحملون الموتى على الحمير (لأنهم لم يكونوا يمتلكون أية قوة للقيام بذلك بشكل تقي، بأنفسهم) . . . . بعد واسط، في أرض بور، تقع بين جدران البلدة والجروف الواطئة للسُمرا مقبرة حائل الواسعة. الفقراء والأغنياء الذين انتهت حياتهم الدنيا، يرقدون هناك على حد سواء بشكل معوز معاً في أرض الصحراء التي أنجبتهم فيما مضى. القبر الأول هو كومة صغيرة يكون حجر الرأس (الشاهد) غير المشذب فيه هو كتلة بدائية من التلة البازلتية، والقبر الأخير مثله، وكذلك كل قبر؛ إذ إنك بالكاد ترى نقشاً محفوراً، حيث يفرد حيّز كبير للاسم. في البلدان السامية الحدودية توجد خرافة طويلة عن القبر؛ هنا ليس سوى المظهر البدوي البسيط، بدون العناية المُحبة الأخرى أو الزخرفة. في جانب من المقبرة يوجد ضريح عبيد، وهو رجل ذو باس شديد ومجد في أيامه؛ أما الآن فإن هذين [البأس والمجد] ليسا سوى ذكرى بعيدة؛ إنه يقبع على عمق باردة تحت الحصباء القذرة بقميصه، وعلى شاهدته خُدشت بشكل بدائي، بمسمار، هذه الكلمة الوحيدة، عبيد بن رشيد. عندما سألت ماجد، «وهل جده، عبيد العجوز، يرقد الآن هكذا ببساطة في الأرض؟» رنت كلماتي باردة وغريبة في أذنيه؛ بما أنه في هذه الأرض من الندرة، حيث لا تُخرج قطعة نقود على شيء ليس مهماً لحاجات حياتهم، فإنهم يقولون: «ليس سوى هدر أن يدفنوه على نحو مكلف». عندما يموت المرء، يقولون،

خلاص، «لقد انتهى»، ويرفضون بحكمة هذه الحالة المحزنة الأخيرة لأيام كل الناس بدون نواح شديد.

فيما بين المقبرة وبوابة البلدة يُشاهد منزل صغير للبدو المقيمين. إنهم متقاعدو القصر؛ وبغض النظر عن مظهرهم البائس فإن البعض منهم هم أقرباء للبيت الأميري. تكون خيامهم البدوية مسيَّجة من الخلف بجدران طينية، والبعض منهم لديه حجرة (قصر) مسقوفة بقماش الخيام، أو برج واطئ من نفس البناء الصلصالي. إنهم [من قبيلة] شمر، تكون ماشيتهم مع قبيلتهم في القفار؛ في أشهر الربيع ينتقلون أيضاً إلى هناك، وينعشون أنفسهم في موسم الحليب القصير. عندما مررت، نادتني امرأة من خيمة رثة، هي الأوسع. سألتني إن «كان لدي دواء لأجل عينيها المتألمتين؟» أخبرتني في حديثها أن أختها كانت زوجة متعب وأنها «خالة» محمد الأمير حالياً. لقد فرّ أبناؤها في الأوقات المضطربة ويعيشون حتى الآن في البلدان الشمالية. عندما سمت الأمير تكلمت همساً، وهي تنظر دوماً نحو القصر، كما لو أنها تخاف أن تحمل أجنحة الهواء كلمتها إلى مسمع الأمير. وقفت شقيقتها البالغة بقربنا، وهي تسحن التمن بهاون خشبي كبير، ودهشت لرؤيتها سافرة؛ ربما لم تكن متزوجة، والمسلمون لا يحترمون النصراني. كان خدا الفتاة المليحة الوسيمان يلمعان بسبب كونها تعمل؛ مثل هذا اللون اللحمي الخفيف لم أره من قبل لدى امرأة بدوية، فهن جميعاً نحيلات وشاحبات، أما هي فقد كانت امرأة قوية البنية ترعرعت في البلدان الشمالية الوافرة. لقد أحصيت خيامهم الثلاثين. قريباً من بوابة قفار كان ثمة خمس عشرة خيمة أخرى لأبناء شمر نصف الرحل، منصوبة بدون أي بناء طيني.

المقابلة الثالثة.بيت ابن رشيد. سطوته

مضى أسبوع ثم جاء الأمير محمد مرة أخرى من البراري: في عصر اليوم التالي طلبني بعد انفضاض المجلس. وجدني دلّاله هاجعاً في مخزني؛ نظراً لكوني مرهقاً ومحطماً في هذا العام الطويل من المجاعة والمتاعب، فقد وقعت في وهن كبير. أيقظني رجل الأمير بسرعة وعنف على طريقتهم الفظة: «انهض وتعال؛ الأمير يطلبك»، ولأنني تريثت لآخذ الكوفية والعباءة، حتى هذا، عندما دخلنا الحضرة، سُجِّل ضدي، إذ كان العبد يقول للأمير إنني «لم أشأ أن ألحقه»!

كان محمد قد انصرف عن المجلس مع الرجاجيل إلى قهوة عبيد. جلس الأمير الآن في مكان حمود، وجلس حمود حيث يجلس سليمان يومياً. كان السيف الأحدب والخفيف، ذو المقبض الذهبي، الذي يحمله محمد فالتاً في يده، مسنداً على الجدار بقربه؛ يقال إن النصل ذو حدة دقيقة إلى أقصى درجة. جلس كعربي، بصدريته القطنية المفكوكة وعباءته مع ساقين عاريتين وقدمين حافيتين، فصندله الذي خلعه عند السجادة، كان معروضاً أمامه. حيّيت الأمير بعبارة **السلام عليك**. ـ لا جواب، ثم سلمت على حمود وسليمان، اللذين كانا آنذاك من المعارف الودودين بالكلمات نفسها، وبعبارة **عليكم السلام** رحبا بي مبتسمين بشكل مريح مرة أخرى. دلّني أحدهم إلى مكان حيث ينبغي علي أن أجلس أمام الأمير، الذي قال باقتضاب، «من هناك؟» ـ «من مخزني» ـ «وماذا وجدت هناك لأفعله طوال النهار. ها! وماذا شاهدت في وقت وجودي في حائل، هل كان ذلك حسناً؟» عندما قال الأمير

«خليل!» كان ينبغي أن أردّ على طريقتهم هونك أو لبيك أو طويل العمر! ، وما هي رغبتك الحلوة، لكنني إذ أشعر كأوروبي بين هؤلاء الآسيويين بأنني خفيف اللسان، ومليء بالإرهاق القاتل، فقد التزمت الصمت. لذلك فإن الأمير، الذي لم يرد على تحيتي، التفت فجأة ليسأل حمود وسليمان: ما يردّ؟ «كيف انه لا يرد كلمة من يتكلم معه؟» رد حمود بلطف بالنيابة عني، «لا يقدر أن يقول، قد يكون خليل متعباً». أجبت بعد توقف، «لقد وصلت إلى هذا المكان متأخراً، لكن آغاتي[1]، أظن أنه جيد جداً». فتح الأمير عينيه العربيتين الأنثويتين الكبيرتين عليّ كما لو أنه استغرب البساطة اللامتكلفة في كلامي؛ وقال فجأة، بتشديد، أمام الجماعة، «أي» أظن ذلك بالفعل. إنه بخير! ـ وما رأيك يا خليل، هل الجو جيد؟.

ـ «أظن ذلك، لكن الذباب كثيف جداً».

اهم، الذباب كثيف جداً! وهل ذهبت إلى الحج على المدينة المقدسة (القدس)؟».

ـ «مرتين أو ثلاث، وإلى جبل طور، حيث جبل سيدنا موسى».

قال البعض منهم للأمير: «لقد سمعنا أن رهبان النصارى يقطنون هناك، مسكنهم مبني مثل قلعة في وسط الخلاء، والمدخل عن طريق نافذة في الجدار؛ ومن سيدخل إلى هناك يجب أن يرفع بالبكرات والحبال». سأل الأمير، «وهل لديهم ثروات؟».

ـ «لديهم ريع من الصدقات».

نهض الأمير، وهو يأخذ صندله، ووقف جميع الناس معه، أومأ إليهم أن يظلوا قاعدين، وخرج إلى المزرعة. في وقت غيابه كان ثمة صمت في كل الحضرة؛ عندما عاد جلس مرة أخرى بدون مراسم. سألني الأمير، الذي

---

(1) آغاتي: بلهجة العراق عزيزي، وأصل الكلمة آقا فارسية بمعنى السيد، وتُلفظ آغا. (ماجد شبر).

سوف يميّز رأيي في إجاباتي «هل كان التمر جيداً أم سيئاً ؟». فأجبت، «بطّال، بطّال، سيىء جداً» «هل الخبز أفضل، وما هو الخبز بلغتكم؟ كرّر لنفسه الاسم الذي كان سمعه بالتركية وكان يعرفه بالفارسية؛ إن محمداً، الذي كان سابقاً مرشداً للحج، يمكنه أيضاً أن يتكلم بتلك اللغة.

تكلم الأمير إليّ بالإيماءات النزقة الداعرة للعرب غير المسرورين جداً، والذين يمثلون الأدوار الأولى؟ الرفع المفاجىء للحاجبين، وذاك المط الضحل للرأس من العنق، اللذان هما من [صفات] السكان الطيريين لنجد البدوية، وحينما يتوقعون جوابك عند نهاية كل كلمة غير ملائمة. كان الأمير ذا رأي إيجابي تجاهي، لكن جماعة المتعصبين الصغار الأشرار دوماً من حوله كانوا يذمّون النصراني بشكل دائم. كان محمد الأمير حالياً أفضل كثيراً منهم، لأنه كان ذا فهم أرقى. عندما أكّدت جوابي على سؤال جديد من الأمير بالطريقة البدوية. «مقسماً بحياته» حياتك، قال لحمود، «هل رأيت؟ تعلم خليل أن يتكلم (العربية) بين عنزيين، إذ يقول آغاتي».

ـ وماذا عساني أن أقول، المحافظ؟ أنطق كما سمعته من البدو».

لم يشأ الأمير أن أسأله عن النحو، لكنه إذ سمعني أسميه هكذا بلقبه، القيّم (الذي هو تقريباً لقب الحامي Protector في تاريخنا)، قال باعتدال، «حسناً، احلف بحياة الله!» (اليمين الآخر، بما أنهم قد أصبحوا حذرين للغاية من الوهابيين تفوح منه رائحة الوثنية). أجبت بشكل ما على نحو غير مؤاتٍ للأمير «لكنهم يقولون بحياتك، في مسألة صغيرة».

عندما لم يتمن الأمير من أن يأخذ مني أية كلمات لطيفة من كلمات المتوددين (رجال الحاشية) فقد سارع حمود وسليمان، بكلامهما اللطيف، إلى المساعدة في حلّ المسألة وإعفائي فقالا : «بالتأكيد، خليل ليس على ما يرام اليوم، أيه، المسكين! يبدو مريضاً بالفعل!».

قضيت معظم ساعات النهار ممدداً بشكل واهن على الأرض غير

المكنسة لمخزني، عندما أخبر الشريران الأمير أنني أكتب عن بلاده؛ لهذا في غالب الأحيان كان يدخل جواسيس من القصر، يفتحون بابي فجأة، ليروا بماذا ينشغل النصراني. قال الأمير: «وأدويتك ما هي؟ هل لديك ترياق؟» [هكذا كان آباؤنا يسمون المضاد للسموم الحيوانية].

في وهن شديد، كنت الآن على وشك أن أغفو، وبدأ انتباهي يتشوش فلم يكن بمقدوري سوى أن أقول، «ما هو الترياق؟ ـ أتذكر، لكنني لا أملكه، بالله لا يوجد شيء كهذا!».

قال سليمان: «خليل لديه الكثير من الملح الإنكليزي (المغنيزيا) ـ أليس كذلك، يا خليل؟».

إزاء هذا الهجوم الممل، وكون الأمير العربي شديد الاهتمام بالسم، لم يكن بمقدوري أن أتمالك نفسي عن الابتسام، إنها إهانة أمام الحكام. عندئذٍ بدأ سليمان يدعوني لإعطاء وصف في تلك الحضرة للقارة الجديدة، فقد كان يودّ مني أن أقول، إذا لم يكن لدينا تمر هناك، لكن «طويل العمر» نهض فجأة وبغطرسة، كذلك نهض كل الباقين معه، وانصرفوا.

أقدم كلمة الآن عن الأسرة الأميرية وحالة جبل شمر:

وأولى المآسي في بيت ابن رشيد، أن طلال العائد من الرياض (التي اعتاد أن يذهب إليها كل عام بوصفها معقلاً للوهابيين مع هدية من الخيول) وقع مريضاً، مسقياً، مسموماً، كما يقال، في فنجانه، في شرق نجد. تدهورت صحة الأمير، ووقع في نوع من نوبة السوداوية (مالنخوليا). أرسلَ طلال إلى بغداد من أجل حكيم فارسي بعينه. نزل الحكيم إلى حائل، وعندما زار الأمير، أعطى حكمه على نحو غير حكيم: «هذا المرض لا يؤدي إلى الموت، إنه بالأحرى علة طويلة الأمد لا بُدّ أن تبدد عقلك». أجاب طلال، «آها، هل سأكون أبلهاً؟ والله مجنون! وأنا الحاكم؟». ولأن قلبه النبيل قد لا يتحمل أن يعيش تحت شفقة العوام فقد قام ذات يوم بحبس نفسه في حجرته،

وصوّب مسدسه إلى صدره الرجولي وأطلق النار وانتهى. هكذا أصبح متعب، شقيقه، أميراً على حائل، بوصفه الأكبر ضمن أبناء البيت الأميري الذين يرث عبد الله لقب أبيهم، أولاد طلال تمّ إغفالهم (شرعياً) فقد كان أكبرهم (آنذاك، بندر) الذي صار، بعد مأثرته الإجرامية، أميراً، شاباً في السابعة عشرة من عمره، سمعت غالباً عن متعب يُمتدح كرجل معتدل السلوك، وليس ذا فهم عادي؛ كان أميرياً وشعبياً في الوقت نفسه، كما معظم أهل بيته، وسياسياً، مثل شيوخ العرب الكبار وحاكماً ثرياً. جلس متعب عامين غير كاملين، - دائماً في [حالة من] الكره لابن أخيه بندر، الذي كان شاباً غرّاً وصعب المراس. قرر الشابان الفظان، بندر المتآمر مع أخيه التالي له، بدر، ضد عمهما، أن يقتلاه.

كانا يعرفان أن عمهما يحمل على ذراعه تعويذة تحمي حياته من الرصاص هكذا وجد قاتلا العم وسيلة لصبّ رصاصة فضية. - جلس متعب في ساعته القاتلة مع أصدقائه والرجال المسلحين أمامه في مجلس العصر، الذي يعقد، كما يقال، على الجانب الآخر من (المسحب)، على بعد خمس وعشرين خطوة في واجهة القصر. كان بندر وبدر قد صعدا خفية من الشقق بالداخل إلى أعلى سور القصر، حيث توجد مصطبة ومتراس. إن بندر الذي كان يصوّب بارودته الفتيلية من خلال كوة صغير في الجدار هو الذي أطلق النار أولاً؛ ومن المحتمل جداً أن يده ارتجفت عندما عرف أن كل شيء متوقف على تلك الطلقة، لأن رصاصته انحرفت قليلاً وكشطت عصبة الرأس السميكة على رأس شيخ بدوي كبير، ابن شعلان، زعيم قبيلة الروالة العنزية المعادية في الشمال، والذي وصل في ذاك اليوم من ديرته، لزيارة الأمير ابن رشيد. أجفل ابن شعلان وهو يسمع صوت الطلقة يئز حول أذنيه، و[وصاح] وهو يضع يده على رأسه، اخسّ، محفوظ هل كنت ستقتلني! ردّ الأمير، الذي تابع الجلوس، ولم ينقذ نفسه بهروب غير لائق، على الشيخ بوجه لطيف ثابت. «لا تخف، ألم تر أن الطلقة كانت موجهة إليّ». الطلقة الثانية أصابت الأمير في الصدر وكانت طلقة بدر.

إن بندر، الأمير آنذاك، لم يستمر عاماً كاملاً، ولم يستطع أن ينجح في عهده، حدث ذاك الوباء الذي أتلف البلاد تلفاً كبيراً. فر محمد الذي كان الأمير آنذاك، عندما أسقط أخاه متعب، إلى الرياض، حيث عاش لفترة من الزمن. كان الأمير الوهابي، عبد الله بن فيصل آل سعود، وسيطاً لمصالحتهما، فدعا بندر، عن طريق الرسائل، الواعدة بالسلام، عمه للعودة إلى الوطن. هكذا جاء محمد، وهو يستلم منصبه القديم، فقد صار حاكماً مرة أخرى على قافلة حج بغداد. ذهب محمد مع القافلة العائدة من مكة إلى بلاد ما بين النهرين، وهناك كان عليه أن يشتري مؤونة عام من التمن (الأرز) من أجل المضيف (إذا كنت تصدقهم، حمولة ألف جمل، 150 طناً!) لم يجد محمد سوى أعراب ضفير في المشهد، فاستأجر جمالاً منهم مع وعد بالمرور الآمن ذهاباً وإياباً، في أملاك ابن رشيد؛ لأنهم كانوا بدواً من الخارج، ليسوا ودودين مع الجبل.

استغرقت الرحلة من البدو مسيرة أسبوعين بسبب الجمال المحمّلة؛ عندما كان محمد يقترب من حائل، أرسل أمامه رسوله لتحية الأمير قائلاً: «محمد يسلم عليك، وقد جلب مؤونتك من التمن من أجل المضيف» ها! هل محمد قادم؟ أجاب بندر، «لن يدخل حائل». ثم ركب بندر وبدر وحمود وانطلق الثلاثة معاً، لملاقاة محمد؛ وبناء على أمر من بندر أغلقت بوابات البلدة وراءهم.

جلس محمد على ذلوله، عندما التقوا به، كما كان قد ركب قادماً من الشمال، وقال بندر، «محمد، ما هؤلاء البدو الذين جلبتهم إلى حائل؟» الضفير! مع أنك تعرفهم أنهم أعداء لنا! قال محمد: «والله، يا محفوظ لقد جلبتهم بوجهي، تحت نظري! (وبالطريقة العربية مسّد وجهه نزولاً إلى اللحية) لأنني لم أجد أحداً آخر من أجل تحميل تمنك». حين انحنى عليه بندر، فإن حمود، الذي كان مرتبطاً بعهد مع ابن عمه محمد، رسم له إشارة مفادها أن حياته في ريبة، ـ بأن يسحب (هكذا يقال) السبابة على حنجرته. تكلم محمد

إلى واحد من البلدة كان يمرّ على صهوة الحصان، «هو هناك! هل تعيرني فرسك لوهلة»، وهو يتظاهر كما لو أنه سيذهب ويشرف على إدخال وتفريغ حمولة قافلته. إن محمد، عندما استوى على صهوة الحصان اندفع إلى الأمير الشاب وأمسك قرنا[1] حصان بدر وبيده الأخرى أخذ الخنجر العريض المعقوف، الذي يرتدونه في السفر على النطاق.

- «لا يا عمي، لا يا عمي، لا تفعلها، لا تفعلها»، - صاح بندر في رعب وحشرجة الموت. أجاب محمد بصوت قوي قاتل «لماذا قتلت عمك؟ خذه في بطنك (لقد افترست الشرف، الحياة، وكل شيء)». وبطعنة قاتلة غرز النصل في أحشاء ابن أخيه! هناك لم يتبق أي خيار لمحمد، عندما تلقّى الإشارة، إذ يجب عليه أن يذبح ابن أخيه الأكبر، أو أن روحه ستزهق؛ لأنه إذا كان سيهرب، فكيف يمكنه أن يتفوق على القاتلين الشابين الجاحدين؟ كان ذلوله مُتعَباً، وكان هو نفسه مُتعَباً؛ يجب عليه أن يتخلى عن الضفير، التي عُهدت إليه بكلمته الأميرية. يكون الطموح العقيم إلى الحكم مستبداً، طموح كل العرب الذين يولدون قرب الدولة الشيخة[2]. كان محمد رجلاً خصوصياً وفياً في ظل متعب؛ أما وقد سقط أخوه، فما الذي بقي سوى الثأر له؟ وإكليل الغار ينبغي أن يكون له.

أما وقد ذبح بندر، فيجب عليه أن يستأصل إخوانه، وإلا فإنهم سوف يعرضونه للخطر. هذه هي مآسي بيت ابن رشيد! بدايتها كانت من طلال، قاتل نفسه، خطأ شخص يمتد بعيداً حوله، هكذا هي الطبيعة الملعونة للشر، مثل دوائر يحدثها حجر يقذف في الماء يعكّر كل البركة. ثمة البعض ممن يقولون إن حموداً جعل موت بندر أكيداً بطلقة مسدس، - يمكن أن يفعل ذلك، لأن مصيره كان مربوطاً بحياة محمد. لكن الأشخاص الموثوقين في حائل أكدوا لي أن حموداً لم يكن له يد عنيفة في ذلك فقد قتل حمود رأس حصانه،

(1) ليس للحصان قرنان بل له عرف، أو أمسك بلجامه.

(2) أسرة الشيخة في القبائل والبلدان.

وأسرع إلى البلدة وأمر «بإبقاء البوابات مغلقة، ومنع أي رجل من أن يخرج أو يدخل لأي سبب»، وهو يركب داخلاً إلى المسحب صاح: «اسمعوا، جميعاً إن رشيدياً قد ذبح رشيدياً فلا يتفوهن أحد منكم بكلمة لا تدعوا رجلاً يرفع صوته أو يأتي بحركة، تحت طائلة قطع رأسه بالله بهذا السيف».

في حائل ساد صمت طويل، انكمش الناس المذعنين من الشوارع إلى بيوتهم! كان البدو في البلدة مذعورين، سكان الخلاء، الذين لا يمكن لرجل «أن يوصد الأبواب والقضبان في وجههم»، وهم يرون بوابات حائل تُغلق من حولهم.

بدأت مذبحة مرعبة في القصر، لأن محمداً أمر بأن يُقتل كل أولاد طلال، والأولاد الأربعة لشقيقته، أرملة المدعو جبر من بيت ابن علي (أي، حتى يفوز عبد الله بكل شيء، قتل الذين كانوا سابقاً في نزاع مع الأسرة الرشيدية من أجل مشيخية حائل، ـ ومنهم كانت أم محمد). ولقد نفذ أمر عمهم الدموي، وأخرجت الجثث الساخنة النازفة، اللافظة أرواحها الفتية، في نفس الساعة إلى الدفن.

اهتزّت كل حائل في ذاك اليوم حتى المساء والليل الطويل حتى الصباح، عندما نادى محمد، وهو يقف في المسحب بسيفه المستل، على أولئك الذين كانوا يجلسون بخوف على المقاعد الطينية، وكانوا في معظمهم بدواً «يا مسلمين! ما عاملتهم هكذا إلا لأنني كنت خائفاً على هذا: (صفق براحة اليد اليسرى على جانب عنقه)، ولما كانوا على وشك أن يقتلوني، فأنا سبقتهم، فمنعتهم». بعد ذلك قال: «وهم الذين قتلوا أخي متعب، هل تظنون أنهم قد وفروني؟» ونحن نسمع صوته، جلسنا (أخبرني شاهد عيان، من المطير) مذهولين، «كل واحد منا يرى الموت الأسود أمامه».

ثم جلس محمد في مكان الأمير مثل المحافظ. بعد ذلك مباشرة دخل بعض الأشخاص الهامين في حائل إلى المسحب وهم ينحنون لهذا السيد الجديد لحيواتهم، يمنحونه بهجة سلطته المغتصبة. وهكذا (خرجوا من

الحماض ودخلوا في القراص)[1]، فتنحى بندر، ويبدأ محمد يحكم؛ ولم يكن الحكم كما يقولون، بتدبير أكثر كفاية.

انطلق بدر بعيداً على فرسه في سبيل الحياة المرة ـ الحلوة إلى البراري القاحلة: لقد فرّ عند العصر. في الصباح، وقد وهن من الجوع والعطش، والأسى المكابد للمعقل والإنهاك، أفلت حصانه المنهوك القوى، وتسلق جبلاً. ـ من هناك أمكنه أن يطلّ بعيداً على رعب العالم، الذي أصبح بالنسبة له مكان احتضار شاسع! كان محمد قد أرسل خيالته لتفتيش الخلاء، والقبض عليه، وعندما وجدوا بدر في الصخور لم يصغوا إلى توسلاته المحزنة. فقتلوه هناك بلا رحمة، وحملوا جثته بسرعة وعادوا في اليوم نفسه إلى حائل. عندما دخل زعيمهم، وكلهم مهتاجون، إلى محمد، هتف متهللاً: «والله، يا محفوظ، جلبت لك أنباء سارة! قد يسرك أن تأتي معي وسأريك بدراً يتمدد ميتاً؛ هذه اليد فعلت ذلك، وهكذا ليهلك كل أعداء الأميرا» لكن محمد نظر بتجهم إلى الرجل وصاح، «من أمرك بقتله؟ هل أنا أمرتك، يابن الكلب؟ متى، أيها الملعون؟ الله يلعن أباك، أخس! هل ذبحت بدراً؟»، وهو يستل سيفه، سدّد له ضربة خلفية نظيفة على عظم الرقبة فقطع بضربة واحدة (كما يدعون) رأس الرجل التعيس. لقد استخدم محمد السياسة المرة القديمة للطغاة، التي يأملون بموجبها أن يجعلوا قضاياهم المعقدة تبدو أكثر نزاهة للعين الضبابية لعامة الشعب. «كيف حصل ذلك، سألت، أن بدراً، الذي لا بد أن يعرف البرية إلى مسافة بعيدة من حوله، بما أن الأبناء الأميريين يرافقون الغزوات، أنه لم يسرع الخطا على حصانه بشجاعة للهروب بطريقة ما؟ ألم تتمكن فرسه من حمله مئة ميل؟ ـ فرجل ذو شجاعة وقوة، في الشدة كان من الممكن أن يصمد، إلى أن يكون قد

(1) بالإنكليزية out dock in nettle مثل شعبي يقال للتعبير عن الانتقال من سيىء إلى أسوأ (المترجم).

تجاوز سلطة ابن رشيد، ودخل في أول بلدة من القصيم». فكان الجواب «كان الشاب مشوشاً بهذه النكبة الكبيرة، وجاهلاً، ذا مزاج أحمق ولم يكن ثمة أحد ليخلصه».

تحالف حمود ومحمد معاً، فقد كان ثمة خطر بينهما وبين أبناء طلال؛ ولو لم يحبطا بندر وبدر، لدفعا حياتهما ثمناً لذلك. كانت المجازر مخالفة بالتأكيد للطبيعة الرحيمة للرجل القوي حمود. إن حمود، الذي بسبب سيمائه الرصينة السارة، في عيون الناس، قد استحق أن يُسمى من قبل المواطنين زملائه باسم «عزيز»، محبوب، هو بسبب كل ذلك، عندما يشاكس خارج الصداقة، رجل متكبر ذو لسان ذرب وسليط وجبار. كما كان والده؛ ومما لا شك فيه أنه سيكون نمروداً طاغياً في حال وقوع أي خطر فوري. بالإضافة إلى ذلك فإن العرب يتعاملون هكذا مع العرب؛ لا يوجد أعداء أكثر خطورة . . . إن حمود خارج المضيف، هو ككل العرب، ذو مزاج تعيس إلى حدٍّ ما، وسمعتها في حائل أن «حمود . . . !»[1] أي . . . . أو اسوأ. هذه المصطلحات الخسيسة للحجاز، انتشرت من أوكار الحياة البدوية؛ في ظل الحكام الإجراميين، في المدن المقدسة؛ وليس من مدارس الكلام الحسن والأخلاق الحميدة، أي القهاوى في الواحات العربية والمجالس في الخلاء المفتوح. كان ثمة ضرورة مخيفة مفروضة على محمد، لأنه لم يكن بمقدوره أن يجلس مطمئناً كل يوم إلا بواسطة هؤلاء المجرمين من أبناء دمه القريبين. محمد لا أولاد له، وهو رجل عقيم بذاته؛ أما حمود العبد المخلص فله أولاد كثر.

إن محمداً وقد تبدّدت الأخطار الآنية المحيطة به، قد كرّس نفسه لعمل الحكم، ليكسب الرأي العام بجدارته الصحيحة؛ ويؤثر على الأخلاق الشعبية، فكان أسهل تحقيقاً للعدالة مما كان طلال سابقاً. فكان أميراً لا يستخدم سلطته، حيث لا يقاوم، مع اعتدال أكثر صرامة في البيت، لكنه عديم الشفقة في استئصال الأعضاء الفاسدين من الجماعة. عندما ثار عليه الجوف مرة

(1) هنا يوجد تعبير بلفظ نابٍ نوعاً ما ارتأينا وضع نقاط بدلاً عنه.

أخرى عن طريق عصيان المغاربة المتبقين في الحامية يقال إنه أمر بقطع الأيادي اليمنى للكثيرين الذين خانوا الولاء للدولة. مع ذلك فإن الجوف لم يكن جيلاً كاملاً تحت الجبل؛ لأن محمداً نفسه، الذي كان آنذاك شاباً، كان مع عمه عبيد عند الاستيلاء عليه، وجرح عندئذٍ بطلقة في القدم استقرت في العظم؛ وقد استؤصلت الطلقة مؤخراً منه في حائل من قبل حكيم فارسي، قدم لهذا الغرض من بلاد الرافدين.

كما هو حال كل هبة لدى هؤلاء الأمراء العرب، فإنهم ينفقونها على الربا. فمن السهل أن يخسروا جنيهاً اليوم، ليعود عليهم بعشرة ضمن مدة معينة، أن يعود بعشرة في فمه. يقول العرب، «اعتاد ابن رشيد أن يتعامل مع كل رجل على عقله أي وفقاً لفهمه». كان الحظ معاكساً لشباب محمد فقد جعلته الصدفة الدموية حاكماً. في حكمه كان يتعامل بأناة مع من لا يمكن إصلاحه على الفور؛ فهو لا يستطيع بالقوة وحدها أن يلجم الرغبات المراوغة للبدو؛ ورغم أن قلبه ينتفخ سراً، فإنه يستقبل الجميع بمحياه البشوش، وبخطاب ودي؛ وبكلمات قليلة، يطرح عليهم الأسئلة بذكاء، فيتعرف على آرائهم. إنه يرسل مطلق شيخ الفقرا[1]، الذي كان يكرهه، إلى البيت مبتسماً، والأمير سوف يجبي ميرة (ضريبة) العام القادم من الفقرا بدون مشيئة رجال القبيلة أولئك. أما رجال تيماء الأساسيين، [تيماء] بلدته الجيدة الممتدة، أولئك الذين هبط بئرهم فينصرفون عنه محملين بمكافآت. إن محمداً يهدئ عقول الناس العاديين؛ فإذا ناداه أي بدوي فجّ في الشارع، أو من المجلس (كلهم شحاذون متشردون) أها، يا محفوظ، أطال الله عمرك! صدقاً لقد أتيت إلى هنا، في هذا الربع، والله أنا عريان، فإنه سوف يصرفه بكياسة بكلمة بسم الله اذهب مع هذا الشخص وهو سوف يعطيك ثياباً ـ فتلك سترة تساوي شلنين في حائل، والعباءة الصوفية الخشنة المحاكة تسعة شلنات والكوفية ستة بنسات؛ وبما

(1) الفقرا: فخذ من ولد سليمان من عنزة.

أنها تُشترى بالجملة في بغداد، وتجلب على ظهور جمال الأمير، فقد تكلفه عشرة شلنات.

ما هي الدولة والسلطة التي كان هؤلاء العرب العنيفون يتصارعون من أجلهما. إن ابن رشيد هو مالك حوالي ثلاثين واحة، كما فهمت، توجد فيها خمس بلدات صحراوية جيدة: سكاكا، الجوف، حائل، قفار، تيماء، بعدد إجمالي للسكان يبلغ 12,000 إلى 13,000 نسمة، توجد قرى جيدة، مثل القصر، الموقق، عالي، المستجدة، فيض، الروضة، الحياة، وغيرها الكثير مع عدد سكان يبلغ حوالي 5,000 شخص، ثمة،بالإضافة إلى الواحات، كثير من المزارع الصغيرة الممتدة في صحراء جبل شمر تقطنها أسرة أو أسرتان الذين هم مستعمرون من القرى المجاورة؛ في أفضل الأحوال يمكن أن تكون عشرين بيتاً، وفي الحد الأدنى لا يتجاوز سكانها العشرة؛ مثل جفيفة، الأجيلة، الغوسة، بيدية، حليفة، ثرغود، مكحول، عُظيم. البعض منها ليس سوى بيوت ريفية، في حين تقبع مهجورة، بعد أن يُحمل حصاد نيسان، حتى بذر الخريف وأشهر الري الجديدة. لكن مزارع النخيل لها سكان مستقرون، مثل ثرغود وبيدية. هكذا فإن عدد السكان المستوطنين لجبل شمر قد يصل بالكاد إلى 20,000 نسمة. أضف إلى هؤلاء البدو التابعين، بني وهب - الفقرا، 800، ونصف قبيلة ولد علي، 3,000، أو أقل؛ قبيلة حرب الشمالية الخاضعة لابن رشيد - تبلغ 2,000، شمر الجنوبية، حوالي 2,000، هتيم في الداخل، 1,500، شرارات 2,500، ولا أحد يُضاف إليهم في المجموع يبلغون 14,000 شخصاً أو أقل. ومجموع القاطنين المستقرين والرحّل قد لا يزيد عن 30,000 نسمة .....

الأمير محمد عديم الشفقة في المعركة، فهو يطلق النار ببارودة أوروبية؛ إن حمود، ذا القوة الخرقاء، يشاهد وهو يمزح بالسلاح إلى جانب الأمير، وإذا دعت الحاجة، نظراً إلى أنهما تعاهدا حتى الموت، سوف يغطيه بجسده. إن الأمراء، وقد أنزلوا عن ذلولهم ويجلسون على صهوة الحصان وهم يرتدون

دروع داود، هم بين طلائع المقاتلين، وأجنحة الجنود المسلحين، يطلقون النار على الأعداء ويصيبونهم في اليدين. إن معركة الأمير قد تغلبت على البدو الفقراء، ثقلاً وعدداً؛ لأن المشاة، وراكبيه من القرى، المعتادين على الحياة المدنية، يسمعون كلمات الإيعاز، ويمكنهم أن يحافظوا على أنفسهم في جسم واحد معاً. ولكن البدو البسطاء، في خضم حياتهم الرعوية، ليست لديهم أدنى فكرة عن الممارسات العسكرية، فمن الصعب أن يجتمعوا، في يوم المعركة، تحت إمرة شيخهم، لكنهم مثل الصقور الزعّاقة يقاتلون على نحو مشتت، فيهجمون هنا وهناك، كل رجل يضع في الاعتبار المصلحة الخاصة أكثر من المصلحة المشتركة، [ومصلحته الخاصة] هي أن يلتقط غنيمة حقيرة: فالبدو الفقراء يعترفون بأن ما يخونهم هو الطمع، الجشع إلى الكسب. لذلك تكون مقاومتهم ضعيفة، والويل للمكسورين واللائذين بالفرار! لا يرحم أحداً من أعداء الأمير حتى يُفنون، ووحشية هي رحمات المشاة والعبيد القساة القلوب لابن رشيد. لقد عرفت أنه عندما أسر بعض رجال القبائل البائسة فقد رمتهم عصابة الأمير في آبارهم ـ العرب لا يأخذون أسرى. المعارك مع البدو تُخاض عموماً في الصيف، حول محطات المياه الرئيسية، حيث يقيمون طويلاً في مخيمات قائمة كبيرة.

هكذا يقول البدو: «إن ابن رشيد هو الذي يضعف البدو!» مقاومتهم محطَّمة، يستقبلهم بين تابعيه الحلفاء ويخلصهم من كل أعدائهم من جانبه. يوزع جزءاً من الغنيمة العامة على المشاة وحصة كل رجل عموماً على من يضع يده أولاً. فإبراهيم الجزائري، من الذين كانوا يأتون غالباً ليتكلموا معي حول بلده الغربي، قال إنه تُسلّم لكل رجل من رجاجيل الأمير ثلاثة أو أربعة ريالات عند بدء الرحلة، وإنه يمكن أن يشتري لنفسه القمح والتمر والذخيرة؛ وهناك يحملون معهم أحياناً قدر حمولة أربعة جمال من المسحوق [البارود] والرصاص من حائل، الذي يكون جزء منه لأجل البدو الذين سينضمون إليهم في الطريق.

لكن للإحاطة بالإمارة أو السلطنة في صحارى ابن رشيد، ـ حدودها من الشمال هي الروالة، شمر الشمالية وسبخات الضفير، أما القبائل البدوية الصديقة فهي باتجاه الجبل، لكنها ليست تابعة له. إلى الشرق تقع حدوده عند إمارة بُريدة، التي سنرى أنها إمارة ذات عدد لا بأس به من القرى في نفوذ قصيم، كالعيون، الخبرا، الرُّس، لكن بلا بدو تابعين. إن بيت حائل الأميري متحالف بالزواج (متصاهر) مع ذاك الفلاح، وهما متفقان معاً ضد الشرق، أي عنزة، والسلطة المتداعية الآن للوهابي وراء الجبل. ففي الجنوب، كونه قد فقد خيبر، فإن حدوده هي حوالي مئة ميل من المدينة؛ الصحارى الواقعة تحت سيطرته مقيدة باتجاه الغرب بطريق الحج الكبير الآتي من سوريا، ـ إذا استبعدنا بني عطية ـ وكل الأرض التالية من الشرارات الخاضعة له، التي تنحدر إلى جبل شراة وهكذا تلتف عن طريق وادي سرحان إلى بلدتيه الشماليتين الجيدتين الجوف وسكاكا وضواحيهما. بكلمة واحدة، كل ريف ابن رشيد الصحراوي الممتد بين جوف، والقصيم وطريق الحج؛ في الجنوب الشمالي على امتداد حوالي تسعين فرسخاً، وبين الشرق والغرب يمكن أن يمتد إلى مئة وسبعين فرسخاً. والمجموع يبقيه بشكل مستمر خاضعاً له بقوة (حسب قولهم) مؤلفة من حوالي خمسمائة راكب جمل (ذلول)، ورجاجيله وقروييه؛ لأنه هو من يمكنه أن يحشد بأعداد مساوية خارج البرية الميتة، أو الضعف من البدو الهمجيين الكثيرين الذي يكاد نصفهم أن يكون بلا أسلحة لمقاومته؟.

عنف مقّدم القهوة

أضرمت النار صباحاً ومساءً في القهوة الكبيرة وذهبت إلى هناك لكي أتدفأ مع البدو، ذات مساء قبل أن يأتي أحد تقريباً، اقتربت لأتدفأ عند الموقد ـ «ابتعدا (صاح مقدم القهوة، الذي كان ذا مزاج متعصب نكد جداً) واترك النار للضيوف الذين سيصلون حالاً». دخل بعض البدو وجلسوا بقربي. «أقول، عُد!» صاح صاحب القهوة. «الحظة، يا رجل، فأنا أتدفأ؛ ألسنا جميعاً ضيوف الأمير؟» قال بعض البدو في أذني: «كان من الأفضل أن ترحل، وألا تعطيهم فرصة». كان ذاك القهوجي يبدي يومياً ضغينته، قاطعاً حديثي مع البدو، عندما سألني شخص «إلى أين ستذهب بعد هنا، يا خليل؟». «إن شاء الله (صاح مقدم القهوة) إلى جهنم!» لقد سمعت أنه واحد ذو وضع عبودي من عنيزة في قصيم؛ لكن كونه يتلقى التحية بشكل تبجيلي كل يوم من قبل شيوخ البدو الضيوف، فقد صار ذا رأي جليل بنفسه. إن الاستسلام إلى استبداد خادم يمكن، كما أظن، أن يشجع وقاحة متعصبين آخرين في حائل. صاح مقدم القهوة، بصوت مسعور، للبدوي الجالس بقربي، «ناولني عصا الجمال تلك» (التي يحملها البدو دوماً في أيديهم) وانتزعها منه، وضربني بها البدوي بكل قوته الواهنة. كان البدو قد نهضوا من حولي بنظرات قلقة، ـ ربما شعروا أنهم أنفسهم ليسوا بمأمن؛ إذ لا أحد من هؤلاء كان من الشيوخ، فلا يجرؤون على النطق بكلمة واحدة، سوى أنهم أشاروا عليّ بالانسحاب والجلوس معهم على مسافة قليلة. لقد كان من الخطورة أن أدافع عن نفسي بين الجبناء؛ لو سرى الخبر في البلدة أن النصراني جار على مسلم، عندئذٍ فإن

النار الهمجية سوف تشتعل في قلوب كثيرة للانتقام منه. لذلك يجب أن يسمع الأمير عن الموضوع وأن يمارس العدل، وإلا لكان كل سليط، طيلة فترة بقائي في حائل، سيظن أنه يحمل إذناً لإهانتي. مررت بالردهة إلى شقة الأمير، وقرعت على الباب الحديدي، فسمعت الغلام العبد الذي بقي في الداخل يقول للحارس إنني خليل النصراني. أخرج الأمير نصراً ليستفسر عن شأني، وذهبت لأجلس في المسحب. فيما بعد قال شخص خارج من القصر وكان مع الأمير، إن الأمير أرسل في طلب مقدم القهوة حالاً، وقال له: «الماذا، الله يلعن أباك، ضربت النصراني؟» «والله، (أجاب البائس مرتجفاً) لم ألمسه!» هكذا خاف من الأمير، الذي قال بعدئذٍ لبعض الحرس «اضربوه!» - لكن حمود نهض ومضى إلى الأمير، قبّل يد ابن عمه، سائلاً إياه، كرمى له، أن يغفر لمقدم القهوة، «المسكين» اذهب يا قهوجي، قال الأمير، وإذا سمعت عنك مرة أخرى لن ينقذك أحد، لكنك ستفقد عملك. لأنني هجرت صالة القهوة، جاء مقدم القهوة الثاني مرات كثيرة إلى مخزني، وتوسل إليّ لأعود بينهم؛ لكنني أجبت بالقول، «هناك ضيوف الأمير ليسوا آمنين من الإهانة!».

الرحيل عن حائل. رحلة خيبر

لم أعد أفكر ببغداد، بل بخيبر؛ قبلئذٍ كنت قد مكثت طويلاً في حائل. عند المساء ذهبت إلى قهوة عبيد لأتكلم مع حمود؛ كان ينحني في بداية صلاته الخاصة فجلست صامتاً بانتظار فراغه من الصلاة. تطلع ابن عبيد في نهاية الركعة الأولى إلى الأعلى، وسأل وهو يهزّ رأسه بابتهاج، «خليل هل ثمة حاجة، هل تريد أي شيء في الوقت الحالي؟» - «لا شيء الحمد لله».

«إذاً سأنتهي قريباً». عندما جلس حمود مرة أخرى في مكانه، قلت «رأيت عافية الولد فيصل تعود. رغبت في الرحيل، وهل كان سيرسلني إلى خيبر؟» أجابني حمود، «إذا رغبت في ذلك».

- «لكن لماذا، يا خليل، إلى خيبر[1]، ماذا يوجد في خيبر؛ وهم ليسوا أصدقاؤنا، يا خليل، أخاف عليك من تلك الرحلة».

«لا بد لي من الذهاب إلى هناك، سأرى أنتيكات [عاديات] اليهود، كما رأيت في الحِجر».

---

(1) حمى خيبر معروفة منذ العصر الجاهلي لكثرة مياهها ويقول الأخنس بن شهاب التغلبي من قصيدته البائية:

لابنة حطان بن عوف منازل   كما رقش العنوان في الرق كاتب
ظللت بها اعرى واستعر سخنة   كما اعتاد محموم بخيبر صالب

لهذا ينهاه حمود العبيد من الذهاب إلى خيبر خوفاً عليه من الحمى وهي حمى الملاريا.

ـ «حسناً، سأجد وسيلة ما لأرسلك؛ لكن الحمى قاتلة، لا تذهب إلى هناك، ايه خليل! وإلا ستموت هناك».

ـ بما أنني كنت قد عبرت العويري الكبير فقد رغبت أيضاً في اكتشاف حرات خيبر، وهو ريف عربي بركاني آخر، وقد سمعت أنه توجد فيه رؤوس وادي الرُّمة، التي تقع إلى الغرب من جبال طويق يوجد المجرى المائي الجاف لكل الجزيرة العربية الشمالية. هذا الوادي الكبير الذي ينحدر من الرؤوس فوق الحيات والحويات إلى وادي الفرات في الزبير، ضاحية البصرة، له مسار يلتف من «مسيرات خمسين يوماً من مسير الجمل».

طلب مني حمود، الذي كان آنذاك يمطّ ذراعه الرجولي الكبير، أن أجسّ نبضه؛ كانت خفقات دم قلبه أكبر من خفقات أي رجل تحسسته بين العرب، فقد كان الرجل قوياً مثل بطل. عندما يمدون سواعدهم للحكيم، يظنون أنهم يمكن أن يفهموا كل صحتهم، فقد انتُقص من قدري عندما قلت إنه دجل. «البارحة استُدعي طبيب فارسي في الحج إلى القصر ليجس نبض الأمير. قال الفارسي، «هل لديك ألم، يا مولاي، في الركبة اليسرى؟» فرد الأمير «بلى أشعر بألم هناك والله!» ـ ولا أحد كان يعرف ذلك!.....

..... بعد ذلك، التقيت مع مبارك. قال لي «هل ستذهب إلى خيبر؟ البعض من [قبيلة] عنزة هنا سينقلونك». عندما سمعت أن منازلهم هي في الخرام، وأنهم يمكنهم فقط أن يحملوني مرة أخرى إلى المشعل، وأنهم سيرحلون حالاً. قلت إنني لا يمكن أن أكون جاهزاً بهذه السرعة للقيام برحلة طويلة ويجب أن أحصّل الديون من أجل الأدوية. «سوف نجمعها من أجلك، لكن لا يمكننا أن نتحمل بقاءك أطول من ذلك في بلدنا، إذا كنت ستذهب إلى خيبر، فسوف نرسلك إلى خيبر أو إلى القصيم، سنرسلك إلى القصيم. إلى خيبر» مع ذلك أنذروني قبل يوم أو يومين مسبقاً، لكي أكون مستعداً.

في الصباح بعد التالي، كنت أحتسي القهوة مع أولئك الذين من الرياض، عندما دخل شاب مقطوع الأنفاس يلهث، جاء كما قال، ليناديني،

من مبارك. قال إن مبارك عندما التقاه قال، «وجدنا بعضاً من الهتيم الذين سينقلونك إلى خيبر».

ـ «ومتى سينطلقون؟».

ـ «غداً أو بعد غد صباحاً».

لكنه أرسل في طلبي بعد ساعة ليقول إنه قد أعطاهم هدية، ويجب عليّ أن أنطلق حالاً «لماذا خدعتني بكلمة غداً؟» حمّل أغراضك واركب.

«ولكن هل سترسلني مع الهتيم!».

ـ «أي، أي، أعطني مفتاح المخزن واستعد لأنك ستركب حالاً».

«ولا يمكنني أن أتكلم مع الأمير؟».

ـ «اخلُص! لقد تمّ الأمر لا تتأخر، أو والله إن الأمير سوف يأمر بقطع رأسك».

ـ «هل سوقي هذا في الصحراء لإبعادي، سراً؟».

«لا شيء سيحصل لك».

ـ «الآن دعني أرى حمود أولاً».

إلى هناك جاء عندئذٍ خادم حمود، وهو يحمل في يده أربعة ريالات، قال إن عمه قد أرسلها إلي. كذلك جاء زيد، الحمال المغربي للقصر؛ كنت قد أظهرت له لفتة طيبة عن طريق منحه الأدوية، لكن الوغد الفظ يقول الآن أنت ليس لك قلب (فهم) إذا كنت ستقاوم مبارك، لأن هذا هو القائد ويسير خلفه خمسمائة رجل.

تأخرت لأعطي مفتاح بابي الخشبي، خوفاً من أن يكونوا قد رموا الأغراض وأن يكون مقياس الضغط قد انكسر، أو إذا فتشوها أن يكون مسدسي قد سُرق؛ كذلك شككت فيما إذا كان لدى رئيس الحرس (الذي كان

في كل لحظة يمدّ يده إلى مقبض سيفه) مهمة سرية لذبح النصراني هناك في الداخل. إن عبيده قد أحاطوا بي، فقام بعضهم بخلع ملابسي، والبعض دفعني إلى الأمام؛ فقد كانوا يريدون سوقي بالقوة إلى المخزن.

ـ «هل المخزن لك أم لنا، يا خليل؟».

ـ «لكن يا مبارك، لم أعد أثق بك، انقل كلمتي إلى الأمير، «لقد جئت من الدولة فأعدني إلى الدولة».

بصق السياف العربي بكلمة تفوه! في وجهي.

«السماء أصابتك بالتشوش بحيث إنك لا تخجل من البصاق في وجه رجل».

ـ «خليل، لقد فعلت ذلك لأنك قلت «لن أثق بك».

رأيت الحمال المغربي يذهب ويكسر باب مخزني، مفجراً النقر (تجويف القفل) الصلصالي للقفل الخشبي. عندما كان العبيد يقبضون علي بوحشية مرة أخرى، انخلعت ثيابي العلوية العربية في أيديهم، ووقفت أمام التعساء المندهشين بقميصي».

عيب! قلت لهم، وأنت يا مبارك داخل عليك، انقذني من إهانتهم».

عندما سمع مبارك عبارة **داخل عليك**، انتزع عصا إبل من أحد الذين كانوا يقفون قريباً، وضربهم ودفعهم عني.

تركوني في المخزن فرتبت أشيائي بسرعة، وأخذت أسلحتي سراً. في هذا الوقت مرّ فهد، وهو ذاهب إلى قهوة عبيد: قلت له «فهد، سأدخل معك لأنني هنا في شك من أمري، وأين حمود؟».

أجاب الرجل البائس بمودة «حمود لم يخرج بعد، لكن لن يطول الوقت يا خليل قبل أن يأتي».

قال مبارك: «والله أقول إن الأمير سيرسل حالاً لقطع رأسك!».

قال ماجد (الذي مرّ بنا في الوقت نفسه، وهو ذاهب باتجاه قهوة عبيد) ايه! يا مبارك هل سيفعل الأمير ذلك فعلاً؟! فابتسم الغلام بفضول خادع لولد ذي نظرات خبيثة.

عندما تابعت المسير مع فهد، تراجع مبارك عنا، ومرّ من خلال بوابة القصر، ربما ذهب عندئذٍ إلى الأمير. تنهد فهد، عندما كنا خلف الباب وقال: «خليل، إن شاء الله، قال. الرجل البائس، قد ينتهي ذلك على خير، وحمود سيكون هنا حالاً». لم أجلس طويلاً، عندما جاؤوا ليخبرونني، «كان الأمير يرغب في رؤيتي فقلت «لا تخدعوني، إنه ليس سوى مبارك هو الذي يطرق» قال فهد: «لا، اذهب يا خليل، إنه الأمير».

عندما خرجت، وجدت أنه كان مباركاً، الذي طلب مني، مع التهديدات القديمة، أن أرحل فوراً. فأجبت: «سأرى حمود أولاً». وهكذا تركني. كان الباب قد أُغلق خلفي، عدت إلى المخزن، ورأيت أمتعتي آمنة؛ وكان فهد يمرّ من هناك مرة أخرى، فقال: «حمود الآن في البيت»، وبناء على طلبي أرسل خادماً ليدعني أدخل. بعد برهة، وكان حمود يدخل، فحيّاني؛ وأخذني من يدي. وسألت «هل تمّ ذلك بناءً على أمر الأمير؟».

قال حمود: «بالله، يا خليل، لا يمكنني أن أفعل شيئاً مع الأمير، هو يحكم علينا».

أحضرت بعض كتبي وأشيائي الأخرى، إلى هنا، «ها! العيال أخذوها من مخزني، وسوف تتم استعادتها» عندما تكلمت عن سرقة ماكرة لرجله علي - فقد سافر آنذاك إلى الحج - صاح حمود: «ليأخذ الله روحه!» - لا يكون عربياً إن لم يصلح لصوصية رجله. «ماذا قصدت بذاك المال الذي أرسلته لي مؤخراً؟» - «سخاء، يا خليل، لماذا رفضته؟» - «هل هو من أجل الدواء والعناية اليومية لمدة شهر بالولد، الذي استعاد الآن عافيته؟».

- «من أجل ذلك قدمته، ونحن لدينا الكثير من الكينا[1]، هل تشتري مني حفنة بريالين؟

كان يتوضأ للذهاب إلى صلاة الظهر الجماعية، وحين بقي الرجل القوي ليتكلم معي كان الوقت متأخراً. «ثمة شيء، يا حمود».

- «ما هو، يا خليل. ؟».

وتطلع إلى الأعلى بابتهاج. - «ساعدني في حل هذه المشكلة، من أجل ذالك الخبز والملح الذي بيننا».

- «وماذا يمكنني أن أفعل؟ محمد يحكمنا جميعاً».

- «حسناً، تكلم إلى مبارك كي لا يفعل شيئاً حتى ساعة مجلس العصر، عندها يمكنني أن أتكلم مع الأمير».

- «سأقول ذلك له، وذهب حمود إلى المسجد».

بعد الصلاة قابلت الأمير نفسه في المسحب؛ إنه يسير، كما يقال، وسط ثلة متغطرسة من المتعصبين الشباب، وعشرة من سيافيه المتراصين خلفهم. كلما صادفت الأمير وصحبه في وقت متأخر، في الشوارع، ظننت أنه قد ردّ على تحيتي بنظرة مختالة. الآن عندما كان يُقبل محملقاً، قلت، بدون تحية «أروح».

«رُح» أجاب محمد.

«هل أدخل لأتكلم معك؟».

«مشغول! نحن مشغولون جداً».

عندما انعقد مجلس العصر أخيراً، مررت عبرهم ودنوت من الأمير، الذي جلس مقوياً نفسه ليبدو أنيقاً أمام الناس؛ وتحدث من ثم مع بعض شيوخ

(1) الكينا: دواء يعالج حمّى الملاريا.

البدو الكبار، الذين كانوا جالسين بقربه. نظر محمد بن رشيد نحوي، فكرت بانزعاج وبرأس مطرق نوعاً ما، الذي هو نذير شؤم بين العرب. قال: «ما خطبك؟».

ـ «أنا على وشك الرحيل، لكنني كنت أود ذلك بضمان. اليوم عوملت معاملة مسيئة في هذا المكان، بطريقة جعلتني خائفاً. إن عبيدك قد جرّوني هنا وهناك، ومزقوا ثيابي، كان ذلك بتحريض من مبارك، الذي يقف هناك، وهو أيضاً قد هددني، وحتى أنه بصق في وجهي».

استفسر الأمير، بصوت خافت، من مبارك، ماذا فعل. فأجاب، ملتمساً العذر لنفسه.

أضفت، «والآن سوف يجبرني على الذهاب مع الهتيم؛ وأنا لا أتوقع سوى الأذى».

لا (قال الأمير، وهو يضرب صدره) لا تخف، لكن مهمتنا العناية بالسلامة، وسنعطيك جواز سفر»، وقال لنصر، سكرتيره، الذي يجلس عند قدميه ـ «اكتب له بيان جواز مرور».

قلت، «قد جلبت لك من بلادي منظاراً ممتازاً». كانت الكلفة ثلاثة أو أربعة جنيهات؛ وفكرت في نفسي «إذا استلم ابن رشيد هديتي فيمكن أن أطلب منه جملاً». لكن عندما قال، «لدينا الكثير، ولا نحتاج» أجبت الأمير بكلمة صريحة من الصحراء ويش عاد كما يقول المرء! What odds انكمش محمد بن رشيد في مقعده، كما لو أنني قد انتقصت من كرامته أمام الناس، لكنه إذ استعاد نفسه قال، بنظرات أفضل وصوت ودود، «اجلس». محمد ليس حقيراً، قد يتذكر في الغريب أوقاته الشريرة. عندما أنهى نصر كتابته على قطعة مربعة صغيرة من الورق، سلمها إلى الأمير، الذي تمعن فيها، وهو يغمس ختمه النحاسي العربي بالحبر، ختمها بطبعة اسمه. سألت نصر «اقرأ لي ما هو مكتوب فيها»، فقرأ: «على كل من تقع بيديه هذه المذكرة، يدين بالولاء لابن

رشيد، أن يعرف أن مشيئة الأمير تقضي بأن لا أحد يعترض عليه، ولا يوجه أية إساءة إلى هذا النصراني». نهض ابن رشيد في تلك اللحظة، فنهض المجلس معه وتفرق. سألت، عندما كان الأمير ينصرف، «متى سأرحل؟».

ـ «حسب رغبتك» «غداً؟».

ـ «لا، اليوم». كان قد أدار ظهره، وكان يعبر المسحب.

«اركب!» صاح مبارك، لكن، عندما سمع أنني لم أتناول فطوراً قادني عبر القصر، إلى المضيف وإلى غرفة في الخلف، التي هي المطبخ العمومي، لأسأل الطباخين عما هو جاهز. هنا استقبلوني جميعاً بلطف، وأعطاني مفرج تمراً، وطحيناً وسمناً من أجل الطريق؛ التموين المعتاد من الأمير، لكنني لم أستلمها. المطبخ قاعة بائسة، ذات أرض طينية، يوجد فيها بركة وقناة. يسلق التمن والشعير في أربعة أو خمسة مراجل نحاسية، وهناك ثلاثة مراجل أخرى من أجل أيام اللحم (التي ليست كثيرة)، وهي كبيرة للغاية بحيث يمكن في واحد منها سلق اللحم المقصوف لجمل واحد. هذا المطبخ القصري من الجزيرة العربية البدوية بسيط للغاية، في هذه البلاد التي لا يولم فيها إلا من لا يكون جائعاً! كان خادم المطبخ رجلاً فقيراً، ربما كان عبداً، وأحد مرضاي، وخمس أو ست نساء تحت إمرته؛ بالإضافة إلى وجود صبيان، حاملي صواني الطعام المعدنية من أجل عشاءات الضيوف. عندما عدت إلى المسحب، جاء بدوي مع جمله ليحّمل أمتعتي؛ مع أنه توسل إلى مبارك أولاً ليعيد رياله من مال العربون ويدعه يذهب. كان الأمير قد طلب أن تعطى أربعة ريالات من أجل هذه الرحلة، سواء شئت أم أبيت، وقبلت ذلك بدلاً عما سرق من مخزني؛ كذلك قبلت الريالات الأربعة من حمود ثمناً للأدوية.

قلت: «مبارك، احلف»، عندما مشينا معاً إلى السوق. حيث سيركب البدو، «إنك لا ترسلني إلى الموت».

لا بالله، خليل أنا واثق لا شيء سيحصل لك.

«وبعد رحلتين في الصحراء هل سينفذ الأعراب كلمة ابن رشيد؟».

ـ إننا نحكمهم! ـ وقال للبدو، أنتم ستحملونه إلى قاسم بن براك (شيخ كبير من بني رشيد في وسط البلاد، بيوته منصوبة على بعد سبعين ميلاً إلى الجنوب)، وسوف يرسله إلى خيبر».

خرج بائع العقاقير من المدينة [المنورة]، وهو رجل حجازي سخي طيب، كما هم الكثيرون من تلك المدينة العربية جزئياً»، عندما مررنا بدكانه، ليدعو لي بعون الله قال: كن مطمئناً إنه لا توجد خيانة لكن افهم «أن الناس (ناس حائل ونجد) هم بدو». قال البدوي لي: استعجل بالخروج معنا من حائل، لا تقف، ولا تعد أدراجك، لأنهم عندئذٍ سوف يقتلونك».

لأنني لم أشأ أن ينيخ جمله، بل صعدت على العنق الواقف للدابة المفرطة الحمولة، صاح البدوي الفقير المسرور «أعرني قبضة من خمستك!» أي الأصابع الخمس. كان شاباً، إبراهيم، أحد رجال الأمير ـ دكانه في طرف البلدة، وكنت قد تعاملت معه ـ ينظر إلينا ونحن نمرّ، خرج ليقول لي وداعاً، ودفعني إلى الأمام. تكلم بصرامة إلى البدو أن عليهم أن يعتنوا بي، وهددهم أنه «إذا حلّ بي أي مكروه، فإن الأمير سوف يقطع رؤوسهم». وصلنا إلى ماء السماء، مددت مطارتي[1] إلى أحد الرجال، وطلبت منه أن يذهب ويملأها. «املأ مطرة الكافر»، قال، انزل، أيها النصراني واملأها بنفسك». عندئذٍ ذهب إبراهيم ليملأها، وعلق الماء على قوس سرجي.

واصلنا تقدمنا وكانت الشمس قد غربت. كان رفاقي ثلاثة، ـ المالك الفقير لجملي، رجل باسم جبان، وجاره المتعصب الذي كان يناديني دوماً بالنصراوي (وليس النصراني) وآخر هتيمي أكبر سناً، حاملاً عنيداً نوعاً ما لمشورته الخاصة، ويتكلم الحقيقة بأمانة. كان الشفق قصيراً جداً بحيث إن الليل أطبق فجأة على مسيرنا، بصمت مرغوب وعزلة، بعد صخب البلدة.

---

(1) المطارة: قربة من قماش قطني سميك.

عندما أجبت على كل أسئلة رفاقي البدو بكياسة الصحراء، «اوه، لماذا، صاحوا، ضايقه أهل حائل؟ والله أهل حائل هم النصارى الحقيقيون!» تابعنا طريقنا المظلم ثلاث ساعات ونصف إلى أن وصلنا ما قبل قفار؛ هناك ترجّلنا وتمددنا في البرية.

عندما طلع ضوء الصباح ذهبنا إلى قصر فسيح، مكوّن من حجرة أو حجرتين مبني من الآجر الصلصالي، خارج الواحة، حيث تقطن أسرة فقيرة من معارفهم. كنا في نهاية شهر تشرين الثاني (في الحادي والعشرين منه حسب تقديراتي)؛ كانت الليالي آنذاك باردة على ارتفاع 4,000 قدم. وضع الناس الفقراء التمر أمامنا وصنعوا لنا القهوة؛ لم يكونوا مستوطنين على الأرض ولا رحّلاً، بل بدواً. كانوا ضعفاء ومحطمين في حياة البداوة، يهاجرون هرباً من نكبات الصحراء، أصبحوا «قاطنين في الطين «في إحدى قرى جبل، وصيادين أو تجاراً للعرب، فهم يشترون التمر والحب في وقت الحصاد، ليبيعونه لاحقاً للـ hubts أو جماعات السُّوق العابرة من رجال القبائل الرحّل. عندما يأتي الربيع يهجرون الأسوار الطينية وإذ يحملون بضائعهم على الحمير، يذهبون ليتاجروا بين الأعراب. هكذا يجولون شهوراً، إلى أن تُباع حمولتهم؛ وعندما يدخل الصيف الحار سيعودون مع أرباحهم المتواضعة من السمن والفضة إلى الواحة. منهم أخذ رفاقي جزءاً من مؤنتهم الشتوية من التمر، لأن سعره أقل من سعر السوق في حائل. هؤلاء الفقراء، المنبوذين من العالم، تكلموا إليّ بلطف إنساني؛ لم يكن ثمة في حديثهم كلمة من التعصب المحمدي. إن النساء، بمبادرة منهن، أخذن عباءتي عن كتفي، وأصلحنها بعد أن تمزّقت البارحة في حائل؛ ورب البيت وضع في يدي عصا السَوْق الخاص به المصنوعة من غصن لوز. في حين جلست معهم، ذهب رفاقي يتابعون أعمالهم الأخرى. فيما بعد دخل قصاب من حائل، (كنت قد اشتريت منهم ثلاثة باوندات من لحم الغنم ذات صباح، بأربعة بنسات)، وبفكاهة صاخبة امتدح النصراني في تلك الرفقة البسيطة.

لم يكن الرجال جاهزين إلا بعد انقضاء ساعة بعد منتصف النهار؛ عندئذٍ حمّلوا تمورهم ورحلنا. بعد قفار سرنا في سهل من الصخر الرملي الغرانيتي. كان جبل أجا الطويل يميل مع مسارنا إلى اليمين. في الساعة الخامسة ترجلنا وسلقت لهم بعض التمن الذي كنت أحمله، لكن الشمس غربت علينا فجأة، فانزووا ضاحكين لكي يتمموا صلواتهم، وبدأوا يصلون قدر مستطاعهم، بأضلاع مرتجفة؛ وكانوا يلهثون مع ذلك بمرحهم الجني - بعض جامعي الحطب كانوا لا يزالون يظهرون على بعد خمسة وعشرين ميلاً. وفيما نحن نعاود ركوب الدواب مررنا في الظلام بأسوار ونخيل القصر، على بعد ثلاثة عشر ميلاً عن قفار تحت جروف أجا؛ بعد مسير ساعة ترجلنا في الصحراء لننام. رأيت في الصباح الجوانب الغرانيتية لأجا مبقعة بشكل غريب، كما لو كانت بظلال الغيوم، عن طريق سيلان البازلت المقذوف؛ وثمة بعض القباب السوداء على الذروة فيما يشبه البراكين. بعد ذلك بساعتين كنا في الأرض الجبلية الغرانيتية المختلفة. كان أجا يقع على اليمين بعيداً ولا يمتد كثيراً. التقينا هنا بشاب من القصر يركب على ذلوله يبحث عن جمل بئر[1] شارد. كانت أحجال الصخور في كل مكان تصدح، وتطير في هذا الريف الغرانيتي المرتفع، الذي تفوح منه في الشمس الحلاوة (الراتنجية) للشجر الجنوبي [الفيصوم].

في حوالي الرابعة بعد الظهر مررنا بمزرعة صغيرة مترامية هي البيلية، تقع في وسط سهل، لكنها محاطة بجبال قليلة الارتفاع من الغرانيت والبازلت. هذه المستوطنة الصغيرة التي تقع على بعد خمسة وثلاثين ميلاً إلى الغرب والجنوب من القصر، قد بدأها منذ سنوات ليست كثيرة المخططون من موقق؛ لا يوجد سوى بئرين وأربعة منازل. عندما سألت مرافقي عن المكان، وقعوا مغشيين من السعال والضحك، ورسموا لي إشارات على أنه لا يتوفر هناك سوى السعالات والتمخيطات. - تجاوزتنا جماعة من شمر يركبون على

(1) جمل بئر: سانية على البئر، أي ينزع القرب من البئر لسقي المزروعات من أشجار وغيرها.

الجمال. كانوا قد سمعوا عن خليل وتكلموا بود، قائلين إن أمامنا يقع منزل لأعرابهم ليس بعيداً (حيث يمكننا أن نتعشى وننام). وسمعنا منهم هذه الأنباء السعيدة عن البرية في المقدمة، «الماشية الصغيرة فطمت، والأعراب لديهم الكثير من اللبن؛ إنهم يسكبون (ليشربوا) حتى الظهر!» صاح أحدهم بي: «ولكن لماذا تذهب أنت برفقة هؤلاء؟» - إذ لم يشأ أن يقول «الهتميين».

كان ثمة أفعى بيضاء كبيرة، حنش، تقبع نائمة في الطريق، صاحب الجمال النكد أخذ على النصراني أنني لم أر الدودة حالاً، وحَرَفَ جمله، الذي كاد أن يدوس عليها؛ وبرمحه قطع الحشرة السامة إرباً. عندما كان ضوء النهار قد غاب تقريباً صعد رفاقي على كل مرتفع للبحث عن الخيام السوداء للأعراب. غابت الشمس فتابعنا مسيرنا في الليل، ونحن نأمل في أن نلمح نيران الخيام البدوية. بعد ذلك بثلاث ساعات توقفنا واستلقينا، منهكين وبلا عشاء، لننام في الخلاء. كان الليل بارداً، ولم نستطع أن نغفو؛ كان ارتفاع الأرض هنا 4,000 قدم.

حمّلنا [أمتعتنا] ورحلنا قبل الفجر. بعد طلوع النهار تلاقينا مع أعراب شمر المرتحلين. كبيرة هي قطعانهم في هذه الديرة، كلها من الغنم، وجمالهم هي حشد كبير يسير فوق السهل. عبر راعيان نحونا ليسمعا الأنباء، صاحا: «ما الأخبار، من القرى؟ كم ساحاً للريال الواحد» - ثم إن أحدهما وهو يدرك من أكون، وكان معه رمح، رفع رمحه وقال للآخر «تراجع»، وكان يريد أن يذبحني. «لا تفعل ذلك! والله! (هتف رفاقي)، لأن هذا (الرجل) هو في حماية ابن رشيد ويجب بالله أن ننقله، على أعناقنا، إلى قاسم بن براك». إن الهتميين في وجود شمر المسيطرة، ما كانوا ليقوموا بأية مقاومة رجولية؛ وذهابي مع هؤلاء الرفاق كان تقريباً مثل ذهابي أتجول لوحدي، سوى أنهم كانوا عيوناً عليّ في الصحراء.

في السير البطيء للجمال المفرطة الحمولة مشيت على قدمي كثيراً؛ فالمتعصب الذي صاح (نصراني، نصراني!) شكا من أنه لا يستطيع المشي،

يجب أن يركب على جملي المستأجر. رغم كوني مرهقاً ما كنت لأعارضه وإلا فإنهم لدى ترك حائل سيصبحون خصومي. رأيت رمل الصحراء المعصوف يقع في كثبان عالية على جوانب الجبل الذي كان يحيط بنا؛ إنه غرانيت مع بعض التلال البازلتية. ـ كنا نأتي دون أن ندري إلى منزل شمر. أسرع شيخهم من خيمته، لملاقاتنا! كان رجلاً عجوزاً غليظ المظهر، ولم يكن لديه كوفية، بل فقط حبل الرأس الصوفي [العقال] المعصوب حول خصلات شعره المجدولة. سألني عن الدخان، لكنني أخبرتهم أن ليس لدي منه؛ فكيس التبغ مع الصوانة والفولاذة قد سقطت عن جملي قبل ذلك بوقت قليل.

ـ «أعطنا تبغاً (صاح) وانزل واشرب القهوة معنا، وإلا فإننا سوف ننخخ جملك، ونأخذه بالقوة».

كيف (قلت)، ألا تؤمنون بالله! أخبرتكم أن ليس معي بالله، إنه عيب (عار) على الرجل أن يضايق غريباً، وذلك فقط من أجل غليون من التبغ. ثم تركني أمر، لكنهم جعلوني أقسم قسماً مقدساً مرة أخرى بأنني لا أملك منه شيئاً حقاً.

عندما ارتحلنا بعد الظهر ووصلنا إلى ريف الهتيم التقينا بشيخ يركب على ذلوله، كان يريد أن يرى ما هو المرعى الذي كان نابتاً من حولنا في البرية. كان الرفاق يعرفونه، وقال الرجل إنه سينقلني إلى خيبر بنفسه، بسبب الطمع. كان عليَّ أن أرى هذا الرجل مرة أخرى حالاً، إن ابن عجوني شيخ الهتيم، أشار علي رفاقي بالذهاب معه: «إنه رجل محترم، قالوا، ويمكنني أن أغامر بالذهاب معه بأمان». ـ الحركات الأولى للعرب من قلبهم، هي الأفضل، والأقل تأثراً بالمصلحة، ويمكن التكهن بأنه كان من الحصافة غالباً أن أتقبلها؛ لكنني تأملت كلمات الأمير ـ أنني ينبغي أن أذهب إلى قاسم بن براك شيخ بني رشيد «الذي سيرسلني إلى خيبر»، ومنزله لم يكن آنذاك بعيداً. هذا القاسم أو الكاسم أو الجاسم، يلفظون الاسم بشكل مختلف، وفقاً للغات قبائلهم، قال رفاقي إنه شيخ جليل، «وواحد يشبه ابن رشيد في بلده».

غابت الشمس عندما أتينا إلى أولى خيام هتيم. وهناك قام الرفاق بإنزال الأحمال. لقد سمعنا أن بيت قاسم مبني تحت الأفق هناك، فركبت مرة أخرى مع رفيقي صالح. «عندما نصل احرص على أن تنزل بخفة؛ وهكذا سيفهم الأعراب أكثر أنك معتاد على حياة الصحراء! لم تكن خيمة قاسم سوى حجرة صغيرة ومهترئة؛ رأيت فرسه مربوطة هناك، وفي الداخل لم يكن سوى الحريم. ذهبت إحداهن لتنادي الشيخ، وسرعان ما أنزل صالح حقائبي، عاود الركوب وبدون استئذان رحل مبتعداً؛ لكن وأنا ممسك جمله من اللحية جعلته ينخ. «رفيق، لماذا تتخلى عني هكذا؟ لكن يا صالح أنت ستسلم رسالة الأمير إلى قاسم»؛ رأيناه يأتي إلينا من بيت مجاور.

كان قاسم شاباً نحيلاً، في منتصف العمر تقريباً. في البداية قال إنه لا يستطيع أن يستقبلني. «كيف! (سأل) أرسل الأمير هذا الغريب إليه، ليتابع إرساله إلى خيبر، في حين كان في خصام مع أهالي خيبر!». ثم وبّخ صالحاً الذي «تخلى عني في الخيام الغريبة». عندئذٍ تأملت كم كان أمراً يائساً أن تُترك في وسط برية الجزيرة العربية، حيث نخشى أن نلتقي ببشر مجهولين بأكثر مما نخشى من اللقاء مع الوحوش البرية!» أنت، يا قاسم، قد سمعت كلمة ابن رشيد، وإذا كان بالإمكان تنفيذها على الأقل فقد ترجلتُ عند البيت وأنا منهك؛ «هنا، قلت: «دعني أرتاح هذه الليلة، وأنا دخليك، وأدخل تحت سقفك».

عندئذٍ قادني إلى خيمته وطلب مني أن أرتاح، ثم وهو يوجه كل استياءه القوي ضد صالح، وضع يديه عليه ودفعه إلى الأمام. «اغرب! صاح، لكن جملك يبقى معي، فعليه سأرسل هذا الغريب إلى خيبر؛ الله يلعن أباك، أنت الذي تتخلى عن رفيقك لترميه على الأعراب». تقبّل صالح كل شيء بصبر، لأن البدو عندما يُستبد بهم لا يبدون أية مقاومة. مدّ قاسم سيفه إلى رقبة صالح، ينبغي عليه أن يعترف له بكل الأشياء بدون أي تزييف وقبل كل شيء من أي قبيلة هو. أقرّ صالح نفسه بأنه من البجايدة، وهي قبيلة فرعية (عشيرة)

من بِشر؛ لذلك فقد كان من عنزة، لكنه يعيش حياته مع الهتيميين النوامسة؛ لذلك فقد كان يعتبر هتمياً. إن كثيراً من العائلات من عنزة وحرب ينسبون أنفسهم إلى تلك المجموعة البدوية الأكثر تواضعاً لكن الأكثر ازدهاراً، التي هي أكثر أماناً من الأعداء؛ سوى أنهم لا يتصاهرون مع الهتيم. هكذا رأى قاسم صالح يمضي، فدعا إلى إشعال النار، وأخذ لنفسه حضناً من علف فرسه ونثره لجمل صالح؛ هكذا جاء مرة أخرى وجلس في الخيمة بالمزاج الوسواسي لشخص متوعك. من هناك، قال، سيذهب الآن ويبحث لنا عن البن لكي نتمكن من صنع فنجاة قهوة لأجل هذا الغريب؟ ـ اسمك؟ ـ خليل. «حسناً ـ قال ـ «يا خليل، ماذا سأفعل في هذه الحالة، لأنني والله، لا أستطيع أن أقول؛ بيننا وبين أهالي خيبر والدولة لا يوجد سوى النزاع وقطع الأعناق، كيف إذاً يقول الأمير، إنني يجب أن أرسلك إلى خيبر؟» ـ دخل الجيران لشرب القهوة، فأجاب أحدهم، «إذا دفع خليل أربعة ريالات فسوف أنزله، بالله، عند طرف نخيل خيبر ويذهب». قال قاسم: «الكن خليل يقول على حق إنه كان عندئذٍ خارج خيبر كما كان من قبل».

أظهر لي شاربو القهوة محيا طيباً؛ «ايه! خليل (قال قاسم)، هل شكوت لي من أن الرجل تخلى عنك وهو الذي جاء معك، والله كنت سأقطع رأسه وأرميه في النار: ملاعين كل العنوز [قوم عنزة]».

ـ حسناً، إذا كانت خيبر صعبة جداً فيمكنك أن ترسلني إلى حنس شيخ النوامسي؛ لقد سمعت أنه مخيّم في مكان غير بعيد، وسوف يستقبلني بود».

ـ «سنرى في الصباح».

وُضع أمامي صحن نادر من التمن المسلوق بدون سمن، وقليل من اللبن البائت الفاسد، أصغر طعام سبق لي أن رأيت تحت الخيام المعمولة من الصوف؛ إذ لم يكن لديهم حليب طازج لأن أعداداً كبيرة من جمالهم كانت أعزاباً أو مفصولة عن المنزل، وترعى باتجاه Baitha Nethil، نحو الغرب.

أطبق الليل بظلمته الداكنة علينا، مع سحب سميكة وطقس هطول؛ ثم أضاءت السماء في الحال على الجهات الثلاث بدون رعد. قال البدو «إنها الملائكة!» ـ جعلتني كلمتهم أتأمل مشهد البدو في حقل بيت لحم. «العاصفة، كما تمتموا، هي فوق وادي الرُّمَة، الذي أخبروني أنه لا يبعد سوى نصف يوم لمسيرة ذلول من هنا. تعجّبوا من أنني أعرف اسم هذا الوادي الكبير من النجد الأوسط، الرأس، كما قالوا، هو قرب الحيات، في ديرتهم، على بعد يوم ذلول واحد.

ـ قد يكون هناك أرض سهل على بعد خمسة وأربعين أو سبعين ميلاً.

هطل المطر البارد بقطرات علينا من خلال قماش الخيمة المهترىء: وعندما كان الوقت متأخراً قال قاسم، «نم أنت، لكن أنا يجب أن أسهر وعيني على جمله هناك، طوال الليل، وإلا فإن ذاك العنزي [رجل] سيأتي ويسرقه بعيداً».

عندما نهضت مع الفجر كان قاسم يشعل النار «صباح الخير».

قال: حسناً سأرسلك إلى حنس، والرجل الذي سوف ينقلك هو الذي جاء معك».

ـ «لقد خانني البارحة، ألن يخونني اليوم؟ إنه حتى قد يتخلى عني في الخلاء.

ـ «لكنني سأجعله يقسم ذلك لكي يخاف».

جاءت النساء إلي عندما سمعن أنني مداوي [طبيب]، محملات بالأقط[1] أو قطع اللبن الجاف، لشراء الأدوية؛ وقلن إنها مؤونة [زوادة] لأجل رحلتي. جاءت شقيقة قاسم من بين الباقيات وجلست بقربي. قالت إن

---

(1) الأقط يسمى في لهجة بعض عرب الجزيرة بقل وفي بادية الشام والأردن وفلسطين ولبنان جميد وفي بادية العراق يسمى (كرثي) (جرثي).

قاسم مصاب بالريح أو الملاريا فماذا لدي من أدوية؟ حجاب هؤلاء النسوة هو منديل من الخيش أزرق معلق فوق الوجه السفلي؛ كانت عيناها كبيرتين بشكل عجيب، ورغم كونها نحيلة وشاحبة، وقدرت أنها جميلة جداً ومهذبة، انحنت بشكل متعمد لتتفحص عقاقيري باليدين المتمرستين لامرأة حكيمة بالنباتات الطبية. عندما لم تتمكن من إيجاد أي دواء تعرفه قالت، بصوت عذب لطيف: «أعطني إذاً ما تشاء يا خليل، فقط ما يمكن أن يكون فعالاً». رغم كونها مليحة جداً، وأخت الشيخ الكبير، مع ذلك فإن أياً من رجال البدو لم يتزوجها. لأن الهتيمين «ليسوا من نسل الأعراب»(*).

عندئذٍ جاء صالح، وعندما رأى جمله وقد أُعيد إليه، كان مفعماً بالفرح، ووعد بكل ما أراده قاسم؛ وأقسم أيماناً غلاظاً بأن ينقلني مباشرة إلى حنس. ركبنا وانطلقنا، لكن عندما كنا نسير شددت اللجام[1] وألزمت صالح بذاك القَسَم المقدس للصحراء عالي العود ورب المعبود[2]، بأنه سوف ينفذ كل هذه الأشياء، لو لم يقسم، لما سرت معه أكثر. لكن صالح، وهو يتطلع إلى الوراء ويرتجف صاح: «أقسم على ذلك، بالله، أقسم بذلك، فقط دعنا نستعجل ونأتي إلى رفاقنا، الذين ينتظروننا في الخيام المجاورة».

انطلقنا معهم من جديد، وقال صالح. «لم أمر بمثل هذا الخوف في حياتي، عندما مدّ قاسم سيفه إلى عنقي!». سرنا لمدة ساعة ونصف واقتربنا من منزل هتمي آخر مكوّن من بيوت كثيرة. عندما مررنا انتحى صالح جانباً إليهم ليسأل عن الأخبار. غير بعيد في الوراء وصلنا إلى الأفق، حيث كانت

(*) هذا الكلام غير دقيق يمكن التوسع في فهم معنى وأصل الهتيم بالعودة الى كتاب البدو ج4 اوبنهايم الصادر عن شركتنا دار الوراق. ماجد شبر.

(1) اللجام لما يمسك به الحصان والخطام لما يمسك الجمل.

(2) [برب هذا العود والرب المعبود]

والبدو يقسمون هكذا [بحق هذا العود والرب المعبود].

تعالى الله أن يقارن بخلقه والمقصود بالبدو من عدا بادية الجزيرة الذين لم تبلغهم دعوة التوحيد [دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب] رحمه الله.

تنتصب خيمتان منفردتان. قال رفاقي إن الجمال (الزائدة الحمولة) منهكة، فهم سينزلون حمولتها هناك لترعى مدة ساعة. عندما وصلنا إلى المكان توقّفوا.

في الخيمة الأولى كان ثمة زوجة عجوز، بعد ذلك على الفور أخرجت لنا، حيث جلسنا قليلاً على مبعدة، قصعة من قطع اللبن والسمن، ثم، وهو مصدر الارتياح الأكبر في الحر الجاف، قصعة كبيرة من لبنها الرائب. «هل يمكنك أن تأكل هذا الطعام؟ قال صالح، ـ الهتيم لديهم الكثير منه، إنهم طيبون ومضيافون».

نهض الرجال بعد إفطارهم وحمَّلوا الأمتعة على الجمال، ـ لكن ليس حقائبي! ـ وانطلقوا. تكلمت إلى كبير الهتيمين، الذي كان رجلاً محترماً، لكنه وهو يعقد كتفيه ويقلب راحتيه أجاب بتجهم: «ماذا يمكنني أن أفعل؟ إنها شغلة صالح، والله، لا يمكنني أن أتدخل فيها؛ لكن أنت لا خوف عليك، لأن هؤلاء أناس طيبون، وبينهم لن يحلّ بك أي مكروه».

«كذلك عيادة ابن عجوين، قال صالح، على مسافة قليلة».

«لكن أين قسمك، يا رجل؟» أجاب الرجل المتعصب الثالث بالنيابة عنه، «قسمه ليس ملزماً لكونه أقسم لنصراني!».

«لكن ماذا عن الأمير؟ وقاسم لم ينصرف بعد».

قال صالح: «فيما يتعلق بقاسم فإننا نلعن أباه وأمه؛ أما أنت فلا تنزعج، فالهتيم قوم طيبون وهذا سينتهي على خير».

كان الجدال معهم لا يستأهل الكثير؛ إذ يمكن أن يكونوا قد أشاعوا أنني نصراني، أنني كنت في حلّ من هؤلاء الرفاق، ـ هنا لم يكن يوجد سوى امرأتين ـ وانصرفا.

«صحيح، قالت الزوجة العجوز، إن عيادة قريب، فقد سمعت كلابهم تنبح البارحة». في الخيمة الثانية لم يكن سوى كنتها المريضة؛ كان زوجاهما خارجين لرعي الماشية. بدت الزوجة العجوز متجهمة نوعاً ما

عندما تخلىّ عني التاجر، بعد ذلك جاءت إلى حيث كنت أجلس لوحدي، وقالت، «لا تبتئس! فأنا خالتك». ثم بعد ذلك أخرجت لتنقل كلمة إلى الرجال في البرية عن هذه الصدفة. قرب ذاك المكان وجدت حافة سيل بركاني بني، نوع من البازلت التراكيتي. عندما كانت الشمس تغرب تمشيت بعيداً عن الأنظار، ـ وإلا فإن رؤية غريب لا يصلي في تلك الساعة ستجعلني أنكشف سريعاً لهم.

لم يطل الوقت كثيراً حتى جاء الزوج إلى البيت، وكان رجلاً أصم يحمل الاسم ذا الدلالة السعيدة ضيف الله، رحب بي بلطف ومن ورائه ثلاثة أبناء بالغين يسوقون جمالهم؛ وقطيعاً كبيراً من الغنم والماعز يتبعهم مع كثير من الحملان والجداء. رأيت أنهم (بصرف النظر عن مظهر بؤسهم) لا بد أنهم مرفهون. فضيف الله، عندما جلسنا حول نار المساء، جلب لي قصعة من حليب المساء، المسخن؛ قال لي: «ليس لدينا أي شيء هنا لنأكله، لا تمور، لا أرز، لا خبز، سوى أن نشرب هذا الذي رزقنا به الله مع أنه عشاء فقير». شكرته وقلت إنه الأفضل من بين كل الأطعمة. أجاب: «أي، هكذا يغلي، إنه يدخل إلى العظام». عندما سمع كيف تخلّى عني رفاقي اليوم هتف، «بالله لو كنتُ هناك، لقطعتُ رؤوسهم». ذاك الرجل الفقير كان شريفاً؛ فهو بالكاد ملأ غليونه مرة واحدة بقليل من التتن الذي عثرت عليه في قاع حقائبي، رغم كونه سلواناً عظيماً لهم؛ فلم يسمح لرجاله الشبان بأن يأخذوا أياً منه من الضيف (المقطوع) الذي عهد الله به إليهم، هذا اليوم. كان هؤلاء عرباً بسطاء أتقياء لا يصلون (شكلياً)، ليس في أفواههم أية أسئلة اعتراضية تافهة عن الدين، بل كانوا مفعمين بالإنسانية الخيرة للبرية. «إنه سينقلني في الصباح (قال مضيفي الطيب) إلى عيادة ابن عجوين، الذي سيرسلني إلى خيبر».

كانت ليلة ظلماء، والسحب المتقطرة تتفجر فوقنا باللمع والمطر. قلت لضيف الله، «الله يرسل بركته مرة أخرى على الأرض». «أي بالتأكيد» أجاب بورع، وقبل يده التقية الممدودة باتجاه عاصفة البرق وتمتم بمدائح الله. كم

بدت لي طيبة، كم بدت مسالمة هذه القطعة الصغيرة من الأرض البدوية تحت الستائر المتقطرة لخيمة من الصوف المغزول بالمقارنة مع بلدة حائل!!

عندما أشرق الصباح قامت النساء بحلب ماشيتهن الصغيرة؛ وتابعنا الجلوس فيما كانت ربة البيت العجوز تخضّ قربة اللبن المنفوخة على ركبتيها إلى أن طلعت الزبدة؛ إنهن يجدنها على شكل كتلة متخثرة عند فم الصميل[1]. رأيت في الحال أن هذه الزبدة القليلة تغلي على النار، لتُحول إلى سمن، ودعونني لأتعشى قشدة الحليب اللذيذة بأصابعي. إنهم يجتمعون في هذا الوقت إلى وجبة صغيرة، تجلب الأنس؛ يُسكب السمن الزبدة المصفاة، كذلك يقدم راسب الجريش المنقوع مع زبدة الحليب للضيف؛ وهو ألذ حلوى للحياة البدوية الفقيرة. بعد ذلك جلبت لي المرأة العجوز الطيبة السمن (كل ما أنتجته قطعانها ذاك الصباح)، في قربة صغيرة (قد يكون أقل من ثُمن صغير) كانت هذه هبتها، قالت، وهل سأترك معهم بعض أدوية الحمى؟ أعطيتها جرعات من الكينا. قدمت لنا قصعة كبيرة من اللبن الرائب؛ وعندما شربنا جرعة جيدة وضع ضيف الله حقائبي على جمل له. ركبنا، وسرنا باتجاه الجنوب في الخلاء.

سافرنا لمدة ساعة واقتربنا من منزل عيادة، كانت بيوت الشَّعَر[2] منصوبة في تجويف منحدر يطل على مشهد قاحل واسع إلى الجنوب، رأيت سواداً شاسعاً في الوراء ـ كان ذلك حراء أخرى (حرات خيبر) ـ وجبالاً وردية من الغرانيت. إن الحجارة الرملية، التي تقبع مثل لسان بين الجبال البلورية وتغطيها الحمم، تمتد نحو الجنوب إلى خيبر. ـ «عندما نأتي إلى الخيام سوف تتكلم إليهم كذا وكذا، قال ضيف الله: قل إنك مداوٍ وصلت من حائل، وإنك ستمضي إلى خيبر؛ ومقابل ريالين ستجد رجلاً يقلّك إلى هناك».

ترجّلنا وأودعني ضيف الله لدى عيادة؛ فقد كنت (كما قال) مداوياً

(1) الصميل: قربة من جلد الغنم، يمخض فيها اللبن وينقل فيها.

(2) حينما يسميها الغربي مقصورة لأنه لا يوجد أصلاً في لغتهم بيتاً من شعرٍ.

ماهراً، ـ وهكذا أخذ جمله مرة أخرى وانصرف. كان ذاك الشيخ الهتيمي الذي شاهدته قبل يومين يعدو بسرعة في البرية: ـ قد يكون فهم آنذاك (من قول ما للمتعصب) أنني لست مسلماً حقيقياً لأنني عندما حييته وقلت سأذهب إلى خيبر معه، استقبلني بخشونة. كان رجلاً طويلاً قوياً، له تلك النظرات العكرة كما لاحظت لدى الفهجات، الذي هم أيضاً من هتيم.

قال عيادة: «حسناً، قلت ذلك البارحة، لكنني لا أستطيع أن أرسلك إلى خيبر». ـ «كان بعض الرجال جالسين أمام بيته» هو أي واحد منكم، قال، سوف ينقل الرجل إلى خيبر، ويتلقى منه ماذا؟ ثلاثة ريالات».

أجاب أحدهم، «أنا سأنقله إذا أعطاني هذا المبلغ من المال». وعدت بذلك، وذهب لكي يستعد، لكنه عندما عاد قال: «أعطه أربعة ريالات؟».

ـ «علي دَيْن، وهذا سوف يساعدني في ذلك».

قال عيادة: «اعطه أربعة واذهب معه». وافقت على ذلك، هكذا كفل الشيخ لي أن الرجل لن يتخلى عن رفيقه، كما فعل أولئك الآخرون في ذاك اليوم. «لا، ثق بي، هذا غُصيب، شيخ، ورجل شجاع».

«أقسم، يا غصيب، بحياة هذا الساق من العشب، على أنك لن تتخلى، عني أنا، رفيقك حتى توصلني إلى خيبر!».

ـ «أقسم بأنني سأوصلك إلى هناك إلا إذا كنت ميتاً».

قال عيادة: «إن لديه ذلولاً أيضاً، يمكنه أن يفر مثل طير».

قال غصيب: «انظر كيف أن الشمس عمودية تماماً! دعنا نقضي النهار هنا، وغداً سوف ننطلق إلى الأمام».

«لا، لكن اليوم»، أجاب الشيخ، على الفور. لذلك استغربت مزاجه غير المضياف واستغرب غصيب هذه الغرابة. لم يدعني الشيخ إلى خيمته، بل أخرج لنا قصعة كبيرة من اللبن الرائب. جاءت الحريم في ذاك الوقت حولي،

وهن يجلبن قصعاتهن الصغيرة من قطع الأقط، وطالبن بالأدوية بصوت صاخب. لم أجد أياً من البدو راغبين جداً كما بني هتيم في أن يشتروا من المداوي. بعد رحيلي، عندما كنَّ قد تأكدن من أدويتي، قلن إن خليل رجل وفي؛ وقد ساعدني تقريرهن الجيد بعد ذلك بأشهر، عند قدومي عن طريق هذا البلد مرة أخرى.

أخبرني غصيب أنه من هنا إلى بيضا نثيل تبلغ المسافة نصف يوم لمسيرة (ذلول)، وإلى حائل ثلاثة، وإلى تيماء أربعة، وإلى العلا أربعة ونصف، وكان علينا أن نمضي ثلاث ليالٍ في الخارج للوصول إلى خيبر. عندما خببنا ميلاً، كان ثمة بكرة ذلول عمرها سنة واحدة ترعى في الصحراء أمامنا، فركضت بمشيتها المنقذفة جانبياً (الساقان على جانب تثبان معاً) للقاء الأم وتبعتنا وهي تخور ـ ردّت الأم بتنهدات في حنجرتها الواسعة؛ لكن غصيب ترجّل وطارد الفطيمة بعيداً. سرنا على سهل من الرمل. أمامنا لاح ذاك السواد الصخري الكبير ـ الحرة، وعليه بعض التلال والقمم الداكنة اللون، الهيلي، تبين لي أنها تلال من خبث البراكين! ثمة جبل غير واضح المعالم بعيد المدى، بذرا ينعطف مع طريقنا على اليسار. لم يراودني الشك في أنه غرانيتي. استحث غصيب ذلوله بكلمة كلك سارة بوضع اللسان تحت سقف الحنك، ـ لم أسمعها من قبل؛ وثمة تشكيلة من نداءات الماشية لدى القبائل العديدة في بادية الجزيرة العربية.

دخلنا على تلك الحرة السوداء. إن حقل (الحمم) مشكّل على هيئة أمواج وأغوار كبيرة تارة، ومتاهة من جروف الحمم وسهول الرمل الحممي القصيرة تارة أخرى. هذا عضو آخر من الريف البركاني لغرب الجزيرة العربية، ذو صدوع ملحوظة قليلة، يمتد من تبوك عبر سبع درجات من خط العرض إلى تخوم مكة. وجدنا ماءً موحلاً، في خزان أرضي (بعد الوابلات المتأخرة)، فترجّل غصيب ليملأ قربتنا. عند منتصف بعد الظهر رأينا راعي ماعز يتسكع بين الحمم الوعرة. كان الغلام حاتمياً يعرف غصيب، فأرانا أين كانت البيوت

منصوبة، في مكان عميق غير بعيد. هنا جاء غصيب إلى أبناء عشيرته؛ فترجّلنا عند خيمة أخيه. إن سطح الحرة الصخري هناك يبلغ ارتفاعه 4,300 قدم فوق مستوى البحر. كانت حريمهم محجبات مثل حريم مضرب قاسم، وكن يرتدين مناديل غرة [خمار] مطرزة تتدلى على جبهاتهن. وفي المساء تمتعنا بقدر من الثمن، وسكب لنا المضيف ملء قربة كاملة من اللبن الرائب السميك.

.... في الصباح الباكر قام غصيب بحلب ذلولنا وجلب لي هذا الشراب الدافىء؛ ورغم ذلك، في تعب الطريق الطويل الذي يتعين قطعه دون أن تذوق العشب تقريباً، كان ضرعها قد جفّ، وأحضر البدوي فحلاً ليسافدها؛ [في مثل هذه الأوقات بدون شك على أمل أنها يمكن أن تلد أنثى]. استدعينا بعيداً لتناول الفطور في خيمة أخرى حيث وضعوا أمامنا تمراً مقلياً بالسمن، وقصعات من اللبن. كل شيء كان عبارة عن حقل حمم متيبسة بغيض أمامنا على مسافة بعيدة، وكان علينا أن نبيت ليلتين في الخارج بدون الأعراب؛ والثالثة في خيبر.

...... قاتمة كانت هذه الأيام من السحب الرمادية المتقطرة في الجزيرة العربية ذات الأجواء الذهبية. انطلقنا بسرعة عن طريق دروب الإبل (الجدران) المحفورة، منذ عصور، في الجمر البركاني المطفأ المتدحرج وقفار الحمم المتيبسة البغيضة. إلى هنا يأتي بدو بشر وهتيم في أوائل العام مع ماشيتهم، بحثاً عن ذاك الربيع الذي قد ينبت بين شقوق الحمم المتيبسة والحفر والقيعان الصغيرة من الرمل البركاني. قبل الظهر كنا بين التلال السوداء التي شاهدتها أمامنا منذ البارحة؛ إنها مخاريط وفوهات البراكين الخامدة. امتد طريقنا نزولاً إلى تلة أعلى قد يبلغ ارتفاعها أربعمائة أو خمسمائة قدم. البعض منها ذو رأسين، ـ حيث إن جانباً من الفوهة مهدّم. أما البعض الآخر فيشاهد مضلعاً، أي إنها مزودة بميازيب إلى الأسفل بدءاً من الرأس. كل شيء هنا كما رأينا في حرات العويري. مررنا فوق سهل مستوٍ من الجمر البركاني المطفأ؛ وعند جدار تلة أخرى، رأيت توفة لينة مائلة للصفرة تمتد تحت الجروف القشرية من

الحمم. من هنا ألقينا نظرة على الخرام، على مسافة يوم واحد إلى الغرب يقع خلف الحرة في تخم أصفر من النفود؛ الرمل الأبيض يمتد في انجرافات طويلة على الخواصر العالية للجبل.

كان ثمة الكثير من المطر المتحول إلى برك على هذه المرتفعات البركانية؛ وفي مكان سمعت الضجيج الثقيل للماء الساقط! وصلنا إلى خزان جديد بارد، فبدا بحيرة جبلية مستنقعية تحت الشمس الغاربة! من هذا الماء الصحراوي الغريب والريح كان يتكون غدير جامح ذو الضجيج الصاخب لقناة الطاحون. أما وقد سافرنا طوال النهار، فقد شددنا اللجام في مكان مخفي حيث يمكننا أن نغامر بإشعال نارنا. لم يكن رفيقي قد توغّل كثيراً في هذا البحر من الحمم، لكنه كان يعرف نقاط العلام الكبيرة. جال ليسحب ملء ذراعه من الأعشاب الهزيلة النابتة في الصدوع، من أجل إطعام ذلوله؛ جمعت السيقان الجافة لأضعها تحت القدر، سكبت الماء وبدأت الغلي، الذي لم يكن مكوّناً سوى من التمن. عندما جاء غصيب مرة أخرى طلبت منه أن ينتبه إلى الطهي؛ لكنه قال: ماذا بوسعي أن أفعل؟ أنا، بالله، لا أفقه ذلك. مع أنني لم أر البدوي الذي لا يمكنه أن يتدبر الطعام لنفسه في الرحلة. أنا أتناول ما تطبخه الحريم ولم أمد يدي إليه أبداً؛ جلب لنفسه حفنتين أو ثلاث حفنات فقط من قطع اللبن الجاف! كان لدى غصيب قشعريرة من الحمى القديمة، ولم يكن بوسعه أن يأكل سوى القليل أو لا شيء. في هذا المكان وجدت أعظم ارتفاع وصلت إليه هنا في الجزيرة العربية، حوالي 6,000 قدم. وهنا فهمت منذ ذاك الوقت تقسيم المياه بين قيعان الوديان الكبيرة للجزيرة العربية الشمالية؛ أي وادي الرمّة المنحدر من الحرة إلى الشمال الشرقي، ووادي الحمض. هذه الليلة كانت معتدلة، فقد احتمينا بالحمم المتيبسة الوعرة، كما بين جدارين، كنا دافئين حتى الصباح.

ركبنا الدواب عند الفجر؛ لكن بعد طلوع النهار بوقت طويل بدت السماء وقد أطبقت علينا، مثل قبر، بسحب قاتمة. كنا عالقين في أسّرة الحمم

البغيضة؛ وكنا في أغلب الأحيان تائهين بين رفوف حادة، أو نجد أمامنا أماكن شديدة الانحدار. الحقل البركاني هو سيل حجري وقد تيبّس. ثمة رؤوس متدحرجة طويلة، مثل أعراف الخيل من تلك الموجات الخبيثة تركب وتتراكب فوق البقية: عندما ترتفع تنتصب متحجرة، مع كون الكثير منها مشطوراً على نحو حاد طولانياً، والتراكيات الجوفاء منهارة جزئياً في قشرات ضخمة وفي أكوام خربة كما أكوام أحجار البناء الضخمة. الحمم لا يندر أن تكون مضفورة كما لو كانت حزماً من الحبال؛ وتشاهد أيضاً قمم من الحمم الزجاجية الحادة، اللابة (في الجمع لوب)؛ فاللابة هي كل ما يمتلك شبهاً بالمعدن المصهور.

لا يملك الأعراب تراثاً متناقلاً حول كون هذه التربة مغمورة دوماً بالفلز الملتهب أو بالجبال المشتعلة، ليس للأعراب تراث متناقل [حول ذلك]. عندما ابتعدنا رأيت بعض الصخور الذهبية الحمراء المنتصبة فوق الرعب الأسود من الحمم؛ كانت قمم من الحجر الرملي تلامسها الأشعة المبددة لشمس الصباح. في قيعان الحمم المحمية، حيث تنمو الأكاسيا الصمغية غالباً ما كنا نجفل طيور القطا (القطاة)، إنها طيور هزيلة اللحم ولبست جيدة للأكل، كما يقول البدو. في أوقات كثيرة يُشاهد على حقول الحمم لمعان تحت الشمس كلمعان ماء بعيد؛ إنه ليس سوى طين جاف تقزز بالملح.

بسط غصيب يديه بورع؛ لم يكن يعرف الصلاة الرسمية، بل سأم العنصر اللاعقلاني بتحقير روحه البشرية بهذا المقطع المحفوف بالمخاطر، «يا رب، أعطنا كي لا نرى الشر! ولا يكون هذا يوم موتنا وفقدان الذلول»!. لم يكن رفيقي يعرف أنني مسلح. إن غصيب، الذي كان يحمل بندقية الفتيل الطويلة، تابع سيره على القدمين ما بين الجري والمشي، وهو يراقب دوماً من أجل الطريق أمام الذلول، ويحملق على نطاق واسع بسبب الخوف من أي عدو معترض. ذات مرة وأنا ألتفت فجأة فاجأني عندما كنت أكتب بقلم رصاص [قراءة من مقياس الارتفاع]. «هل ذلك حسن، يا خليل؟ قال رفيقي،

كيف ترى (في فن الأدب السحري) هل يسير نحو الخير أم نحو الشر، ألا يمكنك أن تكتب شيئاً ما (تعويذة قوية) من أجل هذه الحاجة؟» ثم وهو يراني أتابع الركوب بلا مبالاة وأهجع بسبب الإنهاك، استراح. إن مسدسي ذا الحجرات الست قد منحني هذه الثقة بالنفس في الجزيرة العربية، فلأنه يجب علينا أن نصارع من أجل حياتنا فكرت أنه قد يكفي للدفاع عني وعن رفاقي، وكان غصيب مرافقاً شجاعاً. لا بد أن البارودة الطويلة لغصيب تثقل الكتفين المريضين للرجل القوي، وتكلمت إليه ليعلقها عند قوس السرج الخاص بي لكوني رفيقه؛ فوافق على ذلك، لذلك لم يعقد وتر الكتف حول الذروة؛ إذ يجب أن تعلق بسهولة، قال بحيث إنه في حال ظهور الخطر يمكنه أن يأخذها مرة أخرى على الفور.

بعد شروق الشمس بساعتين عبرنا حدود الحرة، ودخلنا ضمن حقل الحمم هذا على أرض من الحجر الرملي. الريف البركاني الذي عبرناه في سبع عشرة ساعة يسمى حرات **الاثنان**، من التل الخبثي الكبير لذاك الاسم: جبل اثنان؛ الديرة هي ديرة نوامسة هتيم. دخلنا مسافة ساعة عن طريق سهل منحدر من الصخر الرملي الأحمر، إلى جرف عميق، **الشُّطب**، حيث سقنا الجمال نزولاً بخطوات قصيرة، على الرفوف والأفاريز. في القاع كان ثمة أشجار أكاسيا الصمغ (السنط)، وشجرة لا أعرفها، لها أوراق تشبه إلى حدٍّ ما رماد الجبل. اسمها thirru، ليس لها أية فائدة نعرفها «قال غصيب. وراء البستان توجد بعض الدفقات الرقيقة من الحمم التي تجري على تراب الحجر الرملي، من الحقل البركاني فوق. عند الظهر عبرنا الصخر الرملي وأتينا مرة أخرى إلى الحرة الرئيسة بعده، التي تقع كلها إلى الشرق مع الحرة السابقة؛ وهناك مررنا بعدد قليل من فوهات البراكين الواطئة. والكل ـ الذي هو حرات خيبر ـ يقع بين الشمال الغربي والجنوب الشرقي بطول مسيرة أربعة أيام؛ وهذا العرض قد يكون قليلاً نظراً إلى أنه يمتد إلى مسافة مسير ذلول واحد من المدينة [المنورة]، أي مئة ميل، بالمقارنة، وفي المنتصف يمكن عبوره في يوم واحد.

قال غصيب عندئذٍ: «لكن هل أنت بحاجة للذهاب إلى خيبر؟ هل تسمع؟ ألن أنقلك بالأحرى إلى الحيات[1]؟». كان رفيقي يخشى الذهاب إلى خيبر، كون الدولة هناك، اولئك المجرمون الرسميون (فهمت ذلك لاحقاً) ربما صنّفوه عدواً وصادروا ذلول البدوي الفقير، ورموه في السجن؛ لكن الحيات كانت مع ذلك قرية حرة في قضاء ابن رشيد. عرفت فيما بعد أن غصيب قاتلٌ، ويقع عليه دَيْن باهظ من أجل الدم؛ لذلك كان أن سار معي مقابل أربعة ريالات في هذه الرحلة الشاقة. من منزل عيادة كان من الممكن أن نضع الحرة على يسارنا، ومررنا بسهول الرمل اليسيرة [حيث سافرت في الربيع]، تحت الجبال الغرانيتية؛ لكن غصيب لم يشأ ذلك، لأنه في العراء كان ثمة خطورة أكثر مما في هذا الطريق المنحدر للحرة.

على بعد ساعة من الشُطب وجدت أن الارتفاع يبلغ 5,000 قدم. قبل منتصف الظهر على يميننا، بعد جنبات الحرة والسهل الرملي السفلي المنخفض، ظهر عالم من الجبال المتسلسلة، المقفرة، جبال حجور، على بعد خمسة وعشرين ميلاً، في ديرة ولد علي. ذهبنا طوال اليوم كهاربين من العدالة [آبقين] في هذا الريف البركاني. يأتي غروب الشمس سريعاً في الشتاء، فتوقفنا، في قاع طيني منخفض ذا أشجار أكاسيا باسقة وبرك صفراء من ماء المطر. شكّل غصيب الذلول التي لم تأكل منذ يومين وأطلقها لترعى الأغصان الخضراء. هناك طهونا قليلاً من التمن[2] [الأرز]؛ ومن ثم تمددنا على التراب المستنقعي والحجارة في مطر الليل الهاطل رذاذاً لنغفو.

عندما بدأ الفجر بالطلوع انطلقنا، ومررنا فوق غدير يجري خارجاً من ماء راكد في حقل الحمم. كان الطقس أكثر صحواً، السموات المنصهرة كانت ترتفع من حولنا. الريف البركاني منبسط من هنا فصاعداً، وينحدر دوماً ومليء

---

(1) جمع حية، وهي الثعابين، يشبه رجال الحكومة الأتراك بالثعابين.

(2) التمن: معروف في بوادي العراق والشام والجزيرة العربية قديماً، إنما لا يعرف الآن إلّا بالأرز.

بالجدران. أمام وتحت طريقنا، كنا نبصر الجبل ذا القمم الثلاث الحادة، أتوا (عطوى)[1]، الذي ينتصب قرب خيبر، استقبل غصيب نقطة العلامة هذه بالفرح. بعد أتوا لم يكن أمامنا سوى ليلة في الخارج، كما قال، من أجل راكبي الذلول إلى المدينة المنورة. على يسارنا كان جزء بعيد من الحرة، حرات الأبيض، يبدو أبيض تحت الشمس ومليئاً بالتلال. قال غصيب «التلال مائلة إلى البياض، حقل الحمم يقع من حولها؛ الحجر الأبيض يبدو كأنه محروق، وثقيلاً كالمعدن». يقول الآخرون «إن قمم التلال فقط هي حجر أبيض، أما البقية فهي حمم سوداء» ـ تلك التلال البيضاء قد تكون حجراً كلسياً، الذي، كما تعرف، يقع قريباً فوق الصخر الرملي للهسمة.

قبلئذٍ رأينا ذباب الواحة: كانت خيبر لا تزال مخفية عن النظر بالضلع الهابط للحرة؛ شعرنا أن الهواء في كل لحظة يزداد سخونة، وبالنسبة لنا، ثقيل الوطأة، خالٍ من النسمات. كل هذا الجانب الريفي إلى جبال حجور يسيل نزولاً عن طريق أراضي وادي الخفوضة وغمرا إلى وادي الحمش. أراني غصيب بصمات أقدام ذئب في الرمل البركاني. عند منتصف بعد الظهر كنا قرب خيبر، التي تقع في المدى البعيد وكانت لا تزال محجوبة عنا. ثم وقعنا على الآثار الطرية لغزو، كانوا قد مروا نزولاً نحو خيبر. سرنا في الجدار نفسه خلفهم! آثار الأقدام كانت لفرسين وجملين. أشار لي غصيب في الحال لأتوقف؛ جاء وأخذ مسدسه بصمت، أشعل عود الثقاب وخرج راكضاً ليستطلع. ربض خلف مخبأ من الحمم البركانية المتيبسة، من هناك عاد ليخبرني أنه رأى خيالين ورديفين، على الجمال، لم يكونوا قد رأونا. والآن، وهو ينفخ عود الثقاب، سأل بشكل جاد جداً «هل كنت قادراً على مقاومتهم به؟» ـ خلافاً لمشيئة غصيب كنت قد مكثت هذا اليوم، عند الظهر، عشر دقائق، لآخذ بعض الاستجمام، لكن بسبب ذلك كنا قد التقينا معهم عندما جاؤوا يعبرون من جهة الغرب. كان من المحتمل جداً أن يسفك الدم

---

(1) عطوى: جبل يطل على خيبر من الجنوب الغربي، وقد يسمى الصهباء.

بيننا. وقفنا لبرهة لإعطائهم فرصة، وعندما حجبهم حقل اللافا غير المتساوي، مررنا ببطء نحو الأمام. كانت الشمس تغرب ـ وسنكون في خيبر هذه الليلة قبل أن تُغلق بوابة القرية.

حطّ الجراد قرب طريقنا، ورأيت في الأعلى سرباً لا يُعد ولا يحصى منه منجرفاً مع ريح المساء. سأل غصيب مرة أخرى، إن كنت خائفاً من الدولة ألست دولانياً؟ إنهم أصدقائي».

ـ «والله يا سميّ[1]، هل بمقدورك أن تسلمني وتترك الذلول، إذا كان عليهم أن يأخذوني؟».

ـ «لا شك في ذلك، إنهم [جماعة] الدولة من جانبي».

في ذاك الوقت هبطنا إلى أرض قاع كبيرة في حقل الحمم البركانية، هي الهوردة، مليئة بالذرة الخضراء، تلك الذرة رأيتها تنضج قبل رحيلي عن خيبر! هنا خاف غصيب أن يلتقي بالغزو، ـ اللصوص ربما كانوا يرعون أفراسهم في الذرة الخضراء للمستوطنة. حيث جئنا عن طريق الصواني، كان الحمام البري يطير برفرفة كبيرة من الجناحين، من آبار الماء. ظننت أن هذه لا بد أن تكون حقول خيبر، وتكلمت إلى غصيب لينقلني إلى قرية ولْد علي. توجد ثلاث قرى، سميت على اسم قبائل عنزة الوارثة للأرض، قرية بِشْر (أي خيبر تحديداً)، قرية ولْد علي، على مسافة نصف ميل، وعلى بعد ميلين مزرعة جرية الفقرا ـ جرية تقال بدلاً من كرية (قرية) في لغة هؤلاء البدو.

رأى غصيب فقط أن تأخيري غير ملائم، في حين كان يخاف على ذلوله، وكان ينظر إلى كل منعطف جديد سوف نواجه فيه الأعداء الذين هبطوا قبلنا. شددت اللجام، وأمرت رفيقي ـ الذي كان يخطو دوماً قبلي بقليل سيراً على القدمين ـ أن يعد بألّا يأخذني إلى أي مكان سوى قرية ولْد علي. إن زيارتي خيبر، التي يعتبرونها في بلد الرسول، كان من المحتمل أن تكون

---

(1) السمي: شخص على اسم شخص آخر (المترجم).

مغامرة خطيرة؛ ويمكن أن أقتل الليلة في المعممة لو ساءت الأمور معي، لكن عند مزرعة ولْد علي سيتعين عليَّ أن أكون الضيف لزبانية مطلق ومحسن، الشيخين الكبيرين لتلك القبيلة. رآني غصيب أتوقف، كرجل إلى جانبه! وجاء مسرعاً، ليخطف رسن الذلول؛ ثم وجه بارودته الفتيلية بشكل يائس ضدي، وصاح، «أخس! لماذا كنت سأرغمه على أن يسبب لي أذى؟». لا يمكنك أن تقتل رفيقك! الآن عدني وتقدَّم». فوَعَد، لكن بشكل كاذب. بعد ذلك بأشهر سمعت أنه قد أخبر أصدقاءه، عندما جاء إلى الوطن مرة أخرى، أنه كان قد وجد الغريب رفيقاً جيداً، فقط في نهاية الرحلة، عندما كنا على وشك دخول خيبر، كنت سأخذ ذلوله.

عبرنا حقول الذرة للهوردة بدون إنذارات جديدة وأتينا على العنق البازلتي للحرة حول وديان الواحة، التي تدعى خيبر الفقيرة (في الجمع الفقرا). ركب غصيب معي، وجعل الذلول تجري بسرعة، لأن الضوء كان الآن خافتاً. رأيت الخرائب في فقيرة ذات البناء الجاف القديم والجدران الحلقية، البعض منها ساحات صغيرة من الكتل البازلتية المفككة، التي يستعملها البدو لتجفيف تمورهم تحت الشمس، قبل تكديس الثمار في أكياسهم. بعد ميل وصلنا إلى أفق، فرأيت غابة تمر في وادي خيبر الأخضر تحتنا، لكن القرية لم تظهر بعد. غابت الشمس عندما هبطنا درباً منحدراً. على اليسار كان ثمة برج مراقبة خالٍ، واحد من سبعة أبراج بُنيت مؤخراً من قبل الحكومة المحتلة للمدينة المنورة الآن، على هذا الجانب، لمراقبة عنزة المعادية [بِشْر وفقرا]. إن نقطة العلام البشرية هذه بدت لي أكثر وحشة من كل الحرة وراءنا؛ لأنني تذكرت عندئذٍ مدائن صالح وخطر الجنود الأتراك الذين يبقون طويلاً دون أن يدفع لهم راتبهم، والذين يتعين خشيتهم أحياناً. كم بدا مبهجاً لي آنذاك الجفاف الشمسي للقفار، كم كان مباركاً أمان الخيام المعمولة من الصوف المغزول في القرى الجوالة! هذه القلاع محمية بحاميات في الصيف وفصل الخريف.

مررنا عبر بساتين النخيل في قعر وادٍ، وادي جلاس[1] الذي سمي على اسم ذاك الفرع القديم من عنزة، الذي هجر خيبر منذ زمن طويل، وهم في هذا اليوم ـ كما رأينا ـ مع الروالة في الشمال. الأرض العميقة هي مستنقع وأسل (نبات) وماء راكد، وهناك أطبق على أرواحنا بخار مستنقع ممرض. في الوسط عبرنا غديراً يجري في سرير من الرشاد الأخضر. كان التراب المهجور عفناً على الجانبين، مع وجود عدد قليل من سيقان موروبة وناقصة النمو من النخيل. الأرض القذرة مائلة إلى البياض بقشور من طبقة الملح المترسب المر، سبخة، ومبقعة بالصدأ القذر، من هناك تقول خرافتهم إن «هذه الأرض تطهر نفسها من دم اليهود، الذي سُفك في غزوة خيبر». إن الذلول التي لم تجد أي موطئ قدم تحت خفيها المنزلقين، غالباً ما كانت تتوقف بسبب الخوف. صعدنا بين سورين خشنين، مبنيين من أحجار البازلت وجذوع النخيل العطنة، وكتل من الطين الأسود. كم هي غريبة وديان خيبر الشديدة الرطوبة هذه في الجزيرة العربية العديمة الماء! كان شعور داخلي وثقيل بقدوم الشر يجثم على قلبي عندما ركبنا وانطلقنا في هذا الجو الخانق على نحو مميت.

صعدنا على أرض صلبة إلى مدخل خيبر، أي جريات بِشْر، تحت الجرف البازلتي الطويل للقلعة القديمة الحصين. في الأرض الهابطة على اليسار ينتصب بناء عتيق على شكل مربع من الحجر، هو المسجد القديم من زمن محمد، كما يقولون؛ وفي الفناء دفن أصحاب النبي (الصحابة)، أولئك المسلمون الأوائل القليلون وأنصار وصحابة الرسول الحي، الذين سقطوا في الفوز (البائس) بخيبر.

عند بوابة القرية التقتنا امرأة زنجية عند الشفق فاستفسرت منها عما إذا كان بو (أبو) راس في البلدة؟ ـ سمعت عنه من المغاربة في حائل بوصفه رجلاً آمناً، كان تاجراً زنجياً مغربياً استوطن في تلك الأصقاع؛ كذلك كنت آمل في أن أصبح ضيفه. لكنه كان قد غادر المكان، منذ دخول الدولة

(1) الجلاس ليس مع الروالة، بل الروالة أحد شعبتي قبيلة الجلاس.

(الاستبدادية) ـ كونه الآن، كما يقولون شبعان، أو حصل على كفايته من ثرواتهم البائسة، ليعيش مع ذلك تحت حكومة نجد الحرة في الحيات ـ أجابت بخوف وهي تدعو للغرباء بمساء طيب، لم يكن بوسعها أن تقول، لا تعرف شيئاً.

خيبر، عبد الله والنجومي

عبرنا البوابات المصنوعة من ألواح النخيل غير المشغولة إلى شارع قرية زنوج الحجاز، وترجّلنا عند الغسق أمام بيت أحد معارف غصيب. نظر المضيف، وهو يسمعنا منشغلين عند باب بيته السفلي، إلى الأسفل من النافذة البابية وسأل بالصوت الزنجي الأجش من نكون. ناداه غصيب، فنزل مع أخيه لاستقبال الضيوف. أخذا حقائبي على أكتافهما، وأصعدانا عن طريق درج طيني إلى مسكنهما، الذي هو، كما هو الحال في العلا، حجرة علوية (علية)، تدعى هنا صُفّة. إن الطابق السفلي، في هذه الواحات الرطبة، هو مكان يتركون فيه أدوات البستان، واسطبلاً لأجل عنزاتهم القليلة التي تُساق إليه لقضاء الليل. صاحب البيت هذا كان يدعى عبد الهادي، شاب تحت السن المتوسط، ذو قسمات زنجية ناعمة. ـ هؤلاء العرب الشبيهون بالزنوج لا يندر أن يكونوا وسيمين.

كانت غرفة مضيفنا العليا مفتوحة على جهة الشارع بنوافذ بابية طويلة، طاقات، إلى أرض الدار؛ لم يكن السقف سوى نسيج قشي مفكك من جذوع النخيل، وفي الأعلى توجد مصطبة البيت من الطين المجبولة التي تصعد إليها [يقولون إرقَ] عن طريق سلم من غصني نخيل أو ثلاثة أغصان، مع درجات مقّرضة فيها. كان كوخ عبد الهادي من النوع الأفضل، لأنه كان رجلاً ثرياً. إن خيبر، إذا جاز القول، قرية إفريقية في الحجاز. فرش عبد الهادي سجادته ورحّب بنا، ووضع أمامنا تمر خيبر، الأصفر اللون، الصغير والمرصوص معاً؛ إذ يجمع قبل أن يكتمل نضوجه [بسبب نفاد صبر شركائهم البدو،

وانعدام الثقة فيما بينهم] وله طعم دوائي أو مستنقعي، لكنه «أبرد «من معظم تمور البلاد وليس ضاراً. بعد جهود هذه الأيام في الحرة لم نستطع أن نأكل؛ طلبنا ماءً لنطفىء عطشنا الحارق. إنهم يعلقون قرباتهم المتعرقة عند رأس الدرج ويُحدثون تحتها حفرة في الأرض، بحيث يمكن للماء المتقطر أن يسيل من خلالها. إن الماء المسحوب، كما يقولون، من راس النبع تحت البازلت، له طعم المسيل؛ قد يكون كبريتياً. كنا قد تركنا ذلولنا مربوطة الركبة في الشارع.

إن أشخاصاً كثيرين، عندما سمعوا من يقول إن الغرباء قد وصلوا، صعدوا طوال هذه السهرة لزيارتنا؛ كان القرويون رجالاً سوداً. قصّ غصيب عليهم حكايته عن الغزو؛ وأجاب الزنوج. «والله! سوى أننا سنرحل في الصباح للبحث عنهم ـ!» كانوا يخافون على أراضي الذرة الممتدة ولئلا تؤخذ أية دابة من دوابهم. هنا جاء مع البقية رجل أبيض طويل القامة وداكن اللون، ذو محيا جندي، يحمل قنديلاً وغليون تبغه البالغ طوله ياردة، رأيت أنه كان من السكان المختلطين للمدن. جلس صامتاً بعينين جوفاويين وتبغه المدخن، يحملق إلينا غالباً؛ ثم مرر إليّ الشيبوك وسأل عن الأخبار. لم يكن ودوداً مع عبد الهادي، وتنازل عن الفنجان الثاني لمضيفنا. تابع الرجل الأبيض الجلوس وهو يدخن باعتدال، وقنديله مشتعل؛ بعد ساعة تقدم [وكان ذلك ليشي بنا إلى الملازم الوحشي في خيبر]. أخبرني رفيقي همساً، هذا أحمد؛ كان جندياً وهو الآن تاجر في خيبر. ـ كان أخوه محمد النجومي، هو الذي سيصبح من الغد المدافع الشهم عن محنتي في خيبر، كانوا مواطنين من المدينة المنورة. كان ذلك قرب منتصف الليل عندما انصرف آخر شاربي القهوة؛ عندئذٍ همست لغصيب: «هل سيقدمون العشاء أم، أو ألم يحن وقت النوم؟».

يا سميي، ظننت أنهم ذبحوا من أجلك؛ رأيتهم يحضرون نعجة إلى المصطبة، منذ زمن طويل».

ـ «من هو شيخ القرية؟»

«عبد الهادي هذا هو شيخهم، وستجده رجلاً طيباً». اضطجع رفيقي مثل بدوي (مخادع)، ليعتذر عن عدم نقلي إلى قرية وادي علي.

أخيراً نزل مضيفنا وأخوه من أعلى البيت، وهو يحمل صينية معدنية ضخمة من اللحم المسلوق على خبيصة من الذرة (قد تكون نوعاً من الدُّخن)، منذ أن أتلف الجراد ذرتهم الربيعية، كانت هذه هي مادة الخبز الوحيدة المتروكة لهم في خيبر.

مع بدء طلوع الفجر الجديد نزل غصيب إلى الشارع بسرعة؛ قال: «وداعاً، وإذا كان ثمة أي تفريق بيننا فسامحنا، يا خليل»؛ وهو يأخذ يدي اليمنى (وخائفاً ربما من لعنة الغريب) انحنى وقبّلها. إن هادي شقيق مضيفنا قد ركب أيضاً على كفل ذلوله؛ انطلق هذا الزنجي الشاب القوي الجسم ذو بارودة الفتيل الطويلة على كتفه بسترته العارية، متمنطقاً فقط بالحزام أو قشاط رامي المسدس. على الحمالة توجد أنابيب معدنية صغيرة، محشوة بالبارود وعلى الحزام أكياس جلدية من أجل الخردق والقدح والفولاذ، وخطاف يعلق عليه الرجل صندله ـ فهم يسيرون حُفاة بشكل عام. تكون الأحزمة مزينة بأزرار نحاسية ومرصعة بسلاسل مخشخشة صغيرة؛ يوجد بعض الشبان الذين يشاهدون وهم محزّمون باستمرار، متمنطقون ومتباهون بزخارف الحرب الرنانة الصغيرة هذه. يحكى عموماً عن قبائل مزودة بأسلحة نارية «لديها الكثير من المحزمين». ـ انطلق هادي ليعثر على آثار غزو البارحة.

جاء إليَّ بعض القرويين في الحال ليسألوا عن الأدوية، كانوا مليئين بالكلمات المملة؛ وكلهم يستجديني ولا يشتري شيئاً. تركتهم جالسين وخرجت لرؤية المكان، لأن هذه كانت خيبر.

أرسل مضيفنا ابنه ليدلني؛ تبع الصبي زقاقاً ودعاني لدخول باب ورؤية نبع. دخلت ـ كان مسجداً! فانسحبت بسرعة. نزل الأب (الذي أرشد الولد مسبقاً). وهو يسمع منه عندما جئنا مرة أخرى أنني تركت المكان بدون صلاة، وأغلق باب زقاقه. عاد وأخذ مسدسه عن الجدار وهو يقول: «دعونا نخرج

معاً وسوف يأخذني في جولة حول البلدة». عندما كنا في الشارع أخذني في طريق بستان خارج المكان.

مررنا بطريق مسوّر عبر النخيل إلى فضاء مفتوح من عشب الأسل ورمل بركان أسود، **الصفصافة**، هناك أراني رأس جدول ينبع بقوة من تحت الفقرا. الماء فاتر وكبريتي كما هو في **العلا**، ورأيت فيه أسماكاً صغيرة خضراء - سوداء وذات بطن فضي: - كل السمك يسمى حوتاً من قبل أهل الجزيرة العربية، «هنا، قال، المنزل (الصيفي) للدولة، في هذه الأرض تنتصب خيام العسكر»؛ جلسنا، فسألني وهو يحدق في وجهي: «هل تخاف من الدولة؟» هل الدولة أفضل أم حكومة ابن رشيد؟» «الدولة تسلمتنا من البدو، لكنها أكثر إرهاقاً».

مررنا عبر مقبرة ذات تراب بركاني أسود وطمي ملحي، رؤوس القبور القذرة معلّمة بأحجار شواهد من البازلت غير المشغول. أرض المدفن متشققة وشاحبة، متفخة فوق جثثها المحتواة في بطنها، مثل تربة حديقة، في الربيع، التي تدفعها النباتات النابتة حديثاً. كل شيء مرعب في خيبر! - لا شيء هناك لا يملأ عين الغريب بالإزعاج.

«انظر، قال، هذا نبع سيدنا علي! - رأيت بركة فاترة ونبعاً جارياً من الماء. - هنا سيدنا علي [زوج فاطمة] قتل مرحَب، قاطعاً رأسه؛ ونصل سيفه شقّ تلك الصخرة التي تراها هناك مشطورة إلى الأرض» - هكذا جئنا إلى ما بعدها. «وهنا، قال، مسجد علي [الذي سبق ذكره]. البناء بسيط، بمداميك من صخور البازلت غير المشغولة» إنه قديم بالتأكيد. هنا أيضاً يتعلم أطفال القرية حروفهم الأبجدية على يد شيخ الديانة.

عندما أكملنا الجولة قال، «دعنا نذهب إلى **الأمير**». هكذا كان القروي يسمي الآغا أو القائم مقام، على عشرين من العقيلات من المدينة. كان أولئك راكبو الجمال سابقاً من عرب نجد؛ أما الآن، لأن أجور الدولة تتأخر كثيراً في المجيء، فإن النجديين النزقين قد تركوا تلك الخدمة التعيسة.

فالعقيل هم فريق مختلط من عدد قليل من النجديين (قرويين، معظمهم من القصيم والبدو الفقراء) ومن الـ Gallas والترك، والألبان والمصريين والكرد والزنوج. في ذاك الوقت كان العقيل في خيبر يسافرون سيراً على أقدامهم، مات بعض جمالهم، وما بقي منها كانت في المرعى (بعيداً) مع البدو. كانوا جميعاً يستجرون حصصاً يومية من الذرة لأجل جمالهم الحية والميتة؛ وكيف بغير ذلك يمكن للبؤساء الفقراء أن يعيشوا؟ وهم الذين لم يلمسوا نكلة من راتبهم (سوى راتب شهر أو شهرين) في هذين العامين. كان القليل من رجال الحكومة المسلحين في خيبر من الزبتية، وهم رجال خدمة الشرطة. «الآغا كردي»قال عبد الهادي.

صعدنا في شارع جانبي، إلى صفا، كانت مقهى للجنود، السيوف والمسكيتات[1] معلقة على أوتاد في الجدران الطينية. بعد ذلك مباشرة دخل بعضهم؛ كانوا جميعاً ملونين، محزمين (مثل رجال المدينة) بستراتهم البيضاء؛ دخلوا مع البنادق قادمين من اختبار لمهارتهم ورحبوا بنا على طريقتهم (طريقة أهل المدينة المنورة) وجلسوا لصنع القهوة. استغربت، عندما كنا نشرب معاً، أنهم لم يطرحوا عليّ أسئلة! نهضنا في الحال وانصرفنا. عندما خطونا على الدرج الطيني سمعت صوتاً أجش يقول بينهم «فهمت جيداً، إنه عدو» وسمعت من يرد عليه بقوله، «لكن دعوه وحده لوهلة».

كان الوقت قد حان كما ظننت لكي أعرّف عن نفسي عندما سألت أين الآغا الكردي؟ صاح مضيفي «ألم تره كان جالساً عند منتصف الموقد». كان ذاك عبد الله السيروان قائد جماعة جنود المدينة المنورة: كان أبوه «كردياً»، لكنه كان رجلاً أسود ذا ملامح من Galla من العمر المتوسط الأصغر سناً، ـ ابن أمة (من الـ Galla). كنت جديداً لأتعرف على هذا العالم الحجازي، والأسلوب المديني للحرمين. في الشارع رأيت وجهين أبيضين يخرجان من باب؛ كانا جنديين عاجزين وكان الرجلان اللذان سارا متكئين على العصي

(1) المسكيتة: بندقية قديمة الطراز خاصة بجنود المشاة (م).

الطويلة لأغصان النخيل، يبدوان ذوي شحوب كالأموات في السواد المفزع لكل الأشياء في خيبر، جاءا لكي ينضما إليّ، كوني رجلاً أبيض، وتابعا مرورهما بدون كلام. كان أحدهما، ذو اللحية الشيباء، ألبانياً اسمه محرم؛ أما الآخر فكان مصرياً. عندما كنا في البيت مرة أخرى أقفل عبد الهادي باب زقاقه وقال وهو يصعد الدرج، «أخبرني، هل أنت مسلم؟ وإذا لم تكن سأضع أغراضك على بقرة وأرسلك إلى مكان أمان». «أيها المضيف، أنا من الإنكليز! أمتي، قد تكون سمعت من يقول إنها على صداقة مع الدولة، وأنا من الذين تسمونهم النصارى».

خرج عبد الهادي عند العصر وترك باب زقاقه مفتوحاً! هناك صعد في الحال سالم، وهو عجيلي بدوي، ليسأل عن أدوية، وجاء واحد من الـ Galla مع سلاحه، اسمه سرور؛ هو الذي كان قد سماني عدواً.

قال سالم: «نصف ريال ثمن جرعات الحمى! أملاح وكينا».

تمتم الـ Galla، «لكن سرعان ما يتبين أنني سأدفعها مقابل لا شيء»، وأضاف «هذا الرجل قليل الفهم للعالم، لأنه لا يفرق بين الأشخاص: هو! من أي بلد أنت؟».

«أنا أقطن في دمشق».

ها! وتلك هي بلدي، لكنك لا تتكلم عربي بشكل صحيح؛ يخطر ببالي أنه سيكون لدينا نصراني هنا.

«اوهو! ما الذي جلبك إلى هنا؟».

- «كنت أود أن أرى بلد اليهود القدماء».

«بلد اليهود! لكن هذه ديرة الرسول»، وهكذا تخليا عني.

وقال عبد الهادي وهو يعود: «ماذا سنفعل؟ لأن والله كل الناس مقتنعون بأنك لست مسلماً». «هل يعتبرونني عدواً! والآغا ....؟».

ـ آه! إنه جبار، طاغية كريه». تابع مضيفي، وصعد سرور من جديد؛ ـ أرسله الآغا. «سأل من أكون أنا ـ «إنكليزي، من أولئك الذين يؤيدون الدولة».

ـ «إذاً أنت نصراني؛ صلِّ على النبي، هلم!» ومع آخر من العجيل بدأ الـ Galla الأسود الهمجي، يدفعني إلى الدرج. وصل بعض القرويين الذي يقولون إن هذا هو البوليس، فوافقت على الذهاب معهم. «حسناً، اجلبوه (قال المتفرجون)، لكن ليس بالقوة». «أخبرني، قبل أن نبتعد، هل ستقتلني خارج البيت؟» كنت قد أخذت مسدسي سراً تحت سترتي، عند الإنذار الأول.

في نهاية الشارع التالي كان شخص يجلس على مقعد طيني ليقاضيني. ذاك «الكردي» الحبشي الداكن البشرة، سمعت أنه آغا الجنود. تابع حشد من القرويين مجيئهم وراءنا، لكن بدون صراخ. ـ إلى أية بلاد، قلت في نفسي، وصلت الآن! ومن هم هؤلاء الذين يأخذونني (بسبب اسم المسيح الحلو!) باعتباري عدواً للجنس البشري؟ ـ صاح سرور، بصوته الجثيري، بذاك الجالس على المقعد الطيني، «لقد كشفته ـ نصراني!».

قلتُ: «ما هذا! أنا إنكليزي، وأنا من أمة صديقة، فلماذا أعامل هكذا؟».

«بالله، أجاب، كنت خائفاً اليوم، هل أنت بالفعل انكليزي، ألست . . . مسكوفياً؟».

ـ لقد قلت ذلك قبلئذٍ!.

«لكنني لا أصدق ذلك، وكيف لي أن أثق بك؟

ـ «عندما أجبتُ هنا في خيبر، أنا نصراني، ألم أكن صادقاً في الباقي؟».

إنه يتكلم حسناً، عُدْ، يا عبد الهادي، واحضر حقائبه، وانتبه لئلا يتبقى أي شيء».

كان الشارع مليئاً بالوحل بعد المطر المتأخر؛ هكذا تكلمت إلى عبد الله، وهو ينهض أشار إلى مكان مفتوح في القرية الطينية، التي تدعى الصحين، «القدر الصغير» ـ «بالله (أضاف عبد الله السيروان، وكان الرجل أمياً)، إذا كان معك أي كتب، أو ما يسمونها خرائط البلدان، لن تراها بعد الآن؛ يجب أن تُرسل جميعها إلى باشا المدينة لكن أليس لديك أي جهاز، آه! ويمكنني الآن أن أتذكر الاسم، ـ لقد تذكرته! مقياس الهواء؟ ومن أين تنحدر أنت؟».

ـ «من حائل؛ لدينا هنا أيضاً جواز سفر من ابن رشيد».

أعطاه عبد الله لصبي تعلم في المدرسة النهارية ـ لأن قلة من القرويين البالغين، ولا أحد من أولئك الذين يقفون جانباً، كانت تعرف الحروف، عبد الله، «آتوني هنا بالشيخ صالح، ليقرأ ويكتب لنا». أخرجت حصيرة من سعف النخيل من أحد البيوت وفرشت أمامنا على مقعد طيني «جلست عليها مع عبد الله. ووقف حشد من القرويين السود أمامنا يحملقون.

هكذا وصل صالح، شيخ هذه القرية الزنجية ـ رجل كهل، يسير أعرج ـ معه محبرة نحاسية طويلة، وورقة كبيرة في يده. قال سروان: «صالح، أنت ستكتب كل هذه الأشياء بالترتيب [جلبت أكياس الجمال الكبيرة وبسطتها أمامه] الآن أخرجوا الأشياء واحداً واحداً؛ وأنا سوف أسميها، اكتب، يا شيخ صالح. ابدأ: لجام جمل، قربة، أكياس تمر، أقط وتمن؛ «ما هذا «علبة دواء»، «افتحها!» عندما رفعت الغطاء تراجع كل الأشخاص السود إلى الوراء وسدوا مناخيرهم. أخذ سرور في يده ما كان في الأعلى، بوصلة مربعة، كانت ملفوفة بقماش. «افلشها، قال عبد الله. قال الرجل وهو يفتلها في يده «اوح! هذه صابونة، (قالب من الصابون السوري)، لذلك تركها عبد الله تمر وكان ذلك مبعث ارتياح كبير لي. لكن عبد الهادي، وهو يلمح شيئاً ما، مد يده فجأة وانتزع مشطاً؛ «ها! ها!» صاح مضيفي (الذي كان حتى الآن قد أواني بكرم)، لكن عقله الطيب في الآونة الأخيرة قد انقلب للتو إلى حقد تعصبي،

فالقرية كانت تسميه «أبو سماخ«(أبو المشاحنات) «ما هذا الجهاز الخطير، ها! نصراني؟ عبد الله، دعه يقدم تفسيراً لذلك؛ واحكم أنت إن لم يكن ذلك شركاً اخترعوه ضد المسلمين!».

بعد ذلك برزت علبة صفيح كبيرة، فتحتها أمامهم، كانت مليئة بالشاي، مرطبي الوحيد. «حسناً، هذه يمكنك أن تغلّفها مرة أخرى«قال عبد الله. بعد ذلك كان ثمة حزمة من الكتب. «آها! صاح الرجل الكبير، الأشياء السابقة ـ هل دونتها، يا شيخ صالح؟ ـ لا قيمة لها، سوى الكتب! ـ لن تأخذها مرة أخرى». ثم وقع نظره على البكرة النحاسية لشريط القياس «ها!«صاح قائلاً أخبرني وتكلم الصدق (**أعلمني بالصحيح**)، أليس هذا مقياس السماء؟» «هنا، قلت له، لدي ورقة، هي جواز سفر دائري من وإلى سوريا«ـ «إذاً اقرأها، يا شيخ صالح». حدق صالح في الوثيقة المكتوبة للحظة ـ «لقد قرأتها، أجاب، لكنني لا أستطيع فهم سوى الأسماء، لأنها مكتوبة بالتركي [كانت باللغة العربية، لكنها مكتوبة بأسلوب فارسي مزخرف!] وهنا في الأسفل يوجد ختم الباشا «وقرأ اسمه. هو! هو! (صاح سرور) ذاك الباشا كان منذ زمن طويل؛ وهو ميت، أعرف ذلك جيداً».

كان من شأن تنهيدة ارهاق جسدي أن تجعل الباقين ينفضون عني. «لماذا هكذا؟» هتف . . . التقي، عبد الله، لا تتكل إلا على المولى.

أمام ارتباكي المطلق، نبشوا من قاع الكيس علبة المسدس الفارغة! صاحت أصوات كثيرة وهم يرمون نظراتهم المريرة عليّ، «اوه أنت! أين المسدس؟».

لم أجب بشيء؛ ـ في لحظة الإثارة هذه صحت قائلاً «من الواضح أن ابن رشيد قد أخذه منها».

«أي، أجاب القرويون السود من حولي، لقد أعطاه إلى ابن رشيد،ابن رشيد قد أخذه منه،ثق بنا، يا عبد الله».

ـ المسدس لديهم يُحفظ دوماً في قِراب مزخرفة؛ باعتباره شيئاً غالياً ولم يكن بمقدورهم أن يتخيلوا أنني سأحمل مسدساً مكشوفاً تحت قميصي المجرد، بعد ذلك فكرت في نفسي «هل سيفتشون جسدي؟» ـ لكن هذا يعتبر بينهم بمثابة إهانة شديدة؛ وكان يوجد شهود كثيرون جداً. بدا أنه موافق على كلماتهم، لكنني رأيت أنه كان يقلّب ذلك في عقله المضطرب، «ماذا حصل لمسدس النصراني؟». السلاح الثقيل، الذي يُرتدى متدلياً بشكل مستمر من العنق، لم يضايقني قليلاً، ولم يكن بوسعي أن أخلع عباءتي العربية (التي تغطيه) في الأيام الشديدة الحرارة والرطوبة. لذلك قال «هل معك مال؟ ـ ويمكننا أن نتأكد من أنك تملك البعض منه. أخبرني بصراحة، أين هو، ولا تخفيه؛ هذا سيكون أفضل بالنسبة لك، ـ وأنني يمكن أن أكون صديقاً لك! كذلك يجب أن يدوّن في الورقة؛ وأخبرنا هل لديك أي شيء آخر؟ ـ اسمعوا أيها الناس، ما كنت أريد أن تضيع إبرة من هذا الرجل!ـ «ناولني تلك العلبة حيث رأيت الشاي، في المنتصف توجد محفظتي، ـ وفيها كما ترى، توجد ست ليرات!» قام اللص بعدها، بكثير من الولوع، في راحة يده السوداء؛ ثم وهو يغلق المحفظة وضعها في صدره وهو يقول «صالح، دوّن هذه الليرات الست الفرنساوية، لقد أخذتها لحفظها بشكل أفضل؛ وحقائبه ستكون تحت المفتاح في بيتي».

هناك جاء إليّ أحمد، الذي رأيته في المساء الأخير؛ كان يجلس بالهدوء القديم بين المتفرجين، وفي أثناء هذا الاستجواب هزّ رأسه لي مرات كثيرة بمودة. «ما عليك، ما عليك، استرح، قال، لن يحدث لك مكروه». عبد الله: «عبد الهادي، دعه يعود ليقيم معك؛ كذلك يمكنه أن يشفي المرضى». أجاب الزنجي، «استقبل الكافر مرة أخرى! فقط دعه ينطق بالشهادة وسوف استقبله». ثم يجب عليه أن يقيم مع الجنود؛ أنت أمان يا عقيلي خذه إلى حجرتك، يمكن لخليل أن يأخذ مؤونته معه وصندوق أدويته».

رأيت الحضور الرجالي الكبير الواقف منتصباً في مؤخرة الحشد ـ لأنه

قد وصل متأخراً - واقفاً لعربي داكن اللون جداً، كان ملفعاً برداء شيخي، ويحمل السيف، وخمّنت أنه قد يكون قائداً للجنود غير النظاميين. عندها جاء إليّ، وهو يهبط (بطريقتهم المباغتة)، جلس أمامي بالمزاج الباسم الواثق لرجل قوي؛ وتكلم إليّ على نحو بهيج. استغربت لرؤية دكنته، مع أن مثل هؤلاء عموماً يكون العرب في الحجاز - والأندر أن ترى رجلاً «أبيض وأحمر «هكذا. كان هذا محمد النجومي، شقيق أحمد، الذي أصبح منذ الصباح بالنسبة لي بمثابة أب في خيبر. «اذهب الآن مع الجندي، قال عبد الله». «ما عليك، ما عليك». أضاف بعض المتفرجين الأكثر وداً. قال عبد الله: «ستبقى هنا لأيام قليلة، ريثما أرسل بريداً إلى الباشا (في المدينة) مع الكتب والأوراق» - هوّ أيها الناس، جار سرور، سنرسل إلى الباشا؛ وإذا كانت كلمة الباشا أن نقطع رأسه، فسوف نقطع رأسك أيها النصراني». «لا تزعج نفسك، قال بعض المتفرجين، بسبب كلام هذا الرجل، إنه بهيمة». كان المتنمر الـ Galla مكروهاً في البلدة، الذي كان شجاعاً فقط مع حريمهم وتبين أنه خواف، جبان بشكل انهزامي، في الحرب الأخيرة.

هكذا جئت مع أمان إلى الصفة الصغيرة التي كان يسكنها مع رفيق له، في البيت المجاور. كانا كلاهما حبشيين، أي من بلاد الـ Gallas. إنهم على العموم أشخاص رشيقون، ذوي جمال أنثوي وقسمات ناعمة؛ لون بشرتهم أسمر مائل إلى الصفرة، أو أسمر مائل إلى الحمرة، أو أسمر غامق أو مائل إلى السواد، وذلك وفقاً لمقاطعاتهم الأصلية - فالبلد شاسع واسع للغاية. لهم أصوات عذبة ولا يتكلمون لغة Galla واحدة على حدّ سواء، لذلك فإن كلام القبائل البعيدة يكون مفهوماً بصعوبة بينهم. إذ لم يكن بمقدور أمان أن يفهم جيداً حديث رفيقه (لذلك كانا يتكلمان معاً بالعربية)، لكنه كان يتكلم تقريباً لغة واحدة مع سرور. علّمني أمان كثيراً من كلمات الـ Galla؛ لكنني اليوم لا أتذكر سوى بيسان، ماء. بالرغم من أنهم قد جُلبوا كعبيد إلى الحجاز في طفولتهم فإنهم لا ينسون هناك لغة بلدهم. فكثيرون للغاية هم الآن أبناء الـ Galla في مكة والمدينة، حيث إن لغة الحبش يجري النطق بها حالياً من بيت

إلى بيت. إن إماء[1] (عبدات) الـ Galla الجميلات يصبحن زوجات لدى عائلات المواطنين، حتى من الكبيرة منها، فيما الآخريات يكن مربيات وخادمات بيوت؛ فأولاد المدن العرب يتربون بينهن. طلب مني الرجال الفقراء أن أكون مطمئناً تماماً وكل شيء سينتهي على خير، بعد صبر قليل: قام أحدهم بوضع طبق الخبز أمامي، وخرج ليستعير التمر من أجل ضيوفهم. قالوا «فيما يتعلق بهؤلاء الزنوج، فهم ليسوا بشراً بل ثيران، قرود، متخمون بالشياطين والبخلاء. هؤلاء الأفارقة أشباه الساميين يحتقرون السودان أو عرق العبيد الزنوج بقوة. «الله العظيم!» لقد سمعتهم يقولون في خيبر، «هل يمكن لهذه الرؤوس الصوفية أن تكون لأبناء آدم؟».

سمعنا محمد النجومي على الدرج الطيني. قال، «إنها المرة الأولى التي آتي فيها إلى هنا، لكن كرمى لك أجيء». عند هبوط الليل انطلقنا معاً، نضيء طريقنا بفروع نخيل مشتعلة، إلى قهوة الجنود. دعاني عبد الله، الذي أغنته محفظتي اليوم، لأجلس بقربه. اتخذ حديثهم منعطفاً جيداً، نطق محمد النجومي الحكمة المشهورة، كل واحد على دينو (كل إنسان في دينه الخاص). ـ وقدم تفسيره، «هذا معناه أن تقول اليهودي في شريعته، النصراني في شريعته والمسلم في شريعته؛ أي، والكافر قد يكون إنساناً مؤمناً بعقيدته. كان النجومي شخصية بطولية، فقد كان يجلس وسيفه على ركبتيه، منحنياً وموافقاً، مع كل كلمة لعبد الله الأسود، هذه هي كياستهم المدينية التركية. في بعض الأحيان (وقد سمع مني أنني لا أفهم أي كلمة تركية) كانوا يتكلمون معاً بتلك اللغة. أجاب محمد، بعد كل عنصر رآه من القائم مقام الأسود، المديح التقي. [رغم أنه سيبدو بمثابة سخرية. الله يبيض وجهك (في يوم القيامة)!». كان ثمة بعض الخفوت الأنثوي في صوت الرجل القوي، وحيث توجد نكهة ضئيلة لدم الأم في القيمة الرجالية الصحيحة، يكون ذلك نعمة إلهية سارة. فهو لم يكن يشبه العرب كلياً، لأنه

(1) إماء: جمع أمة.

كان يحب أن يتكلم بشكل مازح، بمرح لطيف، رغم أنهم مفعمون بفكاهة ماكرة، لم أر أبداً بين أهل الجزيرة العربية رجلاً سعيداً!

كان محمد وأحمد ابني حانوتي كردي في المدينة؛ وكانت أمهما امرأة من قبيلة حرب من الفرع وهي مستوطنة نخيل لتلك الأمة البدوية في الحجاز، بين الحرمين. شربنا قهوة الجنود؛ مع ذلك لم يكن يوجد الأمان السعيد لخيام الشعر، بل تقييد المدينة والاستبداد التركي، وداء الطفيليات المصري. بعد ذلك مباشرة توافقوا بفناجينهم الرزينة على أن النصارى يجوز لهم أن يمرّوا في كل مكان بحرية، سوى أنه لا يجوز لهم أن يزوروا الحرمين، وقال البعض، «ألا يوجد الكثيرون من دين خليل في جدة؟ الطريق يقطعه الراكبون على الدواب في ليلة واحدة من مكة [الكثيرون في الحجاز يلفظونها مكي]. قال عبد الله أخيراً، «والله،خليل رجل شريف، إنه يتكلم بصراحة، وأنا أحبه». تعبت في الحال، فأرسل عبده ليضيء لي الطريق في العودة إلى مكان إقامتي. وأنا أسمع بعض اللغط نظرت إلى الوراء ورأيت أن الزنجي الحافي جاء يرقص خلفي في الشارع بسيفه المسلول.

قال عبد الله لي عند تناول قهوة الصباح، إنه بإمكاني أن أمشي بحرية في القرية؛ وسأل المنافق الأسود «هل ارتحت جيداً؟». عندما حل المساء قال: «انهض، سنذهب ونشرب القهوة في بيت رجل طيب». خرجنا وبعض جنوده أناروا لنا الطريق بسعف النخيل المشتعلة إلى كوخ شخص يدعى إبراهيم القاضي.في حين جلسنا في صوفته، جاء كثير من القرويين الأصليين. وضع إبراهيم أفضل تموره أمامنا، أشعل النار، وبدأ تحضير القهوة، وجلب لحاكم القرية شماخه مليئاً بتبغهم الأخضر. . . .

كان ثمة زهو نزيه لدى عم محمد ليظهر نفسه مواطناً ورجلاً موالياً للدولة، وأن يُشاهد برفقة موظفين من الدولة، جندي من القندام احتفظ بحصان في خيبر، لعله يركبه في أشهر الاحتلال العسكري، مثل شيخ، مع أولئك الأشخاص الكبار. تنبأ بالزمن الشجاع عندما سيكون عليه أن يدعو

موظفي المدينة إلى هذه الأرض، التي ستكون حديقة أعشابه؛ حيث يجلس متدلي الساقين على جدار مصطبتنا، وهم سوف يشاركونه ثماره الصيفية. كان محمد من معدن رأيته في كل الأرياف، وهم ذوو أصوات عذبة وصافية، تكاد تكون أنثوية. كان ذا مزاج معتدل وبهيج، واثقاً، متسامحاً، لطيفاً، يخاف الله في داخله، خفيف الحركة، كان قلبه مفعماً بفكاهة إنسانية سارة. ولكونه محباً للجنس البشري فقد كان صانع سلام، ليس أنانياً، وكان صادقاً مبتهجاً في الصداقة، ذا بديهة حاضرة وحكيمة، بسيطاً وحكيماً، يراوغ العداوات؛ - طبيعة سهلة تتغلب على كل المسائل الصعبة والمعقدة، قانعاً بالمسار الطبيعي للعالم، رجولي وشديد الاحتمال إنما ليس طويل النفس في أي مشروع.

آبار خيبر. الانعتاق من خيبر. الرفاق

مرّت الأسابيع القليلة من الشتاء، وكان حر الربيع المحتشد آتياً، تجدد فيه كل الأشياء نفسها، الشهر الحميم سيحلّ علينا قريباً، عندما كانت حياتي الواهنة، التي قارنها النجومي بفتيل المصباح (ذبالة) الخافق، (قال) من المرجح أن تفشل في خيبر. قبلئذٍ بشهرين كنت قد تحملت هذا الأسر الأسود لعبد الله؛ كان القمر الثالث يطل الآن بقرنيه، كنت آمل أنه في السماء سيراني منعتقاً نهائياً. كانت ذرة الخريف الخضراء تنمو متحولة إلى سنابل مصفرة؛ عشرون يوماً أخرى ـ هكذا نجّاهم الرب من الجراد ـ وسوف يجتمعون في حصاد القمح.

تمنيت أن أتركهم وهم أكثر غنى بالماء في خيبر. بعرض عشرين خطوة من نبع الصفصافة القوي كانت عقدة من نباتات الأسل الطويلة، هناك كنت آمل أن أجد نبعاً جديداً من الماء. أصحاب الأراضي المجاورين أصغوا بسعادة إلى أقوالي، لأن المياه هي أم القمح والتمر، في الواحات؛ وأجاب شقيق الشيخ أنه في الغد سوف يجلب العيال ليفتح الأرض. تحت ضربة الرفش الأولى وجدنا تراباً رطباً، ومفاصل نازّة من الصخر البازلتي، عندئذٍ تركوا شغلهم قائلين إننا ينبغي ألا نستعجل، لأن ذلك بدأ يوم الأحد. لقد تذكروا أيضاً كلماتي أنه في حال وجدنا نبعاً من الماء، فينبغي عليهم أن يعطوني بقرة حلوب. في الغد التأم فريق عمل أكبر. ربما كانوا في شك من البقرة وسيدعون العمل يتأجل حتى رحيل النصراني، لأنهم لم يضربوا سوى رفشة أو رفشتين في أرضي المحفورة؛ ثم ولوا مع الأمخال، ليجربوا قوتهم حول رأس النبع القديم، ويروا إذا كان من الممكن

توسيعه. كان الحديد يفعل فعله في شقوق الصخر؛ وهم يكدحون بعناد وينكبون معاً على أمخالهم، فكانوا يفلعون ويفتتون البازلت العنيد. أما الآخرون الذي كانوا يتفرجون، في حين كان الشغيلة يأخذون نَفَساً، فكانوا يمدّون يد العون في ذلك، من بينهم أظهر النجومي قوته الرجولية وخلخل مربعاً ضخماً من البازلت. عندما اقترب منتصف النهار تخلوا عن شغلهم اليومي. لمدة ثلاثة صباحات اشتغلوا هكذا بحماسة المبتدئين، في الصباح التالي ضحّوا بعنزة، ورشوا دمها على الصخر. لم أكن قد رأيت عرباً يكدحون هكذا معاً، إن لدى العرب عقولاً فقيرة مليئة بحكمة الكلام؛ وفي أجساد الزنوج الأكثر عافية تكون القلوب . . . أكثر عنفواناً. فقد أشعلوا الصخر أيضاً، وفي اليوم الثالث كان الشغيلة قد استخرجوا أحجاراً ضخمة كثيرة. عندئذٍ أصبح رأس النبع القديم مثل مغطس كبير من الماء الفاتر، وبدأوا يطلقون عليه اسم **الحمّام**. كنا قد ضربنا عرقاً جانبياً فزاد التيار القديم للماء بمقدار النصف مرة أخرى، ـ وهي منفعة إلى الأبد بالنسبة لمزارعي الوادي.

إن ينابيع خيبر الفاترة تستمد طعمها من مرورها على لسان من الكبريت، ذي لزوجة حليبية، باستثناء **عين الريح**، التي لا طعم لها. الضفادع الصفراء تقطن هذه الينابيع، بالإضافة إلى الأسماك الفضية الخضراء. إن الشبكات الغشائية الخضراء من الأعشاب المائية تكون ملتفة حول أقنية الغدران الفاترة، التي تقبع فيها الحلازين المبرّجة السوداء الصغيرة، مثل حلازين وادي الظربية والعلا [وتدمر]. رفعت قش ديدان القاضي وأريتها لعم محمد، تفكر في بناء تلك الأنابيب الصدفية المصنوعة بدون تدخل الأيدي، وقال: «اوه ما أروع مخلوقات الله. إنها كاملة بلا حدود!» وحسناً تقولون، «إن الخيابرة ليسوا في مأوى مثل هذه الهوام الصغيرة!». كانت قد محوت تقريباً ضغينة الثروة في خيبر؛ وكان من الممكن لي آنذاك أن أقضي الساعات المشمسة بدون خوف، وأنا جالس قرب نبع عين الريح، وهو مكان مبهج يبعد قليلاً خارج النخيل، وحيث إن العين وحدها تعرف أية مسرة في كل سواد الماء، الذي يتدفق دافئاً كالحليب [بدرجة حرارة 86 فهرنايت] من الصخر! وسمعت التناغم الحاذق

للطبيعة، الذي لا يمكن للدنسين (الوثنيين) أن يسمعوه، في ذاك المكون السعيد والعزلة. كانت ذبابات التنين الساطعة الصغيرة، اللازوردية، ذات اللون القاتم، ذبابة نوار والزنجفرية، تغطّ فوق ماء الحوض الذي يطوّقه نسيم الصباح من الفجيرة، والمهذّب في الصخر الحممي المهيب. الأسماك الفضية تومض في الأسفل، والأصداف البيضاء تقبع في قاع هذا العالم المائي. لقد راقبت هناك صغار الضبّ التي تلمع مثل الزجاج محرشفة ومبقعة، هذه الأكثر جمالاً من بين العظائيات التي تقبع كي تتشمّس، عند الحافة على حجر؛ وفي غالب الأحيان تتحرك عليها وتطلق اللسان فيلتقط فريسته من الذباب دون أن يخطئ الهدف أبداً. كنا سعداء عندما ملأ جمار قربتنا من هذا الماء العذب.

في عصر أحد الأيام عندما ذهبت لأقدّم نفسي إلى طاغية القرية، رأيت ست بهائم جيف، كانت جمالاً ممددة أمام باب عبد الله! كانت البهائم تمطّ أعناقها الطويلة بوهن على الأرض، وكانت أعمدتها الفقرية الجرباء بلا سنام هذه لا يمكن أن تكون سوى بعض الأفراس المنهوكة للجنود المسخرين من المدينة؛ فتراجعت بسرعة إلى النجومي. كان بعض العقيليين قد أُرسلوا من قبل الباشا؛ وكان الرجال قد قطعوا السبعين ميلاً إلى هنا في خمسة أيام! ـ هكذا هم العقيليون، الذين جعلت غزواتهم سابقاً ـ كما تبجح البعض لي ـ «العالم بارداً!» وليس من النادر الآن أن يهزمهم رجال قبائل الصحراء. في حملة أخيرة من حملاتهم من المدينة، سمعنا أن «أربعين قد سقطوا، وسُلبت أمتعتهم، ونجا الباقون بأرواحهم بصعوبة». ـ عدت لأسمع أخبارهم، وأنا ألتقي مع عبد الله في الشارع، قال، «يا خليل! كتبك قد عادت إليك، والباشا يكتب «أرسله إلى ابن رشيد».

في الغد، استدعاني عبد الله؛ جلس إلى القهوة في بيت جارنا حمدان ـ «هذه الرسالة لك، قال (وهو يعطيني ورقة) من يد الباشا». وأنا أفتح الورقة المطوية وفقاً لطريقتنا، وجدت رسالة من باشا المدينة! مكتوبة [بشكل ناقص]،

كما يلي، باللغة الفرنسية؛ بتأريخ السنة الميلادية، وموقعة في النهاية باسمه «صبري».

المدينة المنورة في 11 كانون الثاني 1878

«بحسب الإخطار الصادر عن السلطات المحلية فقد تمّ إعْلامُنا بوصولكم إلى خيبر، وبهذه المناسبة أرى نفسي مضطراً لإحضار وطلب كل رسائل التوصية والأوراق المتعلقة بكم. ولدى دراستي لما أمكن من الكتب والأوراق المنفردة والخرائط توصلت إلى معرفتي بأنه قياساً بكل الذين قدِموا إلى هنا كان الغرض من سفركم ومجيئكم هو تصحيح الأطلس والتعرف على شروط الحياة أو المعيشة بهدف نشر المعلومات إلى العالم كله.

إنني راضٍ تماماً عن دراستكم المفيدة للعالم في هذا المجال وهي أيضاً عمل لمصلحتكم.

ولكن خلال تجوالكم في المناطق المحيطة وجدتم تجمعات بشرية فهنا يوجد الكثير من البدو المتهورين، إن لم يكن معكم رسالة توصية من شخص معين. لذلك إذ أعتبركم معرضين للخطر من جانب هؤلاء البدو أنصحكم بالعودة بأسرع وقت إلى الشيخ ابن رشيد حيث تكونون في مأمن من كل تهديد.

تجدون مع رسالتي كل الرسائل التي بحوزتنا ورسالة توصية من طرفي إلى الشيخ المذكور وهكذا تستطيعون الانطلاق في الأيام القادمة إلى مقصدكم».

صبري

«والآن، قلت لعبد الله، أين ذاك المال الذي يخصني؟ ست ليرات!» تفاجأ حاكم القرية الأسود، تبدّلت سحنته التركية، وقال وهو يبدو بشكل فظيع «سوف ننظر في ذلك». كان العقيليون الستة قد سافروا من المدينة، بأمر الباشا، فقط ليجلبوا كتبي، وعاملوني باحترام. نقلوا كلمة مفادها أن الباشا

سوف يرسل خمساً وعشرين عقيلياً آخر إلى حائل لهذا السبب. كان قائد الستة، وهو وهابي من شرق نجد، رجلاً كثير الترحال، بلا تعصب؛ عرض نفسه لمرافقتي إلى حيث أشاء، وكان يعرف، كما قال، كل الطرق، في تلك الأصقاع وبعيداً إلى الجنوب في الجزيرة العربية.

في اليوم التالي لعدم إعادة أي شيء إليّ، وجدت عبد الله يشرب القهوة في بيت الشيخ صالح، قلت له: «لماذا لم تعد لي أشيائي؟»

«سأعيدها عند رحيلك».

- «هل لك الحق في احتجازها؟».

«لا تقل أكثر (صاح النذل، الذي كان قد صرف نقودي). «نصراني يتكلم إليّ هكذا! - أو سأعطيك لكمة».

«إذا ضربتني، سيكون ذلك خطراً عليك. يا مضيفي كيف أن هذا لملازم لدزينة من الجنود يحكم قرية، ولا يستطيع أن يضبط نفسه؟ لا يحترم كلمة باشا المدينة، ولا يخاف السلطان، ولا يخشى الله ذاته. صالح شيخ خيبر، اسمع كيف أن هذا الجبان يهدد بضرب ضيف في بيتك وهل تسمح بذلك يا مضيفي؟»

- نهض عبد الله وصفعني بوحشية في الوجه. - «قلت لهم، صالح وأنتم الذين تجلسون هنا، هل أنتم رجال أحرار؟ أنا رجل واحد، ضعيف وغريب، عانى طويلاً، وبشكل ظالم، أنتم جميعاً رأيتم ذلك! على يدي هذا العبد، بما يكفي لأن تشيب منه لحيتي، إذا كنت بعد الآن سأتذكر أن أشكوه، فمن المحتمل أنه سيفقد منصبه».

عواد، القاضي الذي كان صديقاً، وكان يجلس بقربي، بكلام المصالحة. قال: «عبد الله هو الملام، خليل أيضاً يقع عليه اللوم. ثمة خطورة في هذه الاختلافات؛ لا تكثروا من الكلام بينكما».

قال عبد الله: «الآن، هل سأرسلك إلى السجن؟» - «أقول لك، إنني

لست تحت حكمك؛ ونهضت لأغادرهم. «اجلس «صاح ونتش عباءتي بوحشية «وهذا العسكري، نظر من خلال النافذة ونادى واحداً من رجاله كان يمر، سوف يقودك إلى السجن». نزلت معه، وأنا أمر بمدخل عم محمد، دخلت هناك فتركني الرجل.

أقفل الباب، لكن زوجة البدوي، وهي تسمع صوتي هرعت لتفتح، عندما تكلمت عن الموضوع، تركتني جالساً في البيت، وهي تأخذ المفتاح معها، هرعت المرأة الطيبة لتنادي زوجها الذي كان في النخيل. عاد محمد في الحال، وخرجنا إلى المزارع معاً؛ لكنني ولدى رؤية رئيس المسافرين من المدينة، في الشارع، قلت له، «بما أنني لم أكن آمناً هنا فسوف أسافر معهم إلى بوابة المدينة. لم يكن شيئاً جديداً أن يأتي رجل إنكليزي إلى هناك؛ ألم يكن ثمة بركة، خارج البوابة الشمالية، تسمى بركة الإنكليزي؟».

سأل محمد، «ماذا كتب الباشا؟ كان يود أن يسمعني أقرأ وسألته باللغة النصرانية: فوقف ليصغي بإعجاب كبير. «بيتا بيتا بيتا أهكذا هو كلامهم؟» ضحك؛ وكان هذا مرحه الجديد في اجتماعات القهوة التالية. لكنني وجدت الرجل الطيب واهناً كالماء في نهاية هذه الشرور، فأنا لم أكن أعرف ما هو التفاهم السري مع العدو عبد الله، وخلافاً لكلماته السابقة، لم يكن راغباً في أن استلم أشيائي حتى رحيلي! مكث العقيليون أياماً أخرى، وضجر عبد الله من تسليتهم. أعطيت الوهابي رسالة إلى الباشا؛ فتسلمها، حالما جاؤوا مرة أخرى إلى البلدة. سقنا الذلول ذات الأقدام الخُفية فوق الأرض، والغدران والبقع الأخيرة، ثم صعدت من وديان خيبر المنهكة، والحبس الذي لا يُحتمل للدولة، إلى جو طليق سعيد على حافة الحرة! في الساعة التالية مررنا بكثير من السراديب، من أحجار البازلت الوعرة التي ظننت أنها رواب. بعد مسيرة عشرة أميال رأينا امرأة بدوية تقف بعيداً على صخرة حممية، وخيمتين لهتيم. أراني رفاقي البدو رؤوس جبل باتجاه الجنوب، البيضا الذي قالوا إنه ينتصب على مسافة قصيرة من المدينة.

كان الوقت بعد الظهر، توقفنا وفككنا الذلول ليرعى، وجلسنا حتى يحين المساء. عندما كانت الشمس تغرب سرنا نحو الخيام، لكن إياد المكسور الرأس تركني مع حامد وذلوله المحمّلة، وذهب مع مرجان لكي يستضيفه في البيت الآخر. جاء صاحب المقصورة حيث كنت، إلى البيت مع الماشية والجمال. كان شاباً أجرد. جلبوا لنا لبناً رائباً، وسمعنا صوت زنجية تنادي في حجرة المرأة «حامد يا حامو!» كانت من القرية، وكانت تقيم مع هؤلاء الأصدقاء البدو في الصحراء، لترطب نفسها باللبن. حلّ الظلام سريعاً، لكن الشاب خرج مرة أخرى مع الحمار ليجلب الماء. عاد بعد ساعتين، بدون علمي، ذبح عنزة لهذا السبب أحضر الماء. الهتيمي الشاب ناداني - بتملق عرق ذليل - طويل العمر.

بعد الضيافة دخل إياد، قال: «خليل، ألم تحتفظ بأية لقمة لأجلي فأنا رفيقك؟» - «هل كان سيتركني الرفيق؟».

تشاور الآن لاتخاذ مساراً أكثر انحرافاً نحو الغرب، فوفقاً للأنباء التي سمعوها في الخيمة الأخرى، يمكن أن نأتي كل يوم إلى منازل الأعراب، ونجد الحليب والاستجمام في حين، لو زرتُ الحيات، فإن كل الطريق شمالاً إلى حائل من هناك كان آنذاك خالياً من البدو. «هكذا كنت سأفوّت رؤية الحيات، ولم يكن لديّ مؤون: هكذا وافقت في ساعة نحس فقد كان من الأفضل ألا أسلم شيئاً لمثل هؤلاء الرفاق.

انطلقنا عند شروق الشمس، وعلى يميننا، في «الحرة البيضاء» (البياض) جبل بعيد، يسمونه بالثل البيضا [غير ذاك الموجود في الحجاز، قرب المدينة المنورة]. في ذاك الجبل، قال رفاقي، توجد أعلى شِعبان (مسيلات الغدران) وادي الرُّمَة؛ لكن كل ما هو على الجانب يسيل نزولاً إلى وادي الحمض (الحجاز الكبير). مررنا بحمم زجاجية حادة، «الوب»، كما قال مرافقي. فرّ زوج من الطير الكبير الشبيه بالزقزاق الشامي، الحبارى، أمامنا؛ نادراً ما شاهدت هذه الطيور في الصحارى [في هذا الفصل فقط] إن لها ريشاً مائلاً إلى

البياض ومنقطاً بلون مائل إلى الأسود. وجدت بيوضها (منقطة بالبني والوردي والأسود) في آيار، فهي تضع بيضتين معاً على حصباء البراري الجرداء [قرب معان]؛ إنها كبيرة مثل بيوض الدجاج الرومي، وذات طعم جيد. قد تكون الطيور نوعاً من دجاج البر، لحمها ندف مثل القطن بين الأسنان، قال إياد السيباري البِشْري. كمن مرجان وإياد لها، وهم يصفرون؛ استلا بندقيتيهما الطويلتين، وتسللا تحت الحبارى؛ لكن بما أن البدو لا يطلقون الرصاص في الجو، فقد عادا على الفور كما ذهبا. لم أر أبداً بنادق العرب تساعدهم على أية طريدة؛ وحده النجومي اعتاد أن يطلق النار (وكان بمقدوره أن يصيب) على الحجل الطائر.

من هنا كان الحقل البركاني حولنا قفراً من أحجار اللافا الحادة، حيث يظهر أو ينعدم عدد قليل من طرق الماشية [بِشر، جلدة]؛ والبدو يتابعون مسيرهم على الأقدام مرغمين بين الكتل المتهزهزة. ثمة حجر منقلب ثقيل شق السماكة القرنية لإصبع قدم حامد الكبيرة. ترجلت لكي يركب بدلاً مني؛ لكن الزنجي استعار سكيناً، وبتصميم وحشي فتح لحمه، وتابع المشي. في استراحة المساء، كوى الجرح الدامي، وقال إنه سيكون جيداً بما يكفي لأجل المسيرات التالية. عندما انطلقنا كانت ريح آذار تهبّ علينا من الشمال؛ والأعشاب اليابسة وسيقان أدغال الصحراء الذابلة، كانت تندفع أمام الهبوب. كان طريقنا غير أكيد، وبلا مأوى أو ماء؛ يبلغ ارتفاع هذه الحمم 3,400 قدم. إن مجان الشاب الذي كان يعاني من حمى الملاريا المقشمرة (الطحال)، بعد حمى خيبر صاح بعد الظهر أنه رأى قطيعاً، ثم بعد نفاد كل صبره صار يصرخ بالشتائم، لأننا لم نتبعه. لم يكن القطيع سوى قطيع من الغزلان. «فين الأعراب، قالوا أخيراً، أين البدو؟» neffera! كلمات مضللة؛ لكن هذا هو أسلوب الهتيمي! لقد ضللونا الليلة الماضية، الله يرسل لهم التشويش. كان الزنجي قد شرب تقريباً كل ما في قربتي الصغيرة، في حوالي المساء فك عنقها وأتى عليها نهائياً بنفسه بشربة واحدة؛ لكنني قلت له، «لا، لأننا قد سرنا وعطشنا طوال النهار، فلن ينال أي رجل أكثر من الآخر». صاح به البدو،

«وهل تظن أننا في الساحين هذا هو الخلاء وليس مكان للخيابرة». في النهاية، عندما غابت الشمس وجدنا أرضاً مجوفة وأشجار سدر تصد الريح، التي كانت تهب بسرعة للغاية وتقتلع ثيابنا الهزيلة، قاموا بقطع أذرعاً بيضاء ذابلة لأكاسيا يابسة، لأجل نار المساء. ثم بعجن الطحين بالماء القليل الذي بقي لنا، وصنعنا خبزاً على عجل تحت الجمر. كان ليل آذار بارداً.

انطلقنا عندما طلع الفجر، وبقينا تحت الجبل الحجري الرملي، أوه يا للفرح! وقد أشرقت الشمس فإن نقاط العلام المقيتة لخيبر لم تظهر بعد. عبرنا أقبية دهليزية أخرى وأسواراً جافة قديمة على الحرة المقفرة، وعبر مقبرة قديمة. «انظر»، قال إياد، هذه قبور الأولين، كيف تقبع مكومة بالحجارة!». سرنا في الحقل البركاني، أرض حجارتها حديد، وكنا دائماً مسرعين، حتى منتصف العصر، عندما وجدنا في بعض الأسّرة الرملية السوداء بعض دوسات الجمال. في البداية قال رفاقي: «إن الآثار هي لرحلة عمرها خمسة أو عشرة أيام»، لكنهم عندما رفعوا الجلة اعتقدوا أنها قد تكون منذ خمسة أيام مضت. قادنا الروث فوق الحرة باتجاه الشمال الغربي، نحو السفوح الصخرية الجوفية الممتدة لجبل هجور. آثار الأقدام في الصحراء تمحوها ببطء الريح اللامحسوسة مسببة انزلاق حبات الرمل؛ قد تبقى خلافاً لذلك بشكل كامل حتى المطر التالي.

- في نصب تذكاري فتح مؤخراً في مصر، عثر على آثار طرية لبواطن أقدام العمال في المسحوق الناعم للأرضية، وكانت لمئة رجل منذ عصور غابرة .... ذهب البدو إلى ارض جوفاء، للبحث عن مطر تحول إلى بركة صغيرة، وهناك ملؤوا القربة. ذاك الماء كان مليئاً بالحشرات البيضاء المتلوية؛ وشربنا - ونحن نشكر الله - من خلال الطرف المتراكب لمناديلنا. [يمكننا أن نرى الشفاه الأرنبية الضئيلة للجمال محاطة بطرف من الشعر الخشن المقوس نحو الداخل؛ ومن خلال هذه الفرشاة يصفي الحيوان كل ما يشربه من مياه الصحراء الملوثة]. صعد الرفاق البدو على كل صخرة مرتفعة بحثاً عن البدو.

تابعنا سيرنا حتى غابت الشمس، ثم ترجلنا في أرض واطئة ذات أشجار أكاسيا وأدغال؛ هناك وجدنا داراً للبدو هجرت مؤخراً. هناك كنا قريبين من هدوء الحرة . . .

توقفنا بعد ساعة من تلألؤ النجوم، في مكان منخفض، تحت دغلة كبيرة منفردة؛ وأنخنا الذلول أمامنا، لنحمي أجسامنا من ريح المساء الباردة، التي تصعد لتصبح إعصاراً، التي كانت تنفذ من خلال ثيابهم الحجازية الخفيفة. إن الرفاق البدو لكي يسلوا أنفسهم بالنار، نسوا مخاوفهم النهارية. فقد تحسسوا حولهم في الظلام بحثاً عن عيدان قليلة. وأنا أنبش هناك بيدي، وجدت جلة في الرمل، كان المبرك القديم، أو المجثم الليلي، لجمل؛ ومما لا شك فيه أن مسافراً سابقاً ما قد ترجّل لينام في خاننا المكوّن من هذه الدغلة الصحراوية الكبيرة، فكان أن طمرت الريح روث الحيوان، سنتين أو ثلاث. جمع مرجان ملء عباءته: الوقود الثمين سرعان ما توهج بحرارة حمراء في موقدنا الرملي، فغليت الشاي، الذي لم يكونوا قد ذاقوه حتى الآن.

دام البرد الريحي طوال الليل، والعصف كان شديداً. بالكاد استطاعوا عند الفجر، بأصابعهم المتيبسة، أن يشعلوا ناراً جديدة. تابع الرفاق جلوسهم، لم يكن ثمة دفء في أجسادهم نصف العارية لكي يسيروا عكس الريح الجامحة. هبة هواء لولبية حول دغلتنا بعثرت الجمر المترمد، «اخس» صاح إياد السكير، «الله يلعن أبو هالهبوب»، وأضاف، «**الله يسلط على هذا الحطب**». نهضنا أخيراً، وغسل الرفاق البدو أجسامهم مع ذلك للحظة في الحر، ناشرين ستراتهم المفكوكة فوق الجمر المتخامد. أصابت هبة آذار المريكة أسناننا، حاملة حبيبات الرمل إلى عيوننا. سار الرفاق مترنحين نحو الأمام سيراً على الأقدام، ـ سرنا باتجاه الشمال الشرقي. بعد ساعتين توقفوا ليشعلوا ناراً أخرى. رأيت السماء معتّمة دائماً بغيوم رقيقة. قبل الظهر همدت العاصفة؛ والريح المتغيرة الاتجاهات من حولنا كانت تهب بلطف في فترة بعد الظهر، من الطرف المقابل! اقتربنا بعدئذٍ من التخم الأسود للحرة، تحت تل

اثنان البركاني العالي. ينتصب اثنان وحيداً، في حقل من الحمم الخبيثة الحادة والمتشققة؛ يقول البدو إن هذه التلة الكبيرة لا يمكن بلوغها. في بعض الأحيان، بعد مطر الشتاء، يشاهدون بخاراً خفيفاً تفوح منه رائحة كريهة حول رأس البركان: ويشاهد مثله في صباحات الشتاء فوق بعض الصدوع العميقة في الحرة، «رائحته مثل هبة من الماء الدافئ». وقد أكد لي ذلك عم محمد. في ذلك الجزء توجد أرض وادٍ (نقطة علام) تمتد عبر الحرة نحو الحيات، وادي مخيات. إن قربتي (مطارتي) الصغيرة يمكنها بصعوبة أن تروي عطش ثلاثة رجال في مسيرة صيف واحدة، وهذه كانت الرحلة الثانية؛ لذلك لم نشرب سوى قليلاً باتجاه بعد الظهر، ولم يكن لدينا شيء نأكله. لكن ذهني كان مليئاً برؤية هذا العدد الكبير من التلال الخبيثة المغضنة والمثلمة والعارية من فوهات البراكين في الحمم المتيبسة السوداء الكريهة أمامنا. إن معنى هذه الكلمة الهلة، الهلاية، بحسب عم محمد «الذي يظهر بوضوح»، وأخبرني أنه يوجد نوع من التمر بهذا الاسم في المدينة المنورة. هكذا قال إياد، الهلة هو تل الحرة ذو المسحوق الأسود والمادة الخبثية البركانية؛ هلايي هو تل الحرة الصغير، هلي أو هلوات (الآخرون يقولون هليان هي تلال الحرة مجتمعة).
سرنا نحو الهليات نفسها التي عبرتها مع غصيب. عندما كانت الشمس قرب المغيب، لمح الرفاق الهلال فحيوه بورع.

الرفاق الخائنون

عند انبلاج الفجر انطلقنا من قفار، حسب تقديري كان ذلك في الأسبوع الأول من شهر نيسان. أفلت إياد ذلولنا المريضة لكي ترعى؛ وساقوها ببطء إلى الأمام في السهل الصحراوي إلى أن هبطت الشمس خلف أجأ، عندما توقفنا أسفل جبال من الغرانيت الرمادي. هذه الصخور مفتتة إلى حدبات وكهوف أكثر من غرانيت سيناء، رؤوس الجروف الغرانيتية هي عموماً من الطراب (الصخر البركاني). إن إياد، وهو يشعل ناراً، سخن سيخ تنظيف البندقية الحديدي، ووسم به ذلولهم الجرباء. كنت قد ذهبت طوال النهار سيراً على القدمين؛ وكان العقيليون يهدّدون كل ساعة برمي حقائبي، رغم كونها خفيفة مثل تمن مرجان، الذي كانت تحمله الناقة أيضاً. سرنا مبتعدين مسافة أربعة أميال، ولمحنا نار مخيم؛ وفيما نحن قادمون إلى المكان وجدنا حشداً متلازاً من الجمال جاثمة من أجل قضاء الليل، في الخلاء المفتوح. جلس الراعي وأخوه يلتجئان في الضفة الجوفاء لسيل وكان ثمة نار حراسة من العيدان تشتعل أمامهما. إن كلاب الأعراب لا تلحق بالرعاة، فلم يكن الشابان يريان أبعد من ضوء نارهما، فأجفلهما سلامنا، ثم ونحن ننزل على رُكبنا جلسنا بقربهما، وبتلك الكلمة تعارفنا. قام الشابان بإنهاض بعض نوقهما، وحلبا لأجلنا قصعات مليئة تعلوها الرغوة. سمعنا صيحة طائر ليلي، حيث كنا قد تركنا حقائبنا مع الذلول. نهض رفاقي وهرعوا عائدين مع عصيهم، لأن الطير (الذي يطلقون عليه اسم سروق، اللص) يمكن، كما قالوا، أن يسرق شيئاً ما. عندما تعشينا هكذا، اضطجعنا على رمل السيل اللذيذ لننام.

عندما سطع النهار الجديد انطلقنا. بعد مسافة قليلة رأينا سرباً من الطيور البحرية الكبيرة ترعى أمامنا، على سيقانها الطويلة في البرية. ظننت أنها (هنا في نجد) تقوم برحلة طويلة على أجنحتها المتهادية الكبيرة من الشاطئ البعيد؛ إن شمس الغد قد تطلع عليهما وراء هذا التراب الحارق للجزيرة العربية! في البداية ظن رفاقي الطائشون خطأ أنها قطعان من الغنم، رغم أنه لا تُرى سوى النعاج السوداء في هذه الأجزاء من نجد. عندئذٍ وقد أشعلوا فتائل بنادقهم، خرجوا يزحفون ليقتربوا منها؛ لكنني سرعان ما رأيت الطيور الكبيرة ترفرف بأجنحتها فوق الصحراء الواسعة، ورماة البنادق يعودون، سألت «من أين هذه الطيور؟».

- «والله من مكة [أي من منتصف ساحل البحر الأحمر الأوسط]».

كان هذا التراب حصباء قاحلة مشوية بقسوة في الجفاف الدائم، وتلمع تحت أخامص أقدامنا العارية؛ كان الهواء مثل لهب في الشمس، فكان من الأفضل للمسافر الضعيف أن يسافر راكباً في مناخ الجزيرة العربية. والآن بسبب قسوة رفاقي، كنت أمضي دائماً سيراً على القدمين؛ أما هم فكانوا راكبين. ونحن نسير بسرعة، يجب أن يبقوا على مرأى مني، وإلا فإنهم يتخلون عن النصراني. محنتي أنني كنت أظن، بعد أيام قليلة من هذه الجهود أنني ينبغي أن أرتاح إلى الأبد. هكذا امتد الأمر إلى المنتصف الحارق لبعد الظهر، عندما، ظننت بسبب آلام صدري، أن قلبي سينفجر. أخيراً انبثق الدم الحار من منخريَّ. ناديت على الرفاق الذين كانوا يسيرون معاً أمامي أن يتوقفوا، لكي أرتاح لبرهة، لكنهم لم يسمعوني. ثم التقطت حجارة، لأتلقى الدم المتخثر الساقط لئلا أجيء بقميص مدمى إلى الأعراب التاليين، بالإضافة إلى أن ذلك يمكن أن يحدث بعض التغيير في معنويات رفاقي المسحوقة! - في هذه العجالة سقط الدم على يدي. عندما أدركتهم، وهم يرون يدي شدوا الرسن باندهاش! قال مرجان: «الآن أليس هذا كفراً!».

- «ألستم أنتم أكثر من كفار، أن تتخلوا عن الرفيق في الطريق؟».

تابعوا سيرهم الآن ببطء أكثر، ومررت بقرب الذلول. أضفت قائلاً: «إذا تخليتم عن الرفيق، فأي رجل شريف سوف يستقبلكم منذ الآن في خيامه؟».

أجاب مرجان: «ثمة صون للعهد بين المسلمين، وليس مع عدو الله!».

توقفوا بعد ذلك مباشرة وترجّل إياد. مرجان الذي لا يزال جالساً على ظهر الذلول أشعل النار بحجر صوان، ظننت أن ذلك من أجل غلايينهم، نظراً لأنهم اشتروا حميدية حلوة صغيرة، بنقودي، في حائل؛ لكن إياد أشعل فتيل بارودته. قلت: «ما هذا؟»

فأجابوا. «أرنب!».

ـ «أين أرنبك؟ قلت، أرني هذا الأرنب!» كان على إياد مع ذلك أن يضع شعيلة على عين أرنبه؛ تلعثموا في كلماتهم، ظلوا مشوشين. قلت لهم: «هل بدوت لك أنني مثل هذا الأرنب؟ بحياة الله الذي خلقنا في أية لحظة تريني فيها فوهة بندقية سأصرع أرنبك جثة هامدة على هذه الأرض؛ أخرج الثقاب! ففعل ذلك. كانت برودة المساء تقترب؛ تابعنا سيرنا ببطء في صمت، ولا شك في أنهم كانوا يفكرون في قلوبهم الجوفاء ماذا يمكن أن تعنيه كلمة النصراني العنيفة. قلت: «انظروا إليهم، أيها الرذيلين، أنتما أيها العرصين الوغدين، أقول لكما بصراحة، إنكما في أي لحظة تدفعانني إلى عمل يائس فلن تكونا سوى كلبين ميتين؛ وسوف آخذ هذه الذلول الجيفة».

كانت مغامرتي في مثل هذه الحالة التعيسة جداً، شبه يائسة؛ فلم أر مفراً أكيداً أقرب من الحدود السوريا. فقد كانت سوريا مَعْلَماً كبيراً للانطلاق إليه، ونائية بشكل رهيب؛ ومع ذلك على ناقة جيدة، شربت لتوها ـ ولأن الشدائد تجعل الرجال شجعاناً وينجون غالباً من المخاطر ـ لم أكن قد يئست من الانطلاق؛ وشربة ماء واحدة في منتصف الطريق، ـ لو كان بإمكاني أن أجد الماء مرة واحدة ـ كانت ستنقذ كلاً من الناقة والراكب. أم هل كان عليّ

أن أسير باتجاه تيماء على بعد مئتي ميل من هنا؟ ـ لكنني وأنا أرى نقاط العلام من هذه الجهة، كيف لي أن أعرفها مرة أخرى! ـ وإذا وجدت أي أعرابي باتجاه الغرب، مع أن هؤلاء سيكونون من بِشْر، قبيلة الرجال. هل ينبغي عليَّ أن أركب باتجاه الشرق في الديار المجهولة؟ أم أصمد فوق أمواج رمل النفود المخيف لأبحث عن الشرارات؟ فمن أي مكان أنطلق كان من المحتمل أن أصاب بالإغماء قبل أن أصل إلى أي خلاص بشري؛ وألا يمكن لأعرابي غريب أن يسارع إلى قتل الغريب، برؤيته يصل هكذا قبل استقبالي؟ كانت عيناي معتمتين بفعل الرمد المؤلم، ولا أعرف أين أبحث عنهم، كيف لي في الاتساع الشاسع لمشهد الصحراء أن ألمح أي أعرابي؟ فلو وصلت برحمة الله إلى أي بئر فقد أشرب قطرة قطرة، بحيلة ولا أسقي الناقة.

وأنا التقط الحجارة كنت أفرك يديّ الملطختين بالدم، أملاً في أن أغسلهما عندما سنصل إلى الأعراب؛ لكن هذا لم يكن وقت المرعى الربيعي، عندما تكون الماشية الكبيرة ممتنعة عن الماء، وفي أغلب الأحيان لا يكون مع البدو ماء، لأنه لا يوجد لبن لشربه. ظن إياد اللعبة انقلبت ضده! عندما نصل إلى منزل، كان بإمكاني أن أشكوهما وسوف ينالان توبيخاً. «راقب. قالا، وعندما يبول أي جمل، أركض واشطف اليدين؛ لأن والله برؤية الدم على يديك، لن يأكل أحد من الأعراب معك».

كان بول الجمال حتى يشرب في بعض الأحيان من قبل رجال قوافل المدن عند نفاد صبرهم من العطش. لقد عرفت بعض تجار المدينة المنورة المسافرين إلى الشرارات، الذين يصعدون عند منتصف الصيف من وادي سرحان، ويجدون البركة جافة (فوق معان) حيث كان يبدو إنهم قد شربوا، وملؤوا قصعتهم هكذا، وتركوا فيها قليلاً من الدم من أذن الجمل. لقد حكيت الحكاية لبعض البدو الذين أجابوا، «لكن شرب هذا لا يمكن أن يساعد إنساناً، ولو شرب والله لمات حالاً، وبذلك يستنزف أمعاءه».

كان الوقت مساءً، فذهبنا مرة أخرى عن طريق الأجلَّة عندما كانت

الشمس تغرب، رأينا قطيع جمال آخر غير بعيد. كان الرعاة الذين يخبون على بعض دوابهم الأخف وزناً يجمعون الماشية الكبيرة إلى مكان محمي بين تلتين؛ لأن هذه الليلة أطبقت بلا نجوم فوق رؤوسنا بهطول المطر. عندما جئنا إليهم كان الشباب قد أوقفوا جمالهم وكانوا يهسون لها لتركع، إخ ـ خ ـ خ! البهائم الكبيرة تنزل بتثاقل، مع تنهيدة، على ركبتها، وتطوي ساقيها الخلفيتين المعوجتين، بترك ثقل على أكفالها. ثم وهي تدلف نحو الأمام ركبة أمامية ثم الأخرى، مع صرير الحصباء القاسية تحت ثقل جسمها، وتسوّي نفسها، وبهذا العناء تكون مرتاحة، ثقل الجسم الأمامي يكون مستنداً على الزور؛ هكذا تستلقي وتجترّ جرتها، حتى طلوع شمس الصباح. يترك الجمل أثراً غريباً (شبيهاً بالزواحف) (لركبتيه، للزور، وللأطراف الخلفية الحادة)، يمكن رؤيتها في تربة البرية القاسية بعد عام أو عامين. تكون رائحة الجمل مسكية وتشبه رائحة الكلب قليلاً كون الأجزاء الخلفية مكسوة بالبول؛ مع أن الجمل أجمل في عيوننا من الغزلان، لأن الإنسان يرى في هذا المخلوق سعادته الكاملة، في الخلاء.

جلب الرعاة الطيبون لنا الكثير، شربنا بعمق حتى الليل؛ ومن كل رشفة يُصنع قبل الصبح مزاج حلو، ولحم طري وعضلات قوية. كان المطر يهطل على ظهورنا عندما جلسنا حول نارهم الحراسية من العيدان على رمل الصحراء النقي؛ كانت السماء تبرق وترعد. عندما تعبنا افترقنا، إلى حيث تركنا حقائبنا، واضطجعنا بعباءاتنا، في ريح الليل والمطر. استلقيت طويلاً أفكر بالغد، بحيث إن رفاقي قد ظنوني نائماً. استراحوا في ملجأ الجرف التالي، حيث سمعتهم يقولون ـ سمعي المرهف يساعدني في هذه المخاطر مثل البصر الحاد للبدو ـ إنهم فيما بعد في الليل سوف يحملون أشياءهم على الناقة ويرحلون. تركتهم يتقلبون ليناموا، ثم نهضت وذهبت إلى المكان حيث كانت النار.

نام الرعاة تحت المطر. كانت أختهم ترعى معهم، لكن في وجود

الغرباء كانت قد جلست طوال هذا المساء مغمورة في المطر، وبعيدة عن النار البهيجة. كانت تدفئ نفسها عند الجمرات المتخامدة، فأطلقت صرخة صغيرة عندما رأتني قادماً، لأن كل شيء هو مبعث للخوف في الصحراء. قلت لها، عندما رأتني قادماً، إنني أود التكلم إلى إخوتها. أمسكت أكبرهم من كتفه وهزته، فاستيقظ فوراً، لأنه في هذا الطقس لم يكن نائماً بشكل جيد، قعدوا جميعاً، وسأل الشباب الذين كانوا يفركون وجوههم، «اوه، ماذا؟» ولماذا لا يدعهم الغريب يرتاحون، ولماذا لم أذهب لأنام مع رفاقي؟. كان هؤلاء غلماناً أقوياء لكنهم فطِنون؛ لم يتبينوا أنني غريب كثيراً. أخبرتهم، أن الذين معي هم من عنزة، عقيليون يمتلكون المال لنقلي إلى خيبر؛ لكن هدفهم هو التخلي عني، وربما كانوا سيتركونني هذه الليلة». «انظر - قالوا لي، وهم يمسكون أفواههم عن التثاؤب - إننا رجال خدمة شبان فقراء، ولا نمتلك الكثير من الفهم في مثل هذه الأشياء؛ لكن إذا رأيناهم يسببون لك مكروهاً، فإننا سنكون إلى جانبك. اذهب الآن واستلق مرة أخرى، وإلا فإنهم سوف يفتقدونك؛ ولا تخف من شيء، لأننا قريبون منك».

قبل حوالي ساعتين من طلوع الفجر نهض إياد ومرجان، وهما يهمسان، وحمّلا الأغراض على الناقة الباركة؛ ثم بوخزة صغيرة أنهضاها بصمت. «اخرج (سمعت إياد يهمس)، وسوف نأتي مرة أخرى من أجل المسدسات». بقيت مستلقياً. وعندما قطعوا خطوات قليلة نهضت لأحبطهم، فذهبت وبارودتيهما الفتيلتين في يدي إلى مكان الرعاة، وأيقظت الشبان. الرفاق الخائنون الذين عادوا في الظلام لم يجدوا أسلحتهم، عندها أقبلوا إلى حيث كنت أجلس الآن مع الرعاة. آه، قالوا، كان خليل قد نال منهم تشكياً ظالماً؛ لم يفعلوا شيئاً سوى أن انتقلوا قليلاً ليجدوا ملجأ، لأنهم حيث كانوا يستلقون كان يزعجهم المطر والريح. ألسنتهم الفاسدة مع الرعاة البؤساء، الذين كانت نجومهم اللامبالية غير متعودة على هذه الحالات الدقيقة؛ وبلا رحمة في المطر، اتفقوا مع الطرف الغريب، لقد أساء خليل القصد البسيط للآخرين. «حسناً، خذوا، قالوا، بواريدكم، واذهبوا لتناموا مرة أخرى، كلكم؛ وكن

قانعاً يا خليل. ولذلك لا تعطوه فرصة أخرى، قال هؤلاء القضاة النجديون: ـ والله لم نغفُ طوال هذه الليلة الطويلة!».

انطلقت مع العقيليين، عندما رأينا نور الصباح؛ سافر إياد. لم نكن قد قطعنا ميلاً عندما هدّد بتركي هناك في الخلاء؛ كان آنئذٍ يهدِّد بشكل مفضوح بإطلاق النار عليّ، ورفع عصا الجمال ليضربني؛ لكنني وضعت يدي على رسن الناقة، ومن أجل الكلمة الأخرى، قلت، إنني سأعطيه لكمة. لم يكن لمرجان أي دور في هذا العنف؛ بل سار على مبعدة منا، لكونه ذا مزاج متقلب؛ في الساعة الأخيرة كان قد تشاجر مع إياد. ـ «حسناً، يا خليل، ليكن ذلك الآن، قال إياد، وأقسم لك أن منزل الأعراب ليس بعيداً، إذا صدق قول الرعاة».

الرحيل إلى بُريدة. الوصول. النصراني يُسلب. الأمير الأعرج يبدأ رحلة إلى عنيزة

في الصباح نفسه جاء بدويان مع حمولات جمال من الثمن (الأرز)، الذي جلبه الرجال من أجل طَلَقّ ومطلق. من العراق! كانا من شمر ويعملان حمالين في قافلة حج ابن رشيد. استغربت كيف أنهما بعد سفر طويل قد وجدا خيامنا. أخبراني أنهما منذ عبور حائل استفسرا عنا، بهذه الطريقة «أين ابن نهال؟» جواب: «سمعنا عنه في جنوب شرق البلاد. البعض يقولون إنه قد عبر إلى تخوم عتيبة. ـ عندما سمعنا عنه آخر كلمة كان في هذه البقعة. ذهب مؤخراً نحو سليمى ـ ستجد أعرابه بين نقطتي علام كذا وكذا ـ إنه يرعى حول جّنا». في حين كانوا ينزلون أحمالهم، وصل بدوي غريب، لكنه معروف في هذا الفريق، راكباً على جمله بعد غياب. كان قد سافر مؤخراً باتجاه الغرب 130 ميلاً، ليزور بِشْر، الذين ترعرع بينهم، لكنه الآن يقيم مع حرب. كان الرجل من شمر، وله زوجة مهجورة تعيش كأرملة في منزلنا، جاء لزيارة ابنهما الصغير. أشار علي مطلق أن أنضم إلى هذا الرجل الشريف من أجل الرحلة إلى القصيم. دعوناه: فأجاب قائلاً: والله، كان يخاف أن يعبر بلاداً مفتوحة هكذا، حيث يمكن أن يفقد جمله لبعض العتيبيين المغيرين؛ لكن مطلق أقنعه، قائلاً بأنه يستطيع أن يشتري بأجوره حملاً من التمر (فهو رخيص جداً في القصيم) ليجلبه إلى البيت إلى أسرته. عرض أن ينقلني إلى البكيرية، لكننا اتفقنا مقابل خمسة ريالات أن ينقلني إلى بريدة. «اركب»، قال الرجل، الذي

كان اسمه حامد؛ حمّل أشيائي وصعد خلفي. وانطلقنا. «الله يوصلك إلى آخر الرحلة»، قال طلق: «الله لا يريك مكروهاً!».

كانت الشمس بارتفاع ثلاث ساعات. عبرنا فوق ساحل بازلتي، وهبطنا إلى فريق آخر؛ كان فيه بيت حامد. هناك أخذ قربته، وحفنات قليلة من المريسي - كل مؤونته من أجل السفر لمسافة 450 ميلاً أخرى - ولربة منزله لم يقل أكثر من هذا: «يا امرأة، أنا ذاهب مع الغريب إلى بريدة». أذعنت بصمت؛ وعموماً، فإن البدوي عند الرحيل لا يودع زوجته: «هل تسمعين؟ (قال حامد مرة أخرى)، ابقي مع هؤلاء الأعراب حتى عودتي إلى البيت!» ثم أخذ ابنهما الصغير في ذراعيه وقبّله.

...... رأينا الكثبان الكبرى للنفوذ؛ مثل هذه يدعوها البدو **طعوس** ونفود (الجمع أنفاد)! وتسمع كلمتا **أدنات** و**كثيب** (جمعه كثبان) في القصيم.

«غير بعيد وراء الكثبان على يميننا (باتجاه عنيزة) يقع وادي **الرُّمَة**» قال حامد. سافرنا مدة ساعة ونصف،ووصلنا إلى حافة النفود، عندما كانت الشمس تغيب. ومن هنا ظهر مشهد يشبه الأحلام! - بلدة طينية كبيرة مبنية في هذا الرمل القاحل مع جدران مطوقة وأبراج وشوارع وبيوت! ويوجد بالإضافة إلى ذلك غابة داكنة مائلة إلى الزرقة من أشجار الإثل، على الكثبان العالية! هذه هي بريدة! وتلك المئذنة المربعة، في البلدة، هي لمسجدهم الكبير. رأيت، إذا جاز القول، القدس في الصحراء! [كما نطل من جبل الزيتون]. أضاءت آخر أشعة الشمس المنبعثة المدينة الطينية المعتمة بطريقة فاخرة، ونفذت إلى ذاك المهرجان المعتم من أشجار الطرفاء. سألت رفيقي، «أين نخيلهم؟».

أجاب: «ليس في هذه البقعة؛ إنه يقع خلف ذاك الكثيب الكبير باتجاه وادي الرُّمَة».

قال حامد - وبينما كنا في الطريق -: إذا كنت ذات مرة قد أزعجتك،

فسامحني؛ وقل هل وجدتني رفيقاً جيداً؟ خليل، هل رأيت بريدة! واليوم سأتركك في هذا المكان. وعندما تكون في أي قرية من قراهم لا تقل أنا نصراني لأنهم عندئذٍ سيكرهونك كرهاً شديداً، بل صلّ كما يصلون، طالما أنت مقيم في هذه البلاد، ولا تظهر بأي شكل من الأشكال أنك لست من المسلمين، افعل هكذا، وبذلك يمكن أن يتحملوك أيضاً بمودة، ويؤازروك. لا تفكر في أن تجد أهل المدن هؤلاء طيبي القلب مثل البدو! بل تلاءم معهم، وإلا فإنهم لن يسمحوا لك بالإقامة طويلاً بينهم. أنصحك من أجل الأحسن لا يجوز لي أن أجبرك! قل إنك مداوٍ، وأخبرهم عن الأدوية التي معك، ومن أجل أية أمراض، هذه أيضاً يجب أن تكون مهنتك التي تعتاش منها. لقد عانيت بسبب اسم النصراني هذا، وماذا أفادك؟ فقط قل الآن إذا كنت تستطيع: «أنا مسلم».

التقينا مع بعض الأشخاص من المدينة، خارج أسوارهم، يتنشقون هواء المساء؛ وعندما مررنا بهم، سألوا رفيقي البدوي: لاحظت بينهم سيافاً مشؤوماً للأمير. أجاب حامد، «كنا ذاهبين إلى نزل الأمير».

قالوا: «إنه بعيد، والشمس غابت الآن، ألم يكن من الأفضل لكما أن تترجلا عند هذا البيت الذي يقع قليلاً داخل البوابة، وأن تبيتا هذه الليلة؛ ويمكنكم أن تذهبا إلى الأمير في الصباح».

افترقنا عنهم وعبرنا بوابة البلدة، إن سورهم الطيني (الجدار) جديد، ولا تبلغ سماكته قدمين. لم نجد إنساناً في الشوارع المعتمة؛ كان الناس قد ذهبوا إلى بيوتهم ليتعشوا، والدكاكين في السوق كانت مغلقة ليلاً. إن بيوت البلدة من الطين (الرملي) مبنية واطئة ذات درج ومختلطة بالطرق الساكتة والمهجورة. مررنا بالساحة العامة غير المرصوفة، والمجلس الذي وجدته محفراً بفعل أقدام أهل البلدة! وهناك المسجد الطيني الكبير والمئذنة العالية. شدّ حامد لجام الفرس عند ساحة نزل الأمير، منوخ الشيوخ.

فتح البواب البوابات البدائية؛ ودخلنا راكبين ثم ترجلنا. الرحلة من

الروض استغرقت حوالي خمسة وعشرين ميلاً. لم يطل انتظارنا قبل أن يأتي غلام المطبخ ويدعونا، «انهضوا واذكروا اسم الله». قادنا عبر فناءات معتمدة محاطة بأروقة معمدة؛ من هناك صعدنا الدرج الطيني الكبير لنتناول العشاء. كانت الدرجات متآكلة في المنتصف، وقد تحوّلت إلى ميزاب، وكنا ندوس بشكل خطير في العتمة. مررنا بردهة ومساطب فوقها. وهو ما ذكرني بأبنيتنا الديرية (الأديرة). اصطحبنا الصبي بدون ضوء إلى نهاية رواق معمّد، حيث تحسسنا تحتنا أرضية خربة. وإلى هناك أحضر لنا عشاءنا وهو هريس [جريش] قمحي غليظ، مسلوق في الماء (نوع من البرغل العربي)، بدون سمن. كنا ضيوف أمير بريدة الفلاح. إنها وجبة المساء في قصيم، لكن يجب تحضيرها مع قليل من الحليب والزبدة؛ في البيوت الجيدة يقدّم هذا البرغل، المطبوخ بالمرق والذي يمزج عموماً بالتمن، مع لحم الغنم المسلوق. عندما أكلنا وغسلنا أيدينا، كان علينا أن نتحسس طريق العودة في الظلام، في خطر أن نكسر أعناقنا، التي كانت أكثر قيمة من العشاء ـ والآن ودعني وداعه البدوي القصير، ركب جمله، وكان من السهل علي أن أرى رفيقي يعبر بأمان بوابات (الطاغية). كان القمر طالعاً؛ وكان رفيقي يودّ الخروج من البلدة، والإقامة في إحدى القرى.

طلبت آنذاك أن أزور الأمير شقيق حسن، الذي تركه مندوباً في بريدة؛ فلبى طلبي. الساعة متأخرة، والأمير في جزء آخر من البلدة باكرا! في الصباح. تجمع البواب، ومقدم القهوة' وسياف، وخدم آخرون من المضافة حولي. أغلقت بوابات الباحة، ولم يسمحوا لي بالانصراف. في حين جلست على مقعد طيني، تحت ضوء القمر الخافت، فوجئت من تعبي بصوت المؤذن الذي يصرخ من المئذنة يدعو إلى الصلاة الأخيرة. آه، فكرت في نفسي، لذاكرتي المقتصدة الصغيرة! يا لها من مصيبة! لماذا تابعت الجلوس حتى هذا الوقت المتأخر، والأمير ليس موجوداً، ولا يوجد أحد هنا ليستقبلني، حتى الصباح؟ سألت بسرعة، «أين المنامة؟» ردّ أولئك الضباع، بنوع من السخرية المكتومة «ألن تصلي معنا، قبل أن تذهب لترتاح؟» دفعوني إلى غرفة في مبنى الفندق المظلم، كانت تستعمل كقهوة صغيرة (مقهى).

كان كل شيء ساكناً في الداخل ويبدو مثل الدير. تلمّست طريقي، وتحسست الأعمدة الصلصالية، ودستُ على رماد موقد، واستلقيت هناك على الأرضية الترابية القاسية. كان مسدسي في قاع حقائبي، التي أقفل عليها البواب في مكان آخر. وجدت سكين الجيب، وفكرت في نفسي، أنهم ينبغي ألا ينجوا بجلودهم، إذا ما تسبّب لي أحد بأذى؛ مع أنني كنت آمل أن يمرّ الليل بهدوء. لم أغف ساعة عندما سمعت وقع أقدام، لشخص يتحسس طريقه عبر الأرضية؛ «انهض - قال صوت - واتبعني، أنت مطلوب أمام الشيوخ إلى صالة القهوة».

سبقني، وتبعته عن طريق الصوت؛ فوجدت أشخاصاً جالسين إلى القهوة، كان يبدو أنهم من حرس الأمير. أمروني بالجلوس، وناولني أحدهم فنجاناً، ثم سألوني «ألست أنت النصراني الذي كان في حائل مؤخراً؟ كنت هناك مع بعض الرجال من عنزة؛ وأرسلك عنيبر بعيداً على جرباهم (ناقتهم الجرباء). كانوا بصدد أن ينقلوك إلى خيبر؟».

«أنا هو».

- «لماذا إذاً لم تذهب إلى خيبر؟».

- «لقد قلت ذلك لأن الناقة كانت جربة؛ أولئك البدو لم يكن بمقدورهم أن ينقلوني إلى هناك، وهو ما كانت عنيزة تعرفه جيداً، لكن العبد لم يشأ أن يسمع.

- «قل لي، كيف عرف ذلك؟».

«كنت في حائل، ورأيتك هناك، ألم يحظر عليك عنيبر الذهاب إلى قصيم؟».

«سمعت كلماته الزائفة، أنكم أعداء، لم أسمع تحذيره؛ كيف يمكن للعبد أن يمنعني من السفر، وراء حدود ابن رشيد؟» عند ذلك ضحكوا وهزوا رؤوسهم الفارغة ورأيت بعض أسنانهم - علامة خيرا أضاف المستجوبون،

باستبدادهم الفاقد للصبر «ما هي الأوراق التي معك، ها! اذهب واجلبها؛ لأن هذه الأوراق نريدها فوراً وسنحملها إلى الأمير، ـ وقال (للغلام): اذهب مع النصراني».

فتح البواب المستودع حيث كانت ترقد حقائبي. أخرجت علبة الأدوية؛ لكن يدي المتعبتين بدتا بطيئتين للتعساء المحملقين الذين لحقوا بي. إن أسوأهم، وهو قحطاني، ضربني بقبضته، وشتم وهدد النصراني. صاحوا: «اخرج، بكل أوراقك!» وخطفوها من يدي: «نحن سنذهب بهذه الأوراق إلى الأمير». خرجوا؛ أغلقت البوابات خلفهم، وتُركتُ وحيداً في الفناء. بقي الحارس الذي ضربني، جاء إليَّ في الحال ويده على سيفه، وتمتم: «أنت كافر! قل لا إله إلا الله»؛ وهناك جاء آخر وآخر. جلست على المقعد الطيني في ضوء القمر، في غاية الإرهاق.

عندئذٍ قبضوا على صدري (من أجل المال)! نهضت، واحتشدوا جميعاً حولي. كان البواب قد قال كلمة في أذني «إذا كان لديك أية فضة فسلمها لي، لأن هؤلاء سوف يسلبونك»؛ لكنني عندئذٍ رأيت أنه واحد منهم! كل الأوغاد عليّ، ففكرت أن أصرخ حرامية! هو! أيها الجيران الشرفاء!. وأرى ماذا ينجم عن ذلك؛ لكن الساعة كانت متأخرة، وهذا الجزء من البلدة معزول. لن يرد أحد على صوتي، ولو سمعني أحد، مما لا شك فيه أن قلوبهم ستنكمش بداخلهم، لأن العرب (الذين يقطنون بلداً محكوماً بشكل ضعيف ومليئاً بالأخطار) هم على العموم جبناء. عندما صرخت لصوص رأيت معذبيي يقفون مشدوهين قليلاً: «لا تصرخ (قالوا بفظاظة) أو بالله!» هكذا فهمت أن مهاجمتي هذه كانت من خبثهم السفيه، فتابعت الصراخ؛ وعندما بدأت بتحريك ذراعي، كانوا جبناء للغاية بحيث إنه كان بمقدوري، مع أنني كنت ضعيفاً، كما تصوّرت، بجهد قليل أن أخلص نفسي منهم، مع أن ذلك كان أسوأ ـ لأنهم عندئذٍ سيعودون بأسلحة؛ وكنت مطوقاً بالجدران، ولم يكن بمقدوري أن أفر خارج البلدة.

كانت شلة الأشرار الذين تشاجروا معي مكونة من ستة. فكرت أن من الأفضل أن أواصل الصراخ حرامية! وأن أبدي بعض المقاومة، لتأجيل الوقت. كنت آمل في كل لحظة أن الموظف سيعود من الأمير. الآن كانت محفظة نقودي الخفيفة في أيديهم الوحشية، وأكثر ما كان يقلقني، هو مقياس الضغط (البارومتر) اللاسائلي. فقد تراءى لهم ساعة يد في ضوء النجوم! قام القحطاني بخطف وقطع الحبل الذي عُلق به الجهاز الحساس من عنقي؛ وفرّ به مثل كلب فاز بعظمة جيدة في فمه. كانوا قد خلعوا عباءتي وكوفيتي، وفي النهاية تركني الأشرار واقفاً لوحدي ببنطلون، ثم هرعوا جميعاً مع بعضهم إلى الباب حيث كانت حقائبي؛ لكنني ظننت أنهم لن يجدوا مسدسي في الظلام فوراً، وهذا ما كان.

الآن وقف رجل الأمير مرة أخرى عند البوابة، وهو يطرق ويصيح بصوت عالٍ ليتم إدخاله، وذهب البواب مثل منهرب من واجبه ليفتح البوابة. «ماذا حدث؟» قال الموظف الذي دخل.

«لقد سلبوا النصراني».

«من فعل هذا؟».

«القحطاني، في البوابة».

وهذا الرجل، أجبت، كان واحداً من أكثرهم نباهة! كان الباقون قد فروا إلى بناية المضيف، عندما دخل رجل الأمير. «اوه، يا للعار! (قال الموظف) إن شخصاً يسلب في قصر الأمير؛ وهو يحمل رسائل من السلطان، ماذا فعلتم؟ الله يلعنكم جميعاً».

قلت: «دعهم يجلبون ثيابي، رغم أنهم قد مزقوها».

«ستعطى ثياباً أخرى من قبل الأمير». جاء المتوارون بناءً على ندائه من زواياهم المظلمة؛ وأمرهم، «اجلبوا للغريب ثيابه» ـ وكل ما سلبوه سوف ينستعاد كما قال لي، تحت طائلة قطع اليد؛ «والله ستوضع يد كل من يتبين

متورطاً في حقائبك مقابل الشيء الذي تمت سرقته. جئت لأقودك إلى مسكن مجهز لأجلك، لكنني يجب أن أعود الآن إلى الأمير، وأنت (وهو يسميهم) وأنت وأنت، لا تفعلوا ذلك بعد الآن وإلا ستجلبون على أنفسكم غضب الأمير».

فأجابوا «لم نفعل ذلك، لكنه رفض أن يقول لا إله إلا الله».

«هذه هي غلطتهم! ـ لكي أسرّهم قلتها أربع أو خمس مرات؛ واسمع! سأقولها مرة أخرى، لا إله إلا الله».

قال الموظف: «أنا ذاهب، وسأعود في وقت آخر».

«لا تتركني بين اللصوص بعد الآن».

«لا تخف، إن أياً منهم لن يفعل شيئاً ضدك» وأمر البواب بأن يغلق البوابات وراءه».

عاد فوراً: وأمر أولئك التعساء، من الأمير، ـ تحت طائلة قطع اليد ـ بأن يعيدوا كل ما سلبوه من النصراني؛ كما أمر البواب بأن يشعل ناراً في الرواق ليضيء لنا. إن السياف القحطاني، الذي كان زعيماً لهم ـ كان واحداً من عصابة الأمير ـ ناشدني أن أقدم وصفاً حقيقياً للنقود التي كانت في محفظتي. لأن كلماتي يمكن أن تعرض يده للخطر، وإذا لم أقل سوى التكهن فإن الله سيريني الرحمة».

«هل تعتقد، أيها التعيس، أن رجلاً مسيحياً سيكون هكذا مثلك!».

«خذ المحفظة، قال الموظف؛ كم من المال ينبغي أن يكون فيها؟ خذها، وعد دراهمك».

«وجدت أن أيديهم البربرية قد كانت فيها؛ لأنه لم يتبق سوى بنسات قليلة! «ناقص كذا وكذا».

قال الموظف: «اوه! أنت الذي أخذ مال الرجل، اذهب واحضره، والله يلعنك».

ذهب السياف، وعاد بالنقود. ـ قطعتا ذهب فرنسيتان من فئة عشرين فرنكاً كل ما تبقى لي في هذا العالم المر.

قال الموظف: «قل الآن، هل هذه كل فلوسك؟».

ـ «هذه كلها».

«هل هناك غيرها؟».

«لا!».

ـ أبدى لي القحطاني شكره بنظرة وحشية مستغربة.

الموظف: وماذا بعد؟.

«كذا وكذا». ذهب التعساء، وجاؤوا مرة أخرى بالأشياء الصغيرة وكل ما سرقوه بعد تجريدي (كان من حسن الحظ لكن للحظة) من حقائبي. قال الموظف: انظر الآن، هل أخذت كل شيء، هل هناك أي شيء مفقود؟».

«نعم، ساعتي» (مقياس الضغط اللاسائل الذي كان بعد المسدس موضع عنايتي القصوى في الجزيرة العربية)، لكنهم صاحوا «أية ساعة! لا، لقد أعدنا إليه كل شيء قبلئذٍ».

الموظف: «اوه أنتم كذابون، أنتم ملاعين، أنتم لصوص، اجلبوا لهذا الرجل ساعته! أو أن اليد (المذنبة) سوف ترهن إلى الأمير». فتم إحضارها مع التسويفات، وبذلك أعادوا ملكاً إلى مالكه بأقصى النفور، فالقطعة المعدنية المذهبة قد تبدو لهم ذهباً خالصاً. من دواعي ارتياحي، أنني وجدت في الصباح أن الجهاز لم يصب بأذى: إذ يمكنني مع ذلك أن أقيس به ارتفاع قامة.

قال، «لقد كان الوقت متأخراً، يجب أن أقضي الليل هنا».

ـ «أعرني سيفاً، كان علي أن أنام في هذا المكان الملعون، وإذا هجم عليّ أحد مرة أخرى، فهل سأوفره؟».

ـ «لا يوجد خطر بعد، وأما فيما يتعلق بهؤلاء فسوف يُحبسون في مضيف القهوة حتى الصباح». وقام بإبعاد المذنبين ـ كان الموظف قد جلب أوراقي، وحده جواز المرور لعنيبر لم يكن بينها!

عندما طلع النهار عاد إليّ موظف الأمير ـ الذي كان اسمه جبير. طلبت من جديد أن أزور الأمير. أجاب جبير، يجب عليه أولاً أن يذهب ويتكلم معه. عندما جاء مرة أخرى، وضع حقائبي على كتفيه الضعيفتين وهو يقول، إنه سيجلبني إلى مكان إقامتي. قادني عبر شارع فسيح؛ وتحول إلى باحة خربة فسيحة أمام مبنى كبير ـ صار الآن قديماً، متقوّضاً، كان قصر الأمير في الأيام الخوالي [جدران البيت هنا من الطفال الرملي يمكن تقريباً أن تصمد أكثر من مئة سنة]. صعدنا عن طريق درج طيني أجوف إلى قاعة كبيرة فوق؛ حيث كانت امرأتان، ربتا منزله، تجلسان. كان جبير، مستأجر كل القصر العطن، رجلاً من قبيلة قحطان. في النهاية كان ثمة غرفة أخرى، أعطانيها لأجل إقامتي. «إنني متعب، وأنت متعب أكثر، قال لي، إن فنجاناً من القهوة سوف يجعلنا بخير». جلس جبير عند موقده لتحضير قهوة الصباح.

في ذاك الوقت ظهر بعض الأشخاص المهمين من البلدة؛ يرتدون الزي الرافديني (العراقي) (الثقيل). إن عدداً كبيراً من النوع الميسورين في بريدة هم جماميل أي أصحاب الجمال الذين يتاجرون في القوافل. إنهم ناقلو القمح من بلاد الرافدين (العراق)، يجلبون الأقمشة والتمن إلى نجد؛ يحمّلون تمر وذرة قصيم (عندما تتحسن الأسعار) من أجل المدينة [المنورة]. في الخريف يحملون السمن الذي استلموه من بدو الريف، إلى مكة، ومن هناك يحضرون القهوة. هؤلاء المواطنون العرب الأقوياء البنية يشبهون الفلاحين! فقد كانوا رحّلاً؛ لكنني وجدت لديهم تعصباً حقوداً.

قال جبير عندما ولوا، «الآن هل سنزور الأمير؟» انطلقنا؛ وأخذني عبر

شارع إلى مكان، أمام بيت الأمير. كان ثمة رجل قذر يجلس هناك، مثل أيوب، في غبار شارعهم، كان ثمة اثنان أو ثلاثة آخرون يجلسون معه. ربما كان عمره حوالي خمس وثلاثين سنة. سألت، «أين عبد الله الأمير؟».

ـ «ها هو».

سألت الرجل، «هل أنت ولد مهنا؟».

أجاب: «بلى» قلت: «هل جرت العادة هنا أن يسلب الغرباء وسط بلدتكم؟ لقد أكلت من خبزكم وملحكم؛ وخدمكم سلبوني في باحتكم».

ـ «كانوا بدواً الذين سلبوك».

«لكنني قد عشت مع البدو، ولم أسلب أبداً في منزل، لم أفقد شيئاً في خيمة مضيف. أنت تقول إنهم كانوا بدواً، لكنهم كانوا رجال الأمير!».

قال عبد الله: «أقول إنهم كانوا قحطانيين جميعهم». طلب أن يرى ساعتي.

«ليست معي، لكن هنا لدي منظار!» فوضعه على عينيه وأعاده. قلت: «أقدمه لك؛ لكنك ستعطيني ثياباً أخرى بدلاً من ثيابي التي مزقها خدم الأمير». لم يقبل هديتي، فالفلاح لا يقدم للنصراني تعويضات، ولم يكن لديَّ المال لأشتري المزيد. «اليوم، قال، ارحل».

«إلى أين؟».

«إلى عنيزة، وهناك يوجد بعض سائقي الجمال ـ لقد غادرونا البارحة، هم ذاهبون إلى سدوس، سوف ينقلونك إلى هناك ـ».

«لكن هذه كانت خدعة من عبد الله، لفقها لي عن سائقي الجمال إلى سيدوس. ثم صاح: «مين يشيل»، من سيحمل النصراني على جمله إلى الوادي؟. الذي عرفت فيما بعد أنه يقصد النخيل في وادي الرُّمَةْ. قلت له «سأرتاح هذا اليوم، فقد كنت متعباً جداً ولا أقوى على الركوب». قبل

عبد الله (وإن على مضض)؛ لأن كل العرب (سكان بلاد منهكة) نقائص بشرية رقيقة «حسناً، كما تشاء، وهذا قد يكفيك». . . .

أقبل حر منتصف النهار؛ فذهب ليغفو في قسم آخر من البناء المقفر. كنت قد استرحت لبعض الوقت، في حجرتي، عندما أجفلني صرير الباب العتيق المطلي باللون القرمزي! ـ ودخلت امرأة شابة فاسقة! سألت، ـ لماذا كسرت علي خلوتي؟ كان جوابها مثل بعض الكلام التوراتي القديم؛ «تخليني أنام في حضنك». من الممكن أن يكون قد أرسل هذه البغي المشؤومة؟ العرب هم من فعل ذلك. فهل كانوا يأملون في إيجاد فرصة لاتهام النصراني؟ لكن الفتاة اللطيفة لم تكن مرعوبة؛ لأنها، عندما وبختها، وقفت لتعنف الغريب وهي تقول بصوت البؤس الكريه، «أها! أيها النصراني الملعون! فكنت على وشك أن أذبح، من قبل الرجال المؤمنين، كانوا في الطريق؛ فقد أرسلهم الأمير، لفعل ذلك! وقد لا أنجو الآن منهم» ـ نهضت ودفعت هذه الأمتعة وأقفلت الباب. لكنني استغربت لكلماتها، وفكرت أن ذلك فقط باسم الدين، (يا له من قناع لحب الذات البشري والمكر والخوف!) كنت أقع يومياً في مثل هذه الأحداث المزعجة، في الجزيرة العربية. ـ الآن جاء جبير وهو يقول إنه يجب أن يذهب إلى الأمير.

بعد ذلك مباشرة سمعت أهل البلدة يتجمهرون حول بيتنا، وهم يصرخون تحت النوافذ البابية، التي كانت تنفتح نحو الخلف على شارع، ويقذفون الحجارة! وكان بعض الأشخاص الصاخبين قد اقتحموا الباحة الأمامية الكبيرة! ـ سرعان ما امتلأ الدرج بهم، ووثبوا على بابنا الذي كانت المرأة قد أحكمت إقفاله. «يا ويلتاه، قالت الحريم، وهن يفركن أيديهن، ماذا يمكننا أن نفعل الآن. لأن الناس المهتاجين سوف يقتلونك، وجبير قد ولى». كانت إحداهن امرأة مدينية، فيما الأخرى كانت بدوية، وكلتاهما كانتا طيبتين تجاه الضيف. جلستُ أقول لهما، «يا أختيّ، يجب أن تدافعا عن البيت بلسانيكما». كانتا مستعدتين فأطلت المرأة المدينية إلى الخلف وبّخت أولئك

الذين افتعلوا هذا الهرج والمرج في الشارع «ها! أيها الناس ......، من أنتم حتى ترمون الحجارة إلى داخل شقة الحريم؟ اخس، ماذا تريدون؟ ماذا تبغون؟ ليرسل الله البلاء عليكم! اوه! هل تبحثون عن خليل النصراني؟ لكن خليل ليس هنا؛ أيها الحمقى، إنه ليس هنا؛ اغربوا اذهبوا!. أقول، بسبب العار، والله يلعنكم». وصاحت تلك التي حرست الباب بمن كانوا في الخارج، «آها! ما هو طلبكم - اخس! من هم الذين يطرقون هكذا كأنهم يكسرون بابنا؟ أيها الشبان الشياطين والعديمي الحياء! خليل ليس هنا؛ لقد ولى، اذهبوا وابحثوا عن النصراني، اذهبوا! قلنا لكم: إن خليل قد ولى، لا نعرف إلى أين، اخس. [الآن كانوا يطرقون على الباب بالحجارة] أيها الرجال العديمي الحياء، هل ستكسرون أبواب الناس، لتدخلوا إلى الحريم؟ ليرسل الله عليكم الطاعون جميعاً؛ وسوف يعاقبكم الأمير من أجل هذا».

في حين كانت تتكلم كان ثمة اندفاع مضطرب وجرجرة للأقدام خارج الباب؛ كانت ضربات عصيهم وحجارتهم تصدر صوتاً بشعاً على الخشب. مع ذلك فإن ألسنة النساء الوفيات قد أخرتهم! ووضعت أملي في النجوم، أن يعود جبير بسرعة. لكن لو دخل المحاصرون ليمزقونني إرباً إرباً فهل كنت سأوفر طليعتهم؟ تابعت الحريم الصراخ «لماذا تضربوننا، أيها الملاعين؟ اخس، هل ستحطمون بابنا بالفعل؟».

أخيراً جاء جبير مرة أخرى؛ وباسم الأمير طردهم جميعاً، وأخرجهم من هذه الباحة. عندما دخل، رفع كتفيه وقال لي: «إنهم يهتفون للأمير مطالبين بموتك!» يقولون إنه لم يسبق أن دخل نصراني بريدة هناك هذا الاحتجاج العنيف في البلدة، وعبد الله هو لمساندة الناس! لقد تناقشت الآن معه، فإذا أمضينا هذه الليلة بأمان، إن شاء الله، عندما ستأتي ناقتي غداً - وقد أرسلت في طلبها - سوف أنقلك عن طريق الأزقة المنعزلة خارج المكان؛ وأجلبك إلى عنيزة».

فيما كنا نتكلم، سمعنا أهل البلدة يحتشدون من جديد في باحته! كانت

طليعتهم تصعد مرة أخرى على درجنا ـ وكان الباب مفتوحاً. لكن جبير، الذي كان يهدّد بعقوبات الأمير الموجعة، أنزلهم مرة أخرى وأخرجهم من باحته. عندما عاد، سأل ربات منزله بنظرات الريبة: «من الذي عطل البوابة (من الداخل)؟» الذي تركها محكمة الإغلاق! قال إن عليه أن يخرج مرة أخرى، ليتكلم مع عبد الله؛ لكن ينبغي ألا يغيب طويلاً. لم أشأ أن أدعه يمر، حتى وعدني بإقفال بواباته وحمل المفتاح (الخشبي) معه. وهناك لم يتبق سوى هذا الشخص البائس، وخشب الباب العتيق، بيني، أنا الغريب، وبين الهمجية التعصبية لأهل البلدة. عندما جاء مرة أخرى قال إن البلدة هادئة، كان عبد الله، في نوع من الوساطة، قد حظّر القيام بمزيد من الضوضاء، فالمشاغبون قد ذهبوا إلى بيوتهم، وترك البوابة مفتوحة...

عاد جبير مفعماً بالشك وكئيباً! قال: «الناس يصرخون مرة أخرى لعبد الله، الذي أجابهم أنهم يمكن أن يتعاملوا معي كما يشاؤون، كان قد أخبرهم قبلئذٍ، أنهم يمكن أن يذبحوا النصراني في الصحراء؛ لكن ذلك لا يمكن القيام به في البلدة». سألني جبير عندئذٍ هل سأترك حقائبي وأهرب سراً من بريدة سيراً على القدمين؟ أجبت «لا ـ وأخبرني بهدوء، يا جبير، ألم تفكر بخيانتي؟». وعد أن يكون رجلاً وفياً كما كان. «حسناً، ما هو الخطر الحالي؟».

ـ «لا أرجو أكثر من ذلك، لهذه الليلة، على الأقل في بيتي».

«كيف لي أن أعبر الشوارع في الصباح؟».

ـ «سوف نعبرها، الخطر ليس كبيراً في البلدة بقدر ما هو في مطاردتهم [لنا]».

ـ «كم خيالاً يوجد في بريدة، عشرون؟».

«أي، وأكثر».

ـ «اذهب بسرعة وأخبر عبد الله، خليل يقول أنا رجل دولة، محمي (كما

تصرح أوراقي) من قبل حكومة السلطان، إذا حلّ بي مكروه (بصفتي ضيفاً) بينكم، فقد يجرّ ذلك المتاعب عليكم. لأنه هل كان مسموحاً أن يُقتل مسافرٌ، تحت الحماية الأمبراطورية، ويمرّ ببلدتكم مروراً فقط، بسبب دينه، الذي يتسامح معه السلطان؟ فلا تدعهم يظنون أنفسهم آمنين هنا، في وسط الصحارى». لأن ذراع الدولة طويلة! «تذكر جدة ودمشق! والمذنبين الذين يُعاقبون! بأمر من السلطان!».

أجاب جبير «سيذهب ويقول هذه الكلمات لعبد الله».

عاد جبير بنظرات أفضل، وهو يقول إن عبد الله سمع كلماتي، وأمر بأن لا أحد ينبغي عليه أن يزعج النصراني؛ ووعده، بأنه لن يصيبني أي مكروه هذه الليلة، قال جبير: «إننا الآن في سلام، على بركة الله، واذهب واسترح، يا خليل؛ وكن جاهزاً باكراً».

كنت جاهزاً قبل طلوع الفجر؛ ومع أنه كان يلزمني مئة سنة لأخرج من بريدة. عند شروق الشمس جلس جبير لإعداد القهوة؛ ومع ذلك لم يكن يبدي أي استعجال، فالناقة الموعودة لم تأتِ.

«ومتى ستكون ناقتك هنا؟».

- «قبل الظهر بوقت قليل».

«كيف يمكننا إذاً أن نأتي إلى عنيزة الليلة؟».

- «لقد أخبرتك، أن عنيزة ليست بعيدة».

سأل مضيفي أيضاً عن علاجات لأجل علله القديمة.

- «في عنيزة!».

- «لا بل الآن، لأنني كنت سأتركها هنا».

عندما استلم أدويته بدأ جبير يستبعد ركوبه الناقة إلى عنيزة؛ كنت أظن أن المضيف لن ينكر عهداً أخذه على نفسه؛ لكن حياتهم كلها كانت تُقضى في

الاحتيال والخداع. عند ذلك جاء القحطاني الذي كان زعيم العصابة في مشكلة الليلة السابقة وجلس أمام موقد ابن قبيلته؛ حيث كان يتمنى أن يشرب فنجان الصباح. كان جبير يودّ أن يجعلني أصدق أن الرجل قد عوقب البارحة أمام عبد الله. إن التعيس الذي آذاني مؤخراً سيكون الآن قد صان قضيتي! قلت لجارة جبير البدوية ـ التي جلست معنا، «أخبريني، أليس ممسوساً بالجن؟» أجاب الشاب عن نفسه «أي، يا خليل، في بعض الأحيان أكون مجنوناً قليلاً». كان قد جاء ليسأل النصراني عن الأدوية؛ والتي من المؤكد أنه لم يكن يثق بأحد من دينه.

كان وقع أقدام يتقدم ببطء يُسمع على درج القصر، كان عبد الله الأمير الأعرج هو الذي دخل وهو يتكيء على عكازه. كانت سترة وكوفية الأمير (الفلاح) قذرتين، جلس إلى الموقد، وقام جبير بإعداد قهوة طازجة. قال عبد الله، ـ وهو يريني رجلاً فقيراً يقف عند الباب ودخل معه. «هذا هو الذي سينقلك على جمله إلى عنيزة؛ انهض! واخرج أشياءك». يعد جبير بنقلي على ناقته. أما الآن فإن مضيفي (الذي كان يُعذب فحسب) فقد اعتذر قائلاً «سيلحق بنا عندما تأتي ناقته». أعطى عبد الله سائق الجمل أجرته ربع مجيدية، إحدى عشر بنساً. أخذ الرجل حقائبي على كتفيه وأخذني من شارع منعزل إلى جمل مُناخ أمام بيته الطيني. ركبنا وانطلقنا عن طريق الأزقة خارج البلدة.

النصراني، مهجوراً يجد صديق خبز وملح ويدخل عنيزة

رأينا ولداً بدوياً يرعى الغنم، فسألت رفيقي: «متى سنصل إلى عنيزة؟» «عند الغروب».

وجدت ارتفاع الأرض لا يتجاوز 2,500 قدم. عندما كنا قد سرنا ببطء لمدة ثلاث ساعات، وقفنا مرة أخرى في الطريق، قرب بعض أشجار الطرفاء الكبيرة. «نخيل» قال حسن: «سنترجّل هنا ونرتاح حتى انقضاء ساعات الظهيرة الطويلة». رأينا خنادق تحت تلك الأشجار حفرها صيادو الجراد. سألتُ: «هل هي بعيدة الآن؟».

«عنيزة ليست بعيدة».

«قل لي الحقيقة يا رفيق، هل تنقلني إلى عنيزة؟».

«لا تصدق؛ - انظر هنا!» (أخرج لي حزمة من الرسائل - مع أنها كانت تبدو مهترئة وعتيقة). «كل هذه، قال، هي رسائل التجار التي سأسلمها اليوم في عنيزة؛ وسأجلب البضائع من هناك».

- ولو لم أره يستلم رسالة فرانكلين الشاب من أجل عنيزه! وجد حسن شيئاً في كلماتي، لأنه لم يتوقف؛ قد نكون على بعد عشرة أميال من بريدة. كانت الأرض تنحدر أمامنا؛ وتحت أشجار الطرفاء التالية رأينا قليلاً من الماء ينزّ. كنا في الحال في قعر وادٍ، ليس من منفذ فوقنا، ولدى العبور خضنا عبر

الماء المتقطر! سألت، «ما هذا الغدير؟». أجابني: «الوادي» - أي إننا كنا في وسط وادي الرُّمَةْ. صعدنا قرب ماء (مالح قليلاً) ينز إلى غابة نخيل غير مسورة، حيث توجد حفر مثل القبور بعمق قامة محفورة قرب مساكب نخيل فتية إلى الماء الجوفي. تسقى النباتات باليد لمدة عام أو عامين، إلى أن تكون قد مدّت جذورها إلى رطوبة الأرض المائلة إلى الملوحة.

بقي أمامنا حوالي ميل لنعبر غابة النخيل هذه، حيث لا تشاهد سوى جذوع قليلة (أكبر عمراً) تنمو عالياً فوق البقية؛ لأن مثل هذه الممتلكات الممتدة هي أول ما يتعرض للتدمير في كل حرب. رأيت عبر الأشجار جدار باحة عالياً، يمكن أن يحتمي به المزارعون في أية إنذارات؛ وأراني حسن، في أرض مفتوحة، حيث كانت تنتصب خيام ابن رشيد منذ عامين، وعندما جاء مع ولد مهنا ضد عنيزة، لم نصادف سوى عاملين زنجيين. وراء النخيل توجد طريق أيضاً في النفود. وأبعد قليلاً على يميننا، كان بعض أولى العقارات المسورة؛ فشددنا الرسن عند جرن حجري، سبيل، أقامه مالك الأرض في جداره الطيني، ذا قناة من صوانيه. كان الجرن جافاً، لأن لا أحد في ذاك الوقت كان يمرّ بذاك الطريق إلى بريدة أو منها. سمعنا صرير نواعير وأصوات حصادين في حقل. «هنا، قال حسن، عندما، أنزل حقائبي، مكان الاستراحة، استرح في ظل هذا الجدار ريثما أذهب لأسقي الجمل. وأين القربة؟ لكي أجلب لك الماء لتشرب؛ قد تعطش قبل المساء، عندما سيكون وقت دخول البلدة - هكذا يقول عبد الله، والآن افتح عينيك، خوفاً من البدو». تركت الرجل يذهب، لكنني جعلته يترك رمحه معي.

عندما جاء مرة أخرى بقربة الماء، قال حسن إنه قد أفلت الناقة لكي ترعى؛ والله يا خليل يجب أن أذهب وراءها، لأن الدابة قد شردت. ناولني رمحي، وسأهرع لإعادتها، وإلا فإنها ستبتعد في النفود».

- «اذهب، لكن الرمح سيبقى معي».

«الله، لا تشك برفيقك هل ينبغي أن أذهب أعزلَ؛ أعطني رمحي، وسأعود إليك في لحظة».

فكرت، أنه إذا كان الرجل خائناً وأجبرته على نقلي إلى عنيزة، فإنه من الممكن أن يصيح لأهل البلدة المتعصبين: «هذا نصراني!».

- «ستذهب ناقتنا، لا تؤخّرني».

«فهل ستتخلى عني هنا إذاً؟».

- «لا والله، أقسم بهذه اللحية!».

رميت رمحه على الرمل، فقال وهو يلتقطه: «بينما أنا في الخارج، إذا كنت بحاجة لأي شيء، اذهب إلى زاوية الجدار هناك؛ هكذا سترى أرض نخيل، ورجالاً يعملون. استرح الآن في الظل، واصنع لنفسك قليلاً من المريسي، لأنك لم تأكل؛ وغطّ هذه الحقائب! لا تدع أحداً يراها. إن عنيزة لا تبعد سوى قليلاً وراء ذاك الأدن (الكثيب الرملي) هناك؛ يمكنك أن ترى البلدة من هناك سأجري الآن، وأعود».

تركته يمر، وكان حسن الذي يصيح في أثر ناقته، تحجبه تموجات الرمال. فكرت حالاً، أن أرى ماذا حلّ به فخلعت عباءتي وركضت حافياً في النفود؛ ومن كثيب رملي لمحت حسن يمتطي ناقته - لأنه قد تخلى عني! اتخذ طريقاً غير مباشر ليلتف حول نخيل الوادي باتجاه البيت. عرفت عندئذٍ أنني قد تعرضت للخيانة من قبل المبعوث السري لعبد الله وتذكرت كلمته «من سيحمل النصراني إلى الوادي؟».

كان هذا أتعس حظ حلّ بي في الجزيرة العربية! أن أُترك هنا خارج بلدة كبيرة، وسط نجد المتعصبة. لم يتبق معي سوى أربعة ريالات، التي كانت بالكاد أكثر من أن تنقلني في سفرة واحدة إلى أقرب ساحل. عدت وسلحت نفسي، مزقت خرائطي نتفاً صغيرة - لئلا استجوب من أجل ذلك بين المواطنين المتعلمين.

بعدئذٍ جاء رجل زنجي وزوجته من النخيل، يحملان الحطب باتجاه عنيزة. كانا قد شاهدانا نمر، وسألاني ببساطة «أين رفيقك والناقة؟» ـ بعد ذلك تابعت سيري تحت الجدران الطينية نحو صوت السواني، ورأيت أرض نخيل وبيت بستان. كان الباب مغلقاً بإحكام، وجدت بيتاً آخر بعده؛ ومن خلال الشقوق، نظرت إلى الداخل، ولمحت صاحب البيت يكدح، كان وجهاً ذا طبيعة بسيطة. فتحت بوابته ودخلت مع عبارة «السلام عليكم»؛ وطلبت شربة ماء. تريّث الرجل الطيب قليلاً ليرى الغريب! ثم أمر ابنته الصغيرة بأن تجلب الطاسة، وربط جماله ليتكلم معي. «اشرب إذا كنت تريد، قال، لكن ليس لدينا ماء صالح». كان طعم الماء مراً وفاسداً، لكن حتى هذا الكأس من الماء سيكون رباطاً بيننا.

سألته أن يعيرني جملاً أو حماراً، ليحمل أشيائي إلى البلدة، وسأدفع له الأجرة. حكيت له كيف أتيت إلى هنا، ـ مع سائق جمل من بريدة، الذي تركني في حين كنت أرتاح في الحر قرب بوابته، وأنا حكيم، وإذا كان ثمة أي مرضى في هذا المكان فأنا لدي أدوية لشفائهم.

حسناً، تفضّل؟ حتى يعود غلامي بجمل، أنا ذاهب (قال لابنته) مع هذا الرجل؛ هنا! خذي عصاي وسوقي، ولا تدعي الجمل يقف. ما هي أشياؤك، أيها الغريب، وأين تركتها؟ تعال! ما كان عليك أن تدعها تغيب عن نظرك وبدون حراسة؛ كيف، إذا لم نجدها؟ كانت بأمان، وأنا آخذ الحقائب الكبيرة على كتفي، خطوت عائداً فوق النفود إلى بوابة الرجل الطيب؛ مبتهجاً في سري أنني يمكن الآن أن أحمل كل ما أملك في العالم. دعاني إلى الجلوس هناك (في الخارج)، في حين ذهب ليحضر حماراً. «هل ستدفع قرشاً ونصف (ثلاث بنسات)؟» هناك جاء ثلاثة أو أربعة رجال أكبر سناً من الحقول ودخلوا في البوابة التالية ليشربوا قهوة بعد الظهر. استبقاهم الرجل الطيب وقال: «هذا غريب، لا يمكنه أن يبقى هنا، ولا نستطيع استقباله في بيتنا، يسأل عن وسيلة نقل إلى البلدة».

فأجابوا، بأنه سيفعل حسناً بأن يجلب الحمار ويرسلني إلى عنيزة. «وماذا تكون؟ (قالوا لي) ـ سندخل الآن إلى القهوة، هل سمع أحد الآذان؟».

قال آخر: «لقد نادوا إلى الصلاة في البلدة، لكننا لا نستطيع سماعه دائماً؛ ـ لأنه ألم تهبط الشمس نحو العصر؟ إذاً نصلي هنا معاً».

اتخذوا وضعيتهم بتقوى، وانضم مضيفي بنفسه إلى الصف؛ دعوني أيضاً، «تعال، وصلِّ، تعال!».

«لقد صليت للتو».

تعجبوا من كلماتي؛ وهكذا رضخت لتلاواتهم الرسمية وركعاتهم. عندما نهضوا، جاء مضيفي إليّ بنظرات مضطربة وقال: «أنت لا تصلي، همم!» فهمت عن طريق محيا أولئك الرجال الوقورين، أنهم كانوا مقتنعين بأنني لا يمكن أن أكون مسلماً صحيحاً. «حسنا أرسله» قال زعيمهم، ودخلوا البوابة.

كانت حقائبي موضوعة الآن على حمار. انطلقنا، وبعد الأذن الأول بقليل، كما أخبرني حسن مسبقاً، كانت بداية حقول الذرة، وظهرت أشجار النخيل والفاكهة، وبعض بيوت البساتين الممتدة. ـ قال رفيقي [وكان خائفاً!]: «المسافة بعيدة إلى البلدة، ولا يمكنني الذهاب إلى هناك الليلة؛ لكنني سأتركك مع واحد هناك هو ابن جود، ابن كرم؛ وفي الصباح سيرسلك إلى عنيزة». ـ تابعنا مسيرنا في طريق عريض وغير مسوّر، إلى أن توقف حماره عند مدخل بوابة بدائية؛ كان ثمة بيت بستان، فطرق الباب بصوت عالٍ ونادى إبراهيم! جاء والد عجوز إلى البوابة، وفتحها إلى المنتصف ومكث ـ وهو يرى ثيابي ممزقة (من قبل اللصوص في بريدة)! وغير عارف أي شخص غريب يمكن أن أكون ـ لكنه خمن أنني جندي هارب من الحرمين أو اليمن، نظراً إلى أن البعض منهم قد مرّ بعنيزة مؤخراً. تحدث عن الحمار من أجلي ومن ثم استقبلني رب البيت. أدخلوا حقائبي إلى بيته الطيني؛ وأقفل عليها في

مستودع؛ هكذا بدون كلام أومأ بيده، وقادني إلى الخارج في بستانه، إلى «الديوان» (مكان الجلوس النظيف والمفروش بالرمل في الحقل)؛ وهناك تركني.

كان منظر أرضهم المفلوحة مبهجاً مع جذامات الذرة وبقع البيقية الخضراء، الجت، علف جمال الآبار؛ ورقعة من نباتات الصبغة، الذي تستعمل أزاهيرها الصفراء من قبل أهل المدينة لصبغ مفارق شعرهم. عندما كانت الشمس تقترب من الغروب، تذكرت ساعة صلاتهم .... وعبرت بسرعة إلى الطرف البعيد من نخليهم، لكنني لم أختفِ بفعل الصفوف المتباعدة من الأشجار. عندما رجعت عند الغسق، سألوني، لماذا لم أصلِّ، ثم عددوا أسماء المذاهب الفقهية الأربعة في الإسلام، وتساءلوا معي «إلى أي مذهب تنتمي أنت»؛ أو هل أنت رافضي (شيعي من مذهب مخالف)؟ - وهي كلمة يلفظونها بعدائية. لم أجب، وبقوا في حالة من الدهشة. جلبوا لي على العشاء قمحاً مسلوقاً في طاسة وطاسة أخرى من ماء بئرهم؛ لم يكن ثمة ضيافة أعظم من ذلك في ذاك المنزل البسيط. خفت من هواء (الواحة) الرطب وسألت، أين حجرة القهوة. فكان الجواب: «هنا لا توجد قهوة، ولا نشرب شيئاً».. جلسوا بصمت، ونظروا بتثاقل إلى الغريب، الذي لم يصلِّ.

كان الذي جلب لي الطاسة (ليس واحداً منهم) شاباً قوي البنية، ذا سلوك ليس مبتذلاً، وأظهر في كلماته فهماً رائعاً. دعوته إلى العشاء معي.

«لقد تعشيت».

- «مع ذلك كُل لقمة، لأجل الخبز والملح بيننا» ففعل. بعد ذلك، عندما انصرف البقية، أخبرته ماذا أكون، وسألته عن البلدة. «حسناً، قال، أنت هنا الليلة ولم يتبق سوى القليل إلى عنيزة، حيث سيأخذونك في الصباح؛ أظن أنه لا يوجد أي خطر - زامل رجل طيب، بالإضافة إلى أنك تمرّ بهم ليس إلا. قل للأمير غداً، على مسمع الناس، «أنا جندي في بلد عسير (مقاطعة جيدة في اليمن، كان الاتراك قد احتلوها مؤخراً).

«فيما كنا نتكلم سمعنا الأذان الأخير من البلدة! نهضت بسرعة لكن الشبان الثلاثة أو الأربعة، أبناء إبراهيم، جاؤوا مرة أخرى وبدؤوا يتراصفون للصلاة! نادونا، ونادوني أنا الغريب بإلحاح، لنأخذ أماكننا معهم. فأجبت: «أنا مرهق جداً، سأذهب وأنام».

فقال صديق الخبز والملح: «أي أي، الغريب يقول حسناً، لقد أتى من سفر، دلوه على المكان بدون المزيد من الكلام، حيث يمكن أن يستريح».

«أودّ أن أنام في البيت وليس هنا في الخارج».

- «لكن دعوه يصلي أولاً، أنت تعال وصلِّ، تعال!».

قال الصديق: «دعوه وشأنه».

ودلوا الرجل المتعب على استراحته، «لا يوجد سوى البيت الخشبي».

- «حسناً إذاً إلى البيت الخشبي، ودعوه ينام فوراً».

ذهب أحدهم معي، وأخذني إلى عتبة فقد كانت الأرضية غائصة بمقدار قدم أو اثنتين ووقعت في مكان مظلم مليء بأغصان الطرفاء الحلوة. بعد صلاتهم، جاء جميع الأخوة، جلسوا أمام الباب في ضوء القمر الخافت، وتمتموا، لم يصلِّ! وهل يمكن أن يكون هذا مسلماً؟» لكنني تظاهرت بأنني نائم، وبعد مراقبة نصف ساعة تركوني. كم هو جديد علينا هذا التدين، لدى شبان غير ناضجين من الشعب! لكن الديانة السامية - النبتة الباردة للغاية والغريبة - في تربة أوروبا (الوثنية)، هي مثل ولع دموي، لدى قوم موسى ومحمد.

قبل ساعة من طلوع الفجر سمعت أحد الأخوة يزحف إلى الداخل - ليلمح إذا كان الغريب سيصلي صلاة الفجر! عندما طلع ضوء الصباح وقف كل الأخوة أمام الباب، وصاحوا بي، ما صليت!.

- «أيها الأصدقاء، لقد صليت».

«أين توضأت إذاً؟».

وهذا لم أقم به، لأنني لم أكن من فئة المنافقين. جاء أخ آخر ليناديني وقادني صعوداً على درج البيت إلى غرفة صغيرة نظيفة؛ حيث فرش حصيراً على الأرض الطينية، ووضع أمامي صحناً من التمر الجيد جداً، مع طاسة من مصل اللبن (الشنينة)؛ ودعاني إلى الإفطار، بكلمتهم المعهودة: **فُك الريق** (البدو يقولون ريج بدلاً من ريق). واشرب! قال، ورفع إلى يدي طاسته المضيافة. بعد ذلك جلب الحمار وحمَّل حقائبي لينقلها إلى البلدة. تابعنا سيرنا في نفس الطريق المسور، وعبرنا بوابة مفتوحة مهدمة لعنيزة. كان الكثير من سور البلدة هناك ظاهراً للعيان، فهو ليس سوى قشرة رقيقة، ذات ثغرات عريضة كثيرة مثل هذه الأسوار الطينية يمكن ترميمها في أيام قليلة، وعنيزة لا يمكن أبداً أن تتغلب عليها المجاعة، لأن أسوار البلدة العريضة تحيط بأراضي نخيلها. كان الناس، في هذا الوقت، يتطلعون إلى الحرب مع بريدة.....

بعد لقاء زامل الأمير، النصراني يكسب صديقاً في عبد الله الخنيني

مرّ بعض الأشخاص المهمين مرة أخرى، عائدين من بيوت أصدقائهم - اقترب أحدهم مني، وقال «هل لديك معرفة بالطب؟». إن الشخصية الجبانة للمتكلم، مع بعض تقاطيع وجهه، قد ذكرتني بالجزائري محمد علي، في مدائن صالح! لكن الذي كان يقف هنا كان ابناً كريماً لتميم، الذي سار نجمه السعيد أمامي من هذا اليوم إلى نهاية رحلتي في الجزيرة العربية! وهو يأخذ يدي في يده، التي هي عادة لطيفة من عادات العرب، قال: «هل ستزور أمي المريضة؟».

قادني إلى بوابة بيته غير البعيدة؛ ولدى دخوله من باب جانبي استدار ليفتح الباب لأجلي، وجدت بالداخل قاعة قهوة كبيرة، مفروشة بحصير عشبية مشغولة جيداً، يتم جلبها إلى هناك من الحسا. كانت الجدران مزخرفة بنقش شبكي من الجص، كتلك التي رأيتها في بريدة. كانت سجادة فارسية مفروشة أمام حفرة موقد هي مكان جلوس الضيوف؛ وجلس هو خلف الموقد ليصنع لي القهوة. كان هذا هو عبد الله الخنيني، الابن لبيت طيب لكنه فقير. كان قد خرج صغيراً من عنيزة؛ وبعد العثرات الأولى للحظ، كبر ليصبح واحداً من أكثر التجار الأجانب أهمية. كانت تجارته بالذرة، في البصرة، وعاش طوعاً في الخارج؛ لأن قلبه لم يكن ممتلئاً في عنيزة، حيث كان يحتقر الصرامة والتعصب الوهابيين. في هذه الأيام يترك تجارته في البصرة لعناية أخيه

(صالح، الذي أخبروني أنه يشبهه)، فقد جاء عبد الله ليقضي سنة عطلة في الوطن؛ حيث كان يأمل في أن ينعش صحته المعتلة بهواء النفود.

عندما نظرت في وجه هذا الرجل ابتسم بلطف. قال: «وهل أنت، إنكليزي؟ لكن لماذا تقول للناس هكذا، في هذا البلد المتعصب الهمجي؟ لقد أمضيت سنوات كثيرة في البلدان الأجنبية، لقد سكنت في بومباي، التي تقع تحت حكم الإنكليز؛ يمكنك أن تقول هكذا لي، لكن لا تقله للناس الجاهلين والحمقى؛ ـ ما هذه السذاجة! والتي لا تصدق بالنسبة لي، في رجل من أوروبا. لأننا لسنا هنا في بلد حكومة؟ لا، بل في أرض الأعراب، حيث اسم النصارى هو لعنة. فالنصراني كما يعتقدون هو ابن الشرير، و(لذلك) يستحق الموت، نصف أهل هذه البلدة هم وهابيون».

«ألا ينبغي عليَّ أن أتكلم الحقيقة، هنا كما في بلدي؟».

قال عبد الله: «الدينا لسان يؤيدنا وأصدقاؤنا ويخدع أعداءنا؛ وفي الواقع في أكثر الأوقات يكون الكذب أفضل من الصراحة. أو هل تخشى، أن الله سينزل عليك، إذا أنت اتفقت معهم في الظاهر؟ ألا يوجد الخير والشر في كل شيء؟ [حتى الكذب والنفاق]».

«أنا هنا للعام الثاني، في بلد محفوف بالخطر، ولم أصب بأذى.

«لقد سمعت بالمثل الذي يقول (الحقيقة يمكن أن تمشي عبر العالم عزلاء)».

«لكن الإنكليز ليسوا هكذا! لا، لقد رأيتهم مليئين بالدهاء السياسي، في الحرب الأخيرة بين عبد الله وسعود بن سعود، أرسل رئيسهم إلى الخليج مئات أكياس الأرز، سراً، إلى سعود [الطرف الظالم؛ ومن أجل ذلك فإن عبد الله الوهابي يمقت الاسم الإنكليزي].

ـ «أرى أنك لن تقتنع! مع ذلك آمل أن تكون حياتك مصانة، لكنهم لن يسمحوا لك بأن تقطن بينهم! سوف تطرد من مكان إلى مكان».

«لقد بدت لي هذه البلدة مسالمة طيبة، وهل الناس متزمتون هكذا؟».

- «كما الكثيرين بينهم، عندما سافرت، هم متحررون؛ لكن البقية ليست كذلك. الآن هل سنذهب إلى أمي؟».

قادني عبد الله إلى غرفة داخلية، ومن هناك صعدنا إلى الطابق العلوي. كان قد اشترى هذا البيت (الطيني) الجديد في السنة السابقة، بألف ريال، أو حوالي 200 جنيه استرليني. إن الآجر الطفالي في عنيزة جيد، وجدران هذه البيوت يمكن أن تصمد لأكثر من مئة عام...... في الطابق العلوي من بيت عبد الله توجد حجرات جيدة عديدة، لكنها جرداء في عيوننا، نظراً لأنها تحتوي من قطع الأثاث المتحركة أكثر قليلاً مما لدى البدو، كل أغراض بيته المديني الكبير يمكن نقلها على ظهور ثلاثة جمال! وفي الأقطار العربية فإن استعمال الأسرّة غير معروف؛ إنهم ينامون على الأرض، والكريمو الحسب والنسب والمرفهون لا يملكون أكثر من لحاف قطني رقيق يُفرش تحتهم، وشرشف. لم أر سوى خزانات قليلة ذات أدراج، يحفظون فيها ملابسهم. إن بيوتهم، في بلد الدفء المشمس هذا، تُضاء بمناور (كوى) مفتوحة تُحدث عالياً في الجدران المرتفعة. لكن عبد الله لم يسكن بهذه البساطة في البصرة؛ لأن هناك في الطرف الآخر من هذا العالم الكبير، تكون مضافات التجار العرب مزيّنة بالكراسي، والتاجر العنيزي يجلس (مثل البقية) على تخت أو مقعد مفروش بسجادة في مكتب المحاسبة.

جاء بي إلى غرفة رأينا فيها أمه العجوز؛ تجلس على الأرض؛ وترتدي فقط ككل النساء العربيات؛ سمقاً من قماش الخام مصبوغاً بالنيلة. غطّت وجهها العجوز، عندما دخلنا، بحجاب! ابتسم عبد الله لي، ونظر ليرى رجلاً له ابتسامة أوروبا». قال: «أمي، لقد جلبت لك الحكيم؛ قولي ما هو وجعك، ودعيه يفحص عينيك»: وبيد لطيفة طوى حجابها.

قالت: «اوه، رأسي؛ وكل هذا الجانب يؤلمني جداً بحيث لا يمكنني النوم، يا بني».

قد يكون عبد الله رجلاً في الأربعين من عمره؛ مع أن والدته كانت مخجولة بحيث إن الرجل الغريب لا بد أن يلحظ عينيها الدامعتين العجوزين.

ـ عدنا إلى غرفة القهوة صديقين مثاليين.

«أمي، قال، منذ سنة وهي تتألم، وأنا أتألم لرؤيتها، إذا كان بمقدورك أن تساعدنا، فهذا سيكون سلواناً كبيراً لي».

أضاف عبد الله، «أنا حتى الآن في حيرة! أي في بلد كهذا، أنت تنذر نفسك علناً لأن تكون رجلاً إنكليزياً؛ لكن كيف لك أن تقضي حتى يوماً واحداً بأمان. لقد عشت حتى الآن مع البدو؛ أي، لكن الأمر خلاف ذلك في المدن. في مثل هذه المخاطر لا يوجد شيء، أعتقد، أكثر حصافة من الحماقة الذكية. إذاً، لن تتبع المشورة الأفضل! لكن هنا يمكنك أن تثق بي سأراقب من أجلك، وأنذرك عن أي تغير في البلدة.

سألت وماذا عن الأمير؟

«يمكنك أيضاً أن تثق بزامل؛ لكن حتى زامل لا يستطيع في كل الأوقات أن يصدّ الغوغاء الصعبي المراس».

النصراني يُطرد من عنيزة

ذات يوم عندما عدت إلى مكان إقامتي، وجدت أن ساعتي قد سُرقت! لقد تركتها ملقاة مع أدويتي. كانت خسارة فادحة، لأن ثروتي متدنية جداً؛ وببيع الساعة كان من الممكن لي أن أحصل على عدد قليل من الريالات، وقع الاشتباه على جار سيىء السمعة. البلدة همجية بالمقارنة مع الصحراء! لم أمكث سوى يوم واحد في الدكان، حتى كانت كل أقلام التلقيح قد اختلست. كانت من العاج وتبلغ كلفتها عشرة ريالات؛ - أكثر مما كسبت (في عشرة أشهر بمرتين) عن طريق ممارسة الطب، في الجزيرة العربية. فكرت مرة أخرى في عرض الخنيني، الذي تجاهلته في ذاك الوقت؛ وخمنت أنه لم يجدده! توجد أحداث عنيفة كثيرة في الجزيرة العربية؛ وحتى القرش اليومي الذي يُصرف من أجل الخبز كان يفصلني عن الساحل، وماذا سيحلّ بحياتي، لو أنني بفعل أي حادث شرير افترقت عن الأشخاص الفاضلين الذين كانوا أصدقائي؟.

الحرفيون هنا في بلدة نجد الأوسط (من فئة الصانعين)، هم صانعو التروس والسمكريون والنحاسون، الصائغون؛ والعاملون في الخشب هم خراطو الطاسات، صانعو الأقفال الخشبية، صناع هياكل سروج الجمال، صانعو نواعير الماء، والنجارون (خَرِقون جداً) [لأنهم تقريباً بدون أدوات]؛ عمال الحجارة هم النحاتون، بناة الآبار وحفارو الآبار، بالإضافة إلى صانعي الرخام، وصناع هاونات القهوة [المهابج][1] وما شابه؛ وبناؤو البيوت

---

(1) المهباج في البوادي الشمالية أما بادية داخل الجزيرة فيسمونه نجر إذا كان من نحاس ونقيرة إذا كان من الحصا.

والمجصصون. يمكننا أن نستمر في تعداد الذين يشتغلون بالإبرة: الخياطون والخياطات، المطرزون، وصناع الصنادل. أما رجال ونساء الخياطة فهم، كما عرفتهم حتى الآن، من الدم الخليط. إن سباكي الذهب والفضة في عنيزة هم صناع ممتازون في التخريم أو أشغال الخيط، وبعضهم من المقيمين في مكة يقال إنهم يتفوقون على الجميع في المدينة المقدسة. وعد الخنيني أنني سأرى شيئاً من هذه الصناعة العربية الدقيقة؛ لكن أمواج عالمهم المتعصب سرعان ما أبعدني عنه.

الباعة هم بائعو الثياب في السوق، بائعو الأواني الصغيرة [التي توضع فيها العقاقير الخام وأدوية الجمال]، وأقماع السكر، والبهارات، والصابون السوري من المدينة المنورة، قهوة [قوافل مكة]، وبائعو الأطعمة. في الأحياء المترامية توجد حوانيت عامة صغيرة ـ بعضها تديرها النساء، حيث يباع البصل والبيض ومسامير الحديد والملح والثقاب [الألماني] والخبز القرصي [وبعض هؤلاء الزوجات الفقيرات يبعنك قليلاً من الحليب، إن كان لديهن منه]. في أيام الجمعة، سترى نساء محجبات يجلسن في المجلس يبعن الدجاج، وقِرَب اللبن وقرب الماء التي دبغنها وحضرنها. أما المهن الأصلية فهي الزراعة، وتربية الجمال والخيول. كل العائلات الميسورة هي من ملاك الأراضي.. التجار الأجانب الأساسيون كان يبلغ عددهم خمسة عشر شخصاً.

[إن ألعاب الحظ وإقامة المآدب، والبلاوي الدارجة الكثيرة والمفاسد الشائنة لمدننا الكبيرة غير معروفة لهم]. فالعرب، الذين ليسوا أقل اقتصاداً من الاسبارطيين، هم سعداء بالاعتدال الابيقوري لديانتهم. إن عنيزة هي بلدة حضرية مزدهرة أكثر من أي بلدة في الجزيرة العربية البدوية. ففي مواطني بني تميم توجد روح الصناعة، مع الفهم الواضح الجيد ـ ومع ذلك فهي مُفْسَدة نوعاً ما......

وأنا أرى أن أحداً لا يوبخ الأولاد الذين كانوا يصرخون فيّ في الشارع، حسبت ذلك نذير شر؛ لكن الخنيني لم يحذّرني، وزامل كان

صديقي. كانت الأيام تقترب من نهاية شهر آيار. في إحدى هذه الصباحات، عندما عدت إلى بيتي، رأيت وسخاً مرمياً أمام العتبة؛ وقام بعض الأولاد الماكرين بقذف حجارة عندما مررت بالشارع المنعزل. في حين جلست بالداخل، جاء الماكرون الصغار ليطرقوا بقوة على الباب؛ كان ثمة وابل من الصراخ، تسلق أشجعهم عن طريق الجدران الجانبية إلى مصطبة البيت ورشقوا الحجارة والآجر الطيني عن طريق راس الدرج - في هذا الصخب الشديد سمعت شتائم نساء متعصبات. «يا نصراني! ستموت! - إنهم في الطريق الذين سيقتلونك!» بقيت جالساً لمدة ساعة فيما استمر الهرج والمرج، بابي موصد، ومقابل كل صياحهم لم يمتلك الماكرون الشجاعة للنزول إلى حيث يجب عليهم أن يلاقوا الكافر. في هذه الساعة كان المواطنون المحترمون يستريحون في بيوتهم، أو يشربون القهوة في بيوت أصدقائهم؛ وكان الحي الذي أسكنه معزولاً. في نهاية المطاف رُفع الحصار؛ لأن بعض الأشخاص الذين كانوا يمرّون عائدين من جموع القهوة ووجدوا هذه الضوضاء حول باب خليل، فقاموا بطرد المتبطلين، بأقذع الشتائم التي تكون جاهزة دوماً على ألسنة العرب...

ظننت أنني قد غفوت لمدة ساعة، عندما أيقظني الصوت الزنجي العالي! الذي كان يصرخ عند البوابة: «خليل! - خليل! الأمير يأمرك بأن تفتح» ذهبت لأفتح من أجله، وتطلعت إلى الخارج. كان ليلاً مظلماً؛ لكنني أدركت، عن طريق الأقدام المتجرجرة وتمتمة الأصوات البشرية أن ثمة أشخاصاً كثر. قال علي: «الأمير يناديك؛ إنه يجلس هناك (في الشارع)!» ذهبت، وجلست فيه فكرت في نفسي هل يمكن أن يأتي زامل في هذه الأوقات! فقد كنت آنئذٍ أسمع صوته، الذي يشبه صوت زامل، عرفت أنه كان شخصاً آخر. «إلى أين ستذهب؟ قال الصوت».

- «إلى زفتي؟».

«أنا ذاهب عما قريب برفقة ابن عبد الله البسام إلى جدة».

لا ، لا! وجدة (قال وهو يضحك بفظاظة) بعيدة جداً، لكن أين ستذهب هذه الليلة؟».

ـ «علي، أي شيخ هذا؟».

«إنه علي الأمير».

ثم جيء بمصباح، رأيت وجهه، الذي يشبه وجه زامل، ذا سمة وهابية؛ وكان معه بعض وكلائه الوحشيين.

«الأمير علي، يبعث والديك إلى الجنة! أنت تعرف أنني مريض، ولديَّ بعض الشكوك في الأدوية هنا في البلدة؛ واليوم لم أذق شيئاً. إذا كنت أستحق خيراً منك فدعني أرتاح هنا حتى الصباح؛ ومن ثم اطردني بسلام».

ـ «لا، جملك جاهز عند ناصية الشارع؛ وهذا هو سائق جملك، انهض! أخرج أشياءك وبسرعة. ليدخل بعضكم مع خليل، لاستعجاله».

«وإلى أين سترسلني، بهذا الشكل المفاجئ؟ وليس معي نقود؟».

«ها ـ ها! هذا شأننا، أقول أرحل».

عندما نظرت إليه بثبات، صفعني الشرير بقبضته في الوجه. إذا خانتني الغريزة الغاضبة، فإن الباقين (كما ظننت) سوف يهجمون بأسلحتهم على النصراني، استل سيفه من غمده إلى النصف. «هذا، قلت له، يمكنك أن تعيده إلى غمده مرة أخرى، ما ضرورة العنف؟».

إن رشيد، موظف زامل، الذي كان بيته ملتصقاً ببيتي من الخلف ـ مع أنه عن طريق الأبواب كان يبعد عنه حوالي شارع ـ سمع إشاعة؛ والتف وجاء لزيارتي، سررت برؤيته يدخل، مع السيف، الذي كان يحمله من أجل زامل. سألته، إن كان أمر علي جيداً لأنني لم أقدر على التفكير أن أصدقائي بين المواطنين الوجهاء كانوا موافقين على ذلك؛ وأن زامل المتفلسف سوف يرسل في الليل لإخراجي من البلدة! عندما أخبرت رشيد أن علي الوهابي قد صفعني

قال لي علي انفراد: «لا تستفزه، استعجل فحسب، وهذه الكلمة هي بلا شك من زامل، لأن علي ما كان ليأتي من تلقاء نفسه ليطردك».

صاح الأمير علي من الخارج، «قل لخليل أن يسرع! أليس جاهزاً؟» ثم دخل بنفسه؛ وساعدني رشيد على رفع الأشياء في الحقائب، لأنني كنت واهناً.

«إلى أين، قال للأمير علي، سأرسل خليل؟».

«إلى الخِبرا» ـ «الهلالية كانت أفضل، أو الرس؛ لأنهما تقعان في طريق القوافل».

«إنه يذهب إلى الخِبرا».

قلت: «بما أنك تبعدني، فإنك ستدفع لسائق الجمل؛ لأنني أمتلك قليلاً من المال».

قال الأمير علي: «ادفع للرجل أجرته واستعجل، أعطه ثلاثة ريالات، يا خليل».

قال رشيد: نصف ريال هو الأجرة إلى الخِبرا، اجعلها أقل، يا أمير علي».

«إذاً فلتكن ريالين، وأنا سأدفع الريال الآخر بنفسي».

«لكن أخبرني، ألا يوجد الأفضل من أجل أدويتي في بلدتكم؟».

«نحن لا نرغب بأية أدوية».

«ألم أفعل خيراً وبشرف في عنيزة؟ أجبني، بضميرك».

قال الأمير علي: «حسناً أسرع».

ـ «ثم ما هذه المعاملة؟».

لكنه صاح: «هل أنت جاهز؟ اركب الآن!».

في أثناء ذلك، إن وكلاءه الوحشيين قد سرقوا صندلي (فقد تركت بدون باب غرفة)؛ وصاح علي الزنجي الشريف من أجلي، متهماً إياهم بالسرقة؛ أنت، أعد لخليل صندله! تكلمت إلى الأمير الوحشي؛ الذي أجاب، «لا يوجد صندل». وضحك بسرعة على هذا الحظ العاثر الجديد للنصراني (إنها معاناة ليست قليلة أن أسير حافي القدمين على تراب الصحراء الذي يتوهج تحت الشمس). «الآن، هل أنت جاهز؟»، صاح: «اركب إذاً، اركب! لكن ادفع أولاً للرجل أجرته». بعد ذلك، لم يتبق لدي خمسة ريالات؛ لقد سُرقت ساعتي، وكنت في وسط الجزيرة العربية.

رحل رشيد، أُخرجت الأشياء ووضعت على الجمل الراكع؛ وركبت أنا. لحق بي علي مع طاقمه بعيداً حتى المجلس. قلت له: «أخبرني إلى من سأذهب في الخِبرا؟».

- «إلى الأمير، وتذكّر اسمه عبد الله العلي».

«حسناً، أعطني رسالة له».

لن أعطيك أي رسالة».

سمعت علي يتحدث بصوت منخفض مع سائق الجمل ورائي؛ كلمات (عدو) كانت بلا شك لا تضمر لي أي خير، أو أنه تكلم علناً، فعندما ناديته مرة أخرى، كان قد ذهب إلى البيت. كان علي الزنجي، مضيفي العجوز، لا يزال معي؛ سوف يراقبني بمودة إلى طرف البلدة. لكن أين، فكرت في نفسي، كان أصدقائي آنذاك؟ قال الزنجي، إن زامل أعطي الكلمة من أجل رحيلي في هذه الساعات لتجنب أي شغب آخر في البلدة؛ كذلك فقد كان المرور الليلي أكثر أماناً في الصحراء. ربما كان ضجيج النهار قد جرى تضخيمه لزامل؛ - فهم أنفسهم جاهزون دوماً!

أخبرني علي أن رسالة من مطوَّع بريدة قد جلبت مؤخراً إلى زامل

وشيوخ عنيزة؛ تحضّهم، باسم الدين المشترك، على إبعاد النصراني! «هل هذا سائق يوثق به؟ وهل هم أناس طيبون في الخِبرا؟».

أجاب علي بنعم وأضاف: «اكتب لي جواباً، وليس بعيداً، ستكون هناك حوالي الفجر، وفي كل هذا، صدقني يا خليل، أنا آسف كرمى لك». وعد بأن يذهب بنفسه باكراً إلى الخنيني، بطلب مني، لإرسال تلك الريالات القليلة على حساب الأدوية، لكنه لم يذهب (كما علمت لاحقاً)؛ لأن الزنجي كان قد تربّى بين أناس ليست وعودهم سوى كلمات في الهواء، ويلفقون لخدمة أنفسهم في اللحظة.

«دع سائق الجمل هذا يقسم بأن يبقى وفياً معي».

قال علي: «نعم، تعال إلى هنا يا حسن! واحلف كذا وكذا». أقسم حسن بأنه سيفعل؛ وعند أسوار البلدة انطلق الزنجي. هناك عبرنا قُدُماً إلى النفود الداكن؛ فواجهنا هواء ليلي بارد يهبّ من برية الرمل المكشوف، أنعشني قليلاً على السفر، كنا الآن في بداية حرّ الصيف الراكد لريف الرُّمَةْ السفلي.

النصراني بعد نقله إلى الخِبْرا
يستدعيه زامل إلى عنيزة ويقيم في مزرعة

عندما كنت قد أمضيت أكثر من ثلاثة أسابيع في هذا المكان المهجور كتبت على ورقة، قتلني التعب والجوع؛ وأرسلت هذه الكلمات إلى الخنيني. كنت آمل قبل وقت طويل بأن أنتقل، بإذن من زامل، إلى أراضي بعض الأصدقاء؛ كانت جنينة بسام، على الطرف الشمالي الشرقي من البلدة [هناك الحجر الأسود، الذي ذكره بعض شعرائهم الأقدمين، ومنه، يقولون جاء اسم عنيزة نفسها]؛ أو نخيل الأب الطيب يحيى، اللطيف للغاية لقضيتي البريئة. سُلمت رسالتي، وعند شروق الشمس في الصباح التالي جاء الغلام الذي يخدم عبد الله، جلب لي خبزاً وزبدة، مع قربة من اللبن، وكلمة سيده التي تتمنى لي استراحة طيبة؛ ولن يطول الأمر بهم (الأصدقاء) حتى يكونون قادرين على تأمين رحيلي.

حروب قحطان

كان شيوخ مطير آنذاك في عنيزة، للتشاور أخيراً مع زامل والشيوخ من أجل الحرب المشتركة. كان [بنو] قحطان يظنون أنفسهم آمنين في الخلاء بحيث إن أهل البلدة لن يهجموا عليهم في هذا الفصل الحارق؛ أما فيما يتعلق بالمطير، فقد استكانوا بقربهم كخصوم. أرسل زامل كلمة إلى الذين يمتلكون نوقاً في البلدة ليكونوا مستعدين للركوب معه في الغد. كان قد سجل من أجل هذه الحملة ستمئة ناقة. كان غزو حلف البدو ثلاثمئة ناقة، ومئتي حصان (مع فرسانها).

في اليوم التالي انطلق المطير في منتصف بعد الظهر. لكن زامل لم يسر في موكب واحد مع أصدقائه البدو. فالبدو، يقول أهل البلدة، هم ماكرون جميعاً - كما رأينا في هزيمة سعرود الوهابي. وسمعت أن عنيزة قد عانت من بعض جرائم الأعراب قبلئذٍ بعامين! إنه ليس سوى ابن رشيد، الذي يسير راكباً بين الرجاجيل والقرويين، الذي يمكن أن يهاجم بثقة مع بدوه التابعين له.

خرج زامل في اليوم التالي، بأكثر من ألف رجل من البلدة، ويقولون، «عندما يركب زامل، تكون عنيزة مطمئنة» لقد ترك علياً ليحكم في الوطن؛ وأغلقت الحوانيت في السوق؛ فهناك لن يكون شراء أو بيع، حتى تعود الحملة إلى الوطن مرة أخرى. لا يعقد سوق الصباح، ولا يذبح أي قصاب في هذه الأيام. رغم أن الكثيرين كانوا في الميدان مع زامل، مع ذلك فإن «الشوارع، قال صالح، كانت تبدو مليئة بالناس، بحيث إنك لا تفتقدهم!». سألتُ «وماذا لو أن أحداً فتح دكانه -؟».

«الأمير علي سوف يرسل من يغلقه؛ لكنه إذا أصر، فإن هذا الشخص سوف يُستدعى أمام الأمير ويضرب» وحدها الحوانيت العامة الصغيرة لا حاجة لإغلاقها، التي يملكها رجال عجائز مفلسون أو أرامل....... سار رجال البلدة في ثلاث جماعات، برايات ثلاثة أحياء كبيرة من عنيزة؛ لكن أعلام البلدة هي خمسة أو ستة، عندما تُوجد حرب في الوطن.

في وقت مبكر من بعد الظهر سمعت هذا الحديث في الحديقة، بين فهد ومطيري فقير ـ لم يكن يمتلك ناقة فلا يمكنه أن يلحق برجال قبيلته. قال فهد: «بهذا يكونون بخير في الطريق! وإن شاء الله سيعودون برؤوسهم».

«إن شاء الله! الرب كريم واقتلوا الأطفال من عمر السنتين فما فوق؛ والحريم يتفجعن!».

قلت لهما: «احفظا فميكما يا كافرين، وأسوأ من الكفار».

قال البدوي: لكن قحطان قتلت أطفالنا ـ لقد قتلوا حتى النساء!».

جاءت مطير لتخيم قرب أسوار البلدة؛ وكان اثنان من منازلهم الصغيرة هما جيراننا آنذاك. كان هؤلاء العرب الجنوبيون هكذا مثل البدو الاخرين. سمعت في أفواههم اللغة العربية البدوية نفسها؛ مع أنني لم أكن أستطيع أن أميّز أنهم من ديرات أجنبية. رأيت قرباتهم معلقة في حوامل ثلاثية القوائم من القصب. جاء بعضهم إليّ من أجل الأدوية، لم يكن يبدو عليهم أنهم مضيافون؛ لقد رأوا أن زامل متسامح معي، ولم يكونوا متعصبين ...

وصلت أنباء هذه الغزوة إلى بريدة، وخرج الرسل لتحذير قحطان. لم يكتم زامل سر حرب البلدة، الأمر الذي لم يكن تراخياً من رجل دولة كهذا، بل حكمة ناجمة عن طول معاناة. سيمنح الأعداء وقتاً، قال صالح، ليهدؤوا من أجل السلام: ـ كم يختلف عقبان الرياض وجبل شمر!

كانت قحطان أخيراً في العيون؛ والغازون يساعدون هناك. لكن زامل سمع في الطريق أن منازلهم تقع على الدليمية، نبع ماء بين جبل ساق والرس.

سارت البلدة طوال ذاك النهار والليل أيضاً. في العصر التالي كانوا قرب الرس؛ وترجلوا ليرتاحوا، ونصبوا خيامهم (الخيشية) وظلالهم (البساطية). عندئذٍ سمعوا أن العدو على آبار دخنة، مسيرة يوم باتجاه الجنوب. عندما تابعوا سيرهم في الصباح التقوا مباشرة مع المطير، وترجّلوا جميعاً مع بعضهم عند الظهر. إن كشافة مطير قد جلبوا لهم كلمة، أنهم قد رأوا خيام الأعراب، على دخنة! وليسوا أكثر عدداً من قحطان؛ الذين يمكن أن يؤخذوا على حين غرة! تبجّح المتعلمون الصغار من عنيزة لبعضهم بعضاً عند مواقد القهوة، أن سنقاتل غداً في الميدان القديم لجبل خزاز، قرب دخنة؛ حيث قاتل تبّع اليمن (المولى الملك، ....) ضد الوائليين (أبناء وائل، أي العنزي)، كليب، شيخ ربيعة؛ ومعهم بنو تميم وقيس [قحطان ضد اسماعيل: ـ كان ذلك قبل الهجرة بوقت قصير]. جبل خزاز يبعد ساعة عن وادي الرُّمَةْ.

انطلق زامل ورجال البلدة في الصباح، عندما كانت النجوم لا تزال تتلألأ. كانت مطير قد ركبت قبلهم بفترة وجيزة؛ وكانت دخنة على مسافة قليلة. في هذا القتال كان البدو هم الذين يتعين عليهم أن ينقضوا على أعدائهم الرئيسيين؛ وسيكون زامل مستعداً لدعمهم. دبر رجال البلدة مكيدة لتطويق قحطان من جهة الجنوب.

هجمت مطير على أعدائها عندما طلع الفجر، هربت قحطان من البيوت بأسلحتهم، ووثب شيوخهم على أفراسهم؛ وشجع الناس أنفسهم بالهتاف. ثم وهم يرون أنهم مطوقون من قبل مطير ازدروهم وصاحوا جابْهُم الله! ـ لكن هذا كان يوم تصفية حساب على الطرفين حتى الموت الزؤام. كانت مطير تمتلك مئتي فرساً تحتهم؛ لكنها كانت من نوع شمالي أقل تقديراً. كانت قحطان في البداية مكونة من ستين فارساً. ثم انضم إليهم ثلاثون آخرون من الخيالة من منزل كبير آخر من منازلهم المنصوبة على مسافة قليلة. كانت قحطان أكثر من غزاة مطير، الذين تخلوا عن الأرض في النهاية.

عندئذٍ تطلع قحطان حولهم لأول مرة؛ وأبصروا عصابات البلدة قادمة!

إن القحطانيين، الذين لم يسقط الكثير منهم، صاحوا ببعضهم البعض، لتدبّ الحماسة في القلوب، «. . . هل هو ابن رشيد؟ لكن لا! لأن ابن رشيد يسير ببيرق واحد لكن هؤلاء يسيرون مثل أهل المدينة ـ الله! إنهم حضر!» ـ الآن عندما اقتربت البلدة عرفهم البعض فصاحوا «هؤلاء هم الكسمان (القصمان)!» إنهم الزواميل (الزامليون، أو قوم زامل)؛ عندما رأوا هكذا، هرعوا لإنقاذ نوقهم الحلوب.

هتف زامل، مع أنه بعيد، وهو يرى الخيالة البدو يسوقون الجمال، «أليس هؤلاء المسلمين [من طرفنا]؟».

«لا! أجابه شيخ من مطير (الذي جاء راكباً مع البلدة ليكون دليلاً للطريق في الخلاء)، إنهم بالله آل قحطان!».

كان فرسان البلدة أقل من أن يخبوا خارجين ضدهم. وعندئذٍ كان القحطان الذين يهبون أنفسهم لإنقاذ الماشية الكبيرة قد هجروا منزلهم، حيث تركوا الخيام، والمتاع المنزلي، والزوجات والأولاد تحت سلطة أعدائهم.

طارد خيالة مطير قحطان الهاربين؛ الذين عادوا مرة أخرى وصدوهم. عندئذٍ انطلق خيالة عنزة إلى مؤازرة أصدقائهم. إن الباقين من مطير، الذين ترجلوا، هرعوا إلى الداخل لنهب خيام الأعداء. ـ وهو وهو، اللذان كانت زوجتاهما قد طُعنتا مؤخراً برماح قحطان، أو أطفالهما الذين ذبحهم أولئك الرجال الأشرار، فعلا الآن مثله بأعدائهما؛ فقد اقتحما عدداً كبيراً من الحريم، وحزا أعناق صغارهن أمام أعين أمهاتهم، وهم يصرخان بهن، «اوه، لأنه هكذا فعل رجالكن مع صغارنا في ذاك اليوم!». انقضت بعض النساء المسعورات على السلابين بأوتاد الخيام؛ والمطيريون، ومعهم أسلحة في أيديهم، وفي فورة من دمهم، قضوا عليهن جميعاً. هكذا هلكت خمس أو ست ربات بيوت، كما قتل كثير من أطفال قحطان.

في غمرة محنتهن القصوى أخفت امرأة فضة زوجها، البالغة 600 ريال [التي كانت تساوي الكثير جداً بالنسبة لأي بدوي] في قربة؛ وخلعت سمقها الأزرق ـ كل ما ترتديه بالإضافة إلى الحقو على أجسادهن المتضورة جوعاً،

وهي تدلي قربة الماء على كتفها، وأمسكت ابنها الصغير ليركب على الكتف الآخر. ثم هربت من خيمتها بصرخة متفجعة ويلي، ويلي، وفرت عارية وسط هرج ومرج الأعداء. إن المطيريين، الذين رأوها، ظنوا أن أحد الأشخاص قد سلب المرأة، وفكروا أن من العار أن يلحقوا بها؛ مع أن البعض صاح بها، أن ترمي ما تحمله على كتفها؛ لكنها، وهي تمثل دور المرأة المجنونة، صاحت، «لقد حلت بي كارثة ألم يكن يكفي تعرية ابنة شيخ؟ وهل سيأخذون حتى هذا الماء، الذي تحمله من أجل حياة ابنها!». صاح آخرون، أن دعوا المرأة تمرّ. وفرت مسرعة، ومرت بهم جميعاً؛ ـ وأنقذت ثروة زوجها الطيب، بهذا الثمن من حشمة زوجته.

سقط ثلاثون رجلاً من قحطان ـ ذبح معظمهم في أثناء الفرار؛ وسقط من مطير عشرة. عاد هؤلاء ليدفنوا موتاهم، لكن الإحسان الإنساني مجهول هنا لتكويم قليلاً من التراب فوق الأعداء الموتى!

دخلت رسولة من قحطان الهاربة، إلى زامل. في ذاك الوقت ترجّلت البلدة عند الآبار (حيث سينصبون الظلات ويشربون القهوة). طلبت جواز مرور من أجل بعض شيوخهم، ليأتوا ويتكلموا معه؛ فقبل زامل. ثم عاد الرجال وهم يقبلونه مثل المتضرعين، وتوسلوا إليه، بما أن ماشيتهم وخيامهم ومتاعهم صارت الآن (كما يمكنه أن يرى) في أيدي مطير، أن يسمح لهم بالورود-إلى الماء، كي يشربوا وكيلا يهلكوا. كانوا قد كدحوا في سبيل حياتهم، وكان ذاك اليوم الصيفي ذا حرارة قصوى؛ وليس لديهم قربات، فلا بد أن يعانوا، وهم يفرون عبر الصحراء، خطر الموت من العطش. لكن من يمكنه أن يثق بكلمات الأعداء البدو! ولذلك فقد قيدوا أنفسهم بقَسَم مقدس **عليك عهد الله وأمان الله، ان ما نخونك! الخائن يخون به الله**».

هكذا كانت هزيمة قحطان المعتدى عليها، الفظيعة مؤخراً حتى لابن رشيد. (كان ابن رشيد قد هاجمهم بقوة الصيف الماضي هنا في دخنة! لكن قحطان صدّت الوهابي الفاسد). هذا النجاح الجيد عُزي إلى ثروة زامل. أهل

البلدة لم يستفيدوا من أسلحتهم. أرسلت مطير رسلاً من الميدان إلى ابن رشيد، مع هدية مكوّنة من حمولة فرسين من غنيمة قحطان. حتى بريدة كانت سعيدة، أن رجال القبيلة الغرباء الأشرار قد طُردوا من البلد. هلك كثيرون من قحطان في هروبهم في الخلاء؛ حتى الجروح الخفيفة، في تلك المحنة من الإرهاق والعطش، أصبحت مميتة. لقد فروا نحو الجنوب ثلاثة أيام، لئلا يقع عليهم أعداؤهم القدامى، وهم يسمعون نكبتهم، لقد سمعنا أن بعض عتيبة قد التقوا بهم، وأخذوا مئتين من النوق الحلوب التي تمّ إنقاذها. قال البعض منهم الذي دخل إلى الأظلة[1]، إنهم قد هلكوا وفقدوا مئة رجل لقد دفعوا في الماضي [وقد انقضى الآن عامان كاملان] ثمناً غالياً لقيامهم بدور الذئب في نجد!

عندما سألت ماذا سيحل بقحطان؟ أجاب الشقيري «البدو كلاب، ـ أي لا يموتون؛ وهؤلاء شياطين. سيجدون عشرين وسيلة؛ وبعد عام أو عامين سيكونون في حالة جيدة مرة أخرى».

ـ «ماذا يمكنهم أن يفعلوا الآن؟».

ـ «سيحلبون النوق من أجل الطعام ويبيعون بعض الجمال في القرى، ليشتروا لأنفسهم التمر وأواني الطبخ. ولن يقيموا طويلاً على الأرض، بدون مأوى من الشمس، لأن الحريم سوف يقمن بجز صوف القطيع الذي بقي لهم، ويغزلن ليلاً نهاراً؛ وفي أسابيع قليلة يرفعن خيامهن المنسوجة الجديدة! إضافة إلى أن القحطانيين الآخرين في الجنوب سوف يساعدونهم».

سمعنا بعد ذلك، أن قحطان المهزومة قد أقامت السلام مع العتبان؛ وتصالحت مع ابن سعود! لكن كيف لهم أن يطمئنوا هكذا؟ إذا وعدت قحطان بأن تكون حلفاً معهم ضد ابن رشيد؟

سقط حزام! . . . . . الصغير؛ وهو شاب ذو طبيعة مزيفة لصوصية، قال

---

(1) لعلّ المقصود دخولهم قرية الأثلة.

أحد أعدائه البدو: لقد كان هو من هدّدني العام الماضي، في مضافة في حائل، ذبح حزام بسبب ذاك الشيخ المطيري، الذي وقع مؤخراً بيده في الشمال. بحث عنه شيخ قبيلة من الذين ماتوا في المعركة، فرا معاً؛ واخترق جسد حزام جرح عريض قاتل. كان الشاب قوي البنية جداً بالنسبة لبدوي، ويده القوية لا تنحرف؛ لكن طعنة رمحه صُدّت بقميص من الدرع كان يرتديه خصمه سراً تحت سترته القطنية. ذاك المطيري كان فارساً رجولياً على حصان جيد، وبعد حزام، صرع خمسة شيوخ آخرين. عندما تحدد حظ اليوم بقدوم «الزواميل»، هو مع أخيه وابنه، الذي كان لا يزال غلاماً مراهقاً [أبناء الشيوخ الأساسيين سرعان ما يصبحون فرساناً ويركبون مع من هم أكبر منهم سناً إلى الميدان]، وعدد قليل من أعرابه، غنموا ثمانين ناقة حلوب! في ذاك اليوم طُعن بالرماح وأطلق عليه النار في الصدر، إحدى عشرة مرة؛ لكن البعجات لم تخترق قميصه «الداوودي» المصنوع من السلاسل العتيقة. يقولون، إن طلقة من قذيفة البارودة لا تترك على الجسم المحمي بمثل هذه العدة سوى كدمة مؤلمة.

سقط أخو حزام، تركي؛ وأختهما الشيخة. فقد جرّدت من ثيابها، وطعنت برمح! لأن قحطان كانوا قد جردوا وذبحوا ابنة شيخ مطيري. الشيخ القحطاني العجوز - أبو هؤلاء الأخوة المنحوسين، تمكن من الهرب بصعوبة على ظهر ناقة. إن حزام، الذي أُصيب بجرح قاتل، قد أُجلس في السرج، في أثناء الهروب، حتى المساء؛ وعندما جاؤوا إلى الغلبان التالي (جنوب دخنة) فإن الشيخ الشاب أسلم الروح، وقام رفاقه برمي جثته الدافئة في أحد الآبار.

قافلة إلى مكة

في هذا الوقت قام الجماميل في عنيزة بتجهيز عدتهم؛ لأن قافلة السمن، ستنطلق قريباً إلى مكة. فأحضرت جمال الحمل من البدو؛ ورأيناهم يجولون يومياً في المرعى في النفود من حولنا. انطلقت قافلة في هذه الأيام محملة بالتمر والحب إلى المدينة المنورة.

خرج زامل والخنيني ذات يوم إلى الوادي معاً، حيث كان زامل يمتلك أرضاً؛ واقترحا العودة عن طريق مزرعة رشيد، لزيارة خليل. لكنهما في وقت الظهيرة الحار أخذا قيلولة تحت النخيل. استيقظ عبد الله بالقشعريرة، وسارا في الطريق التالي إلى البيت.

ذات مساء جاءت جماعة من الأعيان الشبان من عنيزة، ليروا بعض أغنامهم، التي جلبها الرعاة البدو، والمصابة بمرض في الصوف. تجرد الشبان الأنيقون من الكوفيات والعباءات الزاهية؛ وهم يقفون في جرون الآبار قاموا بغسل ماشيتهم بأنفسهم. عندما حلّ الليل، استلقوا على رمل النفود ليناموا، أمام خيام الرعاة. كان بعضهم من آل بسام المتعصبين؛ ومع هؤلاء جاء ابن أصغر لعبد الله الطيب. حيّاني الغلام بالنيابة عن أبيه الذي أرسل لي كلمة مفادها «أن القافلة ستنطلق إلى مكة عما قريب؛ ويتعين علي أن أركب مع عبد الرحمن (أخيه الأكبر)»؛ كنت قد مكثت الآن ستة أسابيع في مزرعة رشيد.

كنت قد أمضيت أياماً كثيرة من تلك السنوات القليلة تساوي في

مجموعها حياتنا الإنسانية، في الجزيرة العربية؛ وكنت الآن في وسط شبه الجزيرة العربية. شهرا وقد أعود ثانية إلى السفن الأوروبية. من هنا إلى الساحل يمكن أن تبلغ المسافة 450 ميلاً صحراوياً، وهي رحلة تساوي على الأقل عشرين مسيرة كبيرة في هودج الجمل غير المريح، في لهيب شمس منتصف الصيف، وهو ما يشكل عناءً حتى للعرب المولودين هناك. كذلك كان الوهن الجسدي كما هو الآن، بحيث لا يمكنني أن أجلس منتصباً لفترة طويلة؛ علاوة على ذلك فقد كنت أتنبأ بخطر أخير نظراً لأنني لا بد أن أحتاج إلى ترك قافلة مكة في آخر محطة قبل المدينة (المحرمة). هناك حل علي بالإضافة إلى ذلك قلق كبير، ذات يوم قبل اثني عشر شهراً، عندما دخلت خيمة (في وادي تربة)، في حر الظهيرة، عندما كان البدو يأخذون قيلولة، عضني كلبهم، في الركبة. غسلت الجرح، الذي شفي في أيام قليلة، لكن بقي ندب أحمر انفقأ الآن (في نهاية السنة تماماً) وأصبح تقرحاً؛ ثم ظهرت تقرحات عديدة مشابهة على الطرفين السفليين (وواحدة على معصم اليد اليسرى). آه، يا للرعب، أن أموت مثل كلب كلِب في أرض معادية.

اشترى الصديقان الخنيني والبسام ناقة، في سوق الجمعة، من أجل سفري إلى جدة، حيث يمكن لهذه الدابة، كما كانوا يظنون، أن تحملني بقدر ما يدفعون، وإذا لم يكن كذلك، فإن واحداً من عشيرتهم، الذي سيصل من جدة في القافلة العائدة، سيركب عليها عائداً إلى البيت. استلمت بعدئذٍ رسالة من بسام: «كل شيء (كتب يقول) جاهز؛ لكن بسبب العقل البدوي [المكر الوهابي] للناس، لن يكون قادراً الآن على إرسالي برفقة ابنه! يجب أن أعذر ذلك. لكنهم كانوا قد اشترطوا أنني ينبغي أن أركب برفقة سليمان الخنيني، الذي يمكنني أن أبحث عنه من أجل أي حاجة (ماء، طبخ، مأوى الظهيرة] في الطريق».

وأنهى رسالته بمطالبتي بإرسال قليلاً من الكينا، وفوق ختمه كتب «التكن بركة الله مع كل المسلمين المؤمنين».

أرسلت إلى زامل أطلب أن يسمح لي بالمجيء ذات يوم إلى البلدة، لشراء بعض الحاجيات من أجل الرحلة، وأودع أصدقائي. لكن طلبي الصغير لم يكن بالإمكان تلبيته ـ ثمة الكثير من البخل الوهابي لدى أناس عنيزة الطيبين.

انطلاق قافلة السمن إلى مكة. الرحلة إلى عين الزيمة. الشريف البدوي، سالم

في الغد، عندما كانت الشمس تغيب، جاء رسول إليَّ من عبد الله الخنيني، مع الناقة التي يجب أن أركبها إلى جدة. ركبنا؛ وشغيلة رشيد الذين كانوا قد تركوا تعب نهارهم والعبدة الفقيرة، اقتربوا ليأخذوا يدي؛ وباركوني عندما انطلقنا. تابعنا سيرنا إلى مزرعة الخنيني، حيث سمعت أنني سأمضي الغد. لم يكن الطريق يبعد ميلين؛ لكننا وصلنا، بعد الغسق القصير، في الظلام. هناك بحث رفيقي عني؛ واضطجعت في أرض النخيل المعزولة لأنام، قرب البئر.

عند شروق الشمس رأيت عبد الله الخنيني! الذي وصل راكباً على حمار، قبل الحر الشديد. بعد ذلك ببرهة جاء عبد الله البسام سيراً على قدميه: «آه، يا خليل ـ قال، وهو يأخذ يدي ـ إننا مخجولون، بسبب الأشياء التي عانيتها، وأن ذلك قد حصل هنا! لكنك تعرف أننا كنا مقهورين من قبل هؤلاء الناس الحمقى. سألني خنيني عن مزيد من ذاك العلاج الذي يصلح لأجل عيني أمه؛ فوزعت عليهم أدويتي. والآن جاء حامد الصافي؛ وجلس هؤلاء الأصدقاء معي حتى بلغ ارتفاع الشمس نصف ساعة، عندما نهضوا ليعودوا إلى الفطور، وهم يقولون إنهم سيرونني لاحقاً. عند العصر، جاء الصافي مرة أخرى؛ الذي سيكمل كتابة المفردات الإنكليزية. ـ لم يأتِ أحد من أصدقائي ومعارفي الآخرين لزيارة النصراني المنبوذ.

وصل الخنيني الطيب مرة أخرى راكباً على حمار، في برودة بعد الظهر، مع ابنه محمد. كان ضعيفاً اليوم، مثل شخص منهوك القوى في الجسد والروح؛ ورأيته شبه مرتجف، حين جلس ليتحدث معي، والطفل يلعب ويثرثر حولنا، أمره عبد الله بأن يهدأ، لأنه لم يكن بمقدوره أن يسمع ذلك. توسلت إليه أن ينسى أي اضطراب سببه له قدومي إلى عنيزة، فلم يأت بجواب.

كان الوقت مساءً؛ ووصل سليمان، راكباً على ناقة، مع ابنه الصغير. كان معرجاً على منزل القافلة وسيتكلم الكلمات الأخيرة مع ابن عشيرته، الذي أقرضه المال من أجل هذه التجارة. نادى عبد الله عليه، أن ينزل الطفل؛ وأن يأخذ خليل وحقائبه. ركبت مع سليمان، وسرنا عبر ثغرة من سور البلدة، الذي يحد أرض خنيني. هكذا مشى عبد الله بعيداً معنا؛ وهنا شددنا اللجام لنستأذن منه. قدمت تشكراتي القلبية، مع التبريكات السامية؛ وودعت هذا الابن اللطيف والمحسن لتميم وداعاً طويلاً. وقف حزيناً وصامتاً، لقد فصلت الروح الفانية للرجل العاجز عن ذاك المستقبل، الذي كدح من أجله ـ والذي سنراه!.....

تابعنا سيرنا مدة ساعة أو ساعتين في ذاك الطريق المجوف والمحفور[1] في النفود، الذي سبق لي أن سافرت به ليلاً في الطريق إلى خيبر. كان ظلاماً عندما وصلنا إلى منزل القوافل؛ حيث حيا سليمان سائقيه، الذين وصلوا قبلنا، مع الأحمال. أخذونا إلى مكاننا في المخيم؛ الذي هو، من أجل كل جماعة، حيث يترجّلون وينيخون جمالهم. كان ثمة نار قهوة، فرأيت قِرَب السمن الخاصة بسليمان المصنوعة من جلد الماعز (التي كان عددها أربعاً وعشرين أو حوالي طن) موضوعة بالترتيب: أربع منها، كل واحدة من خمسة عشر ساحاً (للقصيم)، هي حمل جمل، تساوي قيمتها ثلاثين ريالاً كانوا يأملون أن يقبضوا ثمنها ستين في مكة. كان أشخاص كثيرون من عنيزة يمرون في هذه الليلة الأخيرة في المخيم مع أصدقائهم وأخواتهم الخارجين. إن

(1) ليس هناك طرق محفورة بالنفود، بل عميقة أصلاً لإحاطة المرتفعات الرملية بها.

مكان التجمع لقافلة مكة هو قرب النخيل الممتد الشاسع «أوهلان» حيث يقال إن ثمة بعض الكهوف القديمة في الصخر الرملي! لقد سمعت بها فقط آنذاك، ولم يتبق لي وقت لأفتش عن الحقيقة في هذه المسألة. لكنني علمت آنذاك لأول مرة، أن لا أحد في القافلة كان ذاهباً إلى جدة! فقد كانوا جميعاً يقصدون مكة. كان عبد الله الخنيني قد كلف سليمان؛ وكان بسام الطيب قد كلف ابنه (عبد الرحمن) من أجلي، أنه في المحطة التالية قبل مكة [سواء في وادي ليمون أو السيل) يجب أن يبحثوا عن آدمي لينقلني (بدون دخول الحدود أو الحرم المقدس) إلى جدة. إن الخنيني الطيب، الذي لم يسبق له أن سافر إلى الحج، لم يكن يعرف الطريق؛ وذهنه الساذج لم يتكهن بالخطر الأخير علي، في ذاك المعبر.

في قافلة السمن كان ثمة 170 جملاً ـ تحمل حوالي 30 طناً من السمن ـ وسبعون رجلاً، أربعون منهم يركبون على الناقات أما الباقين فكانوا سواقاً. كنا موزعين إلى جماعات صغيرة؛ كل سيد مع أصدقائه وخادميه المستأجرين. في كل مجموعة تُحمل خيمة أو ظلة، من أجل الحماية فوق رؤوسهم في محطات الظهيرة، ولتظليل السمن ـ الذي يذوب في قرب جلد الماعز (جرم الجمع جروم) في الساعات الحارة. فالجروم يجب أن تلطخ من الداخل بطبقة سميكة من عصير التمر (الدبس)[1]. كل ملء قربة، الجزء الأكبر من وزن مئة، يعلق بعروة (تجعل متينة عند الطرفين) من خشبة السرج. في بعض الأوقات ينفجر الجرم في رحلات القافلة، وتنسكب المادة الثمينة مثل الماء على تراب البراري. في بعض الحيان تُزحم جمال الحمل بأشجار الأكاسيا، فتنثقب الجروم وتُخزقها الأغصان الشوكية. كان شيئاً حسناً أن المرقّع يسير في القافلة؛ وهو الذي يصلح الأعطال اليومية لجروم السمن وقرب الماء في محطة المساء. كل هذا السمن، الذي يساوي أكثر من 2,000 جنيه استرليني في مكة، يكون

(1) وفي الأمثال العامية العراقية [دبس ودهن] يضرب للشيئين المتماثلين.

قد جُمع، منذ الربيع، في تجارتهم مع البدو، كان تجار عنيزة يخزنونه من أجل هذا الوقت في أجران من الرخام.

ثمة أمير، يدعى زامل، على قافلة مدينية كبيرة كهذه. إنه واحد من أقرباء الأمير؛ ويتلقى ريالاً واحداً مقابل كل جمل. كان الخنيني قد استحصل على رسالة من زامل، يعهد بي فيها إلى الأمير؛ ويكلفه بتأمين سلامتي، عندما سأترك القافلة «في العين». جلسنا نثرثر حول نار القهوة، إلى أن مللنا؛ ثم اضطجعنا لننام هناك على رمل النفود.

عندما نهضنا في الفجر، كان ثمة مع ذلك وقت لشرب القهوة. كان الأمير وبعض تجار عنيزة الشبان في مكة، الذين سيعودون مع القافلة، قد مكثوا طوال الليل في البلدة. فهم سيلحقون بنا راكبين على أسطولهم من العمانيات [الناقات من إمارة عُمان أو عَمان الخليجية هي ذات قوة وبنية كبيرتين، لكنها أقل تحملاً للجوع والعطش من بعض الأنواع الأصغر. تساوي العمانية الجيدة 50 إلى 70 ريالاً في عنيزة، يمكن شراؤها بصعوبة في موسم الحج في مكة - حيث يكون ثمنها مرتفعاً - إذ يصل إلى 150 ريالاً]. عندما ارتفعت الشمس في السماء قام رجال القافلة بالتحميل، وانطلقوا. بعد ذلك بوقت قصير هبطنا في وادي الرُّمَة، الذي سرنا فيه حتى قبيل الظهيرة بساعتين، وترجّلنا على شعب، **الشّبابية**[1]، ليرتاحوا حتى انقضاء حر منتصف النهار (**يقيلّون**). في ذاك المكان توجد بعض بيوت عنيزة الريفية الشتوية، ذات بناء طيني خرب، باحة مسورة بجدار عالٍ. تسكنها عائلات مشغلي الآبار، من موعد بذار الخريف حتى أوائل الحصاد. هنا سحبنا ماءً مويلحاً (قليل الملوحة) وملأنا قرباتنا. كان حر النهار الشديد السخونة والرطوبة عظيماً؛ ووجدت أن الحرارة تحت المظلات تبلغ 105 فهرنايت. كان الأشخاص الأغنياء يمتلكون خياماً من قماش القنب مصنوعة على الطريقة البدوية، فيما يمتلك الآخرون مظلات من السجاد البغدادي. لم أر سوى خيمة واحدة أو اثنتين من الخيام المدورة -

(1) الشبابية: الأقرب أن يكون شعب الشبيكية.

صفقات من الساحل وعدداً قليلاً من الأغطية الممزقة من قماش الشعر [سمعت أنها من غنيمة قحطان!] لدى الجماعات الأفقر حالاً. كانت أحمال سليمان الخنيني الستة من السمن في جزء منها لعبد الله، فقد كان جمّالاً، وكانت الدواب ملكاً له.

ربما كانت الساعة حوالي الثالثة قبل أن يتحركوا، وكانت الشمس الحارة تهبط من خط الزوال، تعطى الإشارة بصيحة كبيرة من خادم الأمير، شيل! في اللحظة التالية تقوض كل الظُّلات، تُدخل الجمال وتُناخ، يقوم رجال القافلة بإخراج قِربَ السمن الثقيلة؛ ويكون عملاً جارياً يبذلون فيه جهداً فوق قدرتهم، ليحمّلوا على دوابهم، قبل أن تتحرك القافلة: لأن راكبي النوق ينطلقون حالاً؛ ومن يكون غير جاهز سيُترك في المؤخرة. يقف خادم الأمير مثل راعٍ أمام القافلة ـ يفرش ذراعيه ليوقف الطليعة! إلى أن تلتحق البقية أو وهو يدور راكضاً يصيح على الذين لا يطيعون الأوامر. وعندئذٍ يسيرون؛ وخوفاً من الصحراء، تسافر الجماعات قريبة من بعضها. كان طريقنا نحو الجنوب في وادي الرُّمَةْ، الذي هو سهل عريض من الرمل الأكثر صلابة في النفود. تقع جبال أبان في مرمى النظر إلى الغرب، مغطاة بالضباب. [يمكن رؤية الأبانات شامخة في غسق الصباح، من الكثبان حول عنيزة]، عند غروب الشمس ترجلنا قرب بيوت ريفية منتشرة أخرى ـ هي بيوت الرس، الهجنوي، خارج الوادي. كنا هناك تقريباً إلى جانب الخبرا.

لا تنصب خيامهم في الليل، بل تكون الظلة لدى كل جماعة على سجادة جلوس تحت النجوم؛ وستصير لاحقاً لأجل السيد ليستلقي عليها. وفي كل مجموعة ثمة شخص يكون طباخاً يخرج لجمع العيدان لأجل الوقود، ويقوم شخص آخر بطرد البهائم لكي ترعى، لفترة النصف ساعة القصيرة المتبقية حتى حلول الظلام. خرج مع سليمان ثلاثة سائقين: أولهم، فقير من أهل بلدة عنيزة، قام بدور الطباخ في مجموعتنا؛ وآخر كان بدوياً. بعد ساعة، وُضع أمامنا طبق العشاء من مادة قمحية مسلوقة (جريش). بعد أن أكلنا،

احتسينا القهوة. جلسوا لبعض الوقت يثرثرون ويدخنون التبغ؛ ثم اضطجعنا ملفعين بعباءاتنا على الرمل، لننام ريثما تنقضي الساعات القصيرة المتبقية حتى شروق الشمس.

قبل الفجر بساعة سمعنا من يهتف، **الرحيل!** نهض الناس على عجل؛ نفخت نيران المحارس الخامدة لتصبح لهباً، ورمي مزيد من العيدان عليها لتصدر ضوءاً، ثمة هرج ومرج صاخب لرجال يشتغلون؛ وحشد متزاحم ورغاء من الجمال. مع ذلك، خلال دقيقة أو دقيقتين يكون كل شيء منتهياً؛ يمتطي الراكبون؛ والذين يبقون سائرين على أقدامهم ينظرون بانهماك حولهم على الأرض المعتمة، ليتأكدوا من أن شيئاً لم يتبق. ينطلقون؛ وتبدأ مسيرة جديدة؛ لتدوم عبر الحر الطويل حتى المساء. بعد سفر ثلاث ساعات، في السهل الصحراوي، مررنا أمام الرس، الذي لم يحجم قرويوه، منذ جيلين، عن قطع جذوع نخيلهم من أجل إقامة متراس مرتجل، وقاوموا برجولة كل اعتداءات جيش إبراهيم باشا. . أرسل الأمير سائق ناقة إلى المكان ليتسقط الأخبار فعاد بكلمة مفادها أن رجال قافلة السمن من الرس قد نزلوا مع قافلة بريدة، التي مرت بهم قبل يومين. إن الرس (التي يقولون إنها أكبر من الخِبرا) تبدو كثلاث واحات تمتد شمالاً وجنوباً، وغير بعيدة عن بعضها بعضاً. في الأولى، **الرويضة**، توجد البلدة؛ في الثانية **الرافية**، توجد قرية وبرج مراقبة عالٍ يطل على النخيل؛ أما الواحة الثالثة والأخيرة فتدعى **الشنانة**. إن الرس هي آخر مستوطنة باتجاه الجنوب وبوابة القصيم تماماً. فنحن على حدود النفود؛ وعما قريب يصبح السهل حصبائياً قاسياً تحت أقدامنا، نعاود دخول تلك المنطقة الوسطى الغرانيتية والبازلتية من الجزيرة العربية، التي تمتد من جبال شمر إلى مكة. تقع أراضي قمح الرس في وادي الرُّمَّة؛ أما نخيلهم فيقع فوق.

رأيت الأبانات ـ آنذاك على بعد نصف يوم باتجاه الغرب ـ ساحلاً عاصياً منخفضاً، مثل أجأ، يميل جنوباً. ثمة جبلان أحدهما خلف الآخر، والوادي (ليس بذي عرض كبير) يقع بينهما. الشمالي يسمى الأسود، وغالباً

الأسمر؛ والجنوبي الذي هو أعلى يدعى الأحمر[1]، ربما كان هذا غرانيتياً وذاك بازلتياً.

وصلنا عند الظهر إلى أم تيه[2]، قرى الرس الأخرى المترامية، والمسكونة؛ حيث وجد بعضنا، ونحن داخلون إلى الماء، بقعة من التبغ النابت! عاد رجال عنيزة ضاحكين ليحكوا عن هذه المغامرة في منزل القوافل؛ لأن الوقت كان عز الظهيرة، وتوقفت القافلة هناك. من هذا المقيل نهضنا باكراً، وانطلقنا عبر برية مستوية مليئة بالجبال البازلتية والغرانيتية الحمراء الرمادية [كتلك التي رأيناها في ديرتي حرب وشمر باتجاه الغرب]. أخيراً عندما كانت الشمس تغرب، بضوء أصفر مائل إلى الحمرة، خلف جبال أبانات، توقفنا لنخيم جميعاً.

..... كان رجال القافلة جميعاً، بعد ثلاثة أيام، على وشك أن يفقدوا صبرهم السامي القصير؛ فهم يصرخون في دوابهم بالأصوات المتحمسة لرجال يائسين. السائقون يستحثون الماشية المتكاسلة للسير إلى الأمام، ويتابعون نخسها بأعقاب رماحهم، يلعنون، ينوحون ويصيحون بكلمات التكهن بالشر، **يا مال الطير حُطا** ايه، **يا مال الذُبّاح**، ايه، إذا تريث جمل لحظة، ليقطف ساق نبات، يصرخون، **يا مال الجوع!** يلعن الله **أبو ها الراس أو ها الكلب، أو ها الحلق**. إن سائقي الجمال لا بد أن تكون عيونهم بشكل مستمر على الدواب المحمّلة، لأن الجمل القادم إلى أي مكان رملي يحتمل أن يقع على ركبتيه ليتمرغ هناك ومن السهل أن يخدش جلده؛ وعندها يذهب كل شيء هباءً! إنها لا تميّز طعامها بالنظر وحده، بل بالشم؛ كذلك فإن الجمل يتوقف عند أي حجر أبيض أو جلة ناصلة اللون، كما لو كانت عظمة مبيضة، إذا وجدوها عند أي شيء يلتقطونها بفمهم، ويقضمونها ويمضغونها

---

(1) المقصود بالأسود الأسمر والأحمر جبلا أبانات.

(2) أم تيه: هي بلدة النبهانية، وهي البلدة الوحيدة في المملكة العربية السعودية التي تزرع التبغ في فترة حكم الرشيد.

لبعض الوقت بـنغمة كآبة، وذلك من أجل الملوحة كما، يقول العرب. يكون رجال القافلة في المسيرة كل يوم في مزاج أكثر نزقاً وأقل كلاماً؛ إذ لا يوجد ما يقال عندئذٍ سوى الأيمان بالله العظيمة؛ والسائقون، الذين تكون أفواههم مرة من العطش، بالكاد يجيبون أحدهم الآخر بأكثر من كلام نكد ومتبجح؛ مثل «هل أنا عبد أبيك (أي هل يتعين علي أن أخدمك أو أطيعك)؟ والشخص الغاضب سوف يصرخ في جاره، **الله لا يبارك فيك، لا يجيب لك الخير**».

كانت الحرارة في قيلولتنا منتصف النهار تبلغ 102 درجة فهرنايت، تحت الظلات، وفيما نحن ننهض باكراً استعجلنا للوصول إلى منابع الماء؛ حيث وصلنا قبل ساعتين من الغروب. هذا هو عفيف، بئر قديم يبلغ عمقه عشر قامات إلى الماء، ومطوق ببناء بدائي من الكتل البازلتية غير المشذبة. ـ كان سليمان ورجال القافلة الأسياد الآخرون، قد خرجوا راكبين أمام القافلة الآخذة في الاقتراب، مع عدتهم؛ ويحتلون الأماكن من أجل السقي. عندما دخلنا وقفوا هناك قبلئذٍ بعدتهم؛ وهي عبارة عن وتد ثخين مستدق الطرف يدق في الأرض، ويثبت بالحجارة: الرأس شوكة، وفي ذاك يركبون بكرة السحب، **المحَل**، ـ عندما يستعملها البدو في أي بئر عميق، حيث لا يمكنهم بغير ذلك أن يسحبوا الماء. يسحب الحبل رجلان يجريان خارجين نحو الوراء؛ وهناك ثالث يقف عن حافة البئر ليفرغه في حوض الجمال، ـ تفرش قطعة جلد أو بساط على تجويف، حفروه بعصا أو حجر وأيديهم في التراب الحصبائي القاسي. عندما يجب سقي عدد كبير من الجمال من بئر (جليب) واحد، يحدث لغط كبير بين الرجال الذين يسحبون بكل قوتهم وهم يترنمون بإيقاع، مثل البدو. ذهبت لأشرب عند حياض الجمال، لكنهم أمروني بأن أكون حذراً فقد انزلق في الوحل، وأسقط فوق حافة البئر، الذي، بدون حافة [كما في كل آبار الصحراء]، هو في مستوى واحد مع تلك الأرض. لذلك فإن مهمة ساحبي البئر لا تخلو من الخطر؛ وهم حذرون. عند آخر نزول لهم، ثمة رجل منحوس زلّت قدمه، وسقط في البئر! تمّ رفعه بسرعة ـ لأن العرب عند رؤية مثل هذه المصائب يكونون ذوي إنسانية مفاجئة شهمة! وكثيرون منهم متعودون

منذ شبابهم على النزول في كل نوع من الآبار، ـ كسر ظهره، وعندما رحلت القافلة، مدده أصدقاؤه على جمل؛ لكنه توفي في المسيرة. في الوقوف الأول عند البئر نجح ساحبون آخرون؛ ولم ينطلقوا جميعاً في ثلاث ساعات. إن فم هذا البئر القديم مترع من حوله بالتراب الذي رفع فيما مضى في الحفر، هكذا فإن السقائين، الذين يجرون نحو الوراء، يسحبون بسهولة؛ والوحل الغاطس لا يعود ليصيب البئر.

بجانب ذاك البئر رأيت العلامة الأولى للحياة البشرية في هذه البرية الشاسعة ـ الرماد الطازج لنار صيادين! حيث كان يقبع أكبر زوج من قرون الغزال سبق لي أن رأيتها في أي وقت. كان الرجال بلا شك صلبة؛ والبعض في القافلة قد رأوا آثار حوافر حميرهم اليوم. إنها أعجوبة حتى بالنسبة للعرب، كيف يمكن لهؤلاء المعتزلين البشريين أن يعيشوا من قنصهم، في الخلاء. فالصلبي لا يمكنه أن يحمل بالإضافة إلى بارودته الفتيلية الطويلة سوى القليل من الماء؛ لكن تقليدهم هو أن يشربوا كفايتهم من الماء أو المريسة قبل الفجر بساعتين، ثم ينطلقون، فلا يعطشون حتى الظهر.

تعلمت الآن أن أفعل مثلهم؛ وتلك الجرعة الباكرة قد أعانتني حتى توقفنا عند منتصف النهار، مع أن رفاقي في هذه الأثناء قد شربوا ثلاث مرات. بالكاد ناولوني الطاسة حين سكبوا لأنفسهم ليشربوا؛ وعندئذٍ كان ذلك مع التذمرات والشتائم، لو كان سليمان بعيداً عن السمع، لأنكروا حتى النصراني دفعة واحدة. إن سليمان، الذي لم يكن طيباً، قال: «نحن كلنا نقاسي من الطريق، فأنا لا أستطيع أن أعدل وهؤلاء عرب، عبد الله لن يجد أفضل، لو كان هنا بلحيته (بنفسه) هل ترى هذا الصبي يا خليل؟ إنه من شوارع عنيزة، ذاك الآخر (غلام بدوي، من عنيزة في الشمال، قد ذبح أباه، كما يقولون)؛ وهو (الطباخ) هناك! تابع فقير من البلدة، والله، لو ويخهم، لتخلوا عني عند الاستراحة التالية!» ـ كان لهاثاً للسعي إلى شرب الماء لدى جماعة أخرى.

ذات يوم سرت بجانب رجل من أهل البلدة ترجل ليشرب، وقبل أن يرفع الطاسة طلبت منه أن يسكب قليلاً لأجلي أيضاً. كانت زوجته إحدى مريضاتي؛ وربما فكر أنني قد أتذكر الديْن المترتب عليه من أجل الأدوية؛ لأنه وهو يعيد ربط عنق قربته بسرعة تظاهر أنه لا يعرفني. عندما ناديته بالاسم! - لم يعد بمقدوره أن يرفض، وبحل فتحة القربة سكب لي قليلاً من ماء الصحراء وهو يقول: هكذا هو الطريق والشقاء، بحيث لا أحد يتذكر الآخر، لكن كلمة امشِ هلق! تفضل إلى الأمام. البخيل بقربته يدعى بياع الماء، من قبل جيرانه الغاضبين.

كانت ناقتي ذات بنية صغيرة ومصوفة وضعيفة، أثناء السير لم يكن بمقدورها أن تماشي البقية، وكان علي أن أثير كثيراً من اللغط لأدفعها قدماً، فالدابة، قال سليمان هي حبيسة جلدها؛ فكان يحدث خدوشاً في جانبها، عندما ينزلون إلى مكة.

بيننا وبين ريف اللافا يوجد مستنقع البارحة ذو القشرة القاسية المائلة إلى السواد؛ ثمة منبسط بدون حافة أو حجر، بدون آثار أقدام، وأبيض بالسباخة، تمتد ألسنة من أرضها المالحة رجوعاً باتجاه الشرق وراء طريقنا. قبل الظهر بقليل رأينا لأول مرة آثار أقدام ماشية البدو، من ناحية الحرة؛ حيث يوجد تحتها، منبع ماء جيد، في مواجهتنا. في استراحة منتصف النهار كان عطشنا كبيراً. لم يكن لدى الناس شيء ليشربوه باستثناء ذاك الماء الحامضي والأسود من الشرّمة؛ ولم يكن بمقدورنا أن نصل إلى الآبار، حتى هبوط الليل، أو في وقت مبكر من الصباح. وجدت حرارة الهواء تحت الظلات 107 فهرنايت؛ وكانت رياح السموم تهبّ. في اجتماعات القافلة يأكلون التمر في المقيل، وما يتبقى من البرغل أو التمن من وجبات العشاء. ويجلس أصحاب القوافل والسائقون لتناول اللحم معاً؛ أما اليوم فلا أحد يمكنه أن يأكل بسبب العطش. ذهبت إلى ظلات إبراهيم وبسام - كل واحد منهما كان يحمل عشر قربات - التماساً لفنجان من القهوة أو الماء. لبى الشباب هذه

الرشفات من الماء ولا شيء أكثر؛ لأن العرب هكذا هم في الرحلة، رأيت أنهم كانوا يمتلكون مع ذلك قرباً كثيرة مملوءة!

كانت تلك القيلولة قصيرة، بسبب عطش الناس ـ وكان الماء مع ذلك بعيداً. عندما انطلقنا التفت فرأيت رفاقي يشربون خفية! بالإضافة إلى كونهم قد شربوا كفايتهم في غيابي، بعد التظاهر لي بأنه لا يوجد ماء بعد؛ وكنت قد عطشت طوال اليوم. فكرت في نفسي أنني إذا شربت هذه المرة فيمكنني أن أتحمل حتى الصباح. ناديت على الرجال ليسكبوا لي قليلاً؛ لقد كنا رفاقاً، وهذه هي مشيئة عبد الله الخنيني، لكنهم أنكروني بشتم فظيع؛ وأدار سليمان أذني تاجر. ترجلت بسبب حاجة لا مثيل لها، ودرت لقضائها شاؤوا أم أبوا. إن البدوي، وهو يلوح بعصاه ويبدأ بالرقص، سوف يحقق هدفهم التافه، لكن سليمان (الذي كان يخاف النزاع) أمرهم بأن يسكبوا لأجل خليل. كان ماء عذباً من عفيف، احتفظوا به وأخفوه لهذا اليوم عن النصراني. كان عليهم مع ذلك أن يشربوا منه مرتين في مسيرة بعد الظهر.

كان سليمان تحت السن المتوسط، ذا قامة صغيرة، وذا طبيعة شريرة مع بعض آثار المكر المرح، وميالاً إلى التعصب. كنت قد طُردت من عنيزة، وكان بين أهل البلدة هؤلاء كثير من النوع الوهابي؛ لكن معظمهم كان يحييني في المسيرات الطويلة بكلمة ودودة: «كيف السفر يا خليل، هل تعبت؟ حسناً، سنكون قريباً في نهاية رحلتنا».

لم أسمع كلمة مؤذية سوى مرة واحدة؛ كان ذلك في استراحة المساء في عفيف، عندما كنت أعبر في الظلام باتجاه إبراهيم ومذكر ترجلت عند جماعة غريبة، وتعثّرت بجروم السمن «إلى أين أيها الكافر» صاحت أصواتهم العدائية. لكن آخرين نادوا عليهم أن «يغلقوا أفواههم، ويمرون، ولا تأبه بهم يا خليل». كان أمامنا جبل أسود وحيد هو جبل بس، ربما يكون من البازلت.
ـ والآن نرى مرة أخرى الحرة الرئيسية؛ أي إننا نقترب من الماء في الشعرى. يخبرني مذكر، أن حرات كشب هي ذات شكل مدور [البعض يقول، تحتاج

إلى يوم أو يومين لاجتيازها]؛ وأن كشب ليس وحيداً، بل هو واحد من سلسلة حرات بين مكة والمدينة المنورة، كشب وهرات المدينة ليسا منفصلين بشكل واسع.

هناك تلاقينا مع غلام بدوي نحيل يظهر وراء الماشية؛ وكان جميلاً وجه ذاك السقاء الصغير، في سترته المكية الزرقاء! ـ أما العيون الشمالية فلها لون نسائي، كانت الخصلات السوداء تتدلى نازلة مشعثة على كتفيه الرجوليتين ـ العذراويين. «هوي، يا ولد! (يصيح سائقنا العنيزي الفظ، الذي كان كبدوي يكره كل البدو الذين من غير قبيلته). أقول أيها الرجال، هل هذا ذكر أم أنثى؟». انتفخ قلب الولد الفقير بازدراء قوي؛ كانت عيناه الساذجتان تنظران بشراسة إلينا، وكاد أن ينفجر بالبكاء.

الشعرى، حيث وصلنا آنذاك، هو خليج في الحرة يدعى هنا هشيرة. وجدت أن نهاية الحمم المتيبسة، التي يبلغ ارتفاعها ثلاثين قدماً تقبع فوق الصخر الغرانيتي، ـ الذي يكون مائلاً إلى البياض، مخلخلاً، ومتفتتاً، ذا حرارة محمولة، فقد بقي رأس الحمم عند حافة الحيد الغرانيتي. الشعارى هو شِعبٌ أو مسيل يظنون أنه يصل إلى وادي عزيز ووادي العقيق. هنا توجد آبار كثيرة ضيقة الفوهة منذ القدم، ومبطنة بأحجار الحمم، لكن البعض منها مردوم. سمعنا من الأعراب أن قافلة بريدة قد شربت هنا في آخر الظهيرة، منذ البارحة صارت طرق الصحراء واحدة. وجدت أن الارتفاع يبلغ 4,000 قدم.

. . . . . مررنا من نجد؛ وهنا طبيعة أخرى للجزيرة العربية! سرنا ميلاً في سهل السيل الضيق، قرب أكمات العشب الأسلي الذي يبلغ ارتفاعها بطول قامة الإنسان! مع النمو الكثير للنعنع البري؛ وعلى مرجات صغيرة، . . . لأن هذه الأعشاب ترعاها جمال القوافل التي تمر يومياً بين مكة والطائف. توقفت القافلة وترجّلنا، وفيما هم يحفرون بأيديهم وجدوا ماء مطر صافياً بعمق شبر. من هنا سمعت أنه لم يتبق إلى الطائف سوى مسيرة يوم، وبعض الأشخاص العقلاء والشرفاء في القافلة أقنعوني بالذهاب إلى هناك، بقولهم، من المحتمل

أن نجد بعض سائقي الجمال المكيين يصعدون إلى الطائف، وسيعهدون بي إليهم، ـ هكذا يمكنني أن أصل إلى الطائف هذه الليلة؛ وسمعوا أن شريف مكة كان في الطائف في ذاك الوقت؛ وعندما سأجيء إلى هناك، وأطلب ذلك من الشريف، فسوف يرسلني بأمان إلى جدة.

أية متعة أن أزور الطائف! عدن مكة! ذات الهواء العليل والبارد؛ حيث توجد جنائن الورد، والكرمة والبساتين. لكن هذه الميزات يجري تضخيمها في حديث العامة لأنني سمعت بعض القصمان يقولون: «يحكون عن عجائب الطائف! ـ حسناً، لقد كنا هناك؛ ويجد المرء أنها أقل مما يحكى عنها». لقد تفاقمت أمراض الجزيرة العربية في الطريق؛ فالطرفان السفليان كانا مليئين بالتقرحات؛ التي تدعى حب أو بزر التمر على ساحل الخليج العربي [لأنها تظهر عموماً قرب موعد قطاف التمر]. إن الحبة التي تشبه حبة حلب، معروفة في أجزاء كثيرة من العالم العربي ـ في بلاد البربر، في مصر (قروح النيل)؛ وفي الهند (حبة دلهي). إنها في كل مكان تعزى إلى شرب الماء الملوث. القروح الواضحة يمكن غسلها بحمض الكربوليك وتدهن بزيت السمك؛ لكن الداء سيأخذ مجراه، إذ لا يوجد علاج. كان الوقت المتبقي لي حوالي خمسة أشهر. القروح التي تنفقيء من تلقاء ذاتها هي شائعة بين البدو. في مثل هذه الحالات يبدو أن من الأفضل النزول مباشرة إلى جدة؛ كذلك دار في خلدي، وهو ما قرأت عن أشراف مكة (القدماء). بالإضافة إلى ذلك، لو كان من الخير بالنسبة لي أن أذهب إلى الطائف، لماذا لم يقدم لي البسام ـ الذي امتدح لي كرم الشريف الرحوم ـ مثل هذه المشورة في عنيزة؟ في ذاك الوقت كان يجلس هناك شريف جديد. إنه أيضاً أمير مكة؛ ولم يكن بمقدوري أن أعرف أنه سيكون عادلاً مع نصراني . . . .

هذه أرض تخييم رثة لأجيال عديدة من الحجاج ورجال القوافل؛ وفي الصيف استراحة الظهيرة للمسافرين بين المدينة المقدسة والطائف. كانت

الرخمات[1] الكريهة تحلق صعوداً وهبوطاً؛ وظننت أنني رأيت كتل الملاط في هذا المكان الصحراوي، وبعض الأساس القديم لبناء قرميدي! أخبرني أصدقائي العنيزيون، أن هذه هي المحطة القديمة قرن المنازل؛ الذي يفسرونه من الدعامات المتشابكة للخيام القديمة،التي تنتصب كثيرة معاً في فضاء صغير. ذهبت حافي القدمين على السطح المعشوشب المبهج تحت شمس الظهيرة، التي تكون معتدلة عند هذا الارتفاع؛ لأنه أية عذوبة هذه بعد سنوات قضيتها في بلدان جافة، أن أطأ مرة أخرى على المرج الأخضر! وحده النصراني بقي مرتدياً بينهم؛ مع أن أياً من القصمان لم ينادِ علي للدخول؛ كانوا أنفسهم على وشك الوصول إلى مكة؛ وقد أبدو لهم صديقاً، بالمقارنة مع البدو الشريرين لهذا البلد [الهذيل].

وجدت ابن بسام، متمنطقاً فقط بالإحرام، يجلس تحت ظلته. قال: «خليل، هناك، لحسن الحظ يوجد بعض سائقي الجمال من الطائف، لقد تكلمت مع أحدهم، والرجل - الذي هو معروف - يريد نقلك إلى جدة».

«ومن هم الذين أراه معهم؟».

- «إنهم من جاوة [حجاج جاوة يُحتقرون كثيراً من قبل العرب، لأن الوجوه الملاوية تبدو لهم بالكاد بشرية! لقد سمعت العم محمد يقول في خيبر: «لو كان عليَّ أن أمضي عمري في بلد الجاوة، لما استطعت! والله لم أستطع الزواج بأي واحدة من حريمهم».

كان أولئك الغرباء المتدينين في الطائف، لزيارة الشريف؛ وكان الوقت رهن صعودهم، في «الحج الصغير» إلى المدينة. يا خليل، المغامرة هي من عند الله، والله أنا في شك إن كنا نستطيع أن نجد أحداً في العيون، لمرافقتك إلى الساحل. ويجب أن أترك القافلة قبل الاستراحة التالية؛ لأننا (المرافقون للشباب مع إبراهيم) سوف نسير هذه الليلة إلى مكة؛ وليس غداً تحت

---

(1) الرخمات: واحدة الرخم وهو طائر جارح وضيع.

الشمس، لأننا حاسرو الرؤوس. هل سنرسل في طلب سليمان، وننادي سائقي الجمال؟ ـ لكن، يا خليل، وافق معي بسرعة؛ لأننا على وشك أن نرحل، وسنتركك هنا».

كان سائق الجمل شاباً ذا مظهر بائس! واحداً من حشد ناقلي دواب الحمولة للبلدان العربية، الذين تُستهلك حياتهم الدنيئة بالشقاء اليومي للطعام الغث والليالي المتقطعة على الطريق. في رأسه الخشبي لم يكن يبدو أنه يحمل أفضل من ذكاء جمل، فقد كان يتكلم بهذا الشكل المتبلد. قال عبد الرحمن: «ومن العين احمل هذا المسافر إلى جدة، عن طريق وادي فاطمة».

ـ «سأحمله عن طريق مكة، إنه الطريق الأقرب».

قال عبد الرحمن، وسليمان: «لا، لا! بل عن طريق الوادي، ـ أضاف عبد الرحمن، هذا الطريق لا يودي إلى مكة».

ـ كلمات كان يتكلمها بغرابة تعصبية، تنم عن حياتي؛ وإلى ذلك قلب سليمان رأسه! لذلك فإن سائق الجمل البليد بدأ يتخيل فلا بد أن هناك شيئاً ما خطأً! حدق فاغراً فاه في الرجل الذي سيكون في عهدته، واستغرب لرؤيتي رجلاً بهذا البياض! اختصرت كلمات هؤلاء الأصدقاء الفاترين، فأنا سأنطلق من العين في مسار واحد إلى جدة، في حين أن المكرهين طلبوا أياماً كثيرة. إن جمال هذا البلد ضعيفة. وذات بنية ليست أكبر كثيراً من الأحصنة. هذه الجمال تثير سخرية رجال نجد، إذ يقولون، إن سير سائقي جمال مكة هو مثل النمل.

انصرف ذاك الجمّال ساخطاً، وأغلب الظن أنه كان يحترمني أنا الذي رأى أنني أختلف عن أي نوع من أنواع الحجاج. [عندما ذهب سأل في قافلتنا، ماذا أكون أنا؛ وأجابه البعض، بمكرهم وغدرهم الطبيعيين، نصراني! عندما سمع ذلك، قال الرجل: «والله ـ بالله، لن ينقلني، ـ لا، ولا مقابل مئة ريال!».

«خليل، كان ثمة فرصة جيدة، لكنك ضيعتها! قال عبد الرحمن».

«وهل تسلّم حياتي إلى مثل هذا الرجل المثير للشفقة، الذي لم يستطع حمايتي من اعتداء، ـ هل هذا رجل ثقتك؟ وهو الذي اكتشفت أنه مجهول من قبل الجميع هنا، يمكنني أن أسافر وحدي أيضاً إلى جدة».

قال سليمان: «خليل، أينما سافرت في هذه الأصقاع، سوف يعرفون من هيكل هودجك أنك أتيت من الشرق [نجد الأوسط]».

وبالشكل نفسه فإن عدة جمال رجال قوافل مكة هؤلاء كانت تبدو ذات شكل رديء غريب.

بينما كنا نتكلم صاح خادم إبراهيم إيذاناً بالتحرك، فقام رجال القافلة نصف العراة والحاسرو الرؤوس بالتحميل على عجل. ركب الراكبون؛ وانطلقت قافلة نجد إلى الأمام. كنا نهبط إلى مكة! وبعض السائقين الفظين يُلبون [يطلقون دعاء الحجاج في عرفات]؛ أي يتطلعون إلى السماء وهم يقولون بصوت عالٍ لبيك اللهم لبيك (يا رب)! «لم يكن هذا نشيداً بهيجاً! في أذني، حياتي كانت أيضاً في شك من أن تلك الكلمات هي أسوأ من الكلمات المتهورة لابن بسام. مثل هذه الأنباء تنتشر بسرعة وتشعل اللهب الوحشي للتعصب؛ مع أنني كنت آمل، عندما انطلقنا قبلهم، أننا سنصل إلى العين قبل ذاك الجمال المكي المنحوس. سألت سائقنا العنيزي، لماذا ثرثرت هكذا؟ فقال، اوه! يا خليل؟ غداً ستكون في مكة! لذلك نصرخ لأن رحلتك تكاد تنتهي، ـ لبيك اللّهم لبيك!».

من السيل هبطنا بشكل متواصل في سرير وادٍ حجري بين جبلين بركانيين أسودين، وبعرض نصف ميل إنه قاع سيل عريض من الرمل الخشن والحجارة المتدحرجة ذو قليل من أشجار الأكاسيا. هذا المشهد ذكرني بالفيلد الاسكنديناقي، المعروف لي قبلاً. إن الجسم الحي للكوكب هو سيان، في كل مكان. إنه ليس سوى الكساء الخارجي الذي يكون مختلفاً ـ هبة الشمس

والمطر. لا يعرفون اسماً آخر لهذا الوادي الحديدي غير وادي السيل. في كل تلك الجبال الرهيبة يوجد أعراب هذيل [اسم قبيلة في صيغة الجمع الهذلان]، اسم قديم؛ ويحكى عنهم في البلاد، أنهم سلالة بحد ذاتهم، ولا يمتون بصلة القرابة إلى القبائل المجاورة. عندما يلتقي جمالو مكة والطائف بغرباء هابطين من نجد، فإنهم يحذرونهم عموماً بمثل هذه الكلمات العابرة «احذروا الهذيل! إنهم قطاع طرق». كان الوادي موطوءاً بأخفاف الجمال! كانت قافلة بريدة قد مرت قبلنا بمئتي جمل، ـ لكنني هنا رأيت آثار أخفاف ألف جمل! لم أكن أعرف أن هذا هو طريق مكة الرئيسي إلى الطائف، حيث تمر قوافل كثيرة من الجمال يومياً. عندما كانت الشمس تغرب ترجلنا ـ فقد كان منزلنا الأخير، بين الحجارة الكبيرة للوادي السيلي. كان الارتفاع يبلغ 3,700 قدم فقط.

تعهد بسام الطيب، في حال لم يكن بالإمكان إيجاد أحد آخر في المحطة قبل مكة، بأن ينزل رجله الخاص (الذي كان يخدم ابنه عبد الرحمن بالمناسبة) معي إلى جدة. عندئذٍ نادى عبد الرحمن هذا الخادم؛ لكن الرجل، الذي كان يقول «أي أي» ـ يومياً في رحلتنا الطويلة أجاب الآن بـ ليللا، «لا ـ لا ـ» هكذا العرب عموماً يخيبونك في الوقت المطلوب! ـ سيسافر، كما قال، مع البقية إلى مكة. كان عبد الرحمن منزعجاً ومتضايقاً جداً؛ جواب رجله أربكنا «لماذا إذاً وعدت بأن تسافر مع خليل؟ اذهب الآن أتوسل إليك، قال؛ ودفعة خليل جاهزة، لا يمكنك أن تقول لا». بالشكل نفسه أقنع إبراهيم الأمير الرجل؛ لكنه لم يكن يمتلك السلطة لإجباره.

أجاب الرجل بإيجاز: «أنا حر، ولا أذهب إلى جدة!» وهكذا تركنا. ثم أرسل إبراهيم في طلب رجل آخر في القافلة؛ وهو رجل فقير ذو فهم جيد، وعندما جاء أمره أن يسافر مع خليل إلى جدة؛ لكنه بدأ يعتذر، فقالوا، «لا شيء يدعوك إلى العجلة، يوم أو يومان لتكون في مكة؛ حدد السعر فقط ـ ولا تقل لا!» طلب خمسة ريالات؛ وبهذا الضمان الهزيل صرفوه.

«دعوني، قلت لهم، ألزم الرجل، بأن أدفع له عربوناً نقدياً».

أجاب إبراهيم: «لا داعي هذه الليلة؛ ـ في الصباح!».

عرفت عندئذٍ في صميمي أن هذا ميثاق هش؛ وكنت قد تعلمت أن لا أثق في الوعود المسائية للعرب.

ـ «يا مُذْكر دع واحداً من البدو يسافر معي إلى جدة».

ـ «حسناً، يا خليل، إذا كان من شأنه أن يساعدك؛ لكنهم لا يعرفون الطريق».

إن إبراهيم، عبد الرحمن والمرافقين الشبان كان من المقدر أن يركبوا في الحال، بعد العشاء، وأن يسافروا إلى مكة؛ ـ ومن ثم سيتخلون عني في هذه الرحلة المشؤومة. فهمت، لاحقاً، أنهم كانوا قد أجلوا السفر حتى طلوع الصباح، ـ الذي لم يطل كثيراً! وعندها انطلقنا إلى الأمام.

لم يكن يتطلب الأمر أن أنتظر ذاك الواعد الليلي؛ الذي لم تكن لديه أية نوايا لتنفيذ كلمات إبراهيم وعبد الرحمن، ـ وكانا يعرفان ذلك. رغم أن هذا اليوم كان اليوم السابع عشر من مسيراتنا الطويلة من عنيزة؛ مع ذلك، في تماثل المشهد، بدا لي، حتى البارحة، عندما مررنا بالشعارى كما لو أننا لا زلنا واقفين.

ـ ستكون القافلة في مكة في منتصف النهار ـ يجب أن أتركهم الآن في خلال ساعة ولا شيء كان مؤمناً.

مررنا بعدد قليل من البدو الذين كانوا يتحركون صعوداً، بائسين رشيقي الأجسام، ذوي بشرة سوداء، ونظرات تنم عن الجوع. كان متاعهم البائس محملاً على الجمال الصغيرة لهذه البلاد. رأيت سفوح الوديان المقفرة ذات اللون الأشيب من القش القائم ـ فهذه الجبال تقع تحت أمطار الخريف (الموسمية)، وبين الصخور الشديدة الانحدار كان الغنم الجبلي للبدو؛ كله غنم أبيض الصوف، ومن صنف غير الغنم الكبير في نجد. مررنا في وسط الوادي عبر بستان من عشب الورد البري الغريب الشبيه بالشجر (العيشا)،

المليء بالأوراق المنتفخة الخضراء! الفقاعات الورقية، الكبيرة مثل قنبلة عنقودية تتدلى في عناقيد مقرفة الشكل، وتضم لفافة من البذور. هذا العشب لا فائدة له، كما يقولون، للإنسان أو الماشية؛ لكن أهل الريف يجمعون النسغ، ويبيعونه، كدواء، إلى الحجاج الفرس؛ ويصنع البدو الفحم من السيقان الخفيفة من أجل بارودهم. هنا قابلنا قافلة من المسافرين، يصعدون إلى الطائف وكانوا قد انطلقوا هذه الليلة من مكة. كانت الحريم يجلسن في محفات، تشبه هياكل الأسرة ذات ظلة، محملة مثل الهودج على ظهر جمل، كانت تبدو أفضل بكثير للسفر فيها من المهود الجانبية من سوريا.

كان عليّ أن أعبر مقاطعة لا ملاذ للغريب في قانونها الإلهي . . . . ، فأهلها يقطعون طرق الأرض المشاع؛ وحيث إن أي مجرم منهم بالمقارنة مع النصراني هو واحد من شعب الله. كنت قد تفقدت مسدسي في الليل؛ وأخذت مخزوناً من الخردق المفكوك حولي؛ بما أنني لم أكن أفكر في الخضوع لدين . . . . لو كان على مغامرتي القاسية أن تتحطم من خلال معارضة بربرية، عندئذٍ بقي أمامي ثلاثون فرسخاً، لأعبرها على هذه الناقة الخشبية إلى الساحل؛ في دروب مجهولة، وفي وديان يسكنها أشراف من نسل محمد. كنت سأتبع غدران السيل، التي لا بد أن تنتهي إلى شاطئ البحر. لكنني لم أكن أمتلك الطعام ولا الماء ولم يتبق فيّ قوة. ـ حدق إبراهيم الذي كان يخب بتوق تحت كوفيتي وتعجب (مثل عربي عديم الرحمة) لرؤيتي أسافر بسكينة سأل، «كيف أنا؟» وقال، «هل ترى ذاك المنحنى من الوادي؟ عندما نصل إلى هناك، سنكون في إطلالة على عين الزيمة.

ـ «وهل تتحمل مسؤوليتي عندئذ».

«عندما يحدث أي شيء».

«أي، يا خليل»، وتابع سيره، لم أر عبد الرحمن! فقد كان في العربة مع المرافقين.

وقعت ناقة شخص كان يسير أمامي على حجر، فانفصل طرفها عن المفصل وهو كسر لا علاج له! عندئذٍ سارع الراكبون التاليون إلى تقاسم حصص اللحم؛ وهم يترجلون، هرعوا إلى قطع عنق الدابة الواقعة وبدأوا بسكاكينهم يقطعون إرباً إرباً الذبيحة التي لم تمت تماماً. في هذه العجالة والتوتر، قطعوا اللحم مع الجلد؛ وسارع كل رجل مرهق بما نالت يده من قطعة لحم تقطر دماً، ليعلقها في قوس سرجه؛ فهذه ستكون لحم عشائهم في مكة! عاودوا ركوب دوابهم على الفور، وانطلقوا مسرعين. ما بين سقوط الناقة ونهاية قصابتهم لها لم تكن جمال القافلة قد سارت أكثر من مئتي خطوة! ـ الآن رأيت الضفاف الطينية لعين الزيمة! الخضراء بنبات الدُّخن؛ وحيث، فكرت، في دقائق قليلة، يمكن أن يجعل جسمي بالشكل نفسه مشهداً دموياً. سرنا فوق قناة ذات ضفتين تمّ فيها تسييل نبع من سفح الوادي إلى السفح الآخر. بالإضافة إلى حقول الذرة، لم يكن هنا سوى عدد قليل من البساتين؛ ودزينة من سيقان النخيل السقيمة؛ أما البقية فكانت يابسة بسبب نقص الري. أهل المزرعة من هذيل. قرأت عداد الارتفاع تحت عباءتي فوجدته 2,780 قدماً. . . . .

. . . . في سفح الوادي (الجنوبي) تنتصب قلعة طينية كبيرة، خربة الآن؛ كانت حصناً للوهابيين القدماء، لحماية هذه البوابة لنجد، وهنا رأيت أول مقهى، بالعامية [كهوة]، في ريف مكة. هذه التكية ليست سوى ملجأ من جدران طينية بدائية ودعامات، مع سقف خشبي مفكك مصنوع من أغصان [سعف] النخيل المرفوعة. هناك في الداخل جلس إبراهيم وراكبو الناقات من قافلتنا؛ عندما وصلت متأخراً، مع الجمال المحملة، تقدم سليمان الخنيني وأخذ دابتي من الرسن إلى هذا الخان المفتوح. نادى القصمان: خليل! فترجّلت؛ لكن عبد الرحمن لاقاني بوجه حذر، سمعت صوتاً متوحشاً في الداخل يقول: «سيكون مسلماً»، ورأيت أنه رجل من البلد ـ وقد استل خنجره اللامع! «لا! أجاب القصيمي، لا! ليس كذلك».

دخلتُ، وجلست قرب إبراهيم، وهمس عبد الرحمن لي: «إنها هبة من

الله، أننا وجدنا واحداً هنا من بيتنا في جدة! لأن هذا الشاب، عبد العزيز، هو ابن عمتي. كان ذاهباً بحمل من السجاد، إلى الطائف؛ لكنني ألزمته بأن يعود معك إلى جدة اعطه هدية فقط - ثلاثة ريالات. خليل، لقد كان ذلك صعباً! لأن البعض في القهوة سوف يفتعل مشكلة. لقد سمعوا الليلة الماضية بمجيء نصراني؛ لكن بمغامرة جيدة، يوجد هنا عبد أساسي من عبيد الشريف، قد فعل كل شيء خيراً من أجلك. تعال واشكره، ونحن (من القافلة) يجب أن نرحل فوراً». وجدت زنجياً جليلاً يجلس على الأرض، نهض ليأخذني من يدي، كان اسمه محبوب. خرج إبراهيم وسليمان وبقية القصمان ليمتطوا نوقهم؛ عندما نظرت مرة أخرى كانوا قد ابتعدوا. بقي ابن بسام معي، فصاح: «اركب! وعبد العزيز اركب خلف خليل!».

- «دعني أملأ القربة».

«ثمة ماء هناك في أسفل الوادي، اركب فحسب».

«اركب، يا رجل!» قلت له، وعندما صعد ضربت الناقة، لكن لم يكن ثمة روح في الدابة المنهكة، عندها أنقذتني هرولة قصيرة.

سمعت صوت نذير شؤم خلفي، «انزل، انزل! - اتركني وشأني أقول، وأنا سأقتل الكافر». نظرت حولي، فرأيت ذا السكين قريباً جداً يقبل علينا؛ أمسك بالرسن والنصل في يده.

«هو! أيها اليهودي، انزل! هو! أيها النصراني (بصيحات عدائية)؛ أقول انزل!».

كنت أنوي متابعة المسير؛ ولكن ناقتي كانت ضعيفة وإلا لكنت قد طرحته، وتجاوزت ذلك الخطر. كان أشخاص آخرون قادمين، صاح عبد الرحمن: «أنخ! أنخ!، اجعلها تبرك وترجّل! يا خليل». وهذا ما فعلته بدون إبداء معارضة. اقترب مني صاحب السكين، بأسنان مفترة، «النذبح - قال مهسهساً - اليهودي النصراني». لكن خادم الشريف، الذي أسرع إلينا، توسّل

إليه أن يمسك يده. ثم همست إلى ابن بسام: «اذهب ونادِ بعض رجال القافلة مع بنادقهم؛ ودعني أرى إذا كان ضيف بسام لا يجوز له أن يمر. هل يمكن لهؤلاء أن يعتقلوني في طريق عام خارج **الحدود؟**» (حدود المدينة المقدسة). لكنه همس، «قل لي فقط، يا خليل، إنك مسلم، إنها ليست سوى كلمة، لتهدئتهم؛ وغداً ستكون في جدة، ها أنت ترى بنفسك ـ! والله أنا أخاف أن يقتلك بعض هؤلاء».

«إن شاء الله سأمر، شاؤوا أم أبوا».

«أيه يا خليل!» قال بذاك الصوت المتنازل للعرب، عندما يرتد المد ضدهم. «ماذا بوسعي أن أفعل؟ يجب أن أسير وراء القافلة؛ انظر! لقد تمّ التخلي عني». ركب بدون مزيد من الكلام؛ وبحث عن صديق أبيه بين القتلة.

كان حشد من سائقي الجمال المكيين المتلكئين، الذين كانوا هنا (بعد مسيرتهم الليلية يستريحون ريثما تنقضي ساعات الحر) قد جاؤوا من القهوة، مع بعض الأشخاص المتسكعين من المزرعة، لرؤية هذا الجديد. تجمعوا في صف أمامي، حوالي ثلاثين شخصاً معاً، ملفعين بالسترات المصنوعة من القطن الأزرق. رأيت ساطور القصابة، ذا الغمد المعدني، من الريف، الذي يدعى الجمبية، يلمع في كل أحزمتهم الجلدية الشحمية. وقف الرجال صامتين، وهم يمدون أيديهم الداكنة اللون إلى أسلحتهم.

عاد خادم الشريف (الذي كان واهناً وعجوزاً)، وخرج من تحت الشمس ليجلس. وبعد هذا التأجيل القصير جاء التعيس المجنون مع سكينه مرة أخرى، وصرخ «سيذبح اليهودي ـ النصراني»؛ وبقيت واقفاً بصمت. كان النذل شريفاً [من الأشراف]؛ لأجل هذا سمعت محبوب يسميه: «هؤلاء الأشخاص من سلالة محمد» يمنع الكلام ضدهم ويتمتعون بامتياز، برأي العامة، يفوق ما يتمتع به عموم الجنس البشري. بدا أن سائقي الجمال المكيين لا يشجعونه؛ لكنهم كانوا أقل ميلاً بكثير إلى جانبي [كان الشريف بدوياً، رجاله العنيفون كانوا واحداً أو اثنين من الهذليين اللصوصيين للمزرعة؛ وكان سائق جمل،

رفيقه، بدوياً. كان هدفه وهدفهم، بعد أن يقتلوا الكافر أن يستولوا على الناقة وعلى أشيائي].

عندما جاءنا بسكينه، ورآني لا أزال واقفاً، ويدي في صدري، مكث بتعجب وتثبيط. على العموم بين كل ثلاثة عرب يوجد وسيط واحد، إذ إن نفوسهم سرعان ما تُنهك، والمتفرجون اللامبالون يميلون إلى الرفق والمشورة الحسنة. لذلك انتظرت أن يفتح أحد ما فمه بالنيابة عني! لكن لم يكن ثمة أي رجل. نظرت في عيني الرجل؛ ولكونه متقلب الرأي، كما عدد كبير من البدو الفقراء، فقد كان من غير الممكن له أن يقبل ذلك؛ لكن، وهو يسحب خنجره، حبس نفساً عميقاً (كان واهناً كما العدد غير القليل من الناس في تلك الحياة القاحلة، في منتصف العمر) وقام بهجوم مخادع بالسلاح على صدري؛ وهكذا بتنهيدة أنزل ذراعه وأعادها إليه مرة أخرى، ثم رفع السكين وقاس ضربته، كان رجلاً ناقص النمو؛ وأنا أراقب عينيه أملتُ أن أتفادى الطعنة على ذراعي الأيسر، مع أنني وقفت لكن بوهن على قدمي، فقد كان من الممكن أن أصدّ ضربته باليد الأخرى؛ وعندما أُجرح أدافع عن نفسي بالمسدس، واخترقهم.

كان محبوب قد نهض، وجاء يعرج مرة أخرى بسرعة؛ وأبعد الشريف قاطع الطريق، وهو يمسكه من يده قال له: «ما هذا، يا شريف سالم؟ إن جدة قصفت بالقنابل! ـ وكان ذلك لأجل دم البعض من شعب هذا الغريب؛ انتبه ماذا تفعل. إنهم الإنكليز، الذين يرسلون سفناً حربياً ضخمة منْ أجل أي واحد يُذبح منهم؛ ويدمرون مدينة. وهل فكرت بمولانا الشريف وهل تعتقد أنه سوف يوفرك، وأنت تجلب هذه المتاعب عليه؟ لا تفعل شيئاً ضد حياة هذا الشخص، الذي ليس متهماً بأية جريمة، ولم يعثر عليه ضمن تخوم مكة. ـ لا! يا شريف سالم، كرمى لسيدنا الحسين (الأمير شريف مكة) هل الغريب نصراني؟ هو لم ينكر ذلك، ألا يوجد نصارى في جدة؟».

جعله محبوب يعد بالسلام. مع ذلك فإن الشريف البدوي الذئبي لم يكن كذلك، بكلمة واحد، ليخيب أمله من فريسته. لأنه عندما عاد الزنجي العجوز

إلى مأواه، اقترب من جديد حاملاً السكين؛ وأقسم بالله أنه الآن سيقتل النصراني. إن محبوب، وقد رأى ذلك، صاح به، أن يعود إلى صوابه! وتظاهر المتفرجون كما لو أنهم يوقفونه. إن سالم لم يعد مؤيداً من قبلهم، فبدأت معنوياته تنهار، هكذا يهب الله للبقرة العنيفة قرناً قصيراً ـ سمح لنفسه بأن يقتنع. لكنه وهو يثب إلى الناقة، التي كانت كل ما استقر عليه، صاح قائلاً: «على الأقل هذا نهب!» نزع شرشفي عن السرج، وبدأ برفع الحقائب الكبيرة. ثم قام أحد مرافقيه بنتش عقالي وكوفيتي، لكن الآخرين لاموه. ركض هذيلي خفيف القدمين إلى بيته بالشرشف؛ فيما قام الآخرون (من الخلف) بخطف عباءتي؛ وكان سائقو الجمال لا يزالون واقفين في هذا الهرج والمرج. تلقيت كل شيء بصبر؛ ونظراً لكوني لا حاجة أخرى لي، هنا تحت الشمس الاستوائية، تخليت عن عباءتي أيضاً، جاء محبوب يترنح مرة أخرى نحونا. أخذ حقائبي السرجية لنفسه؛ وهو يخلعها، أجلسني بقربه. إن سالم النادم ـ عندما رأى أن الغنيمة ذهبت منه ـ كونه لم يقتل الغريب، استل سكينه من جديد، واتجه نحوي، بعزم صارم ظاهرٍ في وجهه الحقير، وهو يصيح، أنه سيقتل اليهودي ـ النصراني، لكن في هذا الوقت قام المتفرجون بكبحه.

قال محبوب: «أقول لك، يا شريف سالم، إنك إذا كانت لك أية قضية ضد هذا الغريب، فيجب أن تطرح أمام مولانا الشريف، لا يجوز لك أن تفعل شيئاً بالقوة».

«اوه لكن هذا هو الذي سرق عبر بلاد مولانا».

«لا يمكنك أن تتهمه، إذ يجب بأي شكل أن يمثل أمام مولانا حسين. أعهد به إليك يا سالم، تسليماً؛ اجلبه بأمان إلى حسين، في الطائف».

وافق الباقون من حولنا على مبررات محبوب، وخضع سالم، ـ وهو يقول: «آمل إن شاء الشريف أن يشنق هذا النصراني، أو يقطع رأسه؛ وأن يهبني الناقة».

بصرف النظر عن الإرهاق وخطر العودة على أعقابي، بدا أنه يقدم لي خدمة إذ إنني ينبغي أن أزور الطائف ......

الرحلة إلى الطائف. النصراني يُهاجم بعنف. الوصول إلى الطائف. حاشية الشريف، أمير مكة.

. . . . في وقت متأخر من النهار جاء سالم إليّ مع محبوب وعبد العزيز؛ الذين كانا قد استراحا في ركن آخر من القهوة! ـ بالتأكيد لو كان لديهما قيمة أخلاقية (لم يكن ثمة شيء من ذلك لدى عبد العزيز)، لما تركاني وحيداً في هذه الحالة. أخبرني محبوب، أنني ينبغي أن أرحل في المساء مع رجال القافلة؛ وهكذا تركني مرة أخرى. ثم إن سالم، بحماسة زائفة، قام بجرد أمتعتي ـ فرأى الغنيمة! نادى بعض سائقي الجمال الأميين ليكونوا شهوداً. أخرجت كل ما كان في حقائبي، ورميته أمامهم، فصاح سالم بإلحاح شرس: «لكن الفلوس، الفلوس! المال! المال بحيث لا يكون بعدئذٍ أي سؤال أريني إياه كله، أيها النصراني!».

ـ «حسناً، ناولني علبة الدواء تلك؛ وهنا، ريالاتي القليلة ملفوفة بخرقة!».

قام سائقو الجمال بجمع العيدان؛ وأضرموا نيران حراسة، أخذوا الطحين والماء، وعجنوا العجين وخبزوا العابود تحت الرماد؛ لأن الوقت كان يقترب من المساء. أخيراً رأيت ضوء النهار هذا يكاد ينطفىء، ثم نهض الرجال، ورفعوا الأحمال على دوابهم. تسير جمال قافلة هذه البلدة في رتل، وكلها مربوطة، كما في سوريا. ووضعت حقائبي أيضاً على ناقة بسام.

وجعلني سالم اركب مع مرافقه فهيد، البدوي، أو المالك نصف البدوي لهذه الجمال. «اركب في الشداد! يا خليل النصراني».

[لكن هكذا يمكن للرديف أن يطعنني من الخلف، في الليل!] قلت: «إنني سأجلس راكباً خلفياً (إلى الوراء)».

وكنت مرهقاً لدرجة لا يمكنني معها أن أبقي نفسي على السرج. انتشرت كلماتي! لأن كل العرب يرقون لوهن الحياة البشرية، حتى لدى أعدائهم. مع ذلك كان سالم أحمق مغروراً خطيراً؛ لأنه لو أن أحداً شتم النصراني على مسمع منه لاحمرت عيناه وتحسس سكينه مرة أخرى.

بهذا الشكل رحلنا، والنصراني سيشنق، كما كانوا يظنون، بالحكم العادل للشريف، في الطائف طوال الليل سنخطو صعوداً إلى ارتفاع السيل. كان فهيد في السرج؛ وكان النذل، في أوهامه، فزعاً من النصراني! رغم كونه خبيثاً، ومع أنه أكثر جشعاً، فقد بقيت فيه طيبة إنسانية، لأنه بمجرد أن فهم أنني عطشان ترجل عن ناقته، وذهب إلى جماله ليجلب الماء. رغم أنني سمعت أنه من البدو الرحّل، وعاداته من عاداتهم، مع ذلك فقد كان يتكلم بتلك اللغة العربية الهجينة لمدن الحكومات الكبيرة دمشق وبغداد ومكة. لكن نفاد صبره كان غير معقول، لأنني إذ كنت رجلاً منهكاً لم أستطع أن أسوق الناقة المنهوكة القوى على هواه، فظن أن النصراني يتلكأ ليهرب منهم!

أمامنا على مسافة قصيرة كان يسير مسافرون مكيون إلى الطائف، مع صغار الجمال. تلك المواكبة كانت أسرة رجل، هذا الرجل الطيب، الداكن البشرة مثل أهل الهند وتحت السن المتوسط، كان تاجراً ثرياً في مكة. كان يسير بجانب حريمه سيراً على الأقدام، بسترته البيضاء فقط وعمامته، ليمط أطرافه السمراء ـ التي كانت مشكّلة بشكل جيد جداً ـ ويتنفس بنفسه في هواء الجبل. [كان الحر في مكة، بحيث إن جراحاً عسكرياً تركياً شاباً، رأيته في الطائف، أخبرني أنه قد سجل هناك في تلك الأيام رقماً قياسياً بلغ 46 درجة مئوية]. سار رتلنا المكون من تسعة جمال ببطء إلى جانبهم، لكن عندما سمع

التاجر المكي المتملق أن الغريب الذي يسافر مع سائقي الجمال هو نصراني، صاح: «اخس! نصراني في هذه الأصقاع؟» وبالهمجية البغيضة لدينهم (الغيور)، أضاف: «الله يلعن أباه!».

ركب رجال القافلة على دواب الحمولة وهم يتناولون عشاءهم البائس، من الخبز الذي صنعوه. إن سالم، الذي تمدد على الطريقة البدوية على جمل، ناولني قطعة خبز، عندما مررت بجانبه؛ وعندما بدأت بالأكل طلبت منه أن يتذكر أنه من هنا فصاعداً صار بيننا خبز وملح، - وانظر، قلت: «إنك لست مزيفاً، يا سالم».

- «لا والله، أنا لست خاين، لا يا خليل».

كان البائس المتوعك يعاني من آلام معوية، التي ربما كانت سبباً لمزاجه النكد. لام إحناء رأسي نعاساً؛ ودعاني أن أجلس بسرعة. «استيقظ، يا خليل! وانظر إلى الأعلى! لا تغمض عينيك طوال الليل! - أقول لك إنك لا يجوز أن تغفو لحظة؛ هذه ممرات خطيرة ومليئة باللصوص - الهذيل! الذين يسطون على النائمين؛ استيقظ! لا يجب أن تنام». كانت الجمال تسير أكثر بطئاً؛ لأن السائقين كانوا يستلقون وهم غافون على أحمالها، هكذا قضينا الليل المرهق. تخلى فهيد عن الركوب معي في منتصف الليل، عندما ذهب ليتمدد على ظهر أحد جماله التسعة؛ وتبعه سائق فتي. هكذا يغفو هؤلاء الرجال البائسون ليلتين من كل ثلاث، ويتثاءبون في ساعات النهار - التي تكون حارة جداً بالنسبة لدوابهم المحملة - في محطة العين أو في السيل.

تسير الجمال من تلقاء ذاتها، بسرعة النمل. - «خليل! قال الغلام السائق، الذي كان آنذاك يجلس في سرجي، احذر اللصوص!». في حوالي الصباح، كنا كلانا نكبو ونغفو، والناقة التي حادت عن الطريق حملتنا إلى تحت شجرة أكاسيا شائكة. كنت سعيداً، في هذه المغامرات من السفر الليلي في الجزيرة العربية، أنني لم أوذِ عيني. تمزقت سترتي! - استيقظت؛ وأنا أتطلع حولي رأيت شخصاً يأتي سيراً على القدمين خلفنا. «ما هذا؟» قال

الرجل الغريب، وهو يقفز نتش الحزام المنسوج من الصوف الذي كنت أرتديه في السفر! هززت زميلي لكي يستيقظ؛ وضربت على الناقة؛ وسألت الغلام الغر، «إن كان ذاك الرجل واحداً من أصحاب الجمال؟ هل رأيته بينهم؟ لكن هذا لص وسيأخذ ما لك». خبت الناقة المنهوكة خطوات قليلة وتوقفت. كان الرجل في الحال قريباً خلفي مرة أخرى، ربما كان هدفه هو أن ينزلني؛ لكن هل كان هذيلياً أو خلافه، لم يكن بإمكاني أن أعرف. لو ضربته، وكان الرجل صاحب جمال، ألن يقولوا: «النصراني قد ضرب مسلماً؟» لم يرجع؛ وكان الغلام في السرج مثقلاً بالنوم. لم أجد خطة أفضل من أن أريه مسدسي - لكنني اعتبرت ذلك نحساً شديداً، وهكذا مضى في طريقه. سمعت أننا سنرتاح. عند شروق نجمة الصبح، كان الكوكب بارتفاع ساعة، وكان الفجر يبزغ عندما بلغنا الأغصان المنتشرة لشجرة أكاسيا معمرة كبيرة.

يوجد الكثير من هذه الأشجار المنزلية وظلال الصخور، في تلك المحطة المفتوحة، حيث لا توجد قهوة! اضطجعنا لنأخذ قيلولة وبعد زمن قصير أشرقت الشمس. ترتفع الشمس في خط العرض هذا؛ ويجب على النائم أن يغيّر مكانه، عندما ينحسر الظل.

«خليل (قال المعذب) ما هذا النعاس الكثير؟ لكن الشيء الذي تخفيه في صدرك، ما هو؟ أرني إياه».

- «لقد أريتك كل ما في حقائبي السرجية؛ إنه من العار أن تفتش رجلاً».

- آها! قال صوت أجش من خلفي، إنه يحمل مسدساً، وإنه قد أطلق النار علي في الليلة الفائتة».

لقد كان نحساً كبيراً أن يكون هذا التعيس واحداً من أصحاب الجمال؛ والأشخاص من حولي كانوا بهذا المكر القاسي في حياتهم التي أضناها السفر، بحيث إنني لم أستطع أن أوقظ فيهم أي حس بشري مشرف. قال

سالم: «أرني، بدون مزيد من التردد، كل ما تحمله هناك (في صدرك)!» - وهناك اجتمع حولنا أكثر من دزينة من سائقي الجمال.

رفع الشريف المجنون السكين مرة أخرى في يده! وحقده القديم يرتفع: «أرني كل ما لديك، صاح، ولا تترك شيئاً؛ وإلا سأقتلك». - أين كان محبوب؟ الذي لم أره منذ الليلة الماضية. «كان فيه جبن وحماقة الأصدقاء العرب.

«تذكر الخبز والملح الذين أكلناه معاً، يا سالم!».

- أرني كل شيء، وإلا والله سأذبحك بهذه السكين».

تجمع متفرجون آخرون من أماكن الاستظلال، صاح بعضهم: «دعونا نقطعه إرباً إرباً، الملعون ما الذي يمنع؟ - أيها الرجال، دعونا نقطعه إرباً إرباً!».

- «اصبروا لحظة، وأبعدوا هؤلاء، صاح سالم، وهو يرفع سكينه، إلا إذا أريتني كل شيء في الحال، سأذبحك!».

لكن وأنا أنهض وأتراجع عنهم قليلاً قلتُ: «لا تدعوا أحداً يفكر في أن يأخذ مسدسي!» الذي استللته من صدري.

ماذا سأفعل الآن؟ الدنيا أمامي؛ فكرت، هل أطلق النار، إذا باغتني الأوغاد؛ ولم تخطىء أي طلقة؟ إذ يمكنني أن أعيد التلقيم في أثناء الرعب الأول، . . . . كانت ناقتي في المتناول، وإذا كان بمقدوري أن أفلت من أكثر من عشرين شخصاً، ماذا بعدئذٍ؟ أعيد اجتياز الربعة وأبحث عن الشعاري مرة أخرى؟ حيث يأتي عتيبان غالباً إلى الماء؛ وعندما أفشل قد انطلق في مغامرة، ورغم أنني لم ألتق بأي رجل في البرية، في يومين أو ثلاثة فقد كان من الأسهل أن أنتهي هكذا على أن أمزق في الحال إرباً إرباً. وقفت بين ناقتي المنهكة، التي لم تستطع أن تنقذ راكبها، والطاقم الخسيس من سائقي الجمال الآخذين في التقدم، لمحاصرتي، لم تكن لديهم أسلحة نارية.

اقترب فهيد، فتراجعت خطوة خطوة؛ فتح ذراعيه لمعانقتي! لم يكن سوى لحظة، يجب أن أذبحه، أو أسلم سلاحي، دفاعي الوحيد؛ وستكون حياتي تحت تصرف هؤلاء الأشقياء. أمرته أن يتقدم بشجاعة. لم يكن ثمة وقت لهز الطلقة؛ فالمسدس كان لا يزال متدلياً من عنقي، وبرباط قوي قدمت عقب المسدس إلى يديه فقبض فهيد على السلاح! فكانوا الآن في أمان على حياتهم والغنيمة، خطف الحبل وقطعه ثم جاء رفيق سالم؛ وسلبوني كل ما أملك؛ وكان أول ما وقع في أيديهم الوحشية هو بارومتري؛ ثم جزداني الذي كان السيروان الشرير قد بلاه منذ زمن طويل في صدريته التركية في خيبر. إن سالم الذي شعر أنه لا توجد ريالات بداخله قام بتسليمه إلى شريكه فهيد؛ وفي يده أيضاً انتهى ترمومتري الجيبي الذي عندما وجده أنه ليس سوى لعبة من الخشب والزجاج، أعاده إلي مرة أخرى وهو يحتج بوقار شنيع، أنه لا يكن لي شيئاً سوى ذلك! ثم جلس هؤلاء اللصوص ليتقاسموا الغنيمة في أيديهم. أبدى المتفرجون تشجيعاً قاسياً، وهم يشتمونني ويهددونني، فقد بدوا أنهم ينتظرون نهوض سالم، ليبدؤوا بـ«تقطيع النصراني إرباً».

كان سالم وحليفه فهيد هما أخطر عربيان التقيت بهما؛ لأن الإنسانية الطبيعية للعرب كانت مفسَدة فيهما، بفعل العدوى القوية لبلدات الحكومة.

رأيت كيف أن الشريف اللص قد خصّ نفسه بشكل أحمق بأفضل المسروقات! قلّب سالم آلة المسدس في يده، فمثل هذه الأدوات الخاصة بالأتراك كان قد رآها من قبل في مكة. لكنه عندما عد أعقاب الرصاصات الموجودة في الحجرات، ذعر الوغد مرعوباً؛ وشكر ربه الذي أنقذه من هذه الميتات الست! تأمل الجهاز الخطير، وحدق فيّ؛ وبدا أنه يوازن في سره، ما إذا كان لن يجرب إطلاقة ضد النصراني. «اخس - اخس!» صاحت بعض الأصوات العدائية القاسية، انظروا كيف كان يحمل المسدس ليقتل المسلمين! تعالوا الآن وسوف نقطعه إرباً». كم كان اولئك النصرانيون الملاعين مليئين بالخدع الشريرة! - «أنت! كم مسلماً قتلت بذاك المسدس؟».

«يا أصدقائي لم أطلقه في بلاد العرب. ـ سالم، تذكر عين الزيمة! أتيتَ بسكين لتقتلني، لكن هل سددته ضدك؟ لذلك توجه بالشكر إلى الله! وتذكر الخبز والملح، يا سالم».

أمر شغيله فهيد، أن يفرغ المسدس؛ وخفت أنه يمكن أن يجعل مني دريئة له. أطلق فهيد الطلقات الأولى في الهواء. كانت الحجرات محشوة منذ حوالي سنتين؛ لكنها أفرغت الواحدة تلو الأخرى ـ وكان ذلك بأزيز عجيب! في المكان الصامت للصخور. قال سالم، وهو ينهض، «اترك واحدة منها!» هذه الطلقة الأخيرة تمّ الاحتفاظ بها من أجلي؛ وشعرت بالأسى أن أموت هنا بهذه الأيدي البربرية بدون دفاع. «فهيد» قال مرة ثانية: «هل كل شيء آمن؟ ـ وبقيت واحدة؟». حملق سالم فيّ، وربما كان لديه نقمة، أنني لم اقل دخيلك، سكينة الكافر أربكته. عندما تعب، ذهب ليجلس وناداني «اجلس بقربي».

«أنت تسمع الكلمات الوحشية لهؤلاء الأشخاص؛ تذكر، يا سالم، يجب أن تردّ بالنيابة عني على الشريف».

ـ «الشريف سوف يشنقك، أيها النصراني! الله يلعن اليهود والنصارى» قال بعض سائقي الجمال: «لقد كنت بأمان في بلدك، كان بمقدورك أن تستمر هناك؛ لكن بما أنك دخلت إلى بلاد المسلمين، فقد سلمك الله لأيدينا لتموت، لذلك فليهلك كل النصارى! وليحرقوا في الجحيم مع أبيك، الشيطان».

«انظروا! قلت لهم، أيها الرجال الطيبون ـ لأن العيب الأكبر هو جهلكم، فأنتم تظنون أنني سأشنق غداً، لكن ماذا إذا كان الشريف يحترمني أكثر منكم جميعاً، أنتم الذين تشتمونني اليوم! إذا كنتم تتعاملون بفظاظة معي، فسوف يتم استدعاؤكم للمحاسبة. صدقوا كلامي! حين سيستقبلني كواحد من العلماء؛ أما معكم أنتم رجال الشعب، رعاياه، فسوف يتعامل بلا احترام».

«استشنق، صاحوا مرة أخرى، أيها الملعون» وبعد ذلك تفرقوا إلى أماكن وقوفهم العديدة.

بعد ذلك مباشرة جاء إلينا مواطن مكة؛ الذي كان قد ترجل تحت بعض الأشجار على مسافة قليلة. من هذه الشخصية السلسة، زهرة التجار في المدينة المقدسة - رغم أنني احتكمت إلى عقله الأفضل، ليتكلم إلى سالم - لم أستطع أن استجر كلمة إنسانية، وامتنعَ عن الشر. حدق كفايته؛ وتركني ليذهب إلى حريمه. راقبته وهو ينصرف، وكان الشريف اللص يوبخني، أنني قد أخفيت الأشياء ومسدسي!» - بذلك تلقيت صدمة! وأصبحت فاقداً للحس بالعالم، جلست في خدار وشعرت أن جسدي يهتز ويرتعش وحسبت آنذاك، أنهم قد جرحوني بشكل قاتل بسكين، أو بطلقة! لأنني لم أسمع، كنت أرى النور كثيفاً وبشكل مشوش. لكنني وأنا أعود ببطء إلى نفسي، حالما استطعت أن أرى الأرض رأيت أنه لا يوجد دم، شعرت بخدر وموات في قفا العنق. بعد ذلك عرفت أن فهيد قد ضربني بشكل وحشي هناك بعصا السوق، وضربني مرة أخرى، بكل قوته.

تطلعت إلى الأعلى فوجدتهم جالسين بقربي. قلت بوهن: «لماذا فعلتم ذلك؟».

قال فهيد: «لأنك احتفظت بالمسدس».

«هل المسدس لي أم لكم؟ كان من الممكن أن أقتلكم به! لكنني تذكرت رحمة الله».

جلس أحد رجال القافلة بقربنا وهو يأكل - كفّ عن التلفظ بألفاظ جارحة ضدي، كان الرجل الذي هاجمني في الليل، وأنزل بي كثيراً من الأذى. فجأة أمسكت يده مع الخبز؛ ووضعت بعضاً منه في فمي، قلت له: «يكفي، يا رجل! يوجد خبز وملح بيننا». سمح التعيس بذلك، ولم يتفوه

بكلمة أخرى. لم أجد أحداً سوى سالم خارقاً لهدنة الخبز والملح، لكنه كان من رجال الدين.

جاء إلينا شخص راكب على حمار، كان عبد العزيز ومحبوب قد سمعا صوت الطلقات، عندما جلسا يرتاحان على مسافة هناك! لأنهما وهما اللذان كانا يسافران معاً إلى الطائف، قد وصلا إلى هنا في الليل؛ ولم أكن مدركاً لذلك. عندئذٍ أرسل محبوب هذا الشاب (غير الجدير باسم بسام) ليعرف ما إذا كان لا يزال حياً؟ سال عبد العزيز وهو يشاهد المسدس في يدي سالم وأسيره حياً «لماذا سلبت مسدس الرجل؟».

قلت له: «ها أنت ترى كيف هددني هؤلاء الرجال الجهلاء، قل كلمة لهم كرمى لعمك عبد الله».

لكنه قال، بنظرات متعصبة بغيضة: «هل أنت فرنجي؟» وامتطى دابته مرة أخرى، وغاب عن النظر.

بعد هذه الأحداث، كان سالم يمتلك الغنيمة في يديه، وهو خائف أن يفقدها مرة أخرى في الطائف، فخطر بباله أن يرسلني إلى جدة، على ناقة بسام. «ها! يا خليل، لقد أصبحنا أخوة، يا خليل، ألسنا الآن أصدقاء جيدين؟ لم يعد ثمة شيء بيننا، ماذا تقول؟ هل تريد إذاً أن نرسلك إلى جدة، وأنا بنفسي أركب معك على الناقة؟» لكنني أجبت: «أنا ذاهب لزيارة الشريف، في الطائف، وأنت سوف تتهمني هناك، وتوضح كل شيء أمامه»؛ «في جدة ستوضع في السجن - صاح بعض المتفرجين - دعه يذهب إلى الطائف».

عاد رسول من محبوب، يدعو سالم وخليل وفهيد للمجيء إليه. عندما ذهبنا تطلعت إلى الوراء، فرأيت فهيد مشغولاً بالتنقيب في حقائبي الإبلية! - بعد ذلك لحق بنا. كان بسام الشاب يجلس تحت ظل بعض الصخور مع

محبوب. «هل أنتم رجال؟ قال محبوب، هل أنتم رجال؟ يا من تعاملتم بهذه الطريقة مع هذا الغريب!».

حكيت له كيف سلبوني، وماذا عانيت على أيديهم. كنت لا أزال (وبقيت طويلاً بعدئذٍ) مدوخاً بفعل الضربات على العنق.

قال محبوب: «شريف سالم، أنت ستجلب هذا الغريب إلى مولانا حسين في الطائف، ولا تسبب له مكروهاً في الطريق. كيف يمكنك أن تسلب وتجرح شخصاً موضوعاً في عهدتك، مثل أسوأ اللصوص البدو؟ لكنني أعتقد جازماً أن أحداً من البدو ما كان ليفعل مثل ذلك».

قال سالم: «أليس هذا نصرانياً؟ كان من الممكن أن يقتلنا جميعاً في الطريق، لم نفعل شيئاً سوى أن أخذنا مسدسه وأشياءه الأخرى».

«لأنكم كنتم خائفين؟».

«أنا أعرفك، يا سالم لكن كان عليك أن تحسب حساباً لمولانا الشريف». هكذا صرفنا؛ وعدنا إلى مكاننا.

خطر ببالي، أن أذهب مرة أخرى إلى محبوب، كان الرمل حارقاً مثل الجمر تحت قدمي الحافيتين، بحيث إنني بعد كل بضع خطوات كان عليّ أن أسقط على ركبتي لأتذوق الراحة للحظة. كان محبوب هو حامل مظلة الشريف؛ وخادماً أميناً قديماً لأخيه، الشريف المرحوم سألت: «لماذا تخلّى عني بهذا الشكل الغريب حتى الآن؟ أو كيف أمكنه أن يسلمني إلى ذاك السالم المجرم! الذي كان هو نفسه يسميه شريفاً مجنوناً؛ هل كان يتطلع إلى رؤيتي حياً في الطائف! إنني أعزل الآن، عند المنعطف التالي قد يطعنني؛ لذلك فهل تركب معي على الناقة! - «خليل، بسبب مرضي لا يمكنني أن أركب في السرج». عندما قلت، إنني سوف أسكّن آلامه أجاب الزنجي الفاضل، «هذا بعيد عني! لأنه واجبي، أدين به إلى مولانا، الشريف، لكن إذا كان لديك علاج لمرضي، أتوسل إليك، تذكرني في الطائف».

كان بسام الشاب يعاني من الحمى، مع أزمة يومية. أتيت إليه عند الظهر؛ وعندئذٍ هو الذي لم يشأ مؤخراً أن يتكلم كلمة لإنقاذ حياة الفرنجي، بصوت مجهد بقدر ما هم جبناء وعديمو الرجولة، توسل إليّ أن أسعفه، فأجبت، «في الطائف!» إذا كان قد ساعدني في المرة الأولى، كرمى لعمه الطيب، فأنا لست الآن ضعيفاً أكثر مما ينبغي لأبحث عن الأدوية. وعدته، إذا ركب معي الليلة، أن أعطيه دواء لقطع الحمى غداً، لكن العرب لا يثقون بالوعود البعيدة.

طال الأمر إلى منتصف بعد الظهر، عندما سمعت أننا سنتحرك؛ ثم أمرني بسام الشاب المغفل أن أنهض وأساعد في تحميل البسط على جمله. لم أنكره؛ لكنني لم أكن أمتلك كثيراً من القوة؛ ومحبوب، الذي كان يلوم تسرع الشاب، جعلني أبقى جالساً في الظل ـ ركب محبوب جالساً على حمل البسط؛ وعندما نهض الجمل تحته، كاد الزنجي العجوز الثقيل أن يسقط. مرة أخرى سألته، ألّا يتخلى عني؛ وأن يتذكر كم عدد الساعات المظلمة أمامنا على الطريق.

عدت مسرعاً إلى شجرتنا. كان رجال القافلة قد رحلوا؛ وكان الشريف اللص، الذي بقي مع الناقة مغتاظاً من تأخري. ركب في السرج، وركبت مرة أخرى إلى الوراء (بالمقلوب). كان لسالم مرافق جديد، سافر معنا طوال الطريق، وكان اسمه إبراهيم الذي كان سمع من أي بلد أنا فبدأ يقول: «هذا إنكليزي جاء في الباخرة معي إلى جدة؛ ـ كان والله مسلماً طيباً ومثالياً! البارحة دخل مكة، وأدى صلاته، وهذا الإنكليزي الذي أحكي لكم عنه، يا شريف سالم، هو الآن مقيم في مكة، لزيارة الأماكن المقدسة».

كان إبراهيم الذي يستلقي تحت شجرتنا الظليلة، حيث وصل متأخراً، قد ازدراني مرات كثيرة، وهو يصرخ بخبث: «كلب! كلب! أنت كلب» لكن عندما سرنا بدأ يبتسم للنصراني بين المودة والعداوة، وأخيراً قال: «لقد كنت في حائل؛ ولا تتذكرني؟ ـ لقد تكلمت معك هناك؛ وأنت خليل». ما أغرب

هذه اللقاءات مرة أخرى في اتساع الجزيرة العربية الخاوية! لكنك تردد كثيراً إلى حائل، وكنت قد أمضيت شهراً طويلاً هناك. إن العربي الخفيف الجسم سيسافر، على ناقته، بسرعة الخطو مئات الفراسخ من أجل هدف عديم الأهمية، وهناك القليل مما يقلقه أكثر من تذكر أنه غائب عن بيت أسرته وأولاده.

«لقد عرفتني إذاً منذ زمن طويل في هذه البلاد؛ والآن تابع القول أمام هؤلاء الغرباء، إذا كنت تستطيع الادعاء البتة ضدي».

«لا شيء، سوى كفرك».

ركب إبراهيم على جمل عربي؛ كان راكبه الخلفي سائق جمل مسموم المزاج، كان عند كل توقف لكلامهما يهزّ عصاه في وجهي، وعندما يمشي كان في بعض الأحيان يثب خطوتين كما لو أنه يدوس على الكافر، وكان ثمة خطر في أن يرى سالم شخصاً آخر يسيء إليّ، ـ ذلك أنه في مثل هذه الحالة لن يكون مهزوماً، ويمكن أن أرى سكينه مرة أخرى، لذلك قلت لإبراهيم (ومسدت لحيتي)، «بلحيتك أيها الرجل، ومن أجل معرفتنا القديمة في حائل!». أقرّ إبراهيم بالتذكار؛ ويبدأ يبدي للنصراني سيماء أكثر وداً. «إبراهيم، هل سمعت أن الإنكليز شعب سيء؟».

«لا، كلش طيب، ....».

ـ «هل هم أصدقاء السلطان، أم أعداؤه؟».

ـ «أصدقاؤه، الإنكليز يساعدونه في الحروب».

سالم: «حسناً يا خليل، دعنا من ذلك؛ لكن قل لي ما هو دين النصارى؟ كنت أعتقد بالتأكيد أنه شيء رهيب!».

ـ «أن تخاف من الله وتحب جارك، هذا هو الدين المسيحي، طريق عيسى ابن مريم، من روح الله».

«مَن هو عيسى؟ ـ هل سمعت بهذا الاسم، يا إبراهيم؟».

«الله يلعن عيسى وأبا عيسى». صاح رديف إبراهيم: «اخس، ماذا تفعل بدينك، أيها النصراني؟». أجابه إبراهيم بشكل متزن: «لكنك بهذه الكلمة تجعل نفسك كافراً، إذ تكفر بنبي من أنبياء الله» أجاب سائق الجمل، نصف مشدوه «أعوذ بالله» لم أكن أعرف أن عيسى كان نبي الرب!».

«ما رأيك يا سالم؟».

«والله يا خليل، لا يمكنني القول، لكن كيف تقول، روح الله! ـ هل هذا حديثك الكافر؟».

«يمكنك أن تقرأ ذلك في القرآن، ـ ما قولك، يا إبراهيم؟».

«وبالصدق، يا خليل».

كان ثمة مسافرون كثيرون في الطريق؛ صبّ البعض منهم اللعن عليَّ عندما مررنا بهم، وأعار سالم أذنيه المرهفتين لكل كلامهم الباطل. كان عقله يرتعش لكل كلمة جديدة. «لا تصغ إليهم، يا سالم، إنهم هم النصارى!». فأجاب مثل نمرود، «أي بالله، إنهم بدو وكافرون؛ لكن هكذا هو جهلهم في هذه الأصقاع!» لم يكن بمقدور رديف إبراهيم أن ينسى كلياً ضغينته؛ وبدأ عقل سالم مرة أخرى بالتشوش، لأنه عندما قلت «لكن سيكون من الأفضل لك أن تتعلم عن كل ذلك في الغد». صاح قائلاً: «أنت تكذب مثل النصراني المزيف، الشريف سيقطع رأسك غداً، أو يشنقك، وإبراهيم، آمل أن مولانا سوف يخصّني بالناقة».

وصلنا إلى غدير سيل، من الحصباء الغرانيتية، مع بعض النمو للأعشاب النضرة والنعناع البري؛ وحيث يمكن حفر الحفر للوصول إلى الماء العذب باليدين. هنا يترجل المسافرون عصراً إلى الطائف، ليشربوا ويتوضؤوا للصلاة.[يقال عن هذا الموقع إنه «عكاظ»، البرلمان السنوي ومكان التبجح لقبائل الجزيرة العربية قبل الإسلام: يبلغ الارتفاع ما بين 5,000 و6,000

قدم]. عندما توقفنا رحل معنا عبد العزيز ومحبوب؛ وذهبت لأسأل بسام الشاب إن كان سيركب معي هذه الليلة، وهل سأكافئه؟ اعتذر، بسبب الحمى، لكن ذلك لم يكن يمنع امتطاءه حماراً. كان سالم مشغول الذهن كثيراً فلم يعرف ما الذي تكلمته معه؛ وعاودنا الركوب.

عندما صعدنا عبر أمكنة ضيقة من الصخور؛ وأتينا على طريق ممهّد، يستمر لبعض الأميال، مع درجات وممرات مفتوحة عن طريق النسف بالمتفجرات! ـ هذا الدرب أحدثه مؤخراً المهندسون الأتراك على نفقة الحكومة. بعد ذلك سرنا في سهب سار يستمر حتى الطائف.

كنا قد تجاوزنا القافلة البطيئة، وصرنا الآن وحدنا في القفار. رافقنا إبراهيم، ـ كنت أشك فيه. قالوا إنهم سيمضون إلى الأمام، ضُرب جملي الخشبي بقسوة وجُعل يركض؛ وكان ذلك بالنسبة لي مصدر كرب. كان سالم قد رد على البعض الذين سألوه عن سبب عجلتنا، عندما تجاوزناهم على الطريق، أنه سيتخلص من النصراني، عندما يغيب عن النظر. لم يكن السلابون قد تركوا لي حتى سكين جيب، عند السيل كنت قد لففت حجراً خفية في منديلي، كسلاح.

أخيراً غابت الشمس، إنه الغسق حالياً؛ واستفسر إبراهيم من سالم، لماذا يسير هكذا، بلا تمهل. قال سالم: «لكن دعونا نسبقهم وننام ساعة في منتصف الطريق، إلى أن تأتي إلينا الجمال؛ خليل، استيقظ اصحَ ولا تنم! (لأنني نكست رأسي على ظهره) اوه! خلِّ عينيك مفتوحتين! هذا طريق خطر بالنسبة لك». لكنني تابعت غفوتي، وكنت غالباً معرضاً لخطر السقوط. ثم وأنا أتطلع إلى الأعلى، رأيت أنه كان يحدق نحو الوراء إليّ! لذلك قال برقة أكثر، «هل أنت نائم، يا خليل النصراني؟ ـ ما هذا! عندما قلت لك لا، لست خائفاً!».

ـ «أليس الله في كل مكان؟».

ـ «أي، والله يا خليل».

مثل هذه الكلمات التقية هي شهد العسل للعرب، وقلوبهم القاسية تدهش بالدين ـ «أتخاف من الموت!».

ـ «لم أعش هكذا، مسلماً، بحيث يجب عليَّ أن أخاف أن أموت».

نظر إلي البائس! وشاهدت مرة أخرى وجهه البشري بصعوبة، كانت الوجنتان مخدوشتين بثلاثة جروح على جهة واحدة! إنه تقليد في هذه الأصقاع، كما في إفريقيا الزنجية؛ حيث يمكن بمثل هذه العلامات تمييز قبائل الناس.

يكون هواء مساء الصيف عليلاً في هذه القفار المرتفعة. مررنا بمنبع ماء بين الأشجار، وقد وددنا أن نتوقف لكن إبراهيم لم يرد على ندائنا! كان قد تجاوزنا في العتمة. إن سالم، اللامبالي بالكلمات المعسولة التي تبادلناها مؤخراً، قد أسماه «الرجل الصفيق» وشتمه. «ومن يكون الرجل، يا سالم؟ كنت أظن واثقاً أنه كان صديقاً لك».

ـ «ما الذي يجعله صديقي؟».

ـ «شيطان! لا أعرف عنه سوى أنه من المدينة».

ـ بعد ذلك التقينا به في الظلام؛ وقال إبراهيم، «لم يسيروا قدماً إلا لكي يصلّوا. وهنا، قال، مكان جيد؛ دعونا نترجل ونتعشى». كان لديهم خبز، وكان لديَّ تمر، جلسنا لنأكل معاً. وحده الرديف بقي بعيداً، خائفاً أن يكون من غير المسموح له أن يأكل مع كافر، لكن عندما تشارك معنا، بناءً على دعوتهم، حتى مكر هذا الرجل قد بطُل. سألت إبراهيم، هل كان يعرف عائلة النجومي في المدينة؟. «حسناً، قال، أنا أعرفهم، إنهم ليسوا سوى حدادين».

ركبنا وسرنا قدماً، عبر السهل المفتوح؛ ورأينا نيران خيام البدو الوماضة الكثيرة. كان من رأي سالم أن نعرج جانباً على أحد ما؛ حيث قال:

يمكننا أن نشرب قليلاً من الحليب. لقد كان ذلك خطراً على الكافر، وكنت مسروراً عندما تجاوزناهم؛ رغم إنني كنت أرغب في رؤية أعراب الريف.

ـ وصلنا أخيراً إلى المناخ أو استراحة منتصف الطريق للمسافرين. في الليل المظلم استطعت أن أرى بناءً طينياً مرتفعاً، وأكمة من الأشجار. غير بعيد عنها توجد البيوت الريفية والمزارع الممتدة الأخرى للطائف. سمعنا حميراً تنهق، وكلاباً تنبح في بعض المنازل حولنا. ترجلنا واستلقينا هنا على الرمل بعباءاتنا؛ وأخذنا قيلولة لمدة ساعتين. ثم مرت بنا مرة أخرى أرتال جمال القافلة، التي تسير ببطء في الطريق، الذي صار محفراً، سائقو الجمال يستلقون نائمين على أحمالهم. عاودنا الركوب، ونحن نمر أمامهم في الظلام سرعان ما ضيعنا الطريق بعد ذلك قال إبراهيم: إنهم سيتابعون المسير إلى الطائف، بدون نوم؛ ولم نره بعدُ.

في غشاوة الصباح استطعت أن أرى أننا وصلنا إلى أسوار بستان؛ وفي أسيجة الكرمة الخفيفة النامية، وأشجار التين؛ لكن لم يكن ثمة سوى عدد قليل من جذوع النخيل غير المزهرة [التي لا تثمر في الطائف، حيث التربة والماء حلوتان][1]. والآن هبطنا طريقاً ـ طريق في الجزيرة العربية! لم أكن قد رأيت طريقاً [معبداً] وأسيجة خضراء منذ دمشق. مررنا ببيت أو اثنين مبنيين إلى جانب الطريق؛ ولم نر مثل هذه البيوت الطينية من الجزيرة العربية، سوى البيوت المطلية والمزججة في تركيا. وصلنا ليلاً إلى الطائف؛ وذهبنا أمام فيللا الشريف المرحوم، حيث كان يمتلك في حياته منتجعاً فيه أزهار! [الأشراف عموماً هم رجال من نسل أمهات اسطنبوليات]. كانت الحديقة قبلئذٍ قد آلت إلى الخراب.

حوّل سالم الناقة إلى حقل، على يميننا؛ وترجلنا وجلسنا لننتظر مرور النهار. تركني ليذهب ويتفرج من حولنا؛ وسمعت نداء بوق فالطائف مكان

---

(1) عدم إثمار نخيل الطائف ليس لأن التربة والماء حلوان وإنما لأنه لا يأتي في الطائف حرّ شديد فالنخيل تثمر في الجو القاري شديد الحرارة شديد البرودة.

محروس بحامية عسكرية. عندما عاد سالم وجدني غافياً؛ وسأل إن لم أكن خائفاً؟ عاودنا الركوب وأحدثنا ضوضاء لنسوق الجمل فوق غدير فاتر، يجري بقوة. هكذا وصلنا إلى مزرعة أشراف، تقع قبل الطائف بقليل؛ وشددنا الرسن للحظة قبل شروق الشمس، عند بيت ابن عم سالم.

ناداهم في الداخل، بالاسم! فلم يجب أحد. كان الرجل الطيب في سفر؛ ولم يكن بمقدور زوجاته أن تأتين إلينا. لكنهن، وهن يسمعن صوت سالم، أرسلن صبياً، أدخل أشياءنا إلى البيت؛ وتبعناه. هذا البيت الفقير في ريف مكة كان بلاطاً صغيراً ذا أسوار طينية عالية؛ مع حجرة أو اثنتين؛ مبنيتين تحت الجدران. هناك وجدنا امرأتين من نساء (الشريف) وكانتا عاملتين تشتغلان مثل تلك الشراشف المحبوكة بالخيوط والألوان كما رأينا في تيماء. وكانت أسرة بدوية؛ لأن الحريم أخبرنني أنهم يعيشون في الخيام، بعض أشهر السنة، ويشربون حليب الماشية الصغيرة والجمال [النوق]. كان البيت بدوياً أيضاً بخلوه من الأثاث، وبؤسهم، لأن الرجل الطيب لم يترك شيئاً إلا قليلاً من الذرة المطحونة؛ ومنها خبزن في الحال كعكة بالكاد تبلغ أربع أونصات، لأجل فطور الضيوف. كانت أصواتهن ترن جوفاء من الجوع، مهدودة وكانت تقطعها التنهيدات، لكن النساء النبيلات الفقيرات تكلمن إلينا بلطف نسوي ثابت، وتعجبت لهذه الأخلاق اللطيفة، التي لم أرها حتى الآن في الجزيرة العربية. إنهن الأولاد الفقراء لمحمد (ص). فسلطان الإسلام كان من الممكن أن يقبِّل بتبجيل يد أدنى شريف؛ كما أن من عادته أن يقبل يد الأكبر سناً من عائلة أشراف مكة (الذين هم سجانوه ـ وعلى طريقة الأسرى) في اسطنبول.

لقد تمّ الاتفاق بيننا على ألا تقال كلمة واحدة عن ديني الغريب. تكلم سالم عني كغريب التقى به في الطريق. كان ذلك جديداً عليّ، في هذه البلدان الغيورة، أن تستضيفني امرأتان منفردتان. فهذا الزوج من النساء الحزينات (كبرى وصغرى) كانتا ضرتين زوجتين لرجل واحد، سوف نعتبره شخصاً معوزاً. لم يكن ثمة قهوة في ذاك المكان البائس؛ لكن بناءً على طلب سالم

أرسلن [الولد] للاستعارة من جيرانهن، فعاد الولد بست أو سبع حبات من البن. ومن هذه غلين القهوة لأجلنا، في وعاء فخاري (كما تصنع القهوة هنا)، مزيجاً رقيقاً ـ لم نتمكن من شربه! عندما أشرقت الشمس تماماً، قال سالم أنه سيذهب الآن إلى حضرة الشريف؛ وتركني. سألت المضيفة الكبرى عن الشريف. فردت بقولها: «حسين رجل طيب، عاش في اسطنبول منذ شبابه، وهو الأفضل ثقافة من بين كل المثقفين هنا؛ مع أنه ليس تماماً مثل عبد الله (أخيه)، شريفنا المرحوم الذي توفي هذه السنة، تغمده الله برحمته! وهو ليس أبيض مثل عبد الله، لأن أمه كانت عبدة ـ كان يبدو أن اللون يغضبهن لأنهن كررن أمه كانت عبدة!، لكن حسين رجل طيب وعادل؛ إن له قلباً طيباً».

مرّت ساعات طويلة برفقة النساء المتنهدات (اللواتي هدهن الجوع)؛ اللواتي لكونهن ليس لديهن اهتمامات منزلية فقد كن مشغولات، حينما غفوت، بعملهن في غزل الصوف. كان الوقت يقترب من الظهيرة عندما دخل سالم. «أنباء جيدة يا عم خليل، قال: مولانا الشريف يرسلك للإقامة في بيت تركي! انهض! دعنا نمضي؛ لم يبق أمامنا سوى القليل لنقطعه».

أخرج الحقائب بنفسه، ووضعها على ناقتي الواهنة؛ وانطلقنا. من الأرض المرتفعة التالية رأيت الطائف! الجانب المظلم منها لأن كل أبنيتهم هي من الحجر ذي اللون الأردوازي. عند مدخل البلدة ينتصب القصر الأبيض للشريف، المكوّن من طابقين؛ وأمامه يوجد بناء جديد أعلى منه ذو شرفات شبكية، والسطح مليء بالمداخن، إنه قصر عبد الله باشا، شقيق حسين. في وسط البلدة يظهر بناء ضخم ومرتفع، مثل سجن؛ إنه مقر الجنود.

البلدة الآن أمام عيني! بعد حوالي سنتين من التجوال في الصحارى، كان منظراً رائعاً. على جانب الطريق رأيت رجالاً ينسفون الصخر (الغرانيتي) من أجل حجر البناء. موقع الطائف هو على تخوم السهب البركاني الذي سرت فوقه مؤخراً، على بعد مئة فرسخ من القصيم. شاهدت أيضاً مشهداً قاتماً وكثير الصخور، مع جبال منخفضة، خلف البلدة. انحدرنا مرة أخرى

إلى الطريق القادم من السيل، وعبرنا ذاك الغدير الفاتر؛ الذي يجري من تلك الجبال ذات الرياح الموسمية. وهو أحد الينابيع الغزيرة التي تروي هذه الواحة القديمة.

كانت حاملات الماء ـ ذاك المشهد المألوف من البلدات الشرقية! يصعدن مترنحات من الساقية، تحت أعبائهن الكبيرة من القِرب الجلدية المملوءة؛ ـ يوجد البعض مَن أكتافهن الجبارة التي يمكن أن تتحمل حمولة جمل! هنا قابلنا جندي تركي، بابتسامات فظة؛ وقال، إنه جاء ليقودني إلى البيت حيث سأقيم. كان الرجل، وهو سوري من الريف (التركي) حول انطاكية، الخادم العسكري لضابط الشريف، ذاك الرجل سوف يستقبلني في بيته بأمر الشريف.

حيث دخلنا تدعى البوابة، باب السيل؛ وفي الداخل يوجد المكان المفتوح أمام القصر المتواضع للشريف. الشوارع مشقوقة بطريقة بدائية، أما البيوت الأفضل حالاً فهي مطينة بالجص، ومظهر البلدة، التي لا تكون مسكونة بالكامل إلا في أشهر الصيف هو مظهر خرب. الطرق غير مرصوفة، ونرى هنا كلاب الشوارع من الأرياف التركية. كان خادم من طرف الشريف ينتظرني في الشارع، وقادني قدماً إلى بوابة بويب، طلب مني أن أترجل ـ وهنا، والحمد لله! طرد سالم. «سأجلب لك في الحال؛ قال الخادم المبتسم، سكيناً وشوكة؛ كذلك أمرني الشريف أن أسأل، إذا كنت تود أن تشرب قليلاً من الشاي والسكر؟». كانت هذه خواطر لطيفة جداً نابعة من الإنسانية المألوفة لأمير مكة!

ثم إن الناقة الواهنة، التي حملتني لأكثر من أربعمائة وخمسين ميلاً بلا توقف، تمّ اقتيادها إلى اسطبلات الشريف؛ وحُملت حقائبي إلى الطابق العلوي من البيت. كان المضيّف، الكولونيل محمد، بانتظاري عند النزول؛ فأدخلني إلى حجرته. كانت السترة ممزقة على ظهري، والعباءة عتيقة وبالية؛ كان الشعر نامياً إلى الأسفل تحت كوفيتي إلى الكتفين، واللحية سابلة وشعثاء؛

كانت عيناي محتقنتين بالدم، نصف عمياوين، وكان الجلد المسفوع مشققاً في الصميم على وجهي. أرسل في طلب حلّاق، وجهّز الحمّام. وبعد فنجان من الشاي، تكبد الكولونيل الطيب بعض المشقة لتحويلي إلى ما يشبه أهل المدن. في حين كان الحلاق يقوم بعمله، كان الموظف التركي القوي البنية يدهن وجهي بالمراهم المبردة؛ وكانت يداه لطيفتين مثل يدي امرأة لكنني لم أر فطوراً في تلك التكية! بعد ذلك لفني، وأنا على هذه الحالة من الإرهاق والوهن، بملابس عسكرية قطنية بيضاء مثل كتلة، ووضع على رأسي قلنسوة طربوش. في المساء، بعد وجبة تركية مع مضيفي، دخلت كوّات الشريف؛ اللواتي جلبن غيارات الثياب لأجلي - وعندما ألبسوني مثل شيخ عربي؛ قادني الكولونيل محمد من خلال الشارع شبه المعتم، إلى حضرة الشريف، كانت الطرق في هذه الساعة خالية.

كان يقف بعض حراس الباشا على درج القصر؛ فأدّوا لنا التحية عندما مررنا إلى ضابط الشريف. كان يقف حرس مسلحون آخرون عند رأس السلم. ثمة حجرة انتظار؛ فتركني مضيفي فيما تقدم إلى الشريف. لكنه رجع في الحال فأدخلني إلى قاعة المقابلات؛ حيث يجلس الشريف أمير مكة يومياً في ساعات محددة - في وقت إقامته الصيفية في الطائف - إلى حدٍّ كبير مثل شيخ عربي كبير بين المشايخ. هنا يجتمع كبار السن الوجهاء، والغرباء، ورجال قبيلته يومياً مع الشريف، لأن هذا هو المجلس، وبرلمان القهوة للأمير العربي؛ الذي يكون من السهل الوصول إليه ويكون ذا أخلاق شعبية، كما كان محمد نفسه.

كانت الحجرة الكبيرة خالية من الضيوف، وحده الشريف جلس هناك مع شقيقه الأصغر عبد الله باشا، رجل أبيض وقوي البنية مثل رجل تركي، ذا أخلاق عربية نبيلة. إن حسين باشا [الشريف يحمل هذا اللقب العثماني!] هو رجل ذو وجه دمث، مع خفة رزينة في العينين وتصرف إنساني؛ وهو يتكلم بصوت لطيف معتدل وبهيج: قد يبلغ من العمر خمسة وأربعين عاماً. بدا، عندما جلس،

شخصاً رجولياً طويل القامة ذا لون أسمر، وصدر كبير وأطراف كبيرة. كان الشريف متلفعاً على طريقة مواطني البلدات العثمانية، بجبة زرقاء طويلة من القماش الصوفي الباهت. جلس منتصباً على ديوانه، مثل أوروبي، بمحيا رزين هادئ؛ وكان يدخن التبغ في غليون مثل عجائز الأتراك. كانت القصعة الفخارية البسيطة موضوعة في صحن أمامه، ساق غليونه الياسميني الأبيض تقريباً بطول الرمح. تطلع إلى الأعلى بفرح، واستقبلني بجاذبية كريمة. وُضع كرسي لأجلي مقابل الشريف، ثم انسحب الكولونيل محمد، وجلب لي خادم فنجاناً من القهوة.

سأل الشريف بصوت هادئ، «هل شربت قهوة؟».

فقلت: «إننا نعتبر هذه القهوة التي تنمو في الجزيرة العربية هي الأفضل؛ ونعتقد أن نبات القهوة جلب إلى الجزيرة العربية من وراء البحر (الأحمر)».

«أي، أظن أنها جاءت من الحبشة، أليسوا شاربي قهوة كبار حيث كنت، في نجد؟».

عندئذٍ سألني الشريف عن العدوان على الزيما؛ والعدوان الجديد على السيل. قال: «كان ذلك كافياً ليجعل أي رجل خائفاً. [واحسرتاه! حسن نفسه سقط بعد ذلك بوقت قصير، بسكين قاتل - كان ذلك بعد السنة الثانية، في جدة، وبنفس الابتهاج الافتخاري ورباطة الجأش اللذين عاش بهما، لفظ روحه البريئة؛ بين ذراعي أحد أبناء بلدنا، الدكتور غريغوري وورتابت، الذي كان آنئذٍ مسؤول الصحة المقيم لأجل البحر الأحمر]. لكنك ها قد وصلتَ، أضاف بلطف؛ والمخاطرة (لرحلتك الطويلة) قد انقضت. خذ راحتك في الطائف، وعندما تكون قد جددت قواك سأرسلك إلى القنصل الإنكليزي في جدة». سأل: «هل فكرت سابقاً بزيارة الطائف؟ - كان من الأفضل، أضاف - لو أتيت إلى هنا في البداية من السيل؛ ولكان قد أرسلني إلى جدة». أضاف الشريف الطيب: «وليست هذه هي المرة الوحيدة التي كان فيها أوروبيون هنا؛

لأنه ـ أظن أن ذلك كان في العام الفائت ـ جاء واحد مع قنصل هولندا، لزيارة نقش قرب السيل ـ سأعطي أمراً بأن يسمح لك برؤية ذلك، عندما تعود».

أجبت: «كنت أعرف عن شخص [هو بروكهاردت] جاء إلى هنا في زمن الحرب المصرية، نظر الشريف إلي بذهول ودودا! [من أين؛ تساءل، كانت لي هذه المعرفة بشؤونهم الداخلية؟] إن شريف مكة الماكر آنئذٍ، الذي ضُلله وأعدمه الثعلب الألباني العجوز محمد علي، قد يكون العم الأكبر لهذا الأمير الفاضل.

«وكيف ـ سأل ـ كنت قادراً على العيش مع البدو وأن تتحمل نظامهم الغذائي؟ وهل وجدت البدو كما يقال عنهم [في حكايات المدن]، أم أنهم دون الرأي الشعبي [بشهامتهم]؟ ـ هل ساعدت في السقي؟ هل سحبت الدلاء يداً فوق يد. هكذا؟ وبالمرح الصاخب العربي وضع الشريف الطيب جانباً قصبة غليونه؛ ورسم بنفسه إيماءات السقائين البدو! (التي شاهدها في حملة حج). لا يوجد كما أظن أمير عربي طبيعي ـ إلا إذا كان وهابياً نكداً ـ لا يمكن أن يكون قد فعل مثل ذلك؛ فهم جميعاً رجال دمثون».

«لم أكن أمتلك القوة لأرفع [الماء] معهم».

فأجاب، بنظرة لطف إنساني، «أي، لقد عانيت الكثير!».

ثم استفسر عن رحلتي؛ وأجبت عن مدائن صالح وتيماء، وحائل؛ دُهش كثيراً لدى سماعه أنني قد أمضيت شهراً، كان زمنا طويلاً من تسامح الطاغية، في بلدة ابن رشيد. سألني عن محمد بن رشيد، هل كنت أراه رجلاً طيباً؟ بصراحة إن الشريف بغض النظر عن الهدايا السنوية التي يتلقاها من هناك، لم يكن رأيه به هكذا، وعندما أجبت قليلاً إلى جانب توقعه، «إنه رجل فاضل» لم يقتنع حسين.

ثم تكلمنا عن عنيزة؛ واستفسر الشريف عن زامل، هل هو رجل طيب؟

وأخيراً سأل، إذا كانت الملابس [هبته الأميرية] التي كنت متلفعاً بها أمامه، تسرني؟. وهل أظهر لي مضيفي (الذي كان يبدو أنه لا يثق به) ضيافة مقبولة؟

مرّت أكثر من ساعة؛ عندئذٍ تقدم الكولونيل محمد، الذي كان ينتظر في الخارج؛ فنهضت لأستأذن. تكلم الشريف إلى مضيفي، من أجلي؛ وخصوصاً أنني يجب أن أسير بحرية في الطائف، وخارج الأسوار؛ وأزور كل من أشاء. قبّل الكولونيل محمد اليد المبجلة للشريف، وانصرفنا .....

دخل الكولونيل محمد ـ ثم دخل سالم الذي كان الشريف قد أمره بإعادة كل ما سلبه مني هو وحليفه. أحضر اللص التعيس المسدس (المكسور الآن) وقياس الارتفاع والريالات الأربعة ـ التي اعترف بأنه سرقها بنفسه من حقائبي. عندها قال: «سامحني، يا خليل! وآه، تذكر الزاد (الطعام) والملح الذي بيننا».

«ولماذا لم تتذكرهما في السيل، عندما أخذت السكين، للمرة الثانية، لتقتلني؟».

قال الكولونيل محمد: «خليل يتكلم بإنصاف؛ لماذا لم تتذكر عندئذٍ الخبز والملح؟».

«أنا مذنب، وآمل أن يعفو الشريف عن ذلك؛ وألّا تكون أنت ضدي يا خليل!».

سألت عن الجزدان [محفظة النقود] والأشياء الصغيرة الأخرى. لكن سالم أنكر أن لديه أي شيء آخر. طرده الكولونيل محمد خارجاً وأمره بإحضارها فوراً. «الملعون! قال مضيفي، عندما انصرف، كان الشريف مصمماً بعد رحيلك على وضعه في السجن، بالإضافة إلى الرجل الآخر الذي ضربك. سوف يعاقبهما بشدة، لكن ليس الآن، لأن أقاربهما يمكن أن يضايقوك عندما تذهب إلى جدة. وكتب الشريف أمراً سيعمم على كل القبائل والقرى الواقعة ضمن سلطته. إنه في المستقبل، إذا وصل أي غريب بينهم، عليهم أن يرسلوه

بأمان إلى الشريف، لأن من يدري إذا لم يصادف وجود أوروبي ما في وقت آخر يمرّ عبر بلاد الشريف؛ ويمكن أن يُعامل معاملة سيئة من قبل الناس الجاهلين. كذلك فإن الشريف لم يكن يود أن يخلق أي مشاكل مع حكوماتهم».

(من الطائف سافر داوتي بحراسة ثلاثة رجال إلى جدة، حيث أنهى تجوالاته في العربية الصحراوية).

(النهاية)

الفهارس

فهرس الأعلام
فهرس الأماكن
فهرس القبائل

فهرس الأعلام

أ

إبراهيم القاضي: 281.
إبـراهـيـم بـاشـا: 352، 356، 360، 362، 365، 366، 367، 382، 383، 384، 385، 386.
ابراهيم (ع): 143.
ابن بسام: 360، 362، 363، 368.
ابن جازي: 145.
ابن جازي: 26.
ابـن رشـيـد: 59، 102، 119، 185، 189، 209، 214، 221، 224، 225، 230، 231، 232، 233، 234، 245، 248، 249، 250، 263، 272، 277، 286، 305، 318، 340، 341، 392.
ابن شعلان: 225.
ابن عبيد: 197، 206، 215، 237.
ابن عجوين: 254، 255.
ابن علي: 228.
ابن مرتاد: 163.
أبو سنون المغربي: 96.
أحمد بن حانوتي كردي: 280، 281.
الأخنس بن شهاب التغلبي: 237.
اسحاق: 85.
إسماعيل بن حاجر: 34.
أم سليم: 91.
أم محمد: 228.
الأمير الأعرج: 301، 316.
إياد: 289، 292، 294، 296، 299، 300.

ب

بروكهاردت: 392.
بليهان بن معرب: 148.
بـــنـــدر: 225، 226، 227، 228، 230.
بولس: 17.

ت

تيمورلنك: 200.

ج

جبر: 228.

جبير: 310، 313، 314، 315، 316.

ح

حائل بن دونا: 62.

الحاج حسن: 42، 43.

الحاج نجم: 42، 43.

حامد: 302.

حسين باشا: 377، 378، 380، 388.

حطان بن عوف: 237.

حمدان: 285.

حمود: 191، 196، 197، 198، 199، 200، 202، 206، 207، 208، 210، 215، 216، 221، 222، 223، 226، 227، 230، 237، 238، 239، 240، 241، 242.

الحميدي العطري: 191.

حيزان: 166.

خ

خليل آغا: 40.

د

داوتي: 9، 10، 27.

ر

ربقة: 85.

ز

زامل: 337، 338، 339، 340، 341، 346، 392.

س

سالم: 274.

السبيعي: 148.

سرور: 274، 275، 276، 277، 279.

سطام: 77.

سعود الوهابي: 337.

سعود بن سعود: 326.

سليم بن زيد: 72.

سليمان الخنيني: 345، 349، 351، 354، 355، 356، 357، 361، 362، 363، 364، 366.

سليمان: 117.

سليمان: 198، 206، 215، 216، 219، 241.

ش

الشريف سالم: 369، 370، 371، 372، 373، 375، 376، 377، 378، 379، 380، 381، 383، 384، 385، 386، 387، 388، 389.

شعيب: 45.

شفيق حسن (الأمير): 304.

الشيخ زيد: 53، 54، 55، 56، 58، 59، 66، 67، 68، 69، 71، 72، 73، 76، 77، 79، 85، 86، 87، 88، 89، 90، 91، 93، 97، 105، 106، 108، 116، 117، 118، 120، 123، 124، 125، 126، 131، 145، 147، 158، 159، 160، 161، 239.

الشيخ مشعل: 162، 163، 164، 166.

الشيخ مطلق: 41، 47، 73، 86، 104، 105، 145، 231.

ص

صالح: 251، 252، 253، 254، 276، 277، 287، 326.

ط

طلال: 191، 206، 225، 228، 230.

ع

عاتق بن غيث البلادي: 124.
عبد الرحمن: 344، 349، 361، 362، 365، 367.
عبد العزيز: 185، 186، 200.
عبد القادر الجزائري: 14، 42.
عبد القادر: . 44
محمد سعيد: 45، 47، 66.
عبد الله البسام: 331، 347، 356.
عبد الله الخنيني: 347، 348، 349، 357.
عبد الله السيروان: 273، 276، 277، 278، 279، 280، 281، 283.
عبد الله العلي: 334، 336.
عبد الله الكنيني: 325.
عبد الله المسلماني: 204.
عبد الله باشا: 388.
عبد الله بن رشيد: 188، 206، 207.
عبد الله بن فيصل: 226، 227، 326.

عبد الهادي: 269، 271، 273، 274، 275، 276، 278.
عبيد بن رشيد: 185، 197، 205، 219، 221، 231.
علي (ع): 272.
علي السويسي: 116.
علي الوهابي: 332، 333، 334، 335، 338.
علي: 216.
عليا: 123.
عيسى(راعي): 158، 159.
عيسى(ع): 192، 382، 383.

غ

غانم: 203، 210.
غبنة: 91.
غريغوري: 391.
غنيم: 203.

ف

فاطمة(ع): 272.
فرانكلين: 317.
فهد: 197، 338.

ق

قاسم بن براك: 245، 248، 249، 250، 251، 252، 253.
القشيري: 342.
القلعجي: 40.

ل

لورنس: 9.

م

ماجد شبر: 41، 104، 190، 253.
ماكس اوبنهايم: 115، 190، 253.
مبارك: 238، 239، 340، 341، 342، 243، 244.
متعب: 225، 226، 227، 228.
محبوب(خادم): 376، 369، 370، 371، 375، 379، 380، 384.
محمد آغا: 17، 19.
محمد النجومي: 270، 279، 280، 281، 284، 288، 290.
محمد بن رشيد: 92.
محمد بن عبد الله بن رشيد: 188، 189، 190، 191، 192، 193، 194، 196، 201، 202، 203، 214، 215، 220، 221، 223، 226، 227، 228، 229، 230، 232، 242، 243، 244، 392.
محمد بن عبد الوهاب: 253.
محمد سعيد: 14.
محمد علي القلعجي: 40، 41، 42،

43، 44، 47، 48، 49، 50،
51، 53، 56، 59، 64، 65.
محمد علي: 325.
محمد(ص): 40، 45، 50، 52، 62،
94، 199، 267، 323، 387.
مرحب: 272.
مريم (ع): 192، 382.
موسى بن جهينة: 124.
موسى (ع): 40، 45، 136، 222،
323.
موسى (ع): 83.

ن

نصر: 178، 180، 181، 182،
183، 184، 186، 188، 192،
205.
النصراني: 336.

هـ

هرفة: 85، 86، 87، 88، 89، 90،
106، 118.
هنري ووتن: 13.

و

ورتابت: 391.

ي

يوسف: 137.

فهرس الأماكن

آ

آدوم (جبل): 17، 26، 27.

آسيا الصغرى: 15، 49.

أ

أبانات: 353.

أبو مغير (تل): 163.

الأثلة: 342.

الأردن: 14، 16، 45، 252.

إسرائيل: 192.

اسطنبول: 64، 202، 387، 388.

افريقيا: 136.

أم أركاب: 217.

أم تيه: 353.

امريكا: 197.

أمستردام: 205.

انكلترا: 35.

أورشليم: 54، 93.

اوروبا: 10، 26، 135، 198، 323، 327.

ب

بئر جليب: 354.

بادية الشام: 252.

باريس: 197.

البتراء: 17، 26، 27، 40، 58.

البحر الأحمر: 164.

البحر الأحمر: 295.

البحر الميت: 26.

براغة(براجة): 41.

برج سليمان: 67، 68، 70، 116.

بركة معدم: 73.

بـريـدة: 234، 301، 302، 304، 314، 317، 320، 321، 324، 334، 338.

بريطانيا: 9.

البصرة: 238، 325.

بطن الغول: 31.

بغداد: 16، 24، 26، 177، 191،

193، 202، 204، 224، 226، 232، 237، 372.
بقيلة: 110.
البكيرية: 301.
بوابة الله: 17، 37.
بورمات برما: 26.
بوغاز: 41.
بومباي: 326.
بير الجيزة: 127، 128.
بير الغانم: 54.
بيروت: 177.
بيسان: 279.

ت

تبوك: 44، 121، 258.
تدمر: 164، 284.
تشيياء: 123.
تل البركان: 148.
تونس: 43.
تيد: 149.
تيماء: 67، 116، 117، 119، 120، 122، 146، 158، 159، 160، 161، 163، 164، 171، 172، 175، 189، 205، 231، 232، 297، 387، 392.

ث

ثيرية: 154.

ج

جاوة: 360.
جبال الالب: 136.
جبال طويق: 238.
جبل أجأ: 182، 183، 217، 218، 247، 294.
جبل الأحمر: 353.
جبل الأسمر: 353.
جبل الاسود: 353.
جبل الرس: 338، 339، 351، 352، 353.
جبل الطور: 222.
جبل العويري: 149، 153، 238.
جبل الغنيم: 117، 161.
جبل أنان: 123.
جبل ايبران: 171.
جبل إيجا: 171.
جبل بيرد: 121، 162.
جبل تالي: 175.
جبل تهامة: 149، 151.
جبل خزاز: 339.
جبل ساق: 338.
جبل سلمى: 182، 218، 301.
جبل طارق: 44.

جبل عرنان: 163، 164.
جبل عطوى: 264.
جبل فتيج: 218.
جبل مشمر: 232.
جـــدة: 290، 315، 331، 332، 345، 347، 349، 359، 360، 361، 363، 364، 368، 369، 381، 391، 394.
جردانية: 27.
جريدة: 116.
الجزائر: 44.
الجزيرة العربية: 9، 10، 14، 19، 20، 28، 30، 34، 35، 37، 42، 57، 61، 64، 92، 97، 98، 106، 110، 114، 118، 123، 125، 127، 138، 151، 157، 163، 172، 174، 176، 177، 179، 183، 185، 198، 212، 239، 244، 250، 258، 259، 260، 262، 267، 281، 295، 309، 325، 329، 334، 345، 358، 359، 373، 382، 383، 386، 391.
الجوف: 232، 234.

ح

حائل: 57، 67، 122، 145، 165، 170، 171، 172، 173، 176، 177، 178، 181، 182، 183، 184، 185، 186، 194، 198، 202، 203، 206، 208، 209، 211، 212، 213، 215، 217، 218، 219، 221، 224، 225، 226، 227، 228، 229، 230، 232، 234، 235، 237، 245، 246، 267، 276، 287، 296، 305، 382، 392.
الحبشة: 391.
الـحـجـاز: 86، 124، 269، 279، 281، 289.
الحجر: 54، 58، 61، 185، 189.
حجرا الكرا: 149.
حجيرات: 86، 100، 116.
حراء: 149.
حرات الابيض: 264.
حرات الاثنان: 262.
حرات العويري: 259.
حرات خيبر: 162، 238.
حراسة مهدم: 26.
الحرة البيضا: 288، 289.
الـحـرة: 150، 151، 211، 259، 260، 264، 266، 293.
حرمون: 18، 20.
الحسا: 325.

حـسما(جبال): 31.
حلايمة: 116.
حلب: 16.
حلوان: 127.
حوران: 18، 193، 203.
حولة: 149.
حي الميدان: 15، 17.
الحياة: 232.
حيدية(هديه): 41.

خ

الخبرا: 333، 335، 336، 352.
الخرام: 164، 166، 171، 176.
الخريماء: 218.
خيبر: 67، 121، 122، 247، 238، 239، 245، 249، 250، 255، 256، 257، 258، 263، 264، 265، 267، 269، 270، 275، 279، 280، 281، 283، 284، 286، 291، 305، 348.
الخيرا: 234.

د

دار الحمراء: 36، 122.
دبيات الشام: 31.
دخنة: 343.
درب زلاج: 164.
دلهي: 359.
الدليمية: 338.
دمشق: 13، 14، 15، 16، 17، 31، 37، 38، 39، 42، 43، 46، 53، 56، 64، 67، 108، 170، 180، 193، 274، 315، 372، 386.
ديرة العواجي: 172.
ديرة: 164.

ر

رأس النبع: 45.
الرافية: 352.
الرس: 234، 351.
الروضة: 232.
الرويضة: 352.
الرياض: 57، 224، 226، 238.
ربع السلف: 179، 180.

ز

الزبير: 238.
زمرد(قلعة): 41.

س

ساورا (سورا): 41.
سدوس: 311.
سدوم: 40.

سعير(جبل): 25.
سكاكا: 232، 234.
سلمين: 18.
سمرا حائل: 181، 217.
سميرا: 57.
سهل غفار: 181.
سوجوا(سجوة): 41.
السودان: 280.
سوريا: 10، 13، 14، 20، 30، 43، 45، 53، 114، 136، 138، 148، 180، 189، 234، 277، 291، 371.
سيناء: 31، 128، 138، 294.

ش

الشام: 30، 41، 110، 113، 170، 263.
شبه الجزيرة العربية: 10، 14، 34، 113.
الشراة(جبل): 25، 30، 234.
شرم الشيخ: 31.
الشطب: 262، 263.
الشمبل: 164.
الشنانة: 352.
شوك العجوز: 66.

ص

الصالحية: 13، 17.
الصحراء الجزائرية: 175.
الصحراء العربية: 9، 10، 35.
الصحين: 276.
الصهباء= جبل عطوى

ض

ضرف اللدراويش: 26.

ط

الطائف: 358، 360، 363، 365، 367، 370، 371، 372، 379، 384، 386، 391، 394.
طور البحرية: 128.
عالي: 232.

ع

عباسية: 166.
العراق: 113، 164، 170، 188، 252، 263، 301.
العربة: 161.
عشيرة: 358.
العقبة: 30، 31.
عكاظ: 383.
العلا: 41، 42، 59، 64، 171، 272.

عُمان: 350.
عَمان: 350.
عمورة: 40.
عناز: 149، 150.
العترية: 72.
عـنـيـزة: 186، 235، 301، 302، 311، 315، 317، 318، 319، 320، 321، 324، 325، 327، 329، 333، 335، 336، 337، 338، 339، 344، 348، 350، 351، 353، 355، 357، 364، 392.
عيسو(جبل): 25، 26.
عين الزيمة: 347، 365، 377.
العيون: 234، 338، 360.
عيونات البدن: 41.

غ

غمرا: 264.
غمول المسوية: 122.
الغوطة: 161.
غيدوم: 28.

ف

فاس: 42.
فلسطين: 10، 45، 252.
فيض: 232.
فيينا: 177.

ق

القدس: 222.
القسطنطينية: 65.
قصر البنت: 57.
القصر: 232، 247.
قـصـيـم: 186، 211، 230، 234، 235، 238، 273، 301، 302، 348، 352، 388.
قصيمة: 17، 18.
القفار: 220، 232، 247، 384.
قلعات العنزي: 26.
القوقاز: 45.

ك

كامبردج: 10.
كشب: 358.

ل

لبنان: 252.
لندن: 155.

م

مبرك الناقة: 54.
مـدائـن صـالـح: 13، 14، 15، 17، 24، 38، 40، 49، 54، 60،

المدينة (continued): 64، 66، 117، 121، 165، 189، 266، 392.

المدورة (قلعة): 45، 49.

مدين= الحجر

المدينة المنورة: 17، 39، 41، 50، 51، 64، 67، 81، 83، 125، 209، 212، 245، 262، 270، 273، 279، 286، 289، 293، 310، 344، 345، 358.

مراكش: 42.

مزيريب (بحيرة): 15، 16، 17، 18، 19، 20.

المستجدة: 232.

مسكين: 18.

مصر: 43، 136، 170، 291، 359.

مضيرة: 110.

معان: 17، 27، 28، 30، 43، 45، 49، 145.

المغرب: 43.

مكة: 17، 19، 32، 41، 43، 50، 52، 64، 218، 226، 258، 279، 281، 295، 310، 330، 344، 345، 360، 361، 362، 363، 376، 378، 381، 387، 390، 392.

المملكة العربية السعودية: 353.

منطار: 116.

المنيف: 217.

مهاي: 116.

الموقق: 232، 247.

ميسمة: 166، 167، 168، 169، 171.

ن

نجد الأوسط: 252، 329.

نجد: 21، 110، 115، 118، 123، 179، 212، 214، 215، 218، 224، 245، 295، 358.

النفود: 35.

نهر التيمس: 155.

نهرية: 38.

النيل: 43.

هـ

هرات: 358.

الهلالية: 333.

الهند: 204، 359.

هولندا: 10، 392.

و

الواحات: 35، 98، 232.

وادي الحمش: 264.

وادي الخفوضة: 264.

وادي الـــرمـــة: 238، 252، 289، 302، 311، 339، 350، 352.
وادي السيل: 363.
وادي العقيق: 358.
وادي الفرات: 238.
وادي جلاس: 267.
وادي سرحان: 234، 297.
وادي ظربية: 284.
وادي عزيز: 358.
وادي علي: 271.
وادي فاطمة: 361.
وادي ليمون: 349.
وادي مخيات: 293.
واسط: 218.

ي

يامغريد: 123، 128.
يثرب: 17.
اليمن: 64، 114، 322، 339.

فهرس القبائل

آ

الآسيويون: 222.
آل سعود: 226.
آل عبدة: 191.
آل غدران: 17.

أ

الأتراك: 13، 44، 52، 200، 322، 376، 384.
الأجيلة: 232.
الأحرار: 214.
الأوروبيون: 65.
الأسباط: 137.
الاسطنبوليون: 44.
الاسماعيلية: 34.
الألبان: 273.
الانكليز: 44، 55، 65.

ب

البجايدة: 250.
البدو الجنوبيون: 133، 140، 169.
بدو الشرق: 20.
البدو: 16، 21، 25، 26، 27، 28، 29، 30، 34، 38، 39، 41، 42، 49، 51، 52، 57، 69، 75، 76، 84، 87، 90، 93، 95، 98، 101، 106، 107، 112، 113، 116، 120، 123، 124، 134، 135، 137، 165، 168، 169، 175، 181، 183، 187، 189، 190، 195، 201، 205، 208، 209، 210، 212، 213، 214، 215، 216، 223، 226، 231، 233، 235، 243، 252، 265، 290، 291، 324، 344، 350.
البربر: 43.
البشر: 85، 87، 122، 125، 161، 169، 170، 177، 180، 251، 259، 265، 290، 266، 301.